AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

تجليد صالح الدهر
تلفون ٢٢٩٧٧

لجنة التأليف والترجمة والنشر

822.33
S527ԼeA

قصص من شيكسبير

كتبها

تشارلس لام ، ميرى لام

وترجمها

محمد بدران

مدير إدارة الترجمة بوزارة المعارف

وصدرها بمقدمة فى شيكسبير وشعره

67738

عيون الأدب الغربي

العدد الحادى عشر

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٤٣

بعد انتقال غابة برنم إلى دنسنين
مكبث ومكدف يقتتلان

King Henry VI = Ki

Julius = Ju

T
mi
w
mu
as
Tw
me
C
k
Ma
al

Co
mea
Twe
Ti
R:
Ha
a
p
s

الفهرس

صفحة

مقدمة الترجمة : شيكسپير وشعره ... ١

تمهيد ... ١

العاصفة ... ٤

حلم ليلة فى منتصف الصيف ... ١٦

قصة الشتاء ... ٢٨

جعجعة بلا طحن ... ٤٠

كما تحب ... ٥٣

سيدان من أهل فيرونا ... ٦٩

تاجر البندقية ... ٨٢

سمبلين ... ٩٥

الملك لير ... ١٠٩

مكبث ... ١٢٣

إن الأمور بخواتيمها ... ١٣٤

تذليل السليطة ... ١٤٦

ملهاة الأخطاء ... ١٥٧

دقة بدقة ... ١٧١

الليلة الثانية عشرة ... ١٨٦

تيمن الأثيني ... ٢٠١

روميو وجليت ... ٢١٤

هملت أمير دنمرك ... ٢٣١

عطيل ... ٢٤٦

پركليز أمير صور ... ٢٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الترجمة

شيكسبير وشعره

حياة شيكسبير

فى الثالث والعشرين من شهر إبريل من عام ١٥٦٤ كان طفل ينام فى مهد من الخشب ، فى بيت ليس بالعظيم ولا بالحقير ، فى مدينة استرتفرد ـ على ـ الإيفن Stratford-on-Avon. وما من شك فى أن أباه وأمه كانا يظنانه طفلا مدهشا ، وما من شك أيضا فى أن منشأ هذا الظن أنهما أبواه ، أما الجيران والأصحاب الذين جاءوا ليهنئوا بهذا المولود الجديد فلم يروه يفترق فى شىء عن سائر الأطفال . على أنه مهما يكن من إعجاب الأبوين بطفلهما ، فلو أنهما قد نبئا فى ذلك الوقت أن وليم William الصغير سيذكر اسمه بالإجلال ما بقيت اللغة الإنجليزية ينطق بها إنسان ، وأن مسرحياته ستقرأ وتمثل فى بلاد العالم كله ، لو أنهما قد نبئا ذلك لما كان أحد أكثر منهما دهشة .

ولما بلغ وليم الخامسة من عمره كان له إخوة يلعبون معه ، وجاءت فى هذا الوقت فرقتان متنقلتان من الممثلين إلى مدينة استرتفرد ، وأذن لهما أبوه — وكان رئيس البلدية — بتمثيل بعض المسرحيات فى بلده ؛ وكانت إحدى الفرقتين مشمولة برعاية الملكة اليصابات وتسمى « خدم الملكة » ، والأخرى مشمولة برعاية أحد النبلاء الإنجليز . وأكبر الظن أن الممثلين جاءوا إلى بيت شيكسبير ليرتبوا فيه أعمالهم ، ولعل وليم قد أُخِذ مع أجد أبويه ليشاهد التمثيل ، نقول لعل وأكبر الظن لأن ما نعرفه عن حياة وليم شيكسبير جد ضئيل ، ولأن معظمه مستمد من إشارات غامضة يلقيها عرضا بين ثنايا السطور فى رواياته .

ولا بد أن وليم قد ذهب إلى مدرسة بلده كما يذهب سائر الأطفال ، وتعلم فيها القراءة والكتابة وقليلا من اللغتين اللاتينية واليونانية ، فاستطاع بذلك أن يقرأ بعض الكتب اللاتينية لشعراء النهضة بلغتها الأصلية ، وأن يقرأ أيضا بعضها مترجما فى الكتب التى كان يعيره إياها مدرسوه حين رأوا أنه يعنى بقراءتها أكثر من غيره من التلاميذ .

وكان فى ساعات فراغه وفى أيام العطلة المدرسية يسير فى المزارع والغابات حول مدينة استرتفرد ، يشاهد الأزهار والطير والحيوان التى ذكر عنها فى رواياته الشىء الكثير ، مستمدا بعضه من مشاهداته وكثيرا منه من الخرافات والأوهام التى كان يسمعها من عامة الشعب ويزين بها هذه الروايات على أنها حقائق لا يتطرق إليها الشك ، لأن معرفته بعلم الأحياء كانت جد ضئيلة .

ولم يكن وليم يقضى كل فراغه وحده بين المزارع والغابات ، فقد كان يغشى المجتمعات فى بلده ، ويشاهد القصص التى تمثل فى أيام الأسواق ، ويصغى إلى أحاديث الناس ويتحدث إليهم ، ويستمع إلى ما يقصه كبير من أهل القرية عن الأعوام الماضية وعن حوادث حرب الوردتين . ومرت الأيام والسنون وتورط أبوه فى الدَّين ، واضطرته أحواله إلى منع ولده وهو فى الثالثة عشرة من عمره عن إتمام تعليمه المدرسى ليعينه على كسب معاشه .

ولسنا نعلم شيئا عن حياة شيكسبير فى الخمس السنين التالية ، ولكننا نراه فى الثامنة عشرة من عمره ، أى فى عام ١٥٨٢ ، رجلا متزوجا بآن هثواى Anne Hathaway التى كانت تكبره بثمان سنين ، ويلوح أنه لم يكن موفقا فى هذا الزواج ، ولكن ثمرته كانت بنتين وولدا . وبعد ثلاث سنين من زواجه غادر موطنه وسافر إلى لندن ليبحث فيها عن عمل ، ولعل سفره من استرتفرد كان عقب متاعب نشأت له من جراء سرقة بعض الغزلان من مراعى أحد النبلاء . واشتغل فى لندن بالتمثيل ، ثم أصبح شريكا فى عدد من دوره . وفى عام ١٥٩٤ نشر أول أعماله وهو قصيدة « الزُّهَرَه وأدنيس Venus and Adonis » ، وكان قبل ذلك قد اقتبس بعض مسرحيات من روايات قديمة وأنشأ مسرحيات أخرى جديدة ، أدرت عليه المال

وقربته من الملكة اليصابات ثم من چيمس الأول ، وجعلته صديقا لكثير من أدباء العصر وعظمائه . وفى عام ١٥٩٧ اشترى بيتا وأرضا فى استرتفرد ، وذاعت شهرته وأقر له مواطنوه بأنه أعظم من كتب المآسى والملاهى من الإنجليز. وفى أواخر حكم اليصابات عانى شيكسپير بعض المتاعب الخاصة ، منها موت ولده الوحيد ، وموت أبيه ، وسقوط صديقه ونصيره إرل سوثمپتن Earl of Southampton . وكان هذا هو الوقت الذى كتب فيه مآسيه الأخيرة . وعاد شيكسپير إلى مسقط رأسه بعد جلوس چيمس الأول على عرش إنجلترا فى عام ١٦٠٣ ، وعاش هناك فى هدوء حتى وافاه أجله فى عام ١٦١٦ .

مسرحيات شيكسبير

لسنا نعرف بالضبط متى كتب شيكسپير كل رواية من رواياته ، ذلك أنه هو نفسه لم ينشرها ، وأن طبعتها الأولى لم تصدر إلا بعد سبع سنين من وفاته ، لكن السنين العشرين التى كتب فيها هذه الروايات يمكن أن تقسم أربعة أقسام لكل قسم منها صفاته الخاصة :

فالقسم الأول يشمل الفترة الواقعة بين سنتى ١٥٩٠ ، ١٥٩٦ وهو دور التجارب ، وأهم ما كتب فيه من الروايات التى تشملها المجموعة التى بين أيدينا هى رواية « حلم ليلة فى منتصف الصيف » ورواية « رميو وچليت » ومن الروايات التاريخية رواية هنرى السادس بأجزائها الثلاثة ورواية رتشرد الثالث .

ويشمل الدور الثانى الفترة الواقعة بين ١٥٩٦ ، ١٦٠١ ، وهو دور الروايات التاريخية وملاهى الحب المسلية . ومما كتب فى هذا الدور من الروايات التاريخيه رتشرد الثانى وهنرى الرابع وهنرى الخامس ، ومن الملاهى رواية تاجر البندقية وهى أنضج وأرقى من الملاهى التى كتبت قبلها ، وتدل على براعة فى تصوير الأشخاص ، كما يتبين القارئ من صورة شيلك وصورة پورشيا ، ومنها أيضا ملهاة « الليلة الثانية عشرة » .

ويشمل الدور الثالث ما بين سنتى ١٦٠١ ، ١٦٠٨ وهو دور الملاهى الجدية والمآسى العظمى . وفيه كتب ملهاة «إن الأمور بخواتيمها» ومآسى يليوس قيصر

وهملت وعطيل ومكبث والملك لير وكريلينس Coriolanus ، وتدل كلها على تفكير ناضج ودراسة عميقة لأخلاق الناس .

ويقع الدور الرابع والأخير بين عامى ١٦٠٨ ، ١٦١٢ ، وهو دور روايات الحب الهادئة الرزينة ، وقد كتب فيه رواية العاصفة وقصة الشتاء .

شعر شيكسپير

ولشيكسپير غير الروايات قصيدة الزهرة وأدنيس Venus and Adonis وقصيدة Lucrece ، وهما جياشتان بالعاطفة ، وفيهما قطع وصفية جميلة فى الحب والصيد وغيرهما .

وله فوق ذلك عده أغان يبلغ عددها مائة وأربعا وخمسين أغنية ، نشرت فى مجموعة واحدة حوالى عام ١٦٠٩ ، وأكبر الظن أنها تصف أحوال الشاعر نفسه وكلها قوية العاطفة رائعة الجمال .

عظمة شيكسپير

تلك كلمة صغيرة عن حياة شيكسپير تكاد تشمل كل ما يعرفه العالم عنه . أما عبقريته فقد أقر بها العالم كله وأقر بها مواطنوه فى أيام حياته ، فهو من العبقريين الأفذاذ الذين لا يختص بهم عصر واحد ، بل هو رجل جميع العصور على السواء . وترجع عظمته إلى عدة أسباب أهمها : جمال شعره القوى الذى يلائم العصور جميعها والناس على اختلاف أنواعهم ، وفكاهته العذبة ، وخياله الواسع الذى جعل من شخصيات رواياته الخيالية رجالا ونساء حقيقيين ، وبراعته فى وصف المآسى براعة لا يضارعه فيها إلا كبار الروائيين اليونانيين الأقدمين ، وعطفه على الإنسانية فى جميع أشكالها ودرجاتها ، ونقائصها وفضائلها ، لا يأخذ الناس بجريرة ارتكبوها أو خطأ وقعوا فيه ، وحرصه على معرفة أسباب فضائلهم ورذائلهم على السواء .

روايات شيكسپير

وقد يسأل الإنسان عن المصادر التى استمد منها شيكسپير قصصه وأشخاص رواياته . ومن حسن الحظ أن هذه المصادر قد عرفت كلها ودرست ، وأن فى وسعنا أن نذكر عددا كبيرا من الكتب التى قرأها أو رجع إليها . ويجدر بنا أن نقول من بادئ الأمر إن شيكسپير كان قارئا نهما ، وإن لم يكن عميق الدرس لما يقرأ . وقد قرأ فى مدرسة

استرتفرد لكثير من شعراء النهضة اللاتينيين ، لأنه هو نفسه كان وليد النهضة ، ولما ذهب إلى لندن قرأ كثيرا من الكتب التى ظهرت فى عصره ، ومنها التراجم الإنجليزية للكتب اللاتينية واليونانية القديمة ، والقصائد والروايات والقصص التى كتبها خريجو الجامعات الإنجليزية وغيرهم من معاصريه . وفى وسعنا أن نتبين القصص التى استمد منها بعض رواياته فى كتابات هؤلاء المعاصرين «فقصة الشتاء» و « حلم ليلة فى منتصف الصيف » و « كما تحب » وأجزاء كثيرة من الروايات الأخرى وعبارتها مأخوذة من هؤلاء المعاصرين ، وقرأ شيكسبير الترجمة الإنجليزية لكتاب «التراجم» تأليف پلوتارخوس Plutarch ، وقرأ كذلك التراجم الإنجليزية لقصص الكتاب الإيطاليين ، وأخذ عن المؤرخين الإنجليز قصص الملك لير ومكبث وسمبلين .

على أن شيكسپير لم يكن يتقيد كثيرا بالمادة التى يقرأها ، فقد كان يعمل فيها فكره وخياله ، ويغير فيها ما يشاء ، فيضيف إليها من عنده ما يلائم غرضه ، ويحذف مالا يلائمه ، ويخلق فيها شخصيات جديدة من خياله ، ويبدل الحوادث نفسها فيحيي من الأشخاص من يشاء ويميت من يشاء ، سواء وافق ذلك الأصل الذى استمد منه أو لم يوافقه . وهو يجعل من القصة ملهاة أو مأساة حسب ما يلائم غرضه ومزاجه فى الوقت الذى كان يكتب فيه . لكنه اضطر أن يكون قريبا جدا من الأصل فى الروايات التى تبحث فى تاريخ إنجلترا ، وكان من حسن حظه أنه استمد هذه القصص التاريخية من مصدر تاريخى فى ظاهره لكنه روائى بطبيعته ، وهو أخبار هلنشد The Chronicles of Holinshed ، ولذلك تراه فى هذه الروايات ، أو فى الكثير منها على الأقل ، لا يحيد قط عن المصدر الذى يستمد منه حتى ليخيل إلى الإنسان أنه كان يكتب وهذا المصدر مفتوح أمامه . فالحوار الذى يدور بين ملكلم ومكدف فى الفصل الرابع من رواية مكبث لا يختلف كثيرا عما هو وارد فى كتاب هلنشد السالف الذكر . على أنه فى المواقف الروائية الرهيبة التى تتطلب الخيال الخصب أو الفكاهة اللطيفة ، حتى فى هذه الروايات نفسها ، يترك مصدره ويطلق لخياله العنان ، فيخترع من الحوادث والشخصيات والحوار

ما يشاء ، ويغير مصائر الناس كما يريد . واستمد شيكسبير رواياته الإيطالية مثل « يليوس قيصر » و « كليوبطرة » من « تراجم » پلوتارخوس . وهنا تقيد شيكسبير بالأصل إلى حد كبير . وذلك أن هذا الكاتب كان يعنى بتصوير أشخاصه أكثر مما يعنى بالحوادث ، ولهذا لم ير شيكسبير حاجة إلى كثير من التغيير ، بل أخذ منه القصص التى كانت أساس رواياته ، وأخذ منه عبارات بنصها وضعها فى قصصه الأخرى التى لم يستمدها منه .

وأخذ شيكسبير بعض قصصه عن معاصريه من الكتاب الفرنسيين والإيطاليين ومن هذه رواية دقة بدقة وعطيل وتاجر البندقية .

وجملة القول أن شيكسبير أخذ قصصه من بلاد مختلفة ، من بلاد اليونان وإيطاليا ودنمرك وغيرها ، ولكن شخصياته إنجليزية وإن تسمت بأسماء إيطالية أو فرنسية أو رومانية ، وقد ابتدعها شيكسبير مما ارتسم فى خياله من الصور أثناء مقامه فى استرتفرد وفى لندن ، وفى أثناء تجواله فى عاصمة إنجلترا ، واختلاطه بجميع طبقات الشعب خاصته وعامته ، أشراره وخياره ، فى الطرق والحانات ، وفى قصور العظماء والملوك ؛ فهو فى هذه الروايات يصف أحوال عصره وأشخاص عصره ، وهذا هو منشأ كثير من المتناقضات التاريخية التى نجدها فيها ، فهو يذكر دقات الساعة فى عصر يليوس قيصر ، ومصنع الورق فى عصر هنرى السادس . على أن هذا كله لا ينقص من قيمة هذه الروايات ، فهى فى حقيقة أمرها قطع فنية وليست سجلا للحوادث التاريخية .

وقد كتب شيكسبير رواياته بالشعر المرسل أى الشعر الموزون الغير المقفى الذى اخترعه كرستفر مارلو Christopher Marlowe (١٥٦٤ — ١٥٩٣) قبل أن يكتب شيكسبير ببضع سنين .

لغة شيكسبير

وكانت اللغة الإنجليزية فى عصر الملكة اليصابات مائعة لم تجمد ولم تثبت قواعدها ، ولم تتجمع لها سوابق تحتم على الكاتب أن يتقيد بها فى النحو أو الأسلوب . ولذلك كان شيكسبير يتمتع فى اللغة بنصيب من حرية الاختراع لا يستطيع أن يتمتع به من جاء بعده

من الكتاب . فهو لا يتردد فى خلق ألفاظ جديدة للتعبير عن معانيه ، واستخدام الكلمات القديمة فى غير المعانى التى وضعت لها . ولم يكن يعرف ما يسميه النحويون أنواع الكلام ، فإذا احتاج إلى فعل اشتقه من أول اسم يدور بخلده أو أول صفة تخطر بباله ؛ وهو يخرق كل قاعدة نحوية ويجعل أذنه المخبار الذى يختبر به كلماته ، فإذا رأى أن الكلمة حسنة الوقع عليها ، وأعجبه رنينها ، عدها صالحة لأداء غرضه ، فاستعملها فعلا أو اسما مهما يكن أصلها ، واشتق منها ما يريد جامدة كانت أو منصرفة. ويصعب على القارئ فى بعض الأحيان أن يحلل كثيرا من جمل شيكسپير ، ليعرف الأصلية منها والتابعة لغيرها ، وليعرف فيها المسند إليه والمسند ؛ لكن الذى يقرأ جمله على عجل لا يصعب عليه أن يدرك معناها ، أما الذى يقف عندها ليقسمها أصلية وتابعة وليطبق عليها القواعد المألوفة ، فإنه يحار فى أمره لكثرة ما يجده فيها من التعقيد ، ومن تدخل بعضها فى بعض . على أن هذا كله لا يعيب لغة شيكسپير ولا يضعف من أثرها فى نفس السامع أو القارئ .

وأهم ما يمتاز به أسلوبه هو كثرة ما فيه من الاستعارات ؛ وإنك لتجد فى الجملة الواحدة ، وبخاصة فى رواياته الأخيرة ، استعارتين أو ثلاث استعارات مختلفة ، فترى زوجة مكبث مثلا حين أرادت أن تؤنب زوجها وتعيب عليه ضعفه تقول له «هل كان الأمل الذى اكتسيت به من قبل ثملا » .

غير أن شيكسپير لا يبتعد فى أسلوبه عن القواعد المألوفة إلا ليقترب بذلك من حقائق الأشياء . وأقرب شخصية فى روايات شيكسپير إلى أخلاق شيكسپير نفسه هى شخصية پرسپرو فى رواية العاصفة ولعلها كانت آخر رواياته .

تلك كلمة موجزة عن حياة شيكسپير وعن لغته . أما من شاء أن يستزيد فعليه أن يقرأ الروايات نفسها بلغتها الأصلية ، وأن يدرس حياة شيكسپير وشخصيات شيكسپير فى المطولات التى كتبت ولا تزال تكتب عنه إلى هذا اليوم .

تشارلس لام

ويجدر بنا بعد ذلك أن نقول كلمة موجزة عن تشارلس لام وأخته ميرى اللذين كتبا روايات شيكسپير نثرا بالصورة التى ترجمناها فى هذا الكتاب .

ولد تشارلس لام Charles Lamb فى سنة ١٧٧٥ من أب رقيق الحال ، كان كاتبا لأحد المحامين فى لندن ، ولما شب دخل مدرسة Christ's Hospital وصادق فيها الشاعر الكبير كولردج ، ثم تركها وتقلب فى عدة مناصب صغيرة ، كان آخرها فى « إدارة المصالح الهندية » بلندن . ثم استقال فى سنة ١٨٢٥ وعاش فى ضنك مع أبيه وأمه وأخته ميرى التى كانت تكبره بعشر سنين . وفى عام ١٧٩٦ حدثت فى الأسرة حادثة مروعة ، فقد اعترت ميرى نوبة جنون فجائية ، قتلت فى أثنائها أمها بإحدى سكاكين المائدة ، وعندئذ عدل تشارلس عن فكرة الزواج نهائيا ، وكرس حياته للعناية بأخته ، وهى التى يردد ذكرها فى مقالاته باسم ابنة العم بردجت Cousin Bridget .

وكان أول ما كتبه تشارلس طائفة من القصائد نشرت مع قصائد صديق له فى مجلد واحد بعنوان «الشعر المرسل» Blank Verse ، وخير هذه القصائد كلها قصيدة «الوجوه المألوفة القديمة» The Old Familiar Faces وهى من القصائد السهلة التى تلذ الأطفال . وفى عام ١٨٠٧ طلب إليه أحد الناشرين أن يشترك فى إخراج «مكتبة الشبان» ، فكتب هو وأخته ميرى هذه القصص الذائعة الصيت التى يجد القارئ ترجمتها فى هذا الكتاب ، فكتب هو المآسى وكتبت ميرى الملاهى

وفى عام ١٨٠٩ طلبت إليه شركة لنجمان للنشر Longmans أن يختار لها نماذج من مسرحيات عصر الملكة اليصابات ، ونشرت هذه المجموعة المختارة وعليها شروح ونقد ، دلت كلها على أن تشارلس من أعظم النقاد الذين كتبوا فى أدب ذلك العصر .

وكان تشارلس يراسل كثيراً من المجلات الأدبية ، وخير ما كتبه من هذا النوع «مقالات إليا Essays of Elia » وهى من المقالات اللذيذة الممتعة وكانت فى الحقيقة أساس شهرة تشارلس لام .

وفى عام ١٨٣٤ أخذت صحته تضمحل شيئا فشيئا ، وأثر فيه كثيرا حزنه على موت صديقه كولردج Coleridge . وبينما هو يتروض فى يوم من الأيام سقط على الأرض وأصيب بجرح فى وجهه ، وتسمم الجرح ومات منه فى تلك السنة ، ثم ماتت أخته ميرى فى عام ١٨٤٧ .

ويعد لام من أعظم النقاد وكتاب المقالات الإنجليز ، وهو يدخل شخصيته فى مقالاته بطريقة تلذ القارئ وتستثير إعجابه : وفى وسعنا أن نتبين من هذه المقالات صفات لام كلها ، عيوبه وفكاهته وأهواءه ، كأننا نراه رأى العين .

وقد قلنا من قبل إنه هو وأخته قد اشتركا فى كتابة قصص شيكسپير للشبان من القراء ، فهما لم يكتباها للأطفال كما يظن ، لأن الأطفال يعجزون عن فهم المعانى التى أبرزها فيها شيكسپير ، كما يعجزون عن فهم العبارات الكثيرة التى اقتبسها الكاتبان منه كما يقولان فى مقدمة الكتاب . وليس فى مقدورنا أن نجد فرقا كبيرا بين أسلوب تشارلس فى المآسى وأسلوب ميرى فى الملاهى ، فأسلوبهما واحد أو متقارب ، وكلاهما يلجأ إلى الجمل المعقدة الطويلة التى تبلغ أحيانا عشرين سطرا من سطور الكتاب . وهذا الأسلوب إن جاز فى اللغة الإنجليزية لا يستسيغه قراء العربية ، ولذلك حاولنا قدر طاقتنا أن نبسط هذه الجمل ليسهل فهمها على القراء

وقد اضطررنا فى كثير من الأحيان أن نرجع إلى روايات شيكسپير نفسها لفهم العبارات الغامضة التى اقتبسها الكاتبان منها بنصها أو بتغيير قليل ، ولم نسمح لأنفسنا بحذف التمهيد الذى كتبه تشارلس وميرى لقصصهما ، وإن كان كثير مما جاء فيه ينطبق على الأصل الإنجليزى دون الترجمة العربية ، ولكنه جزء من كتاب تشارلس وميرى ، ومن حقهما على من يتصدى لترجمة كتابهما ألا يغفل شيئا مما جاء فيه .

ولعلنا نكون قد استطعنا أن نقدم لقراء العربية ، كما قدم تشارلس وميرى لقراء الإنجليزية ، «وشلا من ذلك السرور الغمر الذى ينتظرهم فى مستقبل أيامهم» حين ينعمون بقراءة روايات شيكسپير ، فيدركون بأنفسهم عظمة هذا الشاعر الكبير .

يناير سنة ١٩٤٣ محمد بدر الدين

تمهيـــد

كتبنا هذه القصص لنمهد بها للنشء من القراء طريق دراسة شيكسپير ، ولذلك حرصنا على أن نستعمل فيها كلماته نفسها كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، وعنينا كل العناية فيما أضفناه إليها من ألفاظ نربط بها حلقات القصة بعضها ببعض بأن نختار من الكلمات أكثرها انسجاماً مع روعة اللغة التى كتب بها شيكسپير ؛ ومن أجل هذا تجنبنا قدر المستطاع ما جد فى اللغة من ألفاظ بعد عصر الشاعر العظيم .

وإذا ما بلغ النشء السن التى تمكنهم من أن ينعموا بقراءة مآسى شيكسپير فى صورتها الأصلية ، فسيجدون فى القصص المأخوذة من هذه المآسى ألفاظه نفسها تتكرر على مسامعهم فى سياق القصة وفيما يدور على لسان أشخاصها من حوار ؛ وسيرون أن هذه الألفاظ على كثرة تكرارها لم يدخل عليها من التغيير إلا القليل . أما القصص المأخوذة من الملاهى فقد شق علينا فيها أن نصوغ عبارات شيكسپير نفسها فى القالب القصصى ، ولذلك نخشى أن يجد النشء الذين لم يألفوا أسلوب المسرحيات أننا قد أسرفنا فى استعمال الحوار ؛ ولكن الذى يغفر لنا هذا الخطأ ، إذا صح أن نسميه خطأ ، أن الباعث عليه هو حرصنا الشديد على أن نضمن هذه القصص أكثر ما نستطيع من ألفاظ شيكسپير . فإذا ما ملَّ النشء سماع « قال » و « قالت » ، وثقل على آذانهم الغضة تكرار السؤال والجواب ، فليعفوا عن ذلك وليصفحوا ، فلقد كانت هذه هى الطريقة الوحيدة التى نستطيع بها أن نقدم لهم وشلا من ذلك السرور الغمر الذى ينتظرهم فى مستقبل أيامهم ، حين يغترفون من ذلك الكنز الثمين ، الذى أخذنا منه هذه الدريهمات الزياف ، وهى دريهمات تنحصر قيمتها فى أنها تحمل أثراً من صورة شيكسپير الفذة . وهذا الأثر مع ذلك معيب وضئيل ، لأن ما تمتاز به لغة شيكسپير من روعة وجمال كثيراً ما تبلى جدته حين تحتم علينا الظروف أن نستبدل بألفاظه الموفقة

الممتازة ألفاظاً لا تعبر عن معانيه الحقة تعبيراً صادقاً صحيحاً ، وذلك حين نجعل من هذه الألفاظ قصة شبه منثورة . وقد نقلنا فى مواضع قليلة شعر شيكسپير المرسل بنصه ، لعلنا نستطيع أن نخدع النشء فيظنوه نثراً لسهولته ووضوحه ؛ ولكنا لا نشك فى أن تلك العبارات نفسها تفقد كثيراً من جمالها الأصيل حين تنتزع من منبتها الأول فى روضة الشعر البرية .

ولقد كانت جل رغبتنا ونحن نكتب هذه القصص أن نجعل منها مطالعات سهلة للصغار ، وظل هذا الغرض ماثلا على الدوام أمام أعيننا ، ولكن موضوع معظم القصص مما يجعل تحقيقه شديد المراسة صعب المرام ؛ فلم يكن من السهل الهين أن نَعْرض على القارئ تاريخ رجال شيكسپير ونسائه فى عبارات قريبة المتناول تدركها بسهولة عقول النشء الصغار . كذلك كان أهم أغراضنا أن نجعل هذه القصص صالحة لأن تقرأها الفتيات ؛ وذلك لأن الفتيان يسمح لهم عادة بالاطلاع على ما تحتويه مكتبات آبائهم قبل أن يؤذن بذلك لأخواتهم بزمن طويل . ومن ثم نرى الفتيان قد استظهروا خير مناظر روايات شيكسپير قبل أن يباح لأخواتهم الاطلاع على كتب الرجال . ولذلك لا ترانا نوصى الفتيان بقراءة هذه القصص ، لأنا نعتقد أن خيراً لهم وأعود بالنفع عليهم أن يقرأوها كما كتبها شيكسپير نفسه . ولكننا نرجو منهم أن يعينوا أخواتهم على قراءتها ، بأن يشرحوا لهن ما كان منها مُعْجِز الدرك ممتنعاً عليهن ، فإذا ما أناروا لهن الشبهات وذللوا الصعاب ، فقد يكون خليقاً بهم أن يختاروا من إحدى هذه القصص فقرات ارتاحوا هم لها وأعجبوا بها ، ويعرضوها عليهن فى صورتها الأصلية بعد أن يراعوا فى هذا الاختيار ما يليق وما لا يليق أن تسمعه أخواتهم الصغار . وإنا لنرجو أن تكون هذه المختارات الجميلة ، وتلك النخبة المنتقاة ، أحب إلى أخواتهم وأدنى ملتمساً لهن إذا كن قد ألممن من قبل بالقصة كلها بقراءتها فى هذه الملخصات البتراء . وإذا كنا قد واتانا الحظ فأفلحنا فى كتابة هذه القصص بحيث تغتبط بها إحداهن ، فإنا لنرجو ألا تعدو أسوأ آثارها فى نفسها أن تتمنى لو أنها كانت أكبر مما هى سناً حتى تستطيع أن تقرأ روايات شيكسپير المطولة .

وتلك أمنية لا تنطوى على شىء من السفاهة أو الامتعاض . وإذا ما أوفين على السن التى يستطعن فيها تحقيقها ، وسمحت لهن بتحقيقها حكمة الكبار من الأصدقاء ، فسيجدن فيما لخصناه لهن من القصص فى هذا الكتاب ، وفى قصص أخرى لم نلخصها لهن ولا تقل عنها عدا ، سيجدن فى هذه وتلك كثيراً من الحوادث المختلفة ومن تصاريف الأقدار ما لم تتسع له صحف هذا الكتاب الصغير . وسيجدن كذلك فى روايات شيكسپير عدداً لا يحصى من الشخصيات المرحة البهجة ، رجالا كانت أو نساء ، تفقد بلا ريب ما حباها من فكاهة حلوة لو أننا حاولنا أن نقص عليهن سيرتها فى إيجاز .

وإنا لنرجو أن يجد النشء متى كبروا فى قصص شيكسپير الأصلية مثل ما وجدوه وأكثر مما وجدوه فى هذه القصص المنثورة وهم صغار ، فتكسبهم قوة فى الخيال ، واستمساكا بالفضيلة ، وبعداً عن الطمع والأنانية ، وترشدهم إلى سبيل الشرف ، وتغرس فى نفوسهم حلو الطباع ونبيل الخصال ، وتلقى عليهم دروساً فى دماثة الخلق ، ورقة الشمائل ، وكرم السجايا ، والعطف على الناس ، وذلك لأن صحف هذه الروايات غاصة بالحوادث التى تضرب لهذه الفضائل أحسن الأمثال .

العاصفة

كانت فى البحر جزيرة لا يسكنها إلا شيخ مُسن يدعى پرسپرو Prospero وابنة له تدعى مرندا Miranda ، وهى فتاة بارعة الحسن جاءت هذه الجزيرة وهى صغيرة السن ، لا تذكر أنها رأت وجهاً من البشر إلا وجه أبيها .

وكانا يسكنان معاً فى كهف أو غار منحوت فى صخرة ، ومقسم إلى عدة غرف ، وكان پرسپرو يسمى واحدة منها حجرة دراسته ؛ وكان يحتفظ فيها بكتبه التى يبحث معظمها فى السحر ، وهو فن كان يمارسه كل العلماء فى تلك الأيام . وأفاد پرسپرو من علمه بهذا الفن فائدة عظيمة ، فقد ألقته المصادفات فى هذه الجزيرة التى سحرتها عجوز تدعى سكراكس Sicorax ماتت قبل أن يفد هو إليها بزمن قليل ، واستطاع بفضل هذا الفن أن يطلق كثيراً من الأرواح الطيبة التى سجنتها سكراكس فى جذوع الأشجار الضخمة ، حين أبت أن تصدع بما أمرتها به من سيىء الفعال ؛ فلما أطلق پرسپرو هذه الأرواح اللطيفة ظلت بعد ذلك تطيعه وتخضع لإرادته ، وكان زعيمها كلها روح يدعى إيريل Ariel .

ولم يكن فى طباع هذا العفريت النشيط شيء من الخبث ، اللهم إلا أنه كان يغتبط كل الاغتباط حين يعذب مارداً بشعاً يدعى كلبن Caliban ، وهو مخلوق مشوه الخلق ذو هيئة فظيعة غريبة ، أقل شبهاً بالإنسان من القردة . وكان إيريل يحقد عليه لأنه ابن عدوته القديمة سكراكس ، وقد وجده پرسپرو بين الأشجار فأخذه إلى غاره وعلمه الكلام ؛ ولولا ما طبع عليه كلبن من خبث ورثه عن أمه سكراكس ، وحال بينه وبين تعلم أى شيء صالح أو نافع ، لأشفق عليه ورأف به . أما وتلك سجيته فقد استخدمه كما يستخدم الرقيق ، يحتطب من الجزيرة ويقوم بأشق الأعمال ، ووكل به إيريل يراقبه ويرغمه على العمل إرغاماً ؛ فإذا ما كسل كلبن وأهمل واجبه تسلل إليه إيريل — وكان لرقته لا تراه إلا عينا پرسپرو — وقرصه أو ألقاه فى الوحل ، ثم انقلب بعد ذلك قرداً وجلس يلوى شدقه استهزاءً

به ، ثم أسرع فبدل صورته واتخذ شكل قنفذ يتقلب فى طريق كابن ، فلا يجرؤ على المشى لئلا تصيب أشواكه الحادة قدميه العاريتين فتخرمهما . وبهذه الألاعيب المغيظة وكثير من أمثالها كان إيريل يعذب كابن كلما توانى عن أداء ما أمره به پرسپرو .

وكانت هذه الأرواح القوية طوع أمر پرسپرو يسخر بها الرياح وأمواج البحار ، وقد أمرها يوماً فأثارت عاصفة هوجاء ، كان فى وسطها سفينة كبيرة جميلة تغالب الأمواج المتلاطمة ، التى كانت فى كل لحظة توشك أن تطبق عليها وتبتلعها فى جوفها . وقال پرسپرو لابنته وهو يشير إلى هذه السفينة إنها ملأى بالأحياء من الآدميين أمثالها ، فقالت له : « يا أبت العزيز ، إذا كنت قد أثرت بسحرك هذه العاصفة الرهيبة فارحم من فيها وأشفق عليهم فى محنتهم ؛ ألا تراها تكاد تتحطم وتتطاير إرباً ؟ ألا ما أشق هؤلاء البائسين وأشد بلواهم ! إنهم لا محالة هالكون عن آخرهم ، ولو أن لى قوة لأمرت ماء البحر أن يغيض فى جوف الأرض ، قبل أن تغرق هذه السفينة الطيبة ، ويهلك كل من فيها من أنفس عزيزة » .

فأجابها پرسپرو : « لا تراعى يا ابنتى مرندا فلن تصاب السفينة بأذى ، لقد دبرت الأمر بحيث لا يمس أحداً ممن فيها مكروه ؛ وأنا لم أفعل ما فعلت إلا من أجلك يا بنيتى العزيزة ، إنك لتجهلين من أنت ومن أين جئت إلى هذا المكان ، ولا تعرفين عنى إلا أننى أبوك وأنى أعيش فى هذا الكهف الحقير ، فهل تذكرين زمناً لم تكونى قد جئت فيه إلى هذا الغار ؟ أظنك لا تذكرينه لأنك لم تكونى قد بلغت الثالثة من عمرك وقتئذ » .

فقالت مرندا : « بلى إنى أذكره ما فى ذلك شك » .

فقال لها پرسپرو : « بأى شىء تذكرينه ؟ ببيت غير هذا أو بشخص غير أبيك ؟ خبرينى أى شىء تذكرين ؟ » .

فأجابته مرندا : « إن هذه الذكريات لتبدو كأنها حلم من الأحلام ، ولكن قل لى ألم تكن لى فى يوم من الأيام أربع نساء أو خمس يرعينى ويقضين حوائجى ؟ » .

فقال لها أبوها : « بلى ، قد كان لك هذا وأكثر منه ، ولكن كيف بقيت

هذه الذكرى حية فى مخيلتك ؟ وهل تذكرين معها كيف جئت إلى هذا المكان ؟ »

فأجابته مرندا : « كلا يا أبت لست أذكر غير هذا » .

فواصل پرسپرو حديثه قائلا : « كنتُ يا مرندا منذ اثنتى عشرة سنة دوق ميلان ، وكنتِ أنت ترثين وحدك عرشها من بعدى ، وكان لى أخ أصغر منى بدعى أنطنيو Antonio ائتمنه على كل شىء ، وكنتُ مولعاً بالعزلة والدرس العميق ، فتركت تدبير أمور الدولة لعمك ، أخى الغادر ، (ولقد أثبت أنه غادر حقا) » .

فأما أنا فقد صرفت كل وقتى فى تثقيف عقلى ، وأعرضت عن مشاغل الدنيا ، وقضيت حياتى بين كتبى ؛ وأما أخى أنطنيو فقد استحوذ على ما كان لى من سلطان ، وبدأ يظن أنه الدوق حقا ؛ وهيأتُ له بعملى الفرصة التى أمكنته من أن يحبب نفسه إلى شعبى ، فأثار ذلك فى طباعه الذميمة رغبة جامحة فى أن يغتصب منى ملكى . وقد نال آخر الأمر مبتغاه ؛ وأعانه على ذلك ملك نابلى ، وهو أمير شديد البأس كان بينى وبينه عداوة » .

فقالت مرندا : « ولمَ لم يقضيا علينا فى تلك الساعة ؟ » .

فأجابها أبوها : « لم يكونا يجرؤان على ذلك يا ابنتى ، لأن شعبى كان يحبنى حباً جماً ، ولذلك حملنا أنطنيو على ظهر سفينة ، ولما أصبحنا على مسافة بضعة فراسخ من البر أنزلنا بالقوة فى قارب صغير لا حبال له ولا سارية ولا شراع ، وظن أنه أسلمنا للهلاك . وكان من كبار رجال حاشيتى رجل رحيم يدعى جنزالو Gonzalo ، دفعه حبه وإخلاصه أن يضع فى القارب خلسة ماء وطعاماً ولباساً وكتباً هى أعز على من ملكى » .

فقالت مرندا : « يا أبت ما أكثر ما عانيت يومئذ بسببى ! » .

فأجابها پرسپرو : « كلا يا حبيبتى ، لقد كنتِ أنتِ ملاكا صغيراً يرعانى ويحفظ حياتى ، وكانت بسماتك الطاهرة هى التى أعانتنى على احتمال شقائى . وقد كفانا ما كان لدينا من الطعام حتى نزلنا فى هذه الجزيرة الجرداء ، ومن ذلك الحين كان أكبر أسباب مسرتى أن أعلمك يا مرندا ، وما أكثر ما أفدتِ من تعليمى » .

فقالت له مرندا : « أثابك الله على حسن صنيعك يا أبى العزيز ، والآن أرجو منك يا سيدى أن تخبرنى لِمَ أثرت هذه العاصفة فى البحر ؟ » .

فقال لها أبوها : « اعلمى إذاً أن هذه العاصفة ستُلقى بعدوى ملك نابلى وبأخى غليظ الكبد فى هذه الجزيرة » .

قال ذلك ومس ابنته مساً لطيفاً بعصاه السحرية ، فنامت نوماً عميقاً ؛ وذلك لأن إيريل قد مثل فى هذه الساعة بين يدى مولاه ، ليقص عليه نبأ العاصفة وما فعله هو بركاب السفينة ؛ ومع أن عين مرندا لم تكن ترى الأرواح قط ، فإن پرسپرو لم يشأ أن تسمعه يتحدث ، كما كان يبدو لها ، مع الهواء .

وقال پرسپرو لإيريل : « والآن أيها الروح المقدام ، قل لى كيف أديت واجبك ؟ » .

فأخذ إيريل يقص عليه نبأ العاصفة ويصور له تصويراً باهراً شائقاً ما شاهده من ارتياع الملاحين ، وقال إن فردنند ابن الملك كان أول من ألقى بنفسه فى اليم ، وظن والده أن الأمواج قد ابتلعت ابنه العزيز وأغرقته » .

ثم قال : « ولكنه قد نجا ، وهو يجلس الآن فى ركن من أركان الجزيرة مطوى الذراعين ، واجماً يندب فقد أبيه الملك ، فهو يعتقد أنه غرق ؛ والأمير سليم لم يمسسه أذى ، وثيابه وإن بللها ماء البحر تبدو أزهى مما كانت » .

فقال پرسپرو : « ما أظرفك يا إيريل ! ائتنى به ، فلا بد أن ترى ابنتى هذا الأمير الشاب . وأين الملك وأخى ؟ » .

فأجابه إيريل : « لقد تركتهما يبحثان عن فردنند ، وهما قليلا الرجاء فى أن يعثرا عليه ، إذ يظنان أنهما قد شاهداه يغرق ، وتلك أيضاً حال بحارة السفينة ، لم ينقص أحد منهم ، وإن كان كل واحد يظن أنه لم ينج أحد غيره ، والسفينة نفسها آمنة فى مرساها ، وإن كان أحد لا يستطيع أن يراها » .

وعندئذ قال پرسپرو : « لقد كنت يا إيريل أميناً فى أداء واجبك ، ولكنك لم تفرغ من عملك بعد » .

فأجابه إيريل : « وهل بقى لى عمل ؟ أرجو أن تسمح لى يا مولاى بأن أذكرك

أنك قد وعدتنى بأن تطلق سراحى ، كما أرجو أن تذكر أننى قد أديت لك أجل الخدمات ، وأننى لم أكذب عليك أو أرتكب ذنباً ، ولم أتضجر من خدمتك أو أتذمر » .

فقال پرسپرو : « ما هذا القول يا إيريل ؟ ألا تذكر العذاب الذى نجيتك منه ؟ وهل نسيت سكراكس الساحرة الخبيثة التى حنى ظهرها الحسد ومر السنين حتى كادت تمشى على أربع ؟ تكلم وقل لى أين ولدَت ؟ » .

فأجابه إيريل : « لقد ولدت فى مدينة الجزائر ! » .

فقال پرسپرو : « عجباً ! أحق ما تقول ؟ لا بد لى أن أحدثك بسيرتك الأولى لأنك نسيتها : لقد أُخْرِجَت هذه الساحرة الشريرة من مدينة الجزائر بعد أن اقترفت فيها من ضروب السحر ما تقشعر من هوله الأبدان ، وتركها الملاحون فى هذا المكان ، وكنت أنت روحاً لطيفاً لا تقوى على القيام بتنفيذ ما تأمرك به من سيئ الأعمال ، فسجنتك فى جذع شجرة وجدتُك فيه تعوى وتتأوه . لا تنس أن هذا هو العذاب الذى أنجيتك منه » .

فأجابه إيريل وقد عز عليه أن يظهر بمظهر الجاحد بنعمة مولاه : « عفواً يا سيدى العزيز ، سوف أصدع بما تأمرنى به » .

فقال له پرسپرو : « إن فعلت أطلقتُ سراحك » . ثم أمره بما يجب عليه أن يفعله بعد ، وانطلق إيريل فذهب أولا إلى حيث ترك فردنند ، فألفاه لا يزال جالساً على الكلأ لم يفارقه حزنه وكآبته .

فلما رآه إيريل قال له : « أى سيدى الشاب ، سأنقلك الساعة من هذا المكان ، فلقد علمت أن لا بد من ذهابك إلى الآنسة مرندا لترى محياك الجميل . قم معى يا سيدى واتبعنى » ثم أخذ يغنى :

« يرقد أبوك وفوقه خمس قامات طوال ، ومن عظمه ينشأ المرجان ، ومن عينيه تتكون اللآلئ ، وكل ما يتساقط منه يصبح من خلق البحر شيئاً عجيباً ثميناً ، وفى كل ساعة يدق حور البحر أجراس موته ، وهأنذا أسمع صلصلتها الآن » .

ولم يكد الأمير يسمع هذا النبأ الغريب عن أبيه حتى تنبه من نوبة الخمول التى

غشيته ، وسار مدهوشاً وراء صوت إيريل حتى قاده الصوت إلى حيث كان پرسپرو ومرندا يتفيآن ظل دوحة محلال ، ولم تكن مرندا قد رأت بشراً من قبل إلا أباها .

وقال لها پرسپرو : « خبريني يا مرندا إلى أى شيء تنظرين عن بعد ؟ » فأجابته مرندا فى دهشة عجيبة : « يا أبت لا شك أنى أرى روحاً من الأرواح ؛ رباه ! إنه يتلفت من حوله ، صدقنى يا أبى إنه مخلوق جميل ، أليس هو روحاً حقاً ؟ » .

فأجابها أبوها : « كلا يا ابنتى إنه بشر يأكل الطعام وينام ، وله من الحواس مثل ما لنا . إن هذا الفتى الذى ترينه كان فى السفينة ، وقد شفه الحزن فغيره ، وإلا لكان فى نظرك إنساناً جميلا . لقد ضل عنه رفقاؤه ، وهو يجوس خلال هذه الجزيرة يبحث عنهم » . وأعجبت مرندا بمنظر هذا الأمير الشاب الجميل ، وهى التى كانت تظن أن الرجال كلهم كأبيها ، لهم وجوه وقورة ولحى شيب . ورأى فردنند هذه الفتاة الجميلة فى ذلك المكان القفر ، فظن أن المقادير قد ألقت به فى جزيرة مسحورة ، وذلك لأنه لم يكن يتوقع بعد ما سمعه من الأصوات العجيبة أن يرى شيئاً غير عجيب ؛ وخال مرندا ربة المكان فأخذ يخاطبها كما تخاطب الأرباب .

فأجابته فى حياء بأنها ليست من الأرباب ، وإنما هى فتاة كغيرها من الفتيات ، وهمت أن تقص عليه قصتها ولكن أباها قطع عليها الحديث . وسره أن يعجب بها فردنند وتعجب به ، فقد أدرك من فوره أنهما قد تحابا منذ وقعت العين على العين ؛ لكنه أراد أن يَخْبُر فردنند ليعرف مقدار ثباته على حبه ، فقرر أن يقيم فى طريقهما بعض الصعاب ، ولذلك دنا منهما وخاطب الأمير فى جفاء ، واتهمه بأنه قد أتى الجزيرة ليكون عيناً على من فيها ، ولينتزعها منه وهو صاحب الأمر فيها . ثم قال له : « سر ورائى ، فلأقيدن رجليك وأضع الأغلال فى عنقك ، وستسقى ماء البحر الأجاج ، وتطعم الأصداف والجذور الذابلة وقشور ثمار البلوط » .

فأجابه فردنند : « كلا لن أقبل هذه الضيافة ، أو أرى عدواً لى أشد منك بأساً » . ثم استل سيفه ، ولكن پرسپرو أشار إليه بعصا سحره فجمد فى مكانه لا يستطيع حراكا .

ثم أخذ فردنند يحدث مرندا الطاهرة البريئة حديثاً آخر ظريفاً — ومن عادة الشبان أبناء الملوك أن يكون حديثهم ظريفاً — قال لها فى خلاله إنه وارث عرش ناپلى وإنها ستكون مليكته ، فتنهدت مرنده وقالت : « ألا ما أقل عقلى حين أبكى مما يثلج به صدرى ، وسأفصح لك عن ضميرى فى صراحة وطهر لا حرج على فيهما ، إننى أنا زوجتك إذا ارتضيتني لك زوجة » .

وتراءى پرسپرو وقتئذ لهما ، وحالت رؤيتهما إياه بين فردنند وبين شكره لها ، ثم حدثهما بقوله : « لا تخشى شيئاً يا بنيتى ، لقد سمعت كل شىء وأنا راض عن كل ما سمعته منك ، وأما أنت يا فردنند فإذا كنت قد قسوت عليك فإنى سأجزيك الجزاء الأوفى ، وستكون ابنتى لك ، وإنى لم أسىء إليك إلا لأخبرك وأعرف قدر حبك . ولقد تبين لى أنك صادق المخبر ، وهأنذا أهدى إليك هدية قد استحققتها بصادق حبك : إن ابنتى لك ، ولا تبتسم إذا سمعتنى أفخر بأن محامدها يقصر عنها كل ثناء » ، ثم أخبرهما أن لديه من الأعمال ما يتطلب وجوده ، ورغب إليهما أن يجلسا ويتحادثا حتى يعود إليهما . ولم يبد من جانب مرندا ميل لمخالفة أمر أبيها فى هذه المرة .

ولما فارقهما پرسپرو دعا إليه الروح إيريل ، فجاءه من فوره يريد أن يحدثه عما فعله مع أخيه وملك ناپلى ؛ وقال إيريل إنه تركهما بعد أن أراهما وأسمعهما ما كاد يستطير منه لبهما روعا . ولما أعياهما السير وأنهكهما الجوع بسط أمامهما على حين غفلة مائدة شهية ، فلما هما بتناول الطعام تراءى لهما فى صورة مريدة مجنحة نهمة التهمت كل ما كان على المائدة فى لمح البصر . ولشد ما كانت دهشتهما حين أخذت هذه المريدة ، كما ظناها ، تحدثهما وتذكرهما بما اقترفاه من قسوة حين أخرجا پرسپرو من ملكه ، وتركاه هو وابنته يقضيان نحبهما فى لجج البحر ، وقالت إنهما الآن يلقيان هذه الأهوال جزاء ماجنته أيديهما . وندم ملك ناپلى والأخ الغادر أنطنيو على ما ارتكباه من ظلم ، وقال إيريل لسيده إنه لايشك فى أن توبتهما كانت توبة نصوحا ، وإنه لايسعه إلا أن يرثى لحالهما وإن كان روحا .

وعندئذ قال له پرسپرو : إذاً فجىء بهما إلى هذا المكان ، وإذا كنت وأنت

روح قد رثيت لحالها فخليق بى وأنا بشر مثلهما أن تأخذنى بهما الرأفة ، جىء بهما على الفور أيها الروح الظريف » .

وعاد پرسپرو من فوره ومعه الملك وأنطنيو ومن خلفهما الشيخ جنزالو وهم دهشون مما كان يملأ به إيريل الهواء من موسيقى عجاجه يدلهم بها على موضع سيده ؛ وجنزالو هذا هو الذى أخذته الرأفة بپرسپرو فجاءه بالكتب والطعام حينما ظن أخوه الغادر أنه تركه ليلقى حتفه وسط البحر فى قاربه المكشوف .

وذهب الرعب والحزن بمشاعرهم ، فلم يعرفوا پرسپرو حين قدموا إليه ؛ ثم أظهر نفسه أول الأمر للشيخ الطيب جنزالو ووصفه بأنه منقذ حياته ، وعندئذ أدرك أخوه وأدرك الملك أن الذى يحدثهما هو پرسپرو الذى ظلماه وآذياه .

ودنا أنطنيو من أخيه والدمع يفيض من عينيه ، والحزن والندم الصحيح يبدوان فى أقواله ، وأخذ يتوسل إليه أن يغفر له ذنبه ؛ وأظهر الملك أشد الأسف على ما قدم لأنطنيو من مساعدة لخلع أخيه عن عرشه ، وعفا پرسپرو عنهما وعاهداه على أن يردا له ملكه . وقال بعدئذ لملك نابلى : « إن لك عندى فوق ذلك هدية » ثم فتح الباب فرأى من داخله فردنند يلعب الشطرنج مع مرندا .

وبعثت هذه المقابلة المفاجئة فى نفس الوالد وولده سروراً لا يعادله سرور ، لأن كليهما كان يظن الآخر قد لاقى حمامه حين ثارت العاصفة .

وقالت مرندا حين رأتهما : « يا عجبا ! ما أحسن خلق هؤلاء الناس ! ولا شك فى أن العالم الذى يعيش فيه أمثال هؤلاء عالم كله أبطال » .

ولم يكن إعجاب ملك نابلى بجمال مرندا وظرفها أقل من إعجاب ابنه فردنند ، وقال حين أبصرها : « من تكون هذه الفتاة ؟ يلوح أنها هى الإلهة التى فرقت بيننا ثم عادت فجمعت شملنا » . وابتسم فردنند إذ وجد أن أباه قد وقع فى نفس الخطأ الذى وقع هو فيه من قبل حين أبصر مرندا لأول مرة ، ثم قال وهو يبتسم : « كلا يا أبت إنها بشر ، ولكن العناية الإلهية قد وهبتها لى . لقد اخترتها زوجاً لى حين لم أكن أستطيع أن أستأذنك لأنى لم أكن أظنك حيا . إن تلك الفتاة ابنة پرسپرو أمير ميلان الشهير ، الذى طالما شاد الناس بذكره ،

ولكنى لم أكن رأيته ، وقد وهب لى حياة جديدة وكان لى أباً ثانياً ، إذ أنعم على بهذه الفتاة العزيزة » .

وقال الملك : « فلأكونن إذاً أباها ؛ ولكن ما أغرب أن أطلب المغفرة من ابنتى ! » .

وقال پرسپرو : « كفى ولننس ما صادفنا من شقاء ما دام قد انتهى إلى ما نحن فيه من سعادة » ، ثم عانق پرسپرو أخاه وأكد له مرة أخرى أنه يصفح عنه ، وقال إن الإله المدبر القدير قد أذن أن يخرج من دوقية ميلان الحقيرة لكى ترث ابنته تاج نابلى ، لأن حب فردنند لمرندا كان نتيجة التقائهما فى هذه الجزيرة » .

ولما سمع أنطنيو هذه الكلمات الطيبة التى أراد بها پرسپرو أن يطمئن أخاه ، فاض الدمع من عينيه لفرط خجله وندم ولم يقو على الكلام . وكذلك بكى الشيخ الرحيم جنزالو حين رأى الأخوين يصطلحان على هذا النحو السار ، ودعا للزوجين الناشئين بالسعادة والهناءة .

ثم خبَّرهم پرسپرو أن سفينتهم آمنة فى الميناء وعليها جميع بحارتها ، وأنه هو وابنته سيركبانها معهم فى صباح الغد ويعودون جميعاً إلى وطنهم ، وقال لهم : « وإلى أن يحين ذلك الوقت دونكم ما فى كهفى الحقير من طعام وشراب ، وسأسليكم فى المساء بأن أقص عليكم ما جرى لى منذ وطئت قدماى هذه الجزيرة الجرداء » ، ثم دعا إليه كلبن وأمره أن يهيئ الطعام ويصلح من شأن الكهف . ولشدما دهش الصحاب من صورة هذا المخلوق البشعة الذميمة وهيئته الفظيعة ، فقال لهم پرسپرو إنه ليس لديه من يقوم بخدمته سواه . وقبل أن يبرح پرسپرو أرض الجزيرة أطلق سراح إيريل وأعفاه من خدمته ؛ ولشدما سر من ذلك هذا الروح الصغير الظريف ، فقد كان خادماً مخلصاً لمولاه ، ولكن نفسه طالما تاقت لأن يتخلص من الأسر ويصبح حراً طليقا يسبح فى الفضاء كيف شاء ، كما يسبح الطير بين الأشجار الخضراء وبين يانع الثمار وشذا الأزهار .

وقال پرسپرو لإيريل حين وهب له حريته : « أيها الروح العجيب ، لست فى غنى عنك ، ولكنك مع ذلك ستنال حريتك » .

فأجابه إيريل بقوله : « شكراً لك يا سيدى العزيز ، ولكن خادمك الروح الأمين يسأذنك ، قبل أن تعفيه من خدمتك ، أن يحوط السفينة التى ستقلكم إلى بلادكم بريح طيبة ، فإذا ما أصبحتُ بعد ذلك حراً طليقاً ثلج بذلك صدرى وطابت به حياتى » .

ثم غنى إيريل هذه الأغنية اللطيفة :

أنا والنحل نمتص الرحيق سويا ،
وفى كؤوس زهر الربيع نثوى مليا ،
أهجع فيها حين ينعق البوم ،
وإذا انقضى الصيف طرت مستبشراً على ظهر خفاش ،
ألا ما أبهج عيشى وقتئذ تحت الأزهار العالقة بالأفنان .

ثم دفن پرسپرو فى باطن الأرض كتب سحره وعصاه ، لأنه اعتزم ألا يعود إلى السحر بعدئذ ، ولم يبق من أسباب سعادته بعد أن ظفر بأعدائه وتصالح مع أخيه وملك ناپلى إلا أن يعود إلى وطنه ، ويستوى على عرش ملكه ، ويشهد زواج ابنته بالأمير فردنند ؛ وقد قال الملك إن معالم أفراحهما ستقام فى ناپلى ساعة وصوله إليها . وفى الحق أنهم لم يلبثوا إلا قليلا حتى وصلوا إليها سالمين بعد رحلة سارة ممتعة فى حراسة الروح إيريل .

حلم ليلة فى منتصف الصيف

كان فى شريعة أثينا قانون يجيز للآباء أن يرغموا بناتهم على أن يتزوجن بمن يرغبون فى زواجه بهن ؛ فإذا أبت إحدى بناتهم أن تتزوج بمن يختاره لها أبوها جاز له بمقتضى هذا القانون أن يأمر بقتلها . ولكن الآباء لا يرغبون عادة فى موت بناتهم وإن أظهرن فى بعض الأحيان شيئاً من التمرد وعدم الإذعان لمشيئتهم ، ولذلك فإن هذا القانون قلما كان ينفذ فيهن ، أو قلْ إنه لم ينفذ على الإطلاق ، وكل ما فى الأمر أن الآباء فى هذه المدينة كانوا فى كثير من الأحيان يرهبون بناتهم بما فى هذا القانون من هول وقسوة .

ولكن حدث مرة أن شيخاً مُسناً يدعى إجيوس Egeus مثل أمام الدوق تسيوس Theseus حاكم أثينا فى وقته ، وشكا إليه ابنته هرميا Hermia لأنه أمرها أن تتزوج بشاب يدعى دمتريوس Demetrius من أسرة أثينية نبيلة فلم تطع أمره ، لأنها كانت تحب شابا آخر من أهل أثينا يسمى ليسندر Lysander ، وطلب إجيوس إلى تسيوس أن يأخذ العدل مجراه وأن ينفذ هذا القانون القاسى فى ابنته .

ودافعت هرميا عن نفسها واعتذرت عن عصيانها أمر أبيها بأن دمتريوس قد جهر من قبل بحب صديقة لها عزيزة تدعى هلنا Helena ، وأن هذه الصديقة كانت تحب دمتريوس حبا يبلغ حد الجنون ؛ ولكن هذا العذر النبيل الذى اعتذرت به هرميا عن عصيانها أمر أبيها لم يبعث فى قلب إجيوس القاسى شيئاً من الحنان والرأفة .

وكان تسيوس أميراً عظيما رحيما ، ولكنه لم يكن يملك تغيير شريعة بلده ، وكل ما كان فى وسعه أن يفعله أن يمهل هرميا أربعة أيام تفكر خلالها فى أمرها ، فإذا أبت بعد هذه الأيام الأربعة أن تتزوج دمتريوس حق عليها القتل .

ولما انصرفت هرميا من مجلس الدوق ذهبت إلى حبيبها ليسندر وأطلعته

على ما كان يحدق بها من خطر ، وقالت إنها بين اثنتين : فإما أن تنفض يدها منه وتتزوج دمتريوس ، وإما أن يقضى عليها بعد أربعة أيام .

وسمع ليسندر بهذا النبأ المشئوم فأحزنه وأمر عيشه ؛ ثم تذكر أن له عمة تقيم فى مكان قريب من أثينا ، وأن ذلك القانون القاسى لا يستطاع تطبيقه على هرميا حيث تقيم العمة ، لأن سلطانه لا يمتد خارج حدود المدينة ، فعرض على هرميا أن تتسلل من دار أبيها فى تلك الليلة وتذهب معه إلى بيت عمته ، وفيه يتم زواجهما . وقال لها فى حديثه : « سألقاك على بعد بضعة أميال من المدينة فى الغابة البهيجة التى طالما سرنا فيها مع هلنا فى أيام شهر مايو اللطيفة » .

ووافقت هرميا على هذا الاقتراح وهى فرحة مغتبطة ، ولم تخبر أحداً بما اعتزمته من الهرب إلا صديقتها هلنا ؛ لكن الفتيات كثيراً ما يدفعهن الحب إلى أسخف الفعال ، وقد فعلت هلنا من أجل الحب فعلة لا تتفق مع النبل والشهامة إذ اعتزمت أن تبوح بسر صديقتها البائسة إلى دمتريوس ، وإن لم تكن ترجو من وراء إذاعته إلا أن تنال شيئاً من المسرة الحقيرة بالذهاب إلى الغابة مع حبيبها الغادر ، وكانت لا تشك فى أن دمتريوس سوف يذهب إليها فى أثر هرميا .

وكانت الغابة التى اتفق ليسندر وهرميا على أن يتقابلا فيها هى المأوى الذى اختارته لنفسها الخلائق الصغيرة المعروفة باسم « الجن » .

وكان أُبرن Oberon ملك الجن وتيتانيا Titania ملكتهم ، هما وأتباعهما الصغار ، مجتمعين كعادتهم فى منتصف الليل يمرحون ويقصفون فى هذه الغابة .

واتفق أن كان بين ملك الجن الصغير وملكتهم فى ذلك الوقت شقاق محزن ، فكانا كلما اجتمعا فى ضوء القمر فى طرقات هذه الغابة البهيجة المظللة بالأشجار ، تنازعا وتخاصما ؛ وكان خصامهما يدوم حتى يزحف كل أتباعهما من الجن ويختفون داخل قشور ثمار البلوط من شدة الخوف .

وكان منشأ هذا النزاع المشئوم أن تيتانيا أبت أن تعطى أُبرن طفلا مبدولا كانت أمه صديقة لتيتانيا ، فلما ماتت الأم سرقت ملكة الجن طفلها من مربيته ، وقامت هى على تربيته فى الغابة .

وكانت تيتانيا تسير فى الغابة مع بعض وصيفاتها فى الليلة التى اتفق العاشقان على أن يتقابلا فيها ، وإذا بها تلتقى بأبرن تحوطه حاشيته من الجن .

فلما رآها بادرها بقوله : « لقاء مشئوم لقاؤك فى ضوء القمر باتيتانيا المتغطرسة » فأجابته الملكة بقولها : « أهذا أنت يا أبرن ؟ أهذا أنت أيها الحسود ؟ » .

ثم قالت لوصيفاتها من الجن : « اقفزن وابعدن عن هذا المكان فقد أقسمت ألا يكون لى بأبرن صلة » ، فرد عليها بقوله : « على رسلك أيتها الجنية الحمقاء ، ألست صاحب الأمر عليك ؟ فلم إذاً تغاضب تيتانيا سيدها أبرن ؟ هيا أعطنى طفلك المبدول ليكون لى غلاماً » .

فأجابته الملكة بقولها : « أرح نفسك من هذا العناء يا أبرن ، إنك لن تنال هذا الولد ولو أعطيتنى مملكة الجن بأسرها » ، ثم تركت زوجها محنقاً مغيظا ومضت فى طريقها ، فقال لها أبرن : « اذهبى أنَّى شئت ولأجزينك قبل مطلع الفجر على على ما أسأت إلىّ شر الجزاء » ، ثم دعا أبرن إليه پك Puck كبير أصفيائه ومشيره الخاص . وكان پك (أو رُبِن طيب القلب) عفريتاً ماكراً خبيثاً اشتهر بألاعيبه الهزلية فى القرى المجاورة ، فتارة يدخل اللابن وينزع قشدة اللبن ، وطوراً يدفع بجسمه الرقيق الغازىّ فى المخضة ثم يشرع يرقص فيها رقصه العجيب ، فلا تستطيع حلابة اللبن مهما أجهدت نفسها أن تحول القشدة إلى زبد . ولم يكن فتيان الريف أحسن حظا من فتياته ؛ فإذا ما حِلىَ لپك أن يخص بألاعيبه معاصر الخمر ، تلفت الخمر لا محالة ، وإذا اجتمع بعض الجيرة ليروحوا عن أنفسهم باحتساء شىء منها قفز پك إلى الكئوس فى صورة سرطان مشوى ، وإذا شاءت ربة الدار أن تشرب اهتز فوق شفتيها وسكب الخمر على ذقنها المجعد ، فإذا جلست هذه السيدة بعد ذلك بقليل تقص على جاراتها فى هدوء ووقار قصة محزنة نزع پك من تحتها كرسيها ذا الأرجل الثلاث فوقعت العجوز المسكينة على الأرض من فورها ، وأخذت جاراتها القواعد الثرثارات يسخرن منها ويغرقن فى الضحك عليها ، ويقسمن أنهن لم يكنّ قط أكثر ابتهاجا منهن فى تلك الساعة .

وقال أبرن لهذا العفريت المرح السارى فى جوف الليل : « تعال يا پك وجئنى

بالزهرة التى تسميها الفتيات (الحب الكسل) ، وهى زهرة صغيرة أرجوانية اللون إذا عصر ماؤها على جفون النائمين هاموا بحب أول شىء تقع عليه أعينهم عندما يستيقظون ؛ وسأعصر شيئاً من ماء تلك الزهرة على جفنى تيتانيا وهى نائمة ، فإذا فتحت عينيها شغفها حب أول شىء تراه ، ولو كان هذا الشىء أسداً أو دباً أو نسناساً لعوباً أو قرداً دءوباً ، وسأرغمها على أن تعطينى ذلك الغلام ليكون من خدمى قبل أن أمحو أثر هذه الرقية ، وفى وسعى أن أمحوه برقية أخرى أنا بها عليم .

وكان پك يحب الخبث من صميم قلبه ، ولذلك سره كل السرور هذا اللهو الذى أراد أن يلهو به سيده ، وذهب من فوره ليأتيه بالزهرة المطلوبة . وبينا كان أُبرن ينتظر عودة پك سمع دمتريوس يؤنب هلنا لمجيئها إلى الغابة فى أثره ، ويغلظ لها فى القول ، وهى تعاتبه فى رفق وتذكره بحبه القديم ، وما كان يجهر به من صادق الود والإخلاص ، ثم أعرض عنها وقال لها إنه يتركها للذئاب الضارية تفترسها أو ترحمها كما تشاء ، وراحت هى تجرى وراءه بأسرع ما تستطيع .

وكان ملك الجن طول حياته صديقاً للمحبين الأوفياء ، ومن أجل ذلك أخذته الرأفة بهلنا ، ولعل أُبرن قد رآها من قبل فى تلك الأيام السعيدة حين كان دمتريوس يهواها ، وقد سمع من ليسندر أنهما كانا يجوسان خلال هذه الغابة الجميلة فى ضياء القمر .

وسواء كان ذلك أو لم يكن ، فقد قال أُبرن لپك ناصحه الأمين حين عاد إليه ومعه الزهرة الأرجوانية الصغيرة : « خذ معك جزءاً من هذه الزهرة ، فقد جاءت إلى هذا المكان غادة أثينية حسناء تهيم بحب شاب صغير ، فإذا رأيته نائماً فضع بضع قطرات من عصير الحب فى عينيه ، واحرص على أن تفعل ذلك وهى قريبة منه ، حتى تكون هذه الفتاة التى يزدريها أول ما تقع عليه عيناه حين يصحو من نومه ، وستعرف هذا الشاب من الثياب الأثينية التى يرتديها » . وقال پك إنه سيمضى فى هذا العمل بكل ما وهب من حذق ومهارة ؛ ثم تركه أُبرن وجاء إلى تيتانيا فى عريشها من غير أن تراه ، وكانت وقتئذ تستعد للنوم . وكان عريش الجنية جسراً ينبت عليه الصعتر البرى وزهر الربيع والبنفسج النضير ، وتظلله قبة من

اللبلاب وورد المسك وورد الجبال ؛ وكان من عادة تيتانيا أن تنام فى هذا المكان بعض ساعات الليل ، وغطاؤها ثوب ثعبان مبرقش يحسبه الرائى صغيراً ولكنه يتسع لأن تلتف فيه جنية .

وألفى تيتانيا تأمر تابعاتها من الجن بما يجب عليهن أن يفعلنه وهى نائمة ، ومما قالته جلالتها : « ليمض بعضكن ويقتلن الأساريع فى براعم ورد المسك ، وليحارب بعضكن الخفافيش ليأخذن منها أجنحتها الجلدية يصنعن منها أردية لصغار الجن ، وليراقب بعضكن البوم كثير النعيق فلا يسمح له بالاقتراب منى ، ولكنى أحب أولاً أن أنام على صوت غنائكن » .

وأخذت الوصيفات يغنين هذه الأغنية :

« أيتها الأفاعى الرقطاء ذات اللسانين ،
ويا أيتها القنافذ أبعدى فلا تقع عليك العين .
ويا أيها الورل الصغير والدود الأعمى ،
اكففن كلكن شرّكن ،
ولا تقربن ملكة الجن .
ويا أيتها البلابل غن واطربيها بصوتك الشجى .
لُولا ، لُولا ، لُولا باى . لولا ، لولا ، لولا باى .
وليبعد عن سيدتنا الجميلة كل أذى وكل سحر ،
ألا نامى وعمى مساءً » .

ولما نامت ملكة الجن على غناء وصيفاتها وانصرفت الوصيفات ليقمن بما عهدت به إليهن من مهام ، اقترب أُبرن فى خفة من تيتانيا وألقى بقليل من عصير الحب على جفنيها وهو يقول :

« هيمى بحب من ترينه عندما تستيقظين من نومك » .

والآن فلنعد إلى هرميا التى خرجت من بيت أبيها فى تلك الليلة ، لتنجو بنفسها من الموت الذى قدر لها جزاء رفضها الزواج بدمتريوس . فلما جاءت إلى الغابة وجدت حبيبها ليسندر فى انتظارها ليأخذها إلى بيت عمته ؛ وقبل أن يجتازا

نصف الطريق داخل الغابة أحست هرميا بتعب شديد ، فأشار عليها ليسندر أن تستريح فوق كثيب من الأشنة الرطبة حتى الصباح . وكان ليسندر يعز هذه الفتاة ويحرص على راحتها بعد أن أثبتت له حبها بتعريض حياتها للخطر من أجله . ورقد هو على الأرض بالقرب منها ، وسرعان ما أخذ الكرى بمعاقد أجفانهما . وجاء پك إلى هذا المكان فرأى شابا وسيما نائما وعليه ثياب من الطراز الأثينى ، ورأى غادة حسناء نائمة بالقرب منه ، فلم يشك فى أنها هى الفتاة الأثينية وأن الشاب الذى ينام بالقرب منها حبيبها الغادر الذى أرسله أُبرن للبحث عنه ، وظن بطبيعة الحال أن أول ما ستقع عليه عين الشاب بعد أن يصحو من نومه هو هذه الفتاة ، إذ لا ثالث لهما فى هذا المكان . وعمد من فوره إلى وضع شىء من ماء الزهرة الأرجوانية الصغيرة فى عينه ؛ واتفق أن مرت هلنا بهذا المكان فكانت هى لا هرميا أول ما وقعت عليه عين ليسندر حين صحا من نومه . وكان من أغرب الأشياء أن قوة العصير السحرية بلغت من الشدة حدا ذهب معه كل ما كان فى قلبه من حب لهرميا ، وحل مكانه حب هلنا .

ولو أن هرميا كانت أول من رأى حين استيقظ من نومه لما كان للخطأ الذى وقع فيه پك أثر ما ، لأن حبه لهذه الفتاة الوفية لم يكن يعلو عليه حب ؛ ولكن أصعب الأمور على النفس وأدعاها للحسرة أن يخضع ليسندر لرقية حب من عمل الجن ، فينسى هرميا حبيبته الوفية ويجرى وراء فتاة غيرها ، ثم يتركها هى فى منتصف الليل نائمة وحدها بين أشجار الغابة .

ولكن هذا ما جرى به القدر المشئوم . لقد حاولت هلنا أن تلحق دمتريوس بعد أن أساء إليها بتركها فى الغابة ، ولكنها لم تستطع أن تجاريه طويلا ، لأن الرجال على الدوام أقدر من النساء على الجرى الطويل . وسرعان ما غاب دمتريوس عن عين هلنا ، وظلت هى تسير فى الغابة حزينة كاسفة البال حتى جاءت إلى المكان الذى ينام فيه ليسندر ، فلما رأته قالت : « عجبا هذا هو ليسندر ماثل على الأرض ، ترى أميت هو أم نائم ؟ » . ثم مسته بلطف وقالت : « إذا كنت حيا يا سيدى فاصح من نومك » ، وعندئذ فتح ليسندر عينه وبدأت رقية الحب تعمل عملها ،

فخاطبها من فوره خطاب المحب الواله ، وأبدى إعجابه بهـا ، وقال إن الفرق بين جمالها وجمال هرميا كالفرق بين الثريا والثرى ، وإنه يدخل النار من أجلها ، إلى غير ذلك من عبارات الوجد والهيام . وسمعت هلنا ليسندر يخاطبها بهـذه اللهجة فغضبت أشد الغضب ، فقد ظنت أنه يستهزئ بها ؛ وكان خليقا بها أن تظن ذلك لأنها كانت تعرف أن ليسندر حبيب صديقتها هرميا ، وأن بينه وبينها عهدا صريحا بزواجها ، فقالت : « واحسرتاه ! هل جئت إلى هذه الدنيا ليسخر منى ويستهزئ بى كل إنسان ؟ أما كفانى أيها الشاب ألا أحظى بنظرة عطف أو كلمة حنان من دمتريوس حتى تأتى أنت فتتظاهر بحبى هذا التظاهر المزرى ؟ لقد كنت أظنك يا ليسندر أكرم مما رأيت » ، قالت هذا فى حنق شديد ، ثم جرت من ذلك المكان فأخذ ليسندر يعدو خلفها ، ونسى حبيبته هرميا التى كانت لا تزال نائمة .

ولما استيقظت هرميا وألفت نفسها بمفردها وجلت من ذلك أشد الوجل ، وأخذت تجوس خلال الغابة وهى فى حيرة لا تدرى ما حل بليسندر ، ولا تعرف أين تذهب للبحث عنه . وكان دمتريوس فى ذلك الوقت قد عجز عن العثور على هرميا وغريمه ليسندر ، وأنهكه بحثه غير المجدى فنام نوما عميقا ؛ ورآه أُبرن على هذه الحال ، وكان قد عرف من أسئلة له ألقاها على پك أنه قد وضع رقية الحب فى غير العينين المقصودتين ، فلما أن وجد طلبته مس عينى دمتريوس بماء الحب فاستيقظ من فوره ، وكانت هلنا أول ما أبصر فأخذ يحدثها حديث الوجد والهيام كما فعل ليسندر من قبله . وفى هذه اللحظة أقبل ليسندر ومن ورائه هرميا ، وكانت هى التى تجرى الآن وراء حبيبها بسبب الغلطة المشئومة التى ارتكبها پك ، وشرع ليسندر ودمتريوس جميعا يغازلان هلنا ، لأن كليهما كان متأثرا بالرقية السحرية القوية .

ودهشت هلنا من ذلك أشد دهشة ، وظنت أن دمتريوس وليسندر وصديقتها القديمة هرميا كلهم يأتمرون بها ويسخرون منها .

ولم تكن هرميا أقل دهشة من هلنا ، لأنها لم تكن تعرف كيف أصبح ليسندر ودمتريوس يحبان هلنا ، وقد كانا من قبل يحبانها هى ؛ ولاح لهرميا أن

الأمر جد لا هزل ، وأخذت الفتاتان اللتان كانتا من أعز الأصدقاء تتبادلان قوارص الكلم .

فقالت هلنا : « ما أقساك يا هرميا ! إنك أنتِ التى حملت ليسندر على أن يغاضبنى بمديحه الساخر . وأما حبيبك الآخر دمتريوس ، فإنك أنت التى أمرته أن يسمينى إلهة وحورية ودرة فريدة بارعة الحسن قدسية الجمال .

« ولولا أنك قد أغريته بأن يسخر منى ما قال لى هذا القول لأنه كان يمقتنى من قبل . وهل بلغ من قسوتك يا هرميا أن تشتركى مع الرجال فى الاستهزاء بصديقتك البائسة ؟ وهل نسيت صداقة أيام الدراسة ؟ فكم من مرة يا هرميا جلسنا على وسادة واحدة نغنى معا أغنية واحدة ، وننقش معا زهرة واحدة على قطعة من القماش واحدة ، وقد مضت بنا الأيام ونحن لا نفترق كأننا فرقدان للمتأمل ، أو كأنما شققنا من نبعة واحدة . ليس من الصداقة يا هرميا ، بل ليس مما يليق بالفتيات ، أن تتآمرى مع الرجال على السخرية بصديقتك البائسة » .

وقالت هرميا : « إنى ليدهشنى منك هذا الكلام المحنق ، لست أسخر منك ، بل يلوح أنك أنت التى تسخرين منى » .

فأجابتها هلنا قائلة : « أسدرى فى غوايتك ، وتظاهرى بالجد ما استطعت ، فإذا التفتُّ فلوى شدقيك وتغامزى أنت ومن معك بالأجفان ، ولا تنقطعوا عن الهذر والاستهزاء . لو كان فى قلبك رحمة ، أو كنت على شىء من الظرف وحسن الخلق ، ما عاملتنى هذه المعاملة » .

وبينا كانت هلنا وهرميا تتبادلان قوارص الكلم تركهما دمتريوس وليسندر وذهبا يقتتلان فى الغابة ليقررا من منهما يفوز بحب هلنا .

ولما رأت الفتاتان أن الشابين قد فارقاهما غادرتا مكانهما ، وشرعتا تجولان فى الغابة مرة أخرى ، تبحثان عن حبيبيهما رغم ما حل بهما من تعب .

وكان ملك الجن وبك الصغير يستمعان حديث خصامهما ، فلما ذهبتا قال الملك لبك : « هذه عاقبة إهمالك ، أو لعلك قد فعلت فعلتك عامداً » ، فأجابه بك : « لا وحقك يا ملك الأطياف ، لقد كان ذلك عن خطأ وقع منى . ألم تقل لى أن

أتعرف الرجل بملابسه الآثينية ؟ على أننى لست آسفا لما حدث لأن فى خصامهم لذة أيما لذة » . فقال أبرن : « لقد سمعتَ أن دمتريوس وليسندر قد ذهبا يبحثان عن مكان صالح يقتتلان فيه ، فعليك أن تظلل الأرض طول الليل بضباب كثيف ، وأن تضل هذين العاشقين فى ظلام الليل حتى يعجز كلاهما عن لقاء صاحبه ، وقلد أنت لكل منهما صوت غريمه ، واسخر منهما سخرية تحمل كلا منهما على أن يسير وراءك وهو يظن أنه يسمع صوت خصيمه ، ولا تنقطع عن عملك حتى يضنيهما التعب فيعجزا عن مواصلة السير ؛ فإذا وجدتهما قد استغرقا فى النوم فضع ماء هذه الزهرة الثانية فى عينى ليسندر ، حتى إذا استيقظ نسى حب هلنا الجديد ورجع إلى حب هرميا القديم ، وعندئذ تسعد كلتا الفتاتين بالشاب الذى تحبه ، وسيظنون جميعاً أن كل ما حدث لم يكن إلا حلماً من الأحلام المزعجة . أسرع ياپك وافعل ما آمرك به ، أما أنا فسأذهب لأرى أى حبيب وجدته تيتانيا » .

وجاء أُبرن إلى موضع تيتانيا فألفاها لا تزال نائمة ، ووجد بجوارها مُهَرِّجا قد ضل الطريق فنام هو أيضاً بين الأشجار . وقال أُبرن : « سيكون هذا الإنسان محبوب تيتانيا الحقيق ؛ ثم ألصق فوق رأس المهرج رأس حمار فوافقه كأنه قد خلق له ؛ ووضع أُبرن رأس الحمار فى موضعه بخفة وعناية ، ولكنه مع ذلك أيقظ الرجل فقام وهو لايدرى ما فعل به أُبرن ، ومشى نحو العريش الذى كانت ملكة الجن تنام فيه .

وفتحت تيتانيا عينها ، وأخذ عصير الزهرة الصغيرة الأرجوانية يعمل عمله فقالت : « ما هذا الملاك الذى أرى ؟ تُرى هل فيك من العقل بقدر ما فيك من الجمال ؟ » ، فأجابها المهرج الأبله بقوله : « لو أن لى ياسيدتى من العقل مايدلنى على الطريق الذى أخرج به من هذه الغابة لكفانى ولم أطلب مزيداً » .

فقالت له الملكة المستهامة : « لا تفكر فى الخروج من الغابة ، أنا جنية من أرقى طبقات الجن ، وقد أحببتك فتعال معى آتك بجنيات تخدمك . ثم نادت أربعاً من جنها ، وهن زهرة القطانى ونسج العنكبوت والعث وبذرة الخردل ، وقالت لهن : « قفن بين يدى هذا السيد الجميل ، واقفزن فى طريقه ، والعين أمام

ناظريه ، وأطعمنه عنباً ومشمشاً ، واسرقن له أكياس العسل من بطون النحل » ، ثم قالت للمهرج : « تعال اجلس إلى جانبي ، ودعني أعبث بخديك الأشعرين اللطيفين ، وأقبل أذنيك الكبيرتين الجميلتين يا مصدر سروري وبهجتي » .

ولم تكن لهذه العبارات ، عبارات المودة والحب ، أثر في نفس المهرج الذي استبدل برأسه رأس الحمار ، ولذلك لم يعبأ بها ، ولكنه أخذ يتيه عجباً بخادماته الجدد ، فبدأ يناديهن واحدة في إثر واحدة ، وقال : « أين زهرة القطاني ؟ » .

فأجابته : « هأنذا ياسيدي » ، فقال : « حكي بأظافرك رأسي . وأين نسيج العنكبوت ؟ » ، فقالت هي الأخرى : « لبيك يامولاي » .

فقال لها المهرج المغفل : « يانسيج العنكبوت الطيبة ، اقتلي هذه النحلة الوضيعة التي حطت على تلك العوسجة البعيدة ، واحرصي يا نسيج العنكبوت الطيبة على أن تأتيني بمدخر عسلها ، ولا تجهدي نفسك فوق ما يجب عليك يا نسيج العنكبوت ، وإياك أن تمزقي كيس العسل فلست أحب أن يغمرك ما فيه ، وأين بذرة الخردل ؟ » ، فأجابته : « هأنذا ياسيدي في انتظار أوامرك » . فقال : « لست أريد منك يابذرة الخردل الطيبة إلا أن تعيني زهرة القطاني على حك رأسي . لابد لي يابذرة الخردل من الذهاب إلى الحلاق لأني أظن أن شعر وجهي قد طال كثيراً » .

وقالت ملكة الجن : « ماذا تريد أن تأكل ياحبيبي ؟ إن لدي جنية جريئة في وسعها أن تذهب إلى بيت السنجاب وتأتيك ببعض ما فيه من البندق الجديد » .

فقال لها المهرج وقد أصبح له ما للحمار من شهوة للطعام ، بعد أن ركّب عليه رأس حمار : « إني أفضل أن تأتيني بحفنة من حب القطاني الجاف . على أني أرجو ألا يقلقني أحد من أتباعك فإني أحب أن أنام » :

فقالت الملكة : « فلتنم إذاً بين ذراعي ، إني أحبك ، وكم ذا أكابد من حبك » .

ولما رأى ملك الجن المهرج نائماً بين ذراعي ملكته اقترب منها حتى وقعت العين على العين ، وأخذ يؤنبها على ما أحاطت به الحمار من حب .

ولم يكن في مقدورها أن تنكر هذا الحب لأن المهرج كان وقتئذ بين ذراعيها ،

وقد كللت بالأزهار رأس الحمار الذى كان فوق كتفيه .

وظل أُبرن يضايقها بعض الوقت ، ثم طلب إليها أن تعطيه الطفل المبدول ، فلم تجرؤ على رفض طلبه بعد أن كشف ما كان من أمرها مع عشيقها الجديد .

ولما استحوذ أُبرن بهذه الطريقة على الطفل الذى كان يريده خادماً له ، رثى لحال تيتانيا وما أصابها من بلاء أوقعها فيه بتدبيره المرح ، فألقى ببضع قطرات من ماء الزهرة الثانية فى عينيها ، فاستعادت ملكة الجن حواسها ، وعجبت أشد العجب من غرامها السابق ، وقالت إنها الآن لا تطيق رؤية هذا المخلوق العجيب .

ثم انتزع أُبرن رأس الحمار عن كتفى المهرج ، وتركه يغط فى نومه وعلى كتفيه رأسه هو يحشوه السخف .

ولما زال ما كان بين أبرن وتيتانيا من خلاف ، أخذ يقص عليها قصة المحبين وما وقع بينهم من نزاع فى منتصف الليل ، واتفقا على أن تذهب معه لترى خاتمة أمرهم .

ووجد ملك الجن وملكتهم العاشقين ومعشوقتيهما الجميلتين ، وكلهم نائمون على الكلأ متقاربين ، لأن پك أراد أن يكفر عن ذنبه السابق فعمل على أن يأتى بهم جميعاً إلى مكان واحد دون أن يشعروا هم بذلك ؛ وكان قد عُنى بإزالة الرقية السحرية من عينى ليسندر بالعصير الذى أعطاه إياه ملك الجن .

وكانت هرميا أول من استيقظ من النوم ، فوجدت ليسندر بالقرب منها بعد أن ضلت السبيل إليه فى الغابة ، فأخذت تنظر إليه وتعجب من تقلبه الغريب . ثم فتح ليسندر عينيه ورأى حبيبته هرميا فعاد إليه صوابه الذى ذهبت به رقية الجن ، وعاد إليه معه حب هرميا ، فأخذا يذكران ما جرى لهما فى تلك الليلة وهما لا يدريان أكان ذلك حقيقة واقعة أم كانا يريان حلماً واحداً عجيباً .

واستيقظ دمتريوس وهلنا بعد أن سكن النوم الهادئ اللذيذ من روعها وأزال ثورة نفسها واضطرابها ، فأخذت تستمع فى سرور إلى ما كان يجهر به دمتريوس من حب لها ، وبدأت تدرك فى غبطة ودهشة أنه صادق فى حبه .

ولم يبق الآن سبب للتنافس بين هاتين الفتاتين اللتين كانتا تجوبان الغابة بالليل ،

فعادتا كما كانتا صديقتين وفيتين ، ونسيت كلتاهما ما فاهت به الأخرى من قوارص الكلم ، وأخذتا تتشاوران فيما يجب عليهما أن تعملاه فى موقفهما الجديد . وسرعان ما تم الاتفاق بينهما على أن يسعى دمتريوس لدى والد هرميا فى أن يستصدر منه عفواً عن الحكم القاسى الذى قضى بإعدام ابنته ، بعد أن نزل هو عن حقه قِبَلها .

وبينا كان دمتريوس يتأهب للعودة إلى أثينا ليسعى ذلك السعى الحميد ، إذا به هو وزملائه يفاجَئون بمقدم إجيوس والد هرميا ، وقد جاء إلى الغابة فى أثر ابنته الآبقة .

ولما علم إجيوس أن دمتريوس لم يعد يرغب فى الزواج بابنته ، لم يعارض فى زواجها بليسندر ؛ وقَبِل أن يعقد له عليها بعد أربعة أيام من ذلك اليوم ، أى بعد مرور عام كامل على اليوم الذى صدر فيه الحكم بإعدامها . وقبلت هلنا بغبطة أن تتزوج فى نفس اليوم حبيبها دمتريوس بعد أن وثقت من إخلاصه لها .

وسر ملك الجن وملكتهم أيما سرور من عودة المياه إلى مجاريها بين هؤلاء المحبين ، وكانا فى أثناء ذلك يشاهدان خفية هذه الخاتمة السعيدة التى اختتمت بها قصتهم بفضل جهود أبرن الموفقة الطيبة . وبلغ من سرور هذين الزوجين الطيبين أن قررا على أن يحتفلا هما أيضاً بزفافهم ، فيمرح الجن ويقصفون فى جميع أرجاء مملكتهم .

والآن وقد انتهت هذه القصة إذا كان أحد قد ساءه ما قرأ فيها عن الجن وحيلهم ، ورأى ذلك غريباً لا يصدقه العقل ، فليظن أنه كان نائماً يحلم ، وأن ما فيها من مخاطرات كان كله أضغاث أحلام . ولعل أحداً من القراء لا يبلغ به السخف مبلغاً يحمله على الاستياء من ذلك الحلم اللطيف الذى لا ضرر فيه ، حلم ليلة فى منتصف الصيف .

قصة الشتاء

كان لينتيس Leontes ملك صقلية وهرميون Hermione ملكتها الطاهرة الحسناء يعيشان فى وئام وصفاء كأحسن ما يعيش الزوجان . وكان لينتيس سعيداً منعما يحب هذه السيدة الفاضلة حباً نال به كل ما يشتهى ، ولم يكن ينقصه إلا شىء واحد يرغب فيه ، ذلك أنه كان يود أحياناً أن يرى رفيقاً له قديماً كان زميلا له فى أيام الدراسة ، وهو پلكسينس Polixenes ملك بوهيميا Bohemia ، وأن يعرفه بزوجته . وكان لينتيس وپلكسينس قد درجا معاً منذ نعومة أظفارهما ، ثم فرق بينهما موت أبويهما ، فقد دعى كل منهما لأن يجلس على عرش مملكته ، ولم يلتقيا منذ عهد طويل وإن كانا كثيراً ما يتبادلان الهدايا والكتب والرسائل الحبية .

ودعا لينتيس صديقه لزيارته مراراً ، وأخيراً لبى پلكسينس دعوته وجاء من بلاد بوهيميا إلى بلاط ملك صقلية فى زيارة لصديقه .

ولم تبعث هذه الزيارة أول الأمر إلا السرور الخالص فى نفس لينتيس ، وبلغ من سروره برفيق صباه أن أوصى الملكة أن تعنى به عناية خاصة . وكان يبدو فى حضرة ذلك الصديق العزيز والزميل القديم وكأنه قد كملت أسباب سعادته . وأخذا يتحدثان عن العهود الخالية ويذكران أيام الدراسة ومرح الشباب ، ويقصان حديث ذلك كله على هرميون ، وكانت هى على الدوام تشترك فى هذا الحديث وهى فرحة مغتبطة .

وأقام پلكسينس فى ضيافة صديقه زمناً طويلا ، ثم شرع بعد ذلك يعد العدة للرحيل ، ولكن لينتيس أخذ يتوسل إليه أن يطيل المكث عنده ، وانضمت هرميون إلى زوجها فى هذا الرجاء إجابة لرغبته .

ومن هذه الساعة بدأت أحزان هذه الملكة الطيبة ، وذلك أن پلكسينس الذى أبى أن يطيل مقامه إجابة لرغبة لينتيس لم يستطع أن يرفض رجاء هرميون بل تغلبت عليه برقيق لفظها وقوة حجتها ، فرضى أن يؤجل سفره بضعة أسابيع ؛

وعندئذ تملكت لينتيس غيرة جامحة رغم ما كان يعلمه عن صديقه پلكسينس من شرف واستقامة ، وعن الملكة من نبل وطهارة . وكانت نيران الغيرة تزداد تأججاً فى قلب هذا الملك البائس كلما أظهرت هرميون شيئاً من العناية پلكسينس ، وإن لم يكن ذلك إلا إجابة لطلب زوجها ورغبته فى إدخال السرور عليه . وأصبح لينتيس بين يوم وليلة وحشاً ضارياً غليظ الكبد ، وهو الذى كان من قبل صديقاً محباً مخلصاً ، وزوجاً هو خير الأزواج وأشدهم وفاء . ومن أجل ذلك استدعى إليه كملو Camillo ، وهو شريف من كبار رجال حاشيته ، وأطلعه على ما يساوره من شكوك ، ثم أمره أن يدس السم لپلكسينس .

وكان كملو رجلا طيب القلب ، وكان يعرف أن الغيرة التى تأكل قلب لينتيس لا تستند إلى أساس صحيح ، فلم يدس السم لپلكسينس ، بل أطلعه على أوامر مولاه الملك ، واتفق معه على أن يخرجا معاً من بلاد صقلية . وكذلك نجا پلكسينس بفضل معونة كملو ووصل هو وزميله سالمين إلى مقر ملكه فى بوهيميا . وكان كملو يقيم بعض الوقت فى بلاط الملك ، وأصبح من ذلك الحين أعظم أصدقائه وأقرب المقربين إليه .

واستشاط لينتيس غضباً حين علم بهروب پلكسينس ، فذهب إلى مخدع الملكة فرآها جالسة مع ابنها مماليس Mamillius الصغير ، وكان قد بدأ فى تلك اللحظة يقص على أمه قصة من أمتع ما يعرف من القصص ليسليها بها ، فدخل عليهما الملك وانتزع الطفل منها ، وبعث بها إلى السجن .

وكان مماليس طفلا صغيراً ، ولكنه كان يحب أمه حباً جماً ، فلما شاهد ما لاقته من مذلة ومهانة ، وعلم أنها قد انتزعت منه لتلقى فى غيابة السجن ، أمضه ذلك وآلم قلبه ، وأكسف باله وضعضعه ، وحرمه شهوة الطعام ولذة النوم ، حتى ظن الناس أن الحزن لا محالة قاتله .

ولما أرسل الملك هرميون إلى السجن أمر كليومينس Cleomenes وديون Dion ، وهما من أشراف صقلية ، أن يذهبا إلى دلفوس Delphos ليعرفا من مهبط الوحى فى معبد أپلو أخانته الملكة أم لم تخنه .

أما هرميون فإنها بعد أن لبثت فى السجن بعض الوقت وضعت طفلة صغيرة كان منظرها الجميل يبعث السلوى فى نفسها ؛ وقالت لها يوماً : « أيتها السجينة الصغيرة المسكينة إننى بريئة من الذنب براءتك منه » .

وكان لهرميون صديقة رحيمة شريفة النفس تدعى پولينا Paulina ، وهى زوجة شريف من أشراف صقلية يدعى أنتجون Antigonus ، فلما سمعت پولينا أن سيدتها الملكة قد وضعت طفلة ذهبت إلى سجنها وقالت لإمليا Emila حارستها : « أرجو منك يا إمليا أن تبلغى جلالة الملكة أنها إذا رأت أن تعهد بطفلتها إلى فإنى سآخذها إلى أبيها الملك ، ومن يدرينا لعل قلبه يرق لها عند ما يرى هذه الطفلة البريئة ؟ » فأجابتها إمليا قائلة : « أيتها السيدة الكريمة ! سأنقل إلى الملكة هذا العرض النبيل . لقد كانت فى هذا اليوم تتمنى أن تجد من الأصدقاء من يجرؤ على تقديم طفلتها إلى الملك » . وواصلت پولينا حديثها قائلة : « وقولى لها إنى سأدافع عنها أمام لينتيس ولا أخشى شيئا » فأجابتها إمليا بقولها : « بارك الله فيك طول حياتك جزاء ما تحسنين للملكتنا الكريمة » . ثم جاءت إمليا إلى هرميون وعرضت عليها الأمر ، وسر الملكة السجينة أن تعهد بطفلتها إلى عناية پولينا لأنها كانت تخشى ألا تجد إنسانا يرضى أن يجازف بتقديم الطفلة إلى أبيها .

وأخذت پولينا الطفلة المولودة ودخلت بها حجرة الملك قوة واقتدارا ، وحاول زوجها أن يمنعها من الدخول لخوفه من غضب الملك عليها ، ولكنه لم يقو على ذلك . ثم وضعت الطفلة عند قدمى أبيها ودافعت أمامه عن هرميون دفاعا مجيدا ، ولامته أشد اللوم على قسوته ، وتضرعت إليه أن يرأف بزوجه وطفلته البريئتين . ولكن دفاع پولينا القوى لم يكن له من أثر إلا مضاعفة غضب لينتيس ، ولذلك أمر زوجها أنتجون أن يخرجها من حضرته .

وخرجت پولينا من حضرة الملك ، ولكنها تركت الطفلة عند قدميه ، ظنا منها أنه إذا خلا بنفسه نظر إليها وأخذته الرأفة بها ، فأثر فيه طهرها وضعفها .

ولكن پولينا قدرت فأخطأت التقدير . ذلك أنها لم تكد تخرج من عنده

حتى أمر الوالد القاسى زوجها أنتجون أن يأخذ الطفلة ويخرج بها ويلقيها على شاطئ قفر لتهلك .

ولم يفعل أنتجون ما فعله الرجل الطيب كملو ، بل فعل ما أمره به لينتيس ، وأخذ الطفلة من فوره على ظهر سفينة وسار بها فى البحر ليلقيها على أول شاطئ قفر يعترضه . وأيقن الملك بجريمة هرميون فلم يشأ أن يصبر حتى يرجع إليه كليومينس وديون ، وهما اللذان أرسلهما إلى مهبط وحى أبلوفى دلفوس ، بل أمر أن يؤتى بالملكة لتحاكم علنا أمام جميع نبلاء البلاط وأشرافه . ولما اجتمع أعيان البلاد وقضاتها ونبلاؤها لمحاكمة هرميون ، وجىء بالملكة التعسة من السجن لتسمع حكم رعاياها عليها ، أقبل كليومينس وديون على هذا الجمع الحاشد ، وسلما الملك جواب الوحى فى غلاف مختوم . وأمر لينتيس أن تفض الأختام وتقرأ رسالة الوحى جهرة ، فإذا بها تقول : « هرميون بريئة ، وپلكسينس غير ملوم ، وكملو من الرعايا الأوفياء الصادقين ، ولينتيس ظالم حسود ، وسيعيش الملك ولا وارث له إذا لم يُرَدَّ ما ضاع » . لكن الملك لم يثق بقول الوحى ، وأعلن أن ما جاء بالرسالة كذب اكتتبه أصدقاء الملكة ، وطلب إلى القاضى أن يستمر فى محاكمتها . وبينا هو فى حديثه إذا برجل يدخل عليه ويخبره أنه لما سمع الأمير مماليس بأن الملكة قد وقفت أمام القضاء ليحكم عليها بالموت ، فت الحزن والمهانة فى عضده فقضى نحبه لساعته .

وسمعت هرميون بموت طفلها العزيز عليها الكلف بحبها ، الذى قضى نحبه حزنا عليها فى بؤسها ، فخارت قواها وغشى عليها . وآلم هذا النبأ المحزن قلب الملك فبدأ يشفق على هذه الملكة التعسة ، وأمر پولينا ومن كان حولها من نساء الحاشية أن يخرجن بها ويعملن على إعادة الحياة إليها . لكن پولينا عادت إلى الملك من فورها ، وأبلغته أن هرميون قد قضت نحبها .

ولما سمع لينتيس بموت الملكة ندم على قسوته لها ، وعرف أن سوء فعاله هو الذى قطع نياط قلبها . وأيقن عندئذ أنها بريئة ، وأن الوحى قد نطق بالحق ، وأنه لن يكون له من يرث ملكه من بعده « إن لم يُرَدَّ ما ضاع » . وظن بعد أن مات

الأمير مليس أن ما ضاع هو ابنته ، وكان يود لو عادت إليه هذه البنية المفقودة وإن نزل فى سبيل ذلك عن جميع مملكته . وأكسف الحزن باله وقضى سنين طوالا واجما تتوزعه الفكر وتتقسمه الهموم ، ويعض بنان الندم على ما جنت يداه .

وهبت عاصفة على السفينة التى كان أنتجون يحمل فيها الطفلة الأميرة ، فدفعت بها إلى شاطئ بوهيميا (١) ، وهى البلاد التى كان يحكمها الملك پلكسينس فنزل أنتجون فى أرضها وترك الطفلة المولودة فيها .

ولم يعد أنتجون إلى صقلية ليخبر لينتيس عن موضع ابنته ، وذلك لأن دُباً خرج عليه من بين الأشجار وهو عائد إلى السفينة ومزقه إرباً ، فنال بذلك ما استحقه من عقاب ، إذ أطاع أمر الملك لينتيس الظالم الأثيم .

وكان لباس الطفلة فاخراً غالياً ، وكانت قد زُيِّنت بالجواهر الثمينة ، لأن هرميون قد جملتها قبل أن ترسلها إلى لينتيس ، وألصق أنتجون على ميدعتها ورقة كتب فيها پرديتا ، Perdita ومعناها «المفقودة» ، وبعض ألفاظ أخرى تشير فى غموض إلى منشأ الطفلة السامى وحظها السيئ .

وعثر راع على هذه الطفلة المنبوذة المسكينة ، وكان رجلا رحيما ، فأخذ پرديتا الصغيرة إلى داره وأسلمها إلى زوجته ، فقامت على تربيتها والعناية بها . ولكن الفقر أغرى هذا الراعى أن يخفى هذه اللقية الثمينة ، فنزح عن هذا المكان حتى لا يعرف إنسان مصدر ثرائه ، وابتاع ببعض جواهر پرديتا قطعاناً من الماشية والضأن ، وأصبح من أكثر الرعاة ثروة ، ونشأ پرديتا على أنها ابنته ، فلما كبرت لم تكن تعرف إلا أن الراعى هو أبوها .

وأصبحت پرديتا الصغيرة بعد أن كبرت من أجمل الفتيات ؛ ومع أنها لم تنل من التعليم أكثر مما يناله بنات الرعاة ، فإن ما ورثته عن أمها الملكة من شمائل قد

---

(١) لا حاجة بنا إلى أن ننبه القارئ إلى أن بوهيميا بلاد لا شاطئ لها ولم يكن لها فى ذلك الزمن شاطئ ، ولكن شيكسپير لا يعبأ بعلم الجغرافيا كما لا يعبأ بعلم النحو أو بفقه اللغة . (المترجم)

بدا سناه فى عقلها الذى لم يرنه نور العلم ، ولذلك لم يكن يظن من رآها إلا أنها قد ربيت فى قصر أبيها .

وكان لپلكسينس ملك بوهيميا ابن وحيد يدعى فلرزل Florizel ؛ وكان هذا الأمير يصطاد فى يوم من الأيام على مقربة من بيت الراعى ، فوقعت عينه على ابنته المزعومة ، وأعجب بجمالها وخفرها وسلوكها الذى ينم عن نشأتها الملكية ، فأحبها لساعته ، وأخذ من ذلك الوقت يتردد على دار الراعى الشيخ متنكراً فى زى رجل عادى ، وسمى نفسه دركليز Doricles .

ولما تكرر غياب فلرزل عن بلاط پلكسينس أوجس الأب فى نفسه خيفة ، ورصد على ابنه العيون ليراقبوه وليوافوه بجلية أمره ، فعرف منهم حبه لابنة الراعى الحسناء .

ومن أجل ذلك دعا إليه كملو الوفى الذى أنقذ حياته من غضب لينتيس ، وطلب إليه أن يرافقه إلى بيت الراعى والد پرديتا المزعوم .

وجاء پلكسينس وكملو متنكرين إلى مسكن الراعى الشيخ ، فى يوم كان يحتفل فيه بعيد جز الأغنام ، وأدخلهما الراعى إلى مسكنه ودعاهما إلى مشاركته هو وأهله فى حفلاتهم ، ولم يمنعه من ذلك أنهما غريبان فى داره ، لأن من عادة الرعاة أن يرحبوا بكل زائر فى عيد الجز .

وكانت الدار كلها تفيض مرحا وسروراً ، وقد مدت فيها الموائد وأخذ أهلها يستعدون لذلك العيد الريفى . وكان بعض الفتيان والفتيات يتراقصون على الكلأ خارج الدار ، وكان غيرهم من الشبان يبتاعون من بائع جوال عند بابها أشرطة وقفازات وما إلى ذلك من الأشياء .

وبينا كان ذلك الهرج يحدث خارج الدار كان فلرزل وپرديتا يجلسان فى هدوء فى ركن بعيد من أركانها ، وكان حديثهما أحب إليهما من الاشتراك مع من حولهما فى لعبهم ولهوهم السخيف .

وبالغ الملك فى تنكره حتى عجز ابنه عن أن يتبينه ، واستطاع بذلك أن يقترب منهما ويسمع حديثهما . ولشد ما كانت دهشة پلكسينس حين رأى ظرف پرديتا

ورقة حديثها رغم ما فيه من سذاجة ، فقال من فوره لكملو : « تلك أجمل فتاة من بنات السوقة رأتها عيناى ، وما من شىء تقوله أو تفعله إلا وهو ينم عن شىء أعظم منها وأنبل من أن تحتويه هذه الدار » .

فأجابه كملو : « حقا إنها زينة الفتيات ودرة تاجهن » .

ثم قال الملك للراعى : « أتعرف أيها الصديق الطيب من هذا الفتى الوسيم الذى يتحدث إلى ابنتك ؟ » ، فأجابه الراعى : « إنهم يُسمونه دركليز وهو يقول إنه يحب ابنتى ، ولست أدرى أيهما يحب الآخر أكثر من صاحبه ؛ وإذا استطاع الفتى دركليز أن يتخذها له زوجة فستأتى له بما لم يكن يحلم به » ، وكان يشير بقوله هذا إلى مابقى من جواهر پرديتا التى ادخرها لتكون مهراً لها عند زواجها ، بعد أن أنفق بعضها فى ابتياع غنمه .

ثم خاطب پلكسينس ابنه قائلا : « أيها الشاب يلوح أن قلبك مفعم بأشياء تصرفك عن الاستمتاع بهذا العيد ؛ لقد كنتُ فى أيام شبابى أُكثر من الهدايا لمن أحب ، أما أنت فقد تركت البائع الجوال يذهب من هذا المكان ولم تشتر منه ما تهديه إلى حبيبتك » .

فأجابه الأمير الشاب وهو لايعرف أنه يحدث أباه الملك : « سيدى الشيخ إنها لا تعبأ بهذه السفاسف ؛ إن الهدايا التى تنتظرها منى مكنونة فى قلبى » . ثم التفت إلى پردينا وقال : « أى پرديتا اصغ إلى ما أحدثك به أمام هذا الشيخ ، وأكبر الظن أن طائف الحب قد طاف بقلبه فى شبابه ، سوف يسمع هذا الشيخ ما أعاهدك عليه » . ثم طلب فلرزل إلى الشيخ الغريب أن يشهد عليه بأنه قد عاهد پردينا عهداً مقدساً بأن يكون زوجا لها وقال له : « أرجو منك أن تكون شاهداً على هذا العهد » .

فأجابه الملك بعد أن كشف عن حقيقة أمره : « سأكون شاهداً على طلاقها منك أيها الشاب » . ثم أخذ پلكسينس يوجه اللوم لولده على جرأته فيما عاهد عليه هذه الفتاة الوضيعة ، وأنذرها بأنه سوف يقتلها هى وأباها الراعى العجوز شر قتلة ، إذا سمحت لابنه أن يراها بعد تلك اللحظة .

وتركهما الملك بعد ذلك وهو مغيظ محنق ، وأمر كلو أن يلحق به ومعه الأمير فلرزل . وأثار تهكم پلكسينس ما كان فى نفس پرديتا من عزة ملكية ، فلما غادر الملك الدار قالت لحبيبها : « إننى ما خفت قط رغم ما يحيق بنا كلنا من مكروه ، ولقد هممت مرة أو مرتين أن أخبره فى صراحة أن الشمس التى تطلع على قصره الملكى لا تحجب وجهها عن كوخنا هذا ، بل تطلع عليهما جميعاً » .

ثم قالت والحزن ملء فؤادها : « والآن وقد تبدد ذلك الحلم اللذيذ فإنى لن أكون ملكة بعد اليوم ، فدعنى أيها الحبيب أحلب النعاج وأذرف الدموع » .

وأعجب الرجل الطيب القلب كلو بشجاعة پرديتا وحسن تصرفها ، ورأى أن الأمير الشاب يحب الفتاة حبا لا يستطيع معه أن يفارقها طوعا لأمر أبيه الملك ، فأخذ يفكر فى وسيلة ينفع بها الحبيبين ويقضى بها حاجة فى نفسه عزيزة عليه .

فقد كان كلو يعرف منذ زمن طويل أن لينتيس ملك صقلية قد ندم ندما صادقا على ما فعل ، وكان هو نفسه يحن إلى وطنه وإلى رؤية مولاه الملك رغم صداقته لپلكسينس وقربه منه ؛ ولذلك عرض على فلرزل وپرديتا أن يصحباه إلى بلاط ملك صقلية . وهو يعاهدهما بأن لينتيس سوف يحميهما حتى يسعى هو لدى پلكسينس فيعفو عنهما ويوافق على زواجهما .

ورضيا بذلك مغتبطين ؛ وهيأ كلو كل ما يلزم لهربهما ، وسمح للراعى العجوز بأن يصحبهما ، وأخذ الراعى معه ما بقى من جواهر پرديتا ، وما كانت تلبسه من الملابس فى طفولتها ، والورقة التى عثر عليها مدبسة فى ميدعتها .

ووصل فلرزل وپردينا وكلو والراعى الشيخ سالمين إلى قصر لينتيس بعد رحلة جميلة موفقة . وكان لينتيس لا يزال حزيناً على موت هرميون وفقد طفلته ، ولكنه أحسن استقبال كلو ، ورحب بالأمير فلرزل وأكرم مثواه ؛ وعرفه فلرزل بپرديتا قائلا إنها أميرته .

ولاحظ الملك أن هذه الأميرة تشغل بال لينتيس وتملك عليه لبه ، وأضرم قلبه الحزن من جديد لما أن شاهد ما بينها وبين الملكة الميتة هرميون من شبه ، وأعلن أنه لو لم يكن قد قسا على ابنته وأهلكها لقال إنها هى هذه الفتاة الجميلة

بعينها ، ثم التفت إلى فلرزل وقال له : « وفى ذلك الوقت أيضاً فقدت صحبة أبيك الشهم وصداقته ، وإن رغبتى فى أن أشاهده الآن لأشد من رغبتى فى حياتى » .

ولما سمع الراعى الشيخ بما لقيته پرديتا من عناية الملك ، وعرف أنه قد فقد ابنة له تركت فى العراء فى أثناء طفولتها ، أخذ يفكر فى الوقت الذى عثر فيه على پرديتا الصغيرة والحالة التى لقيها عليها ، وجواهرها وكل ما يدل على شرف محتدها ، ولم يكن ثمة مفر من أن يؤدى به تفكيره إلى الحكم بأن پرديتا هى بعينها ابنة الملك المفقودة .

واستمع فلرزل وپردينا وكملو وپولينا المخلصة الأمينة للراعى الشيخ وهو يصف للملك حال الطفلة عند ما عثر عليها ، والظروف التى قتل فيها أنتجون ، لأنه قد شاهد الدب وهو يفترسه . ثم أظهر له الميدعة الثمينة فتذكرت پولينا أنها هى بعينها التى لفت فيها هرميون ابنتها ، ثم أخرج له بعد ذلك جوهرة ذكرت پولينا أن هرميون قد علقتها حول عنق پردينا ، وأطلعهم على ورقة مكتوبة عرفت فيها پولينا خط زوجها ، فلم يبق بعد ذلك شك فى أن پرديتا ابنة الملك حقا . ولشد ما عانت پولينا فى نفسها من كفاح بين حزنها على زوجها ، وسرورها من تحقق نبوءة الوحى ، إذ عادت إلى الملك وارثة عرشه ، وهى ابنته التى طال العهد بفقدها . ولما سمع لينتيس أن پرديتا هى ابنته استولى عليه الحزن لأن هرميون لم تكن حية فترى ابنتها ؛ وظل وقتاً طويلا واجماً لا يقوى على النطق بشىء اللهم إلا قوله : « أمك ! أمك ! » .

وبدّلت پولينا هذا الموقف السار المؤلم معاً بأن أخبرت لينتيس أن لديها تمثالا قد فرغ الآن من نحته المثال الإيطالى الشهير چوليو رومانو Julio Romano ، وهو لا يفترق عن الملكة فى شىء ، فإذا سمح جلالة الملك بالذهاب معها إلى منزلها ونظر إليه ، ما تردد فى الحكم بأنه يرى هرميون نفسها . وذهبوا كلهم من فورهم إلى دار پولينا ، لأن الملك كان شديد الرغبة فى أن يرى تمثال هرميون ، ولأن پردينا كانت تتوق إلى أن تعرف كيف كانت أمها التى لم ترها قط .

وأزاحت پولينا الستار عن ذلك التمثال العظيم ، فبدا كأنه هرميون نفسها ،

ولم يكد الملك يراه حتى عاد إليه حزنه وظل برهة طويلة لا يقوى على الحركة أو الكلام .

وقالت پولينا : « إنى أحب منك هذا السكوت يا مولاى ، لأنه يفصح عن دهشتك أكثر مما يفصح عنها الكلام . أليس هذا التمثال شبيهاً كل الشبه بالملكة ؟ »

وقال الملك أخيراً : « هكذا كانت وقفتها ، وكذلك كانت عظمتها حين خطبتها ، لكنها يا پولينا لم تكن قد بلغت هذه السن التى تبدو فى هذا التمثال » .

فأجابته پولينا . « وهذا دليل آخر على براعة المثال ، فقد صنع التمثال بحيث يبدو كما كانت تبدو هرميون لو أنها عاشت إلى الآن . ولكن أيسمح لى يا مولاى أن أسدل الستار لئلا يظن الآن أن التمثال يتحرك ؟ » .

فقال الملك : « كلا لا تسدلى الستار . ليتنى لم أعش إلى الآن ! انظر إليه يا كملو ، ألا تظن أنه يتنفس ؟ إن عينها لتبدو وكأنها تتحرك » .

فأجابته پولينا بقولها : « لا بد أن أسدل الستار يا مولاى ، لأننى أخشى أن يحملك ما أنت فيه من ذهول ودهشة على الاعتقاد بأن التمثال حى » .

فقال لها لينتيس : « بحقك يا پولينا إلا ما جعلتنى أعتقد هذا عشرين عاما طوالا ، وإنى ليخيل إلى أن الهواء يأتى إلىَّ من جهتها ، فأى إزميل هذا الذى يستطيع أن ينحت الأنفاس ، بحقكم لا تسخروا منى ، لا بد أن أقبلها » .

فأجابته پولينا : « لا تقدم على ذلك يا مولاى ، إن الصبغة الحمراء التى على شفتيها لم تجف ، فإن قبلتها لوثت شفتيك بهذه الصبغة الزيتية ، فهل تسمح لى أن أسدل الستار ؟ » فقال لينتيس : « لا لن تسدليه قبل عشرين عاما » .

وكانت پرديتا طوال هذا الوقت راكعة تنظر فى سكون وإعجاب إلى تمثال أمها العظيمة ، فلما سمعت جواب أبيها قالت : « وفى وسعى أن أقيم هنا عشرين عاماً أيضاً أتمتع فيها ناظرى برؤية أمى العزيزة » .

وقالت پولينا للملك : « إما أن تهدئ من سورة عواطفك وتسمح لى أن أسدل الستار ، وإما أن تستعد لما هو أعجب من ذلك ؛ إن فى وسعى أن أجعل التمثال يتحرك ، أجل يتحرك وينزل عن قاعدته ويأخذ بيدك ؛ ولكنك ستظن

وقتئذ أنى أستعين على ذلك بقوى خفية شريرة ، وتلك تهمة لا أقبلها » .

فأجابها الملك فى دهشة : « إنى قانع بالنظر إلى ما تستطيعين أن تحمليها على فعله ، وسماع ما تستطيعين أن تحمليها على قوله ، وليس تحريك لسانها بأصعب من تحريك أطرافها » .

وعندئذ أمرت پولينا بأن تعزف بعض قطع موسيقية هادئة كانت قد أعدتها لهذه الساعة ؛ وما كان أشد دهشة الحاضرين جميعا حين نزل تمثال هرميون عن قاعدته ، وتوجه تلقاء لينتيس وطوق عنقه بذراعيه ثم شرع يتكلم ويدعو الله أن يباركه ويبارك ابنته پردينا » .

ولا عجب أن يطوق تمثال هرميون عنق لينتيس ويباركه هو وابنته ، لأن التمثال لم يكن إلا هرميون الملكة الحية الحقيقية .

ذلك أن پولينا لم تكن صادقة حين نقلت إلى الملك نبأ وفاة هرميون ، فقد نقلت إليه هذا النبأ لأنها لم تجد أمامها سبيلا تنجى بها سيدتها الملكة إلا هذه السبيل . وعاشت هرميون مع پولينا من ذلك الحين ، ولم تشأ أن يعرف الملك أنها حية ترزق حتى سمعت بعودة پرديتا ، لأنها وإن لم تستطع أن تسامح الملك فى قسوته على ابنته ، قد عفت من زمن طويل عما لحقها هى من أذى على يديه .

وفاض السرور والسعادة على لينتيس حتى لم يقو على احتمالهما ، بعد أن عادت زوجته إلى الحياة وردت إليه ابنته ، وانتهى بهذا وذاك عهد أحزانه الطويل .

ولم تكن تسمع فى هذا الوقت إلا التهانى تتردد على كل لسان ، وعبارات الحب والعطف تنبعث من كل مكان ؛ وأخذ الأبوان المغتبطان يشكران للأمير فلرزل حبه ابنتهما رغم ضعتها الظاهرة ، وللراعى الشيخ الطيب عنايته بطفلتهما ومحافظته على حياتها . ولشد ما اغتبط كملو وپولينا لأنهما قد عاشا ليريا هذه الخاتمة السعيدة التى اختتمت بها جهودهما وإخلاصهما .

وكأنما أرادت الأقدار ألا ينقص شىء يتم به هذا السرور العجيب الذى لم يكن أحد يتوقعه ، فقد دخل القصر فى هذه اللحظة الملك پلكسينس نفسه .

ذلك أن هذا الملك تفقد ابنه وكملو فلم يجدها ، وكان يعرف أن كملو يرغب من زمن طويل فى العودة إلى صقلية ، وظن أنه سيجده هو وابنه فيها فجاء من فوره على أثرهما ، وشاءت الصدف أن يصل إليها فى هذه اللحظة وهى أسعد اللحظات التى شهدها لينتيس فى حياته كلها .

واشترك پلكسينس فى هذا السرور العام ، وعفا عن صديقه لينتيس وعن غيرته الباطلة منه ، وعاد الحب بينهما قويا كما كان أيام الصبا . ولم يكن أحد فى ذلك الوقت يخشى أن يعارض پلكسينس فى زواج ابنه بپرديتا ، فلم تكن هى الآن خاطفة النعاج ، بل كانت وارثة تاج صقلية .

وكذلك جوزيت هرميون على صبرها وفضائلها وآلامها الطويلة أحسن الجزاء وعاشت هذه السيدة الفاضلة زمناً طويلا مع زوجها لينتيس وابنتها پرديتا ، وكانت أسعد الأمهات والملكات .

جعجعة بلا طحن

كان يعيش فى قصر ليوناتو Leonato حاكم مسينا Messina سيدتان تسمى إحداهما « هيرو Hero وتدعى الأخرى بيتريس Beatrice . فأما هيرو فكانت ابنة الوالى ، وأما بيتريس فكانت ابنة أخيه .

وكانت بيتريس ذات طبع مرح ، وكان يسرها أن تروح بفكاهاتها اللذيذة عن ابنة عمها هيرو التى كانت أكثر منها جدا ورزانة ، وكانت لمرحها وبشرها ترى سبباً للبهجة والسرور فى كل ما يحدث حولها .

وجاء لزيارة ليوناتو فى الوقت الذى تبدأ فيه قصة هاتين الفتاتين جماعة من الشبان ، لهم مراتب عالية فى الجيش ، مروا بمدينة مسينا وهم عائدون من حرب وضعت أوزارها فى تلك الأيام ، وظهروا فيها على أقرانهم بما أبدوه من ضروب الشجاعة وأعمال البطولة . وكان من بينهم دن بدرو Don Pedro أمير أرغونة ، وصديقه كلوديو Claudio من أشراف مدينة فلرنس Florence ، ومعهم بندك Benedick من أشراف پدوا Padua وكان شابا مجازفا فكها .

وكان هؤلاء الغرباء قد زاروا مسينا من قبل ، فلما جاءوا إليها هذه المرة قدمهم حاكمها المضياف الكريم إلى ابنته وابنة أخيه ، وقال لهما إنهم من معارف الأسرة وأصدقائها القدماء .

ولم يكد بندك يدخل حجرة الاستقبال حتى أخذ يتحدث إلى ليوناتو والأمير دن بدور حديثاً شيقاً ممتعاً ؛ وكانت بيتريس تحب ألا يفوتها حديث أيا كان نوعه ، ولذلك جاءت وقاطعت بندك بقولها : « من أعجب الأشياء أنك ياسيد بندك لا تزال تتحدث ، إن أحداً لا يصغى إليك » .

وكان بندك لا يقل عن بيتريس طيشاً ونزقا ، ولكنه مع ذلك لم يعجبه ما تنطوى عليه هذه التحية من جرأة ، وكان يرى أنه لا يليق بسيدة مهذبة أن تطلق لسانها على هذا المنوال ؛ وعاد إلى ذاكرته أنه حين جاء مسينا آخر مرة كانت

بيتريس تختاره هدفا لمزاحها ومجونها . ولما كان أكثرُ الناس كرها للاستهزاء به أكثرهم استهزاء بغيره ، فإن بندك وبيتريس لم يشذا عن هذه القاعدة ، فلم يكن هذان الفكهان المتوقدا الذهن يتلاقيان فى الأيام الماضية دون أن تدور بينهما حرب من التهكم حقيقية لا تخبو نارها حتى يفترقا مغضبين . ولما قطعت عليه بيتريس حديثه ، وقالت له إن أحداً لا يصغى إلى قوله ، تظاهر بأنه لم يلاحظ قبل ذلك وجودها ، وقال لها : « ويك سيدتى المزدراة العزيزة ألا تزالين فى عداد الأحياء ؟ » ، ثم ثارت بينهما من جديد حرب من التهكم شعواء ، أعقبها لجاج طويل ، قالت بيتريس فى خلاله إن فى طاقتها أن تأكل جميع من قتله هناك ، مع علمها بأنه قد أثبت فى الحرب الأخيرة شجاعته ورباطة جأشه . ولما رأت الأمير مصغياً إلى حديثه مشتاقا لسماعه وصفته بأنه مضحك الأمير . وآلم هذا الاستهزاء بندك أكثر مما آلمه كل ما قالته بيتريس من قبل ؛ فهو لم يعبأ بما ينطوى عليه قولها إن فى وسعها أن تأكل جميع من قتله من وصفه بالجبن ، وذلك لما يعرفه عن نفسه من الشجاعة وقوة الجنان ، ولكن ما من شىء يخشاه كبار الفاكهين أكثر من أن يتهموا بالمجون لأن هذه التهمة تكون أحيانا قريبة كل القرب من الحقيقة ، ومن أجل هذا كره بندك بيتريس أشد الكره حين وصفته بأنه « مضحك الأمير » .

وظلت هيرو لحيائها صامتة أمام الضيوف الكبار ؛ وبينا كان كلوديو ينعم النظر فى جمالها الذى زادته الأيام حسناً وبهاء ، ويتأمل قوامها الرشيق لأنها كانت فى الحق فتاة بارعة الجمال ، بينا كان كلوديو يفعل هذا وذاك كان الأمير يصغى فى بهجة وانشراح إلى ما كان يدور بين بندك وبيتريس من حوار لذيذ ، وقد أسر إلى ليوناتو قوله : « تلك فتاة خفيفة الروح ، وإنها لتكون زوجا من أحسن الأزواج لكلوديو » ، فأجابه ليوناتو : « مولاى ! مولاى ! لو أنهما تزوجا لجن جنونهما من حديثهما بعد أسبوع واحد من زواجهما » .

وكان ليوناتو يظن أنهما لن يكونا زوجين موفقين متفقين ، ولكن الأمير لم يعدل عن رأيه فى أن يجمع بين هذين الفكهين .

ولما عاد الأمير من القصر مع كلوديو وجد أن الزواج الذى كان يدبره بين

بندك وبيتريس لم يكن هو الزواج الوحيد الذى تفكر فيه هذه الجماعة الطيبة ، وذلك لأنه رأى كلوديو يتحدث عن هيرو حديثاً عرف من خلاله ما كان يجيش فى صدره. وسر الأمير من ذلك كل السرور وقال لكلوديو : « أتحب هيرو ؟ » ، فأجابه كلوديو عن سؤاله هذا بقوله : « مولاى ، إنى حين كنت فى مسينا آخر مرة كنت أنظر إليها بعين الجندى الذى يميل قلبه ، ولكنه لايجد من الوقت متسعاً للحب ، أما الآن ونحن فى وقت السلم السعيد فقد تركت أفكار الحرب مكانها فى عقلى خاويا ، فازدحمت فيه أفكار أخرى رقيقة لطيفة ، تحدثنى كلها عن جمال هيرو البارع ، وتذكرنى بما كان فى قلبى من ميل إليها قبل أن أذهب إلى ميدان القتال » . وأثر فى نفس الأمير اعتراف كلوديو بحب هيرو فلم يتوان عن أن يرجو من ليوناتو أن يرضى بكلوديو زوجا لابنته ؛ وقبل ليوناتو هذا الرجاء ، فلم يجد الأمير بعدئذ صعوبة فى إقناع هيرو الفتاة الظريفة أن تقبل خطبة كلوديو النبيل صاحب المواهب النادرة ، واستطاع كلوديو بمعونة هذا الأمير الطيب الكريم أن يقنع ليوناتو بتحديد يوم قريب يحتفل فيه بزواج كلوديو وهيرو .

ولم يكن بينهم وبين اليوم الذى حدد لزواج كلوديو بهذه الغادة الحسناء إلا بضعة أيام قليلة ، ولكنه أخذ يشكو السآمة والملل كما يفعل معظم الشبان وهم ينتظرون إبرام أمر يطمحون إليه ، ولذلك عرض الأمير عليه أن يمضيا تلك الفترة المملة فى تدبير حيلة يشعلان بها نار الحب فى صدر بندك وبيتريس . وسر كلوديو أن يشترك فى تنفيذ هذا الخاطر الذى سنح للأمير ، ووعدها ليوناتو أن يقدم لهما مساعدته ، ولم تمانع هيرو نفسها فى أن تعمل أى شىء لايتعارض مع حيائها ويمكن ابنة عمها من الحصول على زوج صالح لها .

وكانت الحيلة التى دبرها الأمير ومن معه أن يدخلوا فى روع بندك أن بيتريس تحبه ، وأن تقنع هيرو بيتريس بأن بندك مولع بحبها .

وكان الأمير وليوناتو وكلوديو هم البادئين بالعمل ، وسنحت لهم الفرصة حين رأوا بندك جالساً يقرأ خلف العريش بين الأشجار ، بحيث لم يكن فى وسعه إلا أن يسمع كل ما يقولون . وأخذوا أول الأمر يتحدثون فى موضوعات شتى ، ثم قال

الأمير : « ياليوناتو ادن منى ، ماذا كنت تقول لى فى ذلك اليوم ؟ أكنت تقول إن بيتريس ابنة أخيك تحب السيد بندك ؟ إنى لم أكن أظن أن فى مقدور هذه الفتاة أن تحب أحداً من الرجال » .

وأجابه ليوناتو بقوله : « وكذلك كان شأنى أيضاً يا سيدى ، والحق أن شغفها ببندك لشىء غريب ، لأن ظاهر الأمر كان يدل دائماً على أنها تبغضه » . وأكد كلوديو ذلك كله بقوله « إن هيرو قد حدثته بأن بيتريس تحب بندك ، وبأنها تموت كمداً إذا لم يبادلها الحب ، وهو أمر يظن ليوناتو وكلوديو أنه فى حكم المستحيل ، لأن من طبيعة بندك أن يهزأ بكل الفتيات الجميلات ، وبخاصة بيتريس نفسها » .

وتظاهر الأمير بأنه يصغى إلى هذا كله وقد أخذته الرأفة ببيتريس وقال : « إن من الخير أن يخبر بندك بهذا » . فقال كلوديو : « وماذا يرجى من هذا ؟ لا شك فى أنه سيتخذه وسيلة للهوه ويعذب به قلب هذه الفتاة المسكينة أكثر مما عذبها من قبل » . وأجاب الأمير : « إنه إن فعل فقد استحق الشنق ، لأن بيتريس فتاة من أجمل الفتيات وأحسنهن ، وأكملهن عقلا ، وأصوبهن رأياً ، إلا فى حبها بندك » . ثم أشار الأمير إلى أصحابه أن يغادروا المكان ويتركوا بندك يفكر فيما سمعه .

وكان بندك فى أثناء ذلك مصغياً إلى هذا الحديث لا تفوته منه كلمة ، فلما سمع أن بيتريس تحبه قال فى نفسه : « أهذا مستطاع ؟ أحق هو ؟ » .

ولما بعدوا عنه أخذ يقلب الأمر فى فكره ويجادل نفسه بالطريقة الآتية : « لا يمكن أن تكون هذه حيلة فقد كان حديثهم جدا لا هزل فيه ، وقد عرفوا حقيقة الأمر من هيرو ، ويلوح أنهم مشفقون على الفتاة ، إنها تحبنى ولا بد أن أبادلها حبا بحب ، إنى لم أفكر قط فى الزواج ولكننى حين قلت إنى سأموت عزباً لم أكن أظن أنى ستطول بى الحياة حتى أتزوج ، إنهم يقولون إن الفتاة فاضلة جميلة والحق أنها لكذلك ؛ ويقولون إنها حكيمة فى كل شىء إلا فى حبها إياى ، وليس هذا دليلا قويا على ضعف عقلها ؛ وها هى ذى بيتريس مقبلة ،

لعمرى إنها فتاة جميلة ، وإنى لأتوسم فيها دلائل الحب » .

واقتربت بيتريس منه وخاطبته بلهجتها اللاذعة المألوفة قائلة : « قد أرسلونى على الرغم منى لأن أدعوك إلى تناول الطعام » . ولم يكن بندك قبل الآن يشعر بأقل ميل فى نفسه لأن يتجمل فى حديثه لها ، ولكنه فى هذه المرة أجابها بقوله : « بيتريس ، أيتها الفتاة الحسناء ، إنى شاكر لك ما تحملت من مشقة » . ولما غادرت بيتريس المكان بعد أن ألقت على سمعه بعض الكلمات اللاذعة الجافة ، ظن بندك أنه يستطيع أن يتبين من ثنايا حديثها الجاف معانى من العطف عليه ، فقال جهرة : « إننى إذا لم أرحمها كنت نذلاً ، وإن لم أحبها كنت يهودياً ، سأذهب من فورى وآتى بصورتها » .

وهكذا وقع بندك فى الشرك الذى نصبوه له ، ولم يبق إلا أن تنهض هيرو بالعبء الذى ألقى على عاتقها ، ولذلك بعثت فى طلب وصيفتين من وصيفاتها هما أرسولا Ursula ومرجريت Margaret ، فلما جاءتا قالت لمرجريت : « يا مرجريت أسرعى إلى حجرة الاستقبال وستجدين فيها ابنة عمى بيتريس تتحدث إلى الأمير وإلى كلوديو ، فأسرى إليها أنى أنا وأرسولا نمشى فى البستان ، وأن حديثنا كله يدور حولها ، ثم اطلبى إليها أن تتسلل إلى هذا العريش الجميل الذى يظلله زهر العسل ، وقد تفتح من ضياء الشمس ولكنه كفر بنعمتها فمنع هذا الضياء من أن ينفذ إلى العريش » . وكان هذا العريش الذى طلبت هيرو إلى مرجريت أن تغرى بيتريس بالمجىء إليه هو نفس العريش الجميل الذى جلس فيه بندك من زمن قليل يصغى إلى حديث الأمير وأصدقائه . وقالت مرجريت : « لست أشك فى أننى سآتى بها من فورى إلى هذا العريش » .

وذهبت هيرو ومعها أرسولا إلى البستان وقالت : « والآن ياأرسولا إذا جاءت بيتريس فسنسير فى هذا الطريق الضيق جيئة وذهاباً ، وسيدور حديثنا كله حول بندك ، فإذا ذكرت اسمه فعليك أن تثنى عليه ثناء ليس بعده ثناء ، وسيكون موضوع حديثى هو حب بندك لبيتريس . هيا ابدئى فها هى ذى بيتريس تتسلل خفية لتستمع إلى حديثنا » . وبدأ الحديث على الفور ، فقالت هيرو كأنما هى تجيب

عن سؤال ألقته عليها أرسولا : « فى الحق يا أرسولا أن الأمر ليس كذلك ، إنها لشديدة الازدراء لغيرها من الناس ، وإنها لحيية كل الحياء » .

وقالت أرسولا : « ولكن أأنت واثقة من أن بندك يحب بيتريس هذا الحب كله ؟ » .

فأجابتها هيرو : « هذا هو ما يقوله الأمير وسيدى كلوديو ، وقد طلبا إلىّ أن أفضى به إليها ، ولكننى أقنعتهما بأن لا يطلعا بيتريس على جلية الأمر إذا كانا يحبان بندك حقا » . فردت عليها أرسولا قائلة : « إنك محقة بلا شك ، وإن من الخير ألا تعرف شيئاً عن هذا الحب لئلا تتخذه موضوعاً لسخريتها » . ثم قالت هيرو : « وفى الحق أننى لم أر رجلا مهما كان عقله ونبله ، ونضرة شبابه وجمال خَلْقه ، إلا ذمته وعابته » . فأجابتها أرسولا : « لا شك أن مذمة الناس أمر غير محمود » . فقالت هيرو : « هو غير محمود حقا ، ولكن من يجرؤ أن يخبرها بذلك ؟ إننى إذا قلت هذا القول سخرت منى وسلقتنى بألسنة حداد » . فأجابتها أرسولا : « إنك تظلمين ابنة عمك بهذا الاعتقاد ، إنها لن يصل بها الحمق إلى أن ترفض الزواج بسيد مثل بندك قل أن يوجد له نظير بين الرجال » . فقالت هيرو : « حقا إن له بين الرجال أعظم مقام ، ولست أقول إلا الحق إذا أخبرتك أنه صاحب المقام الأول فى إيطاليا كلها إذا استثنيت بالطبع حبيبى كلوديو » . ثم أشارت هيرو إلى صديقتها إشارة فهمت منها أن الوقت قد حان لتغيير مجرى الحديث ، فقالت أرسولا : « ومتى يتم زواجك يا سيدتى ؟ » فأجابتها هيرو بأن زواجها بكلوديو سيكون فى اليوم التالى ، وطلبت إليها أن تذهب معها لتطلعها على ثياب جديدة لأنها تحب أن تعرف رأيها فيما يحسن أن تلبسه فى غد .

وكانت بيتريس فى أثناء ذلك تصغى إلى حديثهما وتعيه ، فلما غادرتا المكان قالت جهرة : « كأنى أحس بنار هذا الحب تحرق قلبى ، أحق هو ؟ وداعا للاحتقار والسخرية وكبرياء العذارى ، وليدم حبك يا بندك ، سأبادلك حبا بحب وأخضع قلبى النفور إلى حبك » .

وما من شك فى أن منظر بندك وبيتريس بعد أن تبدلت عداوتهما حبا كان

منظراً ممتعاً حقا ، وما كان أجمل لقاءهما بعد أن خدع كلاهما وأدخل فى وهمه أن زميله يحبه ، وذلك بفضل تدبير الأمير وظرفه وحسن فكاهته . ولكن حدث فى ذلك الوقت أن أكب الدهر على هيرو ورماها بسهم من سهامه ، فنزل بها فى اليوم المحدد لزفافها ما أمر عيشها وعيش أبيها الشيخ الطيب ليوناتو .

وذلك أن الأمير كان له أخ غير شقيق يدعى دن چون Don John ، جاء معه من ميدان الحرب إلى مسينا . وكان هذا الأخ رجلا كئيباً ساخطا على العالم ، طبعت نفسه على الشر كأنه قد خلق لتدبير المكائد ؛ وكان يبغض أخاه الأمير ويبغض كلوديو لأنه صديق الأمير ، ولذلك عول على أن يحول بينه وبين زواجه بهيرو . ولم يكن يقصد بتدبيره هذا إلا أن يشقى عله بشقاء كلوديو والأمير لأنه كان يعرف أن رغبة الأمير فى إتمام هذا الزواج لا تقل عن رغبة كلوديو نفسه . واستخدم فى الوصول إلى غرضه الدنىء رجلا يدعى بوراكيو Borachio لا يقل عنه خبثاً ومكراً ، وأغراه على ذلك بجائزة سنية . وكان بوراكيو هذا خطيب مرجريت وصيفة هيرو ، وكان دن چون يعرف ذلك فأقنعه بأن يطلب إلى مرجريت أن تعده بأن تطل عليه من نافذة غرفة سيدتها فى تلك الليلة وتحدثه بعد أن تنام هيرو ، وأن ترتدى فى أثناء ذلك ثياب هيرو نفسها حتى لا يخامر كلوديو شك فى أنها هى هيرو ذاتها . وكان هذا هو الغرض الذى يريد أن يصل إليه بتلك المؤامرة الدنيئة .

ثم ذهب دن چون بعد ذلك إلى الأمير وكلوديو وأخبرهما أن هيرو فتاة طائشة ، وأنها تتحدث إلى الرجال من نافذة غرفتها فى منتصف الليل . وكانت هذه هى الليلة السابقة ليوم الزفاف فعرض عليهما أن يأخذهما معه إلى حيث يستمعان هيرو تحادث رجلا من نافذة غرفتها ، ورضيا أن يذهبا معه ؛ وقال كلوديو : « إذا رأيت فى هذه الليلة من الأسباب ما يمنعنى من زواجها فسأفضح أمرها غداً فى الجمع المعد للاحتفال بزفافها » . وقال الأمير : « وكما أنى قد أعنتك على الزواج بها فسأعينك على إذلالها بكشف سرها » .

وجاء بهما دن چون فى تلك الليلة بقرب مخدع هيرو ، فرأوا بوراكيو واقفاً تحت نافذتها ومرجريت تطل منها وتتحدث إليه ، وكانت ترتدى نفس الثياب التى

كانت ترتديها هيرو فلم يبق لدى الأمير ولدى كلوديو شك فى أنها هى هيرو عينها . واستشاط كلوديو غضباً عندما كشف ما كان فى اعتقاده سراً خطيراً ، واستحال حبه السابق لهيرو البريئة كرها ومقتاً ، وعول على أن يفشى هذا السر الخطير فى الكنيسة فى اليوم التالى كما وعد بذلك من قبل . ووافق الأمير على ذلك لاعتقاده أن هذه الفتاة الغادرة جديرة بكل عقاب ينزل بها بعد أن تحدثت مع رجل من نافذتها فى الليلة السابقة ليوم زفافها لكلوديو الكريم النبيل .

ولما اجتمعوا فى اليوم التالى للاحتفال بهذا الزواج ووقف كلوديو وهيرو أمام القسيس ، وهمّ القس بأن يتلو صيغة عقد الزواج ، أعلن كلوديو فى حنق وغضب جريمة هيرو الطاهرة البريئة ؛ ودهشت هيرو أشد دهشة من الألفاظ الغريبة التى نطق بها كلوديو ، فقالت فى رقة ووداعة : « ماذا أصاب سيدى فأنطقه بهذه الألفاظ » .

فقال ليوناتو للأمير وهو فى أشد حالات الرعب : « سيدى لم لا تتكلم أنت ؟ » . فأجابه الأمير : « وماذا عسى أن أقول ؟ لقد لوث شرفى إذ هممت بأن أربط صديقاً لى عزيزاً بامرأة حقيرة ؛ أقسم بشرفى ياليوناتو أنى أنا وأخى وكلوديو هذا الرجل الحزين قد رأيناها وسمعناها فى منتصف الليلة الماضية تتحدث إلى رجل واقف تحت نافذة حجرتها » .

وقال بندك وهو مندهش مما سمع : « ما أبعد هذا عن حفلات الزفاف » ، وقالت هيرو وقد أكسف الحزن بالها وهد كيانها : « إى والله يا إلهى » . ثم سقطت هذه الفتاة البائسة مغشيا عليها ، وظن الجميع أنها قد قضت نحبها ، وغادر الأمير هو وكلوديو الكنيسة دون أن ينتظرا حتى تفيق من نوبتها ، أو يهتما بالمصيبة التى أوقعا فيها ليوناتو ، وذلك لأن الغضب قد ملأ قلبيهما حتى لم يبق فيهما موضع للرحمة . وبقى بندك مع بيتريس ليساعدها على أن تفيق هيرو من غشيتها ؛ ولما سأل بيتريس عن حالها أجابته بقولها : « أظن أنها قد قضت نحبها » ؛ وقالت ذلك فى حزن وألم لأنها كانت شديدة الحب لابنة عمها ، واثقة من طهرها وعفافها ، ولم تصدق شيئاً مما اتهمت به . ولم يكن هذا شأن والدها الشيخ الحزين فإنه صدق

قالة السوء عن ابنته ، وكان منظره وهو يراها مطروحة أمامه لا حراك بها وهو يندبها ويدعو الله أن تكون هذه الساعة آخر عهدها بالحياة ، كان منظره هذا يفتت الكبد

لكن القس الشيخ كان رجلا حكيما ، ذا نظر ثاقب وخبرة واسعة بالطبائع البشرية ، فكان فى أثناء هذه الحوادث شديد اليقظة ، يرقب وجه الفتاة وهى تصغى إلى ما يتهمها به بندك ، فرأى أول الأمر حمرة الخجل بادية فى وجهها ، ثم شاهد هذه الحمرة يذهب بها بياض كبياض الملائكة ، ولمح فى عينيها وميضاً يكاد ينطق بكذب ما افتراه عليها الأمير ؛ وقال القس للوالد الحزين : « إذا لم تكن هذه الفتاة الطيبة بريئة من الذنب وضحية فرية دنيئة فسمنى أبله إذا شئت ، ولا تثق بعلمى ولا بدقة ملاحظتى ، ولا بسنى وتجاربى وطبيعة مهنتى » .

ولما أفاقت هيرو من غشيتها قال لها القس : « من هو هذا الرجل الذى اتهموك بالاتصال به ؟ » . فأجابته : « إنما علم هذا عند من يفترون على ، أما أنا فلا أعرف عنه شيئاً » . ثم التفتت إلى ليوناتو وقالت له : « أى أبت ، إذا استطعت أن تتثبت من أنى قد تحدثت إلى رجل أيا كان فى ساعة من ساعات الليل لا يليق أن يُحدَّث فيها الرجال ، أو أننى فى الليلة الماضية قد خاطبت أى إنسان ، فتبرأ منى وأبغضنى وعذبنى حتى أقضى نحبى » .

وقال القسيس : « إن فى الأمر لخطأ خفيا وقع فيه الأمير وكلوديو » . ثم أوصى ليوناتو أن يذيع فى الناس أن هيرو قد ماتت ، وقال إن الأمير ومن معه قد تركوها مغشيا عليها ، ولذلك لن يصعب عليهم أن يصدقوا هذا الخبر . وأشار عليه أيضاً أن يلبس ثياب الحزن ويقيم لابنته نصباً ، وألا يغفل شيئاً من المراسم التى تتبع عادة فى دفن الموتى . وسأله ليوناتو : « وماذا يفيد هذا ؟ وما الغرض منه ؟ » . فأجابه القسيس : « إن نبأ وفاتها سيبدل الفرية التى افتريت عليها رأفة بها ، وفى هذا بعض الخير ولكنه ليس كل ما أرجوه . إن كلوديو إذا عرف أنها قد ماتت حين سمعت ما قاله عنها ، عادت إليه ذكرى حياتها ، فيحزن عليها إذا

كان الحب قد وجد سبيلا إلى قلبه ، وسيندم على ما اتهمها به حتى ولو كان يظن أنه حق لا مرية فيه » .

وقال بندك وقتئذ : « افعل ما يشير به الأب يا ليوناتو ، وأقسم بشرفى أنى لن أفشى هذا السر للأمير أولكلوديو رغم ما تعرف من حبى لها » .

واقتنع ليوناتو بهذا النصح ورضى به ، وقال فى حزن ولوعة : « لقد بلغ منى الحزن مبلغا أسلس قيادى وأضعف فىّ كل قدرة على المقاومة » . ثم نقل القس الرحيم ليوناتو وهيرو من هذا المكان ليواسيهما ويخفف من أحزانهما ، وبقيت بيتريس وبندك وحدهما ، وكان هذا هو اللقاء الذى ينتظره أصدقاؤهما الذين دبروا المؤامرة المرحة ضدهما ، وتوقعوا أن يشهدوا فيه ما يسرهم ويثير ضحكهم ، ولكنهم أصبحوا الآن وقد طغى عليهم الحزن ولم يبق لهم رغبة فى المرح والسرور .

وكان بندك أول من تكلم فقال : « خبرينى يا بيتريس ، هل كنت تبكين طول هذه الفترة ؟ » . فأجابته بيتريس : « نعم بكيت وسيطول بكائى » . وقال بندك : « لا شك عندى فى أن ابنة عمك الحسناء مظلومة » . فردت عليه بيتريس بقولها : « كم ذا يستحق منى ذلك الرجل الذى يدفع عنها هذا الظلم » فقال لها بندك : « وهل من سبيل إلى إظهار هذه الصداقة ؟ إننى لا أحب شيئا فى العالم بقدر ما أحبك ، أليس هذا عجيباً ؟ » . وأجابته : « وفى وسعى كذلك أن أقول إنى لا أحب شيئاً فى العالم كما أحبك أنت ، ولكن لا تصدق هذا القول وإن لم أكن فيه كاذبة ، ولست بهذا أعترف بشىء أو أنكر شيئا ، إنى لفى ألم مما أصاب ابنة عمى » . فقال لها بندك : « وحق سيفى ، إنك تحبيننى وإننى أحبك ، فأمرينى أن أفعل أى شىء من أجلك ، تجدينى طوع أمرك » . فأجابته بيتريس : « اقتل كلوديو » . فرد عليها بندك بقوله : « لن أفعل ولو أعطيتنى ملك العالم كله » ، وذلك لأنه كان يحب صديقه كلوديو ويعتقد أن هذا الصديق قد خدع ، ولكن بيتريس قالت له : « أليس كلوديو نذلا دنيئا قد سب ابنة عمى وحقرها ولوث شرفها ؟ آه ! ليتنى كنت رجلا ! » . وقال بندك : « اصغ إلى يا بيتريس » ، ولكن بيتريس لم تصغ إلى شىء مما يقوله دفاعاً عن كلوديو وظلت تلح عليه أن ينتقم منه

على ما أساء لابنة عمها ، وقالت له : « هيرو تخاطب رجلا من النافذة ؟ أهذا صحيح ؟ إنك لمظلومة يا هيرو ، وإن هذا لإفك افترى عليك وأصابوك به فى الصميم . ليتنى كنت رجلا لأنتقم لك من كلوديو ، أو ليت لى صديقاً يقف من أجلى موقف الرجال . ولكن شجاعة الرجال تذوب ولا تتمخض إلا عن تحيات وألفاظ حسان ، إن التمنى لا يجعلنى رجلا ، ولذلك سأموت من الحزن وأنا امرأة » . فأجابها بندك : « لا تعجلى يا عزيزتى بيتريس ، أقسم بحق يدى هذه أنى أحبك » . فقالت له بيتريس : « إذن فلتستخدم يدك من أجل حبى لغرض آخر غير القسم بها » . فسألها بندك : « أتقسمين أن كلوديو قد ظلم هيرو ؟ » . فأجابته بيتريس : « أقسم أنى واثقة من ذلك ثقتى بنفسى » . فقال بندك : « كفى وهذا عهد على ، سأدعوه للبراز ، وسأقبل يدك وأستودعك الله ، وبيدى هذه سأحاسبن كلوديو حساباً عسيراً . ولا تظنى فىَّ غير ما سمعته منى ، والآن فاذهبى وواسى ابنة عمك » .

وبينا كانت بيتريس تجادل بندك هـذا الجدال العنيف ، وتستثير بألفاظها الغضبى حميته وشهامته لتضمه إليها فى الأخذ بناصر هيرو ومبارزة صديقه الحميم كلوديو ، كان ليوناتو يدعو الأمير للبراز ليكفر عن الإهانة التى لحقت بابنته ، ويؤكد لهم أنها ماتت حزناً وكمداً . ولكنهما أشفقا عليه لحزنه وكبر سنه ، وقالا له : « لا تقاتلنا أيها الشيخ الطيب » . وجاء فى هذه اللحظة بندك ودعا كلوديو للبراز لكى يغسل بسيفه الإهانة التى لحقت بهيرو ، وقال كلوديو والأمير كلاهما لصاحبه : « لقد أغرته بيتريس على أن يفعل هذه الفعلة » . ولم يكن بدٌّ مع ذلك أن يجيب كلوديو بندك إلى ما طلب ، لولا أن العدالة الإلهية قد ساقت إليهم فى تلك اللحظة دليلا آخر على براءة هيرو ، أقوى وأصدق من نتيجة البراز التى لا تميز الحق من الباطل .

ذلك أنه بينا كان الأمير وكلوديو يتحدثان عن دعوة بندك للبراز ، أقبل على الأمير أحد رجال الشرطة ومعه براكيو مقيداً ، لأن بعض الناس قد سمعوه يتحدث إلى أحد زملائه عن الفعلة السيئة التى سخره دن جون للقيام بها ؛ واعترف براكيو للأمير أمام كلوديو بالحقيقة كاملة ، وقال إن الفتاة التى كان يحدثها من النافذة هى

مرجريت فى لباس سيدتها ، وقد ظنها من معه هيرو نفسها . ولم يبق وقتئذ لدى كلوديو والأمير شك فى براءة هيرو ؛ وإذا كان قد بقى فى نفسيهما أية ريبة فقد زالت بفرار دن چون ، فإنه لما علم أن أمره قد افتضح خرج من مسينا لينجو من غضب أخيه وقصاصه العادل . وأمض الحزن كلوديو وأكسف باله حين عرف أنه قد افترى على هيرو الكذب فماتت — فى ظنه — حين سمعت ألفاظه القاسية . وطافت بخياله ذكراها المحبوبة فى صورتها الأولى التى ارتسمت فيه حين أحبها أول مرة ؛ ولما سأله الأمير ألم يحزّ ما سمعه فى قلبه حز النصال ؟ قال إنه حين سمع كلام براكيو أحس كأن السم يسرى فى جسمه .

وندم كلوديو أشد الندم على فعلته ، وتضرع إلى الشيخ ليوناتو أن يعفو عن إساءته إلى ابنته ، وقال إنه جدير بكل عقاب ينزل به جزاء له على تصديقه تلك التهمة الباطلة التى اتهمت بها خطيبته ، وأنه يتحمله من أجلها . وكان العقاب الذى فرضه عليه ليوناتو أن يتزوج فى صبيحة اليوم التالى بابنة عم لهيرو شبيهة بها كل الشبه ، وقال إنها أصبحت وارثته بعد وفاة ابنته . وقال كلوديو إنه برا بما وعد به ليوناتو يرضى بزواج هذه السيدة المجهولة ، ولو كانت حبشية . ولكن قلبه كان فى أثناء ذلك يفيض حزنا وكمدا ، وقضى تلك الليلة عند القبر الذى أقامه ليوناتو لهيرو يبكى فى حسرة وألم .

ولما أصبح الصباح مضى كلوديو ومعه الأمير إلى الكنيسة ؛ وكان قد اجتمع بها القس الكريم وليوناتو وابنة أخيه ليحتفلوا بالزواج مرة أخرى . وقدم ليوناتو إلى كلوديو زوجته الموعودة مقنعة الوجه حتى لا يعرفها ؛ وخاطب كلوديو الفتاة المقنعة بقوله «مدى إلىّ يدك أمام هذا الأب ، إننى زوجك إذا ارتضيتنى لك زوجا» . وأجابته السيدة المجهولة قائلة « لقد كنتُ زوجتك الأخرى حين كنتُ على قيد الحياة » . ثم رفعت القناع عن وجهها فتبين أنها لم تكن ابنة عم لهيرو ، بل كانت هيرو ابنة ليوناتو نفسها . ولا شك فى أن كلوديو قد سر كل السرور من هذه المفاجأة ، فقد كان يظن أن هيرو قضت نحبها ، ولم يكد من فرط السرور يصدق عينيه . ولم تكن دهشة الأمير مما رأى أقل من دهشة كلوديو فصاح قائلا

« أليست هـذه هيرو ، هيرو التى ماتت ؟ » وأجابه ليوناتو بقوله « إنها لم تمت يا مولاى إلا حين أحاطت الأفائك بها » . ووعدهم القس أن يكشف لهم عن سر هذا الأمر الذى خالوه معجزة بعد أن يتم الاحتفال بالزواج ؛ ولقد هم فعلا بإتمامه ولـكن بندك قاطعه بقوله إنه يريد أن يتزوج بيتريس فى نفس الوقت . ولما أظهرت بيتريس شيئا من التردد قضى عليه بندك بقوله إنها تحبه وإنه عرف ذلك من هيرو ، واتضح فى ذلك الوقت سر المسألة كلها ، وتبين كلاهما أنه خدع فى حب رفيقه ، وأن هذا الحب لم يكن له وجود من قبل ، وأنهما قد أصبحا حبيبين بفضل دعابة كاذبة خدعا بها معا ؛ ولـكن هذا الحب الذى قام على الخديعة قد نما وترعرع فلم يهن أو يتزعزع بعد أن كُشف لهما عن حقيقة منشئه . وطلب بندك أن يتوج هذا الحب بالزواج ، وأبى أن يصغى لأى شىء يعترض به عليه ، ولـكنه ظل مع ذلك يواصل دعابته ويقسم لبيتريس أنه تزوج بها إشفاقا عليها ، لأنه سمع أن حبه يكاد يقضى عليها . واحتجت بيتريس على هذا الادعاء بقولها إنها لم تجب طلبه إلا بعد إلحاح ورجاء ، وإنها لم تتزوجه إلا لتنقذ حياته بعـد أن سمعت أن نار الحب تحرق قلبه . وهكذا جمع الصحاب بين هذين الفكهين المتوقدى الذكاء ، فتزوجا بعد أن تم زفاف كلوديو وهيرو . وانتهت القصـة بالقبض على دن جون مدبر المكيدة ، فجىء به إلى مسينا . وكان عقاب هذا الرجل النكد البرم بالحياة أن يرى علائم السرور والأفراح قائمة على قدم وساق فى قصر الأمير بمسينا ، بعد أن حبطت مؤامرته كلها وردَّ كيده فى نحره .

كما تحب

لا أهب

فى الوقت الذى كانت فيه فرنسا مقسمة إلى ولايات أو دوقيات ، كما كانوا يسمونها فى ذلك الوقت ، كان يحكم إحدى هذه الدوقيات مغتصب خلع أخاه الأكبر الدوق الشرعى وأخرجه من البلاد .

ولجأ الدوق بعد أن خرج من ملكه هو وعدد قليل من أتباعه الأوفياء إلى غابة أردن Arden ، وعاش فيها هو وأصدقاؤه الذين خرجوا من بلادهم طائعين لتعلقهم به ، وتركوا فيها أرضهم وأموالهم لينعم بها المغتصب . وسرعان ما تعودوا عيش الدعة الخفيض ، حتى أصبح هذا العيش أهنأ لهم من حياة البلاط التى لا راحة فيها ولا نعيم ، وعاشوا كلهم فى ذلك المكان كما كان يعيش ربن هود Robin Hood الإنجليزى . وكان يفد على الغابة فى كل يوم كثير من الشبان ذوى المراتب الرفيعة فى البلاط ، ليقضوا فيها أوقاتهم فى هدوء ، كما كان يقضيها الذين يعيشون فى العصور الذهبية الماضية ؛ فكانوا فى الصيف ينامون فى ظلال الأشجار الوارفة ، يمتعون أبصارهم بمرأى الغزلان البرية تمرح فى الغابة ، وقد أولعوا بحب هذه الحيوانات البلهاء ساكنات الغاب ، ولذلك كان يحزنهم أن يضطروا إلى قتلها ليتخذوا من لحمها طعاماً لهم . فإذا جاء الشتاء برياحه الباردة وأشعر الأمير بحظه المنكود ، صبر على بلواه وقال فى نفسه : « إن هذه الريح الصرصر العاتية التى تهب على جسمى أصدق ما يشير على وينصحنى ؛ فهى لا تتملقنى بل تصور لى حالى أحسن تصوير ؛ وهى رغم قسوتها لا تؤلمنى كما تؤلمنى قسوة الصحاب وكفرهم بالنعمة ؛ ومهما قال الناس فى ذم الشدائد فإن فيها بعض الخير ، فهى أشبه بالجوهرة الشافية ، تؤخذ من رأس العلجوم السام الحقير » . وعلى هذا النحو كان الدوق الصبور يستمد من كل ما يراه دروساً خلقية نافعة ؛ وقد استطاع بفضل تفكيره الفلسفى فى حياته الجديدة البعيدة عن المهام الرسمية أن يجد ألسنة فى الأشجار ، وكتباً فى مجارى الأنهار ، ومواعظ وحكما فى الأحجار ، وخيراً فى كل شىء .

وكان للدوق المنفى ابنة وحيدة تدعى روزلند Rosalind استبقاها الدوق فردرك Frederick المغتصب فى بلاطه بعد أن نفى أخاه ، لتكون رفيقة لابنته سليا Celia ؛ ونشأت بين الفتاتين صداقة دائمة وثيقة العرى ، لم يوهنها ما كان بين أبويهما من خلاف ، وبذلت سليا كل ما فى وسعها لتخفف عن روزلند أثر الجرم الذى ارتكبه أبوها بخلع والد روزلند واغتصاب ملكه ؛ وكانت كلما رأت روزلند كئيبة كاسفة البال تفكر فى والدها المنفى وفى اعتمادها على من اغتصب منه ملكه ، لم تدخر وسعاً فى مواساتها وتخفيف آلامها .

وبينا كانت سليا فى يوم من الأيام تتحدث إلى روزلند حديث الود والعطف كعادتها وتقول لها : « أرجو منك يا ابنة عمى أن تروحى عن نفسك » ، وإذا برسول من عند الدوق يدخل عليهما ويخبرهما أن مصارعة بين شابين ستبدأ توا ، فإذا شاءتا أن تشهدا هذا المنظر فعليهما أن تخرجا من فورهما إلى الفناء الواقع أمام القصر ؛ ووافقت سليا على الذهاب لتشهد المصارعة لأنها ظنت أنها ستسر روزلند وتفرج همها .

ولم تكن المصارعة فى تلك الأيام مقصورة على الفلاحين من أبناء الريف ، بل كانت من الألعاب المحبوبة التى تقام حفلاتها فى بلاط الأمراء ، وتشاهدها الغوانى والأميرات الحسان .

وجاءت سليا وروزلند لتشهدا هذا الصراع ، فتبين لهما أنه سوف يفضى إلى مأساة مروعة ؛ وذلك لأنهما رأتا رجلاً قويا مارس فن المصارعة ومرن عليه من زمن طويل ، وقضى فيه على حياة كثير من الرجال ، يوشك أن ينازل شابا صغير السن قليل التجارب فى هذا الفن ، وظن النظارة أن هذا الشاب هالك لا محالة .

ولما رأى الدوق سليا وروزلند قال لهما : « هل جئتما يا ابنتى ويا ابنة أخى لتريا هذا الصراع ؟ إنكما لن تتمتعا به كثيراً لأن الفرق بين قوة المتصارعين كبير ، فليتكما تقنعان هذا الشاب بأن يعدل عن عزمه رأفة به ، فكلماه فى ذلك لعله يستمع لنصحكما » .

وسر الفتاتان أن تضطلعا بهذا الواجب الإنسانى ، وتقدمت سليا أولا ترجو

من الشاب الغريب ألا يحاول منازلة خصمه . ثم جاءت بعدها روزلند وتحدثت إلى الفتى فى رقة وحنو ، وأظهرت له مبلغ الخطر المحدق به ، ولكنه بدل أن ينتصح بألفاظها الرقيقة وينثنى عن غرضه صمم على أن يظهر شجاعته وصدق بأسه أمام هذه الفتاة الحسناء ، ورفض الشاب رجاء سليا وروزلند فى لطف وتواضع زادا من إشفاقهما عليه ، وختم رده عليهما بقوله : « يؤسفنى أن أرفض طلب فتاتين فى بهاء طلعتكما وكريم خصالكما ، ولكننى أرجو ألا تفارقنى فى محنتى عيونكما الجميلة وأمانيكما الطيبة ، فإذا غلبت فقد جلل العار إنساناً لم يكن قط ظريفاً ، وإذا قتلت فقد مات شخص راغب فى الموت ، ولن أسىء بموتى إلى أصدقائى لأنى ليس لى أصدقاء يبكوننى ، ولن أضر العالم فى شىء لأنى ليس لى فى العالم شىء ؛ وكل ما فى الأمر أنى أشغل فيه مكاناً سوف يشغله إذا خلا من هو أحق به منى » .

ثم بدأ الصراع ؛ وكانت سليا ترجو ألا يصاب الشاب الغريب بأذى ، أما روزلند فكانت أشد الناس إشفاقاً عليه . ذلك أن ما وصف به نفسه من أنه لا صديق له وأنه راغب فى الموت قد جعلها تعتقد أنه بائس مثلها ، فأشفقت عليه واهتمت بالخطر المحدق به فى أثناء صراعه اهتماماً لا يخطئ الإنسان إذا قال إنها شغفت من ذلك الوقت بحبه . وزاد العطف الذى أظهرته الفتاتان الجميلتان على هذا الشاب المجهول من قوته ورباطة جأشه ، فأظهر من ضروب البسالة العجب العجاب وتغلب على خصمه آخر الأمر ، وأصابه بجرح شديد أفقده النطق والحركة ساعة من الزمان .

وأعجب الدوق فردرك بشجاعة الشاب الغريب ومهارته ، وأراد أن يعرف اسمه ونسبه لكى يأخذه فى كنفه ويشمله برعايته .

وقال الفتى الغريب إن اسمه أرلندو Orlando ، وإنه أصغر أبناء سير رولند ده بوى Sir Roland de Boys .

وكان سير رولند دى بوى والد هذا الشاب قد مات من بضع سنين ، ولكنه كان وهو على قيد الحياة من أعز أصدقاء الدوق المنفى ومن أخلص رعاياه ؛ فلما سمع فردرك أن أرلندو ابن صديق أخيه المطرود تبدل كل ما كان يشعر به من حب

لهذا الفتى الشجاع كرهاً له ، فغادر حلبة الصراع مغضباً وقال وهو يهم بمغادرتها إنه كان يود لو أن أرلندو لم يكن ابن هذا الرجل .

أما روزلند فقد سرها أن يكون هذا الفتى الذى بدأت تعطف عليه صديقاً قديماً لأبيها ، وقالت لسليا : « إن أبى كان يحب سير رولند ده بوى ، ولو أنى عرفت أن هذا الفتى ابنه لأضفت دموع عينى إلى رجائى إليه بأن لا يخاطر بنفسه فى هذا الصراع .

ثم جاءته الفتاتان ورأتاه قد أثر فى نفسه ما أظهره الدوق فجأة من غضب عليه فألقتا على مسامعه بعض عبارات العطف والتشجيع ؛ ولما همتا بالانصراف التفتت روزلند إليه لتحييه وتظهر حنوها عليه ، ثم أخذت قلادة من عنقها ومدت بها يدها إليه وهى تقول : « أيها الشاب المهذب البس هذه تذكاراً منى ، إن الحظ يعاندنى ، ولولا ذلك لقدمت إليك شيئاً أثمن من هذه الهدية » .

ولما خلت الفتاتان إحداهما إلى الأخرى ، ولم تنقطع روزلند عن ذكر أرلندو ، تبينت سليا أن ابنة عمها قد وقعت فى حب الشاب المصارع الوسيم ، وقالت لروزلند : « أيمكن أن يقع حبه فى قلبك بهذه السرعة ؟ » ، فأجابتها روزلند : « إن أبى الدوق كان يحب أباه حباً جما » . فردت عليها سليا بقولها : « ولكن هل معنى هذا أن تحبى ابنه هذا الحب الشديد ؟ لو صح ذلك لكان واجباً على أن أبغضه ، لأن أبى كان يبغض أباه ، ولكنى لا أشعر بشىء من الكره له » .

وكانت نار الحقد قد عادت تشتعل فى قلب فردرك على ابنة أخيه ، لأن منظر ابن سير رولند ده بوى قد أثاره حين ذكّره بما للدوق المنفى من أصدقاء كثيرين بين أشراف البلاد ؛ وقد كان من زمن غير قريب ساخطا على ابنة أخيه لما كان يسمعه من مدح الناس لها وثنائهم على فضائلها ، وإشفاقهم عليها لما أصاب والدها الطيب القلب . وبينا كانت سليا وروزلند تتحدثان عن أرلندو أقبل عليهما فردرك والغضب باد فى وجهه ، وأمر روزلند أن تغادر القصر من فورها وتذهب لتقيم مع والدها فى منفاه . وأرادت سليا أن تثنيه عن عزمه فلم يصغ إليها ، وقال لها إنه لم يسمح ببقاء روزلند فى القصر إلا إرضاء لها . فقالت له سليا : « إننى لم أطلب إليك أن

تبقيها لأننى كنت فى ذلك الوقت صغيرة السن لا أستطيع أن أقدر فضائلها ، أما الآن وقد عرفت قدرها وصاحبتها هذا الزمن الطويل ، ننام معاً ونصحو معاً ، وندرس ونلعب ونطعم معاً ، فإنى لا أستطيع أن أفارقها » . وأجابها فردرك بقوله : « إنها فتاة ماكرة لا تستطيعين أن تعرفى خبيئة نفسها ، وإن دعتها وسكوتها وصبرها لألسنة ناطقة تتحدث إلى الناس فيشفقون عليها ويرقون لحالها ، وإن من الحماقة أن تدافعى عنها لأنها إذا ذهبت زاد ذهابها من بهائك وفضائلك ، ولذلك آمرك ألا تنطقى بكلمة واحدة فى معرض الدفاع عنها ، لأن القرار الذى اتخذته بشأنها قرار لا رجوع عنه » .

ولما وجدت سليا أنها لا تستطيع أن تقنع والدها بالرجوع عن قراره وإبقاء روزلند معها ، دفعتها مروءتها إلى مصاحبتها ، فخرجت من قصر أبيها مع صديقتها فى تلك الليلة لتبحثا عن الدوق المنفى فى غابة أردن .

واعتقدت سليا قبل أن تبدآ سفرهما أن من الخطر على سيدتين مثلهما أن تسافرا فى ثيابهما الغالية ، فعرضت على صديقتها أن تخفيا حقيقة أمرهما بارتداء ثياب القرويات ؛ وقالت روزلند إن مما يزيد فى أمنهما وسلامتهما أن تلبس إحداهما ثياب الرجال . وسرعان ما اتفقا على أن ترتدى روزلند أطول الفتاتين ثياب شاب قروى ، وأن تكون سليا فى زى قروية ، وأن تقولا إذا سئلتا عن أمرهما إنهما أخوان . وقالت روزلند إنها ستسمى نفسها جنميد Ganymede واختارت سليا لنفسها اسم ألينا Aliena .

واتفقت الأميرتان الجميلتان على ذلك كله ونفذتاه فعلا ، وأخذتا معهما كل ما كان لديهما من نقود وحلى لتنفقا منه فى سفرهما . ثم بدأتا رحلتهما على الفور لأن غابة أردن كانت بعيدة الشقة تقع خارج حدود أملاك الدوق .

وكأن ثياب الرجال التى ارتدتها روزلند (أوجنميد وهو الاسم الذى يجب أن تسمى به بعدئذ) قد خلعت عليها شجاعة الرجال أيضاً . وكان للصداقة التى أظهرتها سليا عندما اعتزمت أن تصحب روزلند فى سفرها الشاق الطويل أثرها فى بث روح النشاط والحبور فى نفس أختها الجديد ليجزيها بذلك على صادق حبها ، وكأنما كانت

روزلند بحق جنميد الأخ الفلاح لألينا الفتاة القروية الظريفة .

ولما انتهى بهما المطاف إلى غابة أردن لم تجدا فيها الفنادق الصالحة والغرف المريحة التى كانتا تجدانها فى الطريق ، وشعر جنميد بألم الجوع فلم ير بدًّا من أن يعترف لألينا بأنه يوشك من شدة التعب أن يبكى مثل النساء رغم ما عليه من ثياب الرجال ، مع أنه كان قبل يُسلى أخته ويطربها بلذيذ حديثه وحلو فكاهته طول الطريق . وصرحت ألينا بأنها عاجزة عن مواصلة السير ، ولكن جنميد عاد فتذكر أن من واجب الرجال أن يواسوا النساء ويروحوا عنهن لأنهن أضعف الجنسين ، وأراد أن يتظاهر بالشجاعة أمام أخته الجديدة فقال : « لا تحزنى يا أختى ألينا فقد وصلنا إلى غابة أردن محط رحالنا » . ولكن الرجولة المتكلفة والشجاعة المصطنعة لم تعودا تكفيانهما ، لأنهما لم تكونا تعرفان مقر الدوق وإن كانتا تسيران فى غابة أردن نفسها ؛ ولولا أن الله قد لطف بهاتين الفتاتين المتعبتين لساءت عاقبة أمرهما ، فقد كان يخشى أن تضلا الطريق وتقضيا نحبهما من شدة الجوع ، ولكن الأقدار ساقت إليهما قرويا عابر سبيل مر بهما وهما جالستان على الكلأ خائرتى القوى لا أمل لهما فى النجاة . وحاول جنميد مرة أخرى أن يتصنع شجاعة الرجال فقال : « أيها الراعى ، إن كان فى الناس من يضيفنا حبا فينا أو رغبة فى مالنا ، فإنا نرجو منك أن تأخذنا إلى حيث نستريح ، لأن أختى هذه متعبة من طول السفر ، منهوكة القوى من شدة الجوع » .

وأجابه الرجل بقوله إنه خادم عند أحد الرعاة ، وإن بيت سيده يوشك أن يباع ، وإنهما من أجل ذلك لن يجدا ما يطمعان فيه من الضيافة ، فإذا شاءا مع ذلك أن يذهبا معه فإنه سيقدم لهما ما يستطيع أن يقدمه على قلته . وسارت الفتاتان مع الرجل يحدوهما الأمل بأنهما سوف تجدان الغوث القريب ، ويبعث فيهما هذا الأمل قوة جديدة . وابتاعت الفتاتان بيت الراعى وغنمه ، واستأجرتا الرجل الذى أرشدهما إليه ليقوم بخدمتهما فيه . وهكذا أسعدهما الحظ بالعثور على هذا الكوخ الأنيق والطعام الوفير ، فقر رأيهما على أن تبقيا فى هذا المكان حتى تعرفا مستقر الدوق فى الغابة .

ولما ذهب عنهما عناء السفر أخذتا تطمئنان إلى حياتهما الجديدة ، وكادتا تعتقدان أنهما راع وراعيه حقا ، وليستا أميرتين فى ثياب الرعاة . ولكن جنميد كان يذكر أحيانا أنه كان من قبل الفتاة روزلند الهائمة بحب أرلندو الشجاع ابن السير رولند صديق أبيها ؛ وكان يظن أن أرلندو بعيد الدار عنهما وأن بينه وبينهما مالا يقل بعداً ومشقة عن الطريق الذى قطعاه من قصرهما إلى تلك الغابة ؛ ولكنهما سرعان ما تبينا أن أرلندو يقيم أيضاً فى غابة أردن ، وكان وجوده فيها سبباً فى وقوع هذا الحادث الغريب .

كان أرلندو أصغر أبناء السير رولندى بوى ، وكان أبوه وهو على فراش الموت قد عهد به إلى أخيه الأكبر ألفر Oliver وأوصاه أن يحسن تربيته وأن يعنى به العناية التى تليق بمكانة بيتهم القديم ، حتى ينال بذلك رضاء أبيه . ولكن ألفر أثبت أنه غير جدير بهذه الأمانة وذلك الرضا ، فلم يعمل بوصية أبيه ولم يرسل أخاه إلى المدرسة ، بل أبقاه فى البيت جاهلا مهملا كل الإهمال . غير أن أرلندو كان يشبه أباه العظيم فى حسن خلقه ، وفى قوة ذكائه ونبل عقله ، فكان لذلك يبدو كأنه قد لقى فى تربيته أعظم ما يلقى أبناء الأسر الكريمة من الرعاية ، وإن حرم مزايا التربية والتعليم . وحسد ألفر أخاه الجاهل على بهاء طلعته وهيبته ، وما زالت نيران الغيرة تتأجج فى صدره حتى عزم آخر الأمر على أن يهلكه ليتخلص منه . وكانت الطريقة التى دبرها ليصل بها إلى غرضه أن يبعث إلى أخيه بمن يزين له أن ينازل ذلك المصارع الشهير الذى قتل كثيراً من الأقران كما ذكرنا من قبل . وكانت قسوة ألفر وإهماله شأن أخيه هما اللذين أنطقا أرلندو بقوله إنه يرغب فى الموت لأنه لا يجد له فى الحياة صديقاً .

فلما خابت آمال الأخ الغادر وظفر أرلندو بقرنه ، استعرت نيران الحسد فى قلب ألفر ، وأقسم أن يحرق بالنار حجرة نوم أخيه ؛ وسمع هذا القسم صديق قديم وفىّ لأبيهما ، يحب أرلندو لما كان بينه وبين أبيه من شبه عظيم . وخرج هذا الشيخ للقاء أرلندو وهو عائد من قصر الدوق ، فلما رآه تصور الخطر المحدق بسيده الشاب ، فثارت ثائرته وقال : « سيدى الكريم ؛ أى سيدى العزيز يامن يذكرنى

بسيدى سير رولند الكبير ، لم كنت مجمع الفضائل ؟ ولم كنت ظريفاً قويا شجاعا ؟ ولم أولعت بهزيمة المصارع الذائع الصيت ؟ لقد أسرع مديحك فسبقك إلى هذه الديار » .

وعجب أرلندو من هذا القول ولم يدرك معناه ، فسأل الرجل عن جلية الخبر ، فقال له إن أخاه يحقد عليه من أجل حب الناس له ، وإنه لما سمع بما ناله من المجد بفوزه على غريمه فى قصر الدوق صمم على أن يفتك به بإشعال النار فى غرفته فى تلك الليلة ، وختم حديثه بأن أشار عليه أن يغادر المكان من فوره لينجو بنفسه من الخطر المحدق به . وكان هذا الشيخ الطيب (واسمه آدم) يعرف أن أرلندو ليس له مال ، فأحضر معه جميع ما ادخره من مال قليل وقال له « إن معى مبلغا ادخرته من أجرى فى السنين التى كنت أخدم فيها أباك ، لأستعين به عند ما يقعدنى عن العمل ضعف الشيخوخة . فخذ هذا المال وليتولنى فى شيخوختى من يرزق الطير فى أوكارها ، هاك هو الذهب أقدمه إليك وأرجو أن ترضى بى خادماً لك ، فإنى وإن بدت على علائم الكبر أستطيع أن أقوم بما يقوم به من هم أصغر منى سنا ، فأخدمك وأقضى حوائجك » . وأجابه أرلندو بقوله « ما أطيب قلبك أيها الشيخ ، إن الوقار الذى كان الناس يتحلون به فى الأيام الخالية ليتجلى فيك ، فلست أنت من أبناء هذا الجيل ، وسنضرب فى الأرض معاً ، وقبل أن ينفد ما ادخرته من أجرك سأوفق إلى وسيلة نستعين بها على العيش » .

وسار الخادم الأمين فى صحبة سيده المحبوب ، وأخذا يضربان فى الأرض إلى غير مكان معروف ، حتى ألقيا عصا التسيار فى غابة أردن ؛ وهناك ألفيا أنفسهما فى حاجة إلى الطعام كحاجة جنميد وألينا إليه ، فأخذا يجوسان خلال الغابة يبحثان عن ملجأ لهما حتى أعياهما الجوع والتعب ؛ وعندئذ قال آدم لسيده « أى سيدى العزيز سأموت من ألم الجوع ، إنى عاجز عن السير » ثم ارتمى على الأرض وعول على أن يجعل من هذا المكان قبراً له ، فحمله بين ذراعيه ووضعه فى ظلال بعض الأشجار الظليلة وقال له « لا تبتئس أيها الشيخ واسترح هنا قليلا ، ولا تحرك لسانك بذكر الموت » .

ثم أخذ أرلندو يبحث عن طعام ، واتفق أن قاده البحث إلى ذلك المكان الذى يقيم فيه الدوق ، وقد هم هو وأصحابه بتناول الطعام وهو جالس معهم على الكلأ يستظل بوارف الأشجار .

وكان الجوع قد عض أرلندو بنابه وأذهل عقله ، فاستل سيفه يريد أن يأخذ الطعام عنوة وخاطبهم قائلا « كفوا أيديكم ولا تتناولوا شيئا من الطعام ، فلا بد لى أن أستولى عليه كله » . وسأله الدوق « أهى المصائب التى ذهبت بلبه ففعل ما فعل ؟ أم هى شراسة الطبع التى تجعله يحتقر الذوق والآداب ؟ » فأجابه أرلندو بقوله إن الجوع يكاد يهلكه . ودعاه الدوق إلى الجلوس وتناول الطعام معهم : وتأثر أرلندو من لطف الدوق ورقة لفظة ، فأغمد سيفه وهو خجل أشد الخجل من الطريقة التى أراد أن يغتصب بها طعامهم وقال لهم « عفوا سادتى لقد ظننت أن كل ما فى هذا المكان قد غلبت عليه الوحشية ، ولذلك تكلفت العنف والجرأة ؛ ولكن من تكونون يا ترى ؟ ولماذا تقضون حياتكم فى هذا المكان المهجور فى ظلال هذه الأغصان التى تشع منها روح الكآبة ؟ فإذا كنتم قد مرت بكم فى حياتكم أيام أحسن من هذه الأيام ، وإذا كنتم قد أقمتم حيث تدق أجراس الكنائس تدعو المؤمنين لعبادة الله ، وإذا كنتم قد جلستم ضيوفا على موائد الكرام ، وإذا كنتم يوما من الأيام قد مسحتم من أعينكم دمعة شفقة وحنان وعرفتم كيف ترحمون وترحمون ، فلعل الرجاء يحرك فيكم عاطفة الرأفة والحنان فتصنعون الصنع الجميل » . وأجابه الدوق قائلا « فى الحق أننا كما قلت رجال قد مرت بهم أيام أطيب من هذه الأيام ، وقد سكنا المدن العامرة قبل أن نسكن هذه الغابة الموحشة ، وسمعنا أجراس الكنائس تدعونا إلى الصلاة ، وطعمنا على موائد الكرام ، ومسحنا دموعاً فاضت من مآقينا شفقة على البائسين ؛ ولهذا كله أدعوك إلى الجلوس معنا وأخذ ما يسد حاجتك من هذا الطعام والشراب » وأجابه أرلندو بقوله « إن معى رجلا منهوك القوى ، قد أجهد نفسه فى السير خلفى لفرط حبه لى رغم ما يقعد به من ضعف الشيخوخة وشدة الحاجة إلى الطعام ، ولن أذوق طعامكم حتى ينال منه كفايته » . فقال له الدوق « اذهب وائت به إلى هذا المكان ،

ولن نمد أيدينا إلى الطعام حتى تعود » . وانطلق أرلندو كما تنطلق الظبية إلى فراخها بالطعام ، وسرعان ما عاد يحمل آدم بين ذراعيه ، فقال له الدوق « ضع عنك حملك الشريف المبجل ، مرحباً بك وبه » . ثم أطعما الشيخ الضعيف وروّحا عنه حتى انتعش واستعاد صحته وقوته .

وسأل الدوق أرلندو من يكون ؟ فلما عرف أنه ابن صديقه القديم سير رولند ده بوى أخذه فى كنفه ، وعاش هو وخادمه الشيخ إلى جانبه فى الغابة .

وكان مجىء أرلندو إلى الغابة بعد أيام قليلة من قدوم جنميد وألينا إليها وشرائهم بيت الراعى كما سبق القول .

ودهش جنميد وألينا حين وجد اسم روزلند محفوراً على سوق الأشجار ، وأغانى الحب معلقة على أفنانها ، وكلها تتغنى بحب روزلند . وبينا هما فى شدة العجب من هذا كله إذا بهما يلتقيان بأرلندو ، وتقع أعينهما على العقد الذى أعطته إياه روزلند يطوق جيده .

ولم يكن أرلندو يظن أن جنميد هو الأميرة الحسناء روزلند التى هام بحبها لتواضعها النبيل وعطفها عليه ، فقضى وقته كله ينقش اسمها على سوق الأشجار ويكتب الأغانى فى مدح جمالها ، ولكنه أعجب بظرف هذا الشاب الراعى ولطفه فأخذ يجاذبه أطراف الحديث ، وظن أنه يرى كثيراً من الشبه بين جنميد وحبيبته روزلند ، وإن كان ينقصه هيبة تلك الفتاة النبيلة . ذلك أن جنميد قد تكلف الجرأة وقلة الاحتشام اللتين تلازمان الشبان بين الغلومة والرجولة فى كثير من الأحيان ، وأخذ يحدث أرلندو بشىء غير قليل من الخبث والدعابة عن فتى محب يأتى إلى غابتهم ، ويتلف أشجارهم ، فيحفر كلة روزلند فى لحاها ، ويعلق الأغانى والمراثى على أغصانها ، وكلها فى مدح هذه الفتاة ، وقال له « لو أنى وجدت هذا المحب لأسديت إليه من النصح ما يشفى قلبه من غرامه » .

وأقر أرلندو بأنه ذلك المحب الواله الذى يتحدث عنه ، وطلب إلى جنميد أن يسدى إليه ما عنده من النصح ، فأشار عليه أن يأتى فى كل يوم إلى الكوخ الذى يقيم فيه هو وأخته ألينا ، وقال له : « سوف أتظاهر بأنى أنا روزلند ، وستخاطبنى

أنت كما لو كنتُ روزلند بحق ، وسأقلد عبث الفتيات مع أحبائهن ، حتى تستحى أنت من حبك وتقلع عنه ، وذلك هو العلاج الذى أصفه لك » .

ولم يؤمن أرلندو بهذا العلاج ، ولكنه رضى أن يأتى فى كل يوم إلى كوخ جنميد ويتظاهر بحبه ، وأتبع القول بالفعل فصار يتردد على جنميد وألينا كل يوم ، ويخاطب الراعى باسم روزلند ، ويسمعه كلما جاء من الثناء وحلو الكلام ما يلقيه الشبان على مسامع الفتيات اللاتى يخطبونهن لأنفسهم ، ولم يبد فى أثناء ذلك ما يدل على نجاح جنميد فى شفاء أرلندو من حبه لروزلند . ولم يكن أرلندو يتصور أن جنميد هو روزلند نفسها ، ولذلك كان يظن أن ما يدور بينهما كله عبث ، ولكن الفرصة التى أتيحت له بأن يفرغ كل ما كان يمتلئ به قلبه من عواطف قد سرته وأذهبت عنه الحزن كما سرت جنميد نفسه . وكان يزيد من سرور جنميد علمه أن عبارات الحب التى ينطق بها أرلندو إنما كانت تلقى على مسامع من يجب أن تلقى على مسامعه .

ومرت بهما أيام كثيرة وهما على هذه الحالة السارة ؛ ولم تشأ ألينا الطيبة القلب أن تحرم جنميد هذه المتعة ، بل كان يسرها هى أيضاً أن تشاهد الخطبة المزورة ، فلم تلفت نظر جنميد إلى أن الفتاة روزلند لم تلق أباها الدوق بعد أن عرفت من أرلندو مقره فى الغابة . على أن جنميد قابل الدوق فى يوم من الأيام ، ودار بينهما حديث قصير ، سأله الدوق فى خلاله عن أصله فأجابه بأنه من أسرة لا تقل مكانة عن أسرته ، وتبسم الدوق ضاحكا من قوله لأنه لم يكن يظن أن الفتى الراعى الوسيم من نسل الملوك ، ورأى جنميد أن الدوق يتمتع بصحة الجسم وهناءة العيش ، فاكتفى بهذا وأجل جلاء الموقف بضعة أيام أخرى .

وذهب أرلندو فى زيارة لجنميد يوماً من الأيام ، فشاهد فى الطريق رجلا نائماً على الأرض ، ورأى ثعبانا ضخما أخضر اللون يطوق عنقه ؛ فلما اقترب أرلندو من الثعبان ترك الرجل واتخذ سبيله بين الأعشاب . ولما دنا أرلندو من الرجل رأى لبؤة مختفية بين الأشجار ورأسها على الأرض ترقب الرجل حتى يصحو من نومه ، لأن الأسد كما يقول الناس لا يفترس الميت أو النائم ؛ وكأن

العناية الإلهية قد ساقت أرلندو لينقذ الرجل من الأفعى واللبؤة جميعاً . ولما تفرس فى وجه النائم تبين أن الرجل الذى كان معرَّضاً لذلك الخطر المزدوج هو أخوه ألِفر الذى قسا عليه وأراد أن يقتله حرقاً ؛ وهم أن يتركه فريسة اللبؤة الجائعة ، ولكن عطفه الأخوى وكرم طباعه تغلبا على ما كان فى نفسه من غضب على أخيه ، فاستل سيفه وهجم به على اللبؤة وقتلها ، وأنقذ حياة أخيه من الأفعى السامة واللبؤة الضارية ، ولكن اللبؤة مزقت بمخالبها الحادة إحدى ذراعيه قبل أن يتغلب عليها .

وبينا كان أرلندو يصارعها استيقظ ألفر من نومه ، ورأى أخاه الذى قسا عليه ينقذ حياته من شر وحش ضار ويعرض نفسه للخطر ، فخجل من فعلته وعض بنان الندم ، وأخذ يتوسل إلى أخيه والدمع يفيض من عينيه أن يعفو عنه ويغفر له زلته . وسر أرلندو حين شهد أخاه يندم على ما اقترف ، فعفا عنه لساعته ، وتعانق الأخوان ، ومن تلك الساعة أحب ألفر أخاه حبا صادقاً وإن كان قد أتى إلى الغابة فى أثره ليقضى عليه .

وكان الدم الذى نزف من جرح أرلندو غزيراً ، أضعفه فلم يستطع الذهاب لزيارة جنميد ، فطلب إلى أخيه أن يذهب إليه ويخبره بما حدث له ، وأضاف إلى ذلك قوله : « إنه يدعوه من باب العبث والتسلية محبوبته روزلند » .

وذهب ألفر إلى جنميد وألينا وأخبرهما بما فعله أرلندو لإنقاذ حياته ، وحين انتهى من وصف شجاعة أخيه وقص عليهما كيف ساقته الأقدار لنجاته ، قال لهما إنه هو أخو أرلندو الذى قسا عليه وعامله أسوأ معاملة ، ثم أنبأهما بأنه هو وأخاه قد تصافيا ، وعادت المياه بينهما إلى مجاريها .

وأثر فى نفس ألينا الطيبة الرحيمة ما أظهره ألفر من ندم على ما اقترف فى حق أخيه ، فأحبته من فورها ، وكذلك أحبها هو فى تلك اللحظة بعد أن شهد تأثرها حين حدثها بندمه على فعلته . ولكن هذا الحب الذى أخذ ينبعث فى قلبى ألينا وألفر لم يشغلهما عن جنميد ، فإنه لما سمع بالخطر الذى كان محدقاً بأرلندو وبما أصابه فى صراعه مع اللبؤة ، خر على الأرض مغشيا عليه . ولما أفاق ادعى أنه إنما

تصنع هذه النوبة لتتفق مع ما يتظاهر به من تمثيل شخصية روزلند ، وقال لألفر : « صف لأخيك أرلندو بعد أن ترجع إليه كيف مثلت الغشية أحسن تمثيل » .

ولكن ألفر أدرك من امتقاع لونه أنه قد غشى عليه حقا وقال له وهو فى شدة العجب من ضعف هذا الشاب : « إذا كنت حقا تتظاهر فتظاهر أيضاً بأنك من الرجال » . وأجابه جنميد جواب صدق : « إنى أفعل ذلك ، وإن كان من حق أن أكون من النساء » .

وأطال ألفر الزيارة عن قصد ، ولما عاد بعدها حمل إلى أخيه من الأخبار الشىء الكثير . فقد قص عليه حديث جنميد والنوبة التى غشيته حين سمع بأن أرلندو قد جرح ، وأفضى إليه بأنه قد وقع فى حب الفتاة ألينا الحسناء وأنها قد بادلته فى هذه الزيارة الأولى حبا بحب ، وقال لأخيه إنه سيتزوج بها وإنه من فرط حبه لها سيعيش معها معيشة الرعاة ، وينزل له عن ضيعته وبيته .

وأجابه أرلندو بقوله : « إنى راض بذلك ، وليكن زواجك غداً ، وعلىّ أن أدعو الدوق وأصدقاءه ، أما أنت فعليك أن تذهب لتقنع راعيتك فإنها الآن بمفردها وها هو ذا أخوها حاضر إلينا » . وتوجه ألفر تلقاء ألينا ، وأقبل جنميد ليسأل عن صحة صديقه الجريح .

ولما أخذ أرلندو وجنميد يتحدثان عن الحب الذى نبت فجأة فى قلبى ألفر وألينا ، قال إنه أشار على صديقه بأن يقنع الراعية الحسناء أن تتزوج به فى اليوم الثانى ، وأضاف إلى ذلك قوله إنه يتمنى لو استطاع أن يتزوج بروزلند فى اليوم نفسه .

وقال جنميد إنه موافق كل الموافقة على هذه الخطة ، وإن أرلندو سينال بغيته إذا كان يحب روزلند ذلك الحب الذى يدعيه ، لأن فى وسعه أن يأتيه بروزلند ذاتها ، وأن تكون راضية بزواجه .

ولم يكن يصعب على جنميد أن يحقق هذا الأمر الغريب فى ظاهره ، لأنه هو روزلند بعينها ؛ ولكنه ادعى أنه سيستخدم فى تحقيقه السحر الذى علمه إياه عم

له كان من السحرة الذائعى الصيت . وكان أرلندو المحب الواله بين مصدق لما سمع ومكذب ، ولذلك سأل جنميد هل هو جاد فيما يقول أو هازل ؟ فأجابه جنميد بقوله : « وحق حياتى أنى لا أقول إلا حقا ، ولذلك أطلب إليك أن تلبس خير ما عندك من ثياب ، وأن تدعو الدوق وأصدقاءه ليشهدوا حفلة زفافك ، فإنك إن أردت أن تزف إلى روزلند غداً فستكون هنا فى غد » .

وفى صباح اليوم التالى مثل ألفر وألينا بين يدى الدوق بعد أن رضيت ألينا بزواجه ، وجاء معهما أرلندو .

واجتمعوا كلهم ليحتفلوا بالزواجين ، ولكن العروسين لم تحضر منهما إلا واحدة ؛ وأخذ العجب منهم كل مأخذ ، واختلفت آراؤهم فيما عسى أن يكون ، وكان الرأى السائد أن جنميد يسخر من أرلندو .

ولما سمع الدوق أن ابنته هى التى سيؤتى بها بهذه الطريقة العجيبة ، سأل أرلندو هل يعتقد أن فى وسع الراعى أن ينجز ما وعد ؟ وبينا كان أرلندو يجيبه عن سؤاله بأنه لا يدرى ما يقول ، إذا بجنميد يدخل ويسأل الدوق هل يوافق إذا جاء بابنته أن يزوجها بأرلندو ؟ فأجابه الدوق بقوله : « إنى أزوجها به ، ولو كان لى ملك الأرض أمهرها به » . ثم قال جنميد لأرلندو : « وهل تقول أنت إنك ستتزوج بها إذا جئت بها إلى هنا ؟ » . فأجابه أرلندو : « سأتزوج بها ولو كنت مَلِكا على العالم كله » .

وعند ذلك خرج جنميد وألينا معاً ، وخلع جنميد ما كان عليه من ثياب الرجال وعاد مرة أخرى إلى لبس ثياب النساء ، فكان هو روزلند دون أن يستعين بقوة السحر . وكذلك خلعت ألينا ثياب بنات الريف وعادت إلى لبس ثيابها الغالية فكانت هى الفتاة سليا دون كبير عناء .

ولما خرج جنميد وألينا قال الدوق لأرلندو إنه يرى شبهاً كبيراً بين الراعى جنميد وابنته روزلند ، وقال أرلندو إنه هو أيضاً قد لاحظ هذا الشبه الكبير . ولم يتسع وقتهم للتفكير فيما سينتهى إليه هذا الموقف الغريب ، لأن روزلند وسليا أقبلتا عليهم فى لباسهما الحقيق . ولم تَدَّع روزلند أن قوة السحر هى التى جاءت

بها إلى هذا المكان ، بل خرت راكعة أمام والدها وطلبت إليه أن يدعو لها بخير . وعجب كل الحاضرين من ظهورها بينهم بهذه الطريقة المفاجئة ؛ ولو أنها ادعت أن قوة السحر هى التى جاءت بها لما خالجهم شك فى صدق دعواها ، ولكن روزلند لم تشأ أن تطيل هذا العبث مع أبيها ، فقصت عليه نبأ خروجها من بلدها وحياتها فى الغابة كأنها فتى من الرعاة وكأن ابنة عمها سليا شقيقته .

وأكد الدوق رضاءه عن زواج ابنته ، وتم زفاف أرلندو وروزلند ، وألفر وسليا كلهم فى وقت واحد . ولم يكن فى مقدورهم أن يحتفلوا بهذا الزواج فى هذه الغابة الموحشة بما يليق به من العظمة والفخامة ، ولكن يومه كان أسعد أيام الزفاف وأعظمها بهجة ، وكأن العنايه الإلٰهية قد شاءت ألا ينقص هذا الدوق الطيب وهؤلاء المحبين الأوفياء شىء تتم به سعادتهم ، فساقت إليهم فى هذه اللحظة رسولا أقبل على حين غفلة يبشر الدوق بأن دوقيته قد ردت إليه .

ذلك أن الغاصب قد استشاط غضباً حين عرف أن ابنته سليا هربت من قصره ، وسمع أن كثيراً من عظماء البلاد يخرجون كل يوم إلى غابة أردن لينضموا إلى الدوق الراعى فى منفاه ، وكره أن يرى الناس يعطفون على أخيه فى محنته ، فسار إلى الغابة على رأس قوة كبيرة ليقبض على أخيه ويقتله هو وأصدقاءه الأوفياء ؛ ولكن العناية الإلٰهية قدرت غير هذا التقدير ، فحولت هذا الأخ الغادر عن عزمه وبدلت شره خيراً ؛ فلم يكد يتخطى حدود الغابة الموحشة حتى لقيه شيخٌ مسِن من رجال الدين ، جرى له معه حديث طويل ، نزع ما فى قلبه من غل على أخيه ، وجعله يندم على ما اقترف فى حقه ، ويصمم على أن ينزل له عن ملكه المغتصب ويقضى بقية حياته فى بيت من بيوت الله . وكان أول ما فعله بعد توبته أن أرسل رسولاً إلى أخيه يعرض عليه أن يرد عليه ملكه الذى اغتصبه من زمن طويل ، وأن يعيد معه أملاك أصدقائه الأوفياء الذين شاركوه فى محنته ، وجميع ما حصله من هذه الأملاك .

وجاءت هذه البشرى السعيدة التى لم تكن متوقعة فى أنسب الأوقات ،

وبدأ ڤلنتين سفره إلى ميلان فى ذلك اليوم نفسه ؛ ولما خرج صديقه من عنده جلس يكتب خطابا إلى چوليا ، فلما فرغ من كتابته ناوله لخادمتها لوستا Lucetta لتحمله إلى سيدتها .

وكان حب چوليا لپروتيوس لا يقل عن حبه لها ، ولكنها كانت فتاة نبيلة الطبع كريمة الخلق ، ترى أنه لايليق بكرامة العذارى مثيلاتها أن يستجبن لنداء الحب بسهولة ، ولذلك كانت تتصنع عدم مشاركتها پروتيوس فى عواطفه ، فسبب له ذلك كثيراً من الألم طوال مدة خطبته .

ولما قدمت لوستا الرسالة لچوليا أبت أن تأخذها منها ، وأنبت خادمتها على قبولها رسائل من پروتيوس ، وأمرتها بالخروج من حجرتها على الفور . ولكنها كانت فى خبيئة نفسها شديدة الرغبة فى أن تعرف ما تحتويه الرسالة ، فلم تلبث أن دعت خادمتها أن تعود إليها ثم سألتها : « كم الساعة ؟ » ، وأدركت لوستا أن رغبة سيدتها فى أن تعرف ما تحتويه الرسالة كانت أشد من رغبتها فى معرفة الوقت ، فعرضت عليها الخطاب دون أن تجيب عن سؤالها . وأغضب چوليا أن ترى جرأة خادمتها على أن تظهر أمامها بمظهر العارف بحقيقة مقصدها ، فمزقت الرسالة وألقت بها على الأرض ، وعادت فأمرت خادمتها أن تغادر الحجرة . وانحنت لوستا وهى تهم بالخروج لتجمع قطع الرسالة الممزقة ، ولكن چوليا لم تكن تريد أن تخرج هذه الأوراق من عندها فتظاهرت بالغضب وقالت لخادمتها : « أخرجى من هنا على عجل ، ودعى الأوراق حيث هى ؛ إنك إنما تعبثين بها رغبة منك فى إغضابى » .

وشرعت چوليا بعدئذ تجمع أجزاء الرسالة الممزقة وتضمها بعضها إلى بعض بأحسن ما تستطيع ؛ وكان أول ما تبينته منها هذه الكلمات : « پروتيوس جريح الهوى » . وأثرت فى نفسها هذه العبارة ومثيلاتها من عبارات الوجد التى استطاعت أن تتبينها من أوراق الرسالة الممزقة أو المجروحة كما سمتها هى ، وكان الذى أوحى إليها بهذا التشبيه هو عبارة پروتيوس جريح الهوى . وأخذت تخاطب هذه العبارات الرقيقة وتقول لها إنها ستحتفظ بها بين طيات صدرها حتى تلتئم جراحها ، وإنها ستُقبل كل قطعة منها مراراً عدة لتكفر بذلك عن ذنبها .

وظلت تضرب على هذه النغمة ، وطال حديثها إلى الأوراق كأنها طفل يحدث دميته ، حتى تبينت عجزها عن قراءة كل ما حوته الرسالة ؛ وآلمها ما أظهرته من جحود حين مزقت ما أسمته ألفاظ الحب الجميلة ، فكتبت إلى پروتيوس خطابا كان أكثر عطفاً وحنانا من كل ما خطته أناملها من قبل .

ولشد ما سُر پروتيوس حين تلقى هذا الرد الجميل ؛ وبعد أن تلاه قال بصوت عال : « أيها الحب العذب ، وأيتها السطور العذبة ، وأيتها الحياة العذبة ! » ، وبينا هو فى هذه السورة إذا بوالده يدخل عليه ، فلما رآه على هذه الحال قال له : « ماذا دهاك ؟ وما هذا الخطاب الذى تقرأه » .

فأجابه پروتيوس : « مولاى تلك رسالة من ثلنتين أرسلها إلى من ميلان » .

فقال له والده : « أرنى الخطاب لأطلع على ما فيه من أخبار » . ودب الخوف فى قلب پروتيوس فقال : « ليس فى الرسالة يا أبى شىء من الأخبار ، سوى أنه يقول فيها إن دوق ميلان يحبه كثيراً ، وإنه يزيده فى كل يوم قرباً منه وعطفاً عليه ، وهو يتمنى أن أكون معه وأن أقاسمه حظه » .

فسأله والده : « وما هو شعورك أنت نحو هذه الرغبة » .

فأجابه پروتيوس : « إن شعورى نحوها هو شعور الابن الذى يخضع لإرادة أبيه لا لرغبة صديق » .

واتفق أن كان والد پروتيوس قبل مجيئه يتحدث إلى صديق له فى هذا الموضوع نفسه ، فقال له ذلك الصديق إنه يعجب كيف يسمح لابنه أن يقضى شبابه فى وطنه ، فى الوقت الذى يرسل فيه كثيرون غيره أبناءهم ليطلبوا الخير لأنفسهم خارج بلادهم « فيذهب بعضهم إلى الحروب ليروا ماذا يكون لهم فيها من حظ ، ويسافر بعضهم لكشف الجزائر النائية ، ومنهم من يغترب عن أوطانه ليطلب العلم فى الجامعات ، وهاك ثلنتين صديق ولدك قد التحق ببلاط دوق ميلان ، وابنك خليق بمثل هذا ، ولن يكون من الخير له فى كبره ألا يبرح وطنه فى حداثة سنه » .

وأعجب والد پروتيوس بنصيحة الصديق ؛ ولما أخبره ابنه أن ثلنتين يرغب فى حضوره ليشاركه حظه ، عزم من فوره على أن يرسل ابنه إلى ميلان ؛ ولم يشأ

أن يخبر ابنه بسبب هذا العزم المفاجئ ، لأن من عادة هذا الشيخ القوى الإرادة أن يصدر لابنه الأمر ولا يذكر له الأسباب ، ولذلك قال له : « إن إرادتى تتفق مع رغبة ثلنتين » . ولما رأى العجب بادياً على وجه ولده واصل حديثه قائلا : « لا تعجب إذا اعتزمت فجأة أن تقضى بعض الوقت فى بلاط دوق ميلان ، لأن ما أريده سوف يكون ، ولا جدال فيه ، فاستعد للسفر غداً ، ولا تنتحل المعاذير فلن أقبل منك اعتذاراً » :

وكان پروتيوس يعرف أن لا فائدة ترجى من معارضة رغبات أبيه ، لأنه لم يسمح له قط بأن يجادله فى رأى ، ولذلك لام نفسه لأنه كذب عليه ولم يصدقه الخبر عن رسالة چوليا التى كانت سبب فراقه الأليم لها .

ورأت چوليا أن پروتيوس سيفارقها زمناً طويلا ، فلم تستطع أن تدعى أنها لا تأبه له ، فجاءت إليه تودعه وداعا محزنا ، وأقسمت أغلظ الأيمان أنها تحبه وأن حبها له دائم لا يحول ، وأعطته فى هذا اللقاء خاتماً وأعطاها مثله ، وتعاهدا على أن يحتفظ كل منهما بخاتمه تذكاراً لهذا العهد . ثم ودعها پروتيوس وهو مكتئب حزين ، وبدأ سفره إلى ميلان مقر صديقه ثلنتين .

وكان أمر ثلنتين كما وصفه پروتيوس لوالده عن غير علم ، فكان من المقربين عند دوق ميلان ؛ وقد حدثت له حادثة لم يكن پروتيوس نفسه يتوقعها ، فقد طلق ثلنتين حريته التى كان يتباهى بها ، وأحب حبا لا يقل عن حب پروتيوس .

وكانت الفتاة التى بدلت حال ثلنتين هذا التبديل الغريب تدعى سلڤيا Silvia ابنة دوق ميلان ؛ وكانت هى أيضاً تحبه ، ولكنهما أخفيا هذا الحب عن الدوق ، لأنه كان يريد أن يزوج ابنته بشاب من حاشيته يدعى ثوريو Thurio ، وإن كان كثيراً ما يظهر العطف على ثلنتين ويدعوه فى كل يوم إلى قصره . وكانت سلڤيا تحتقر ثوريو لأنه لم يكن كثلنتين مرهف الحس كريم الصفات . واتفق أن اجتمع هذان الخصمان ثوريو وثلنتين معا فى زيارة لسلڤيا يوما من الأيام ، وأخذ ثلنتين يسامر سلڤيا بالسخرية من كل ما يقوله ثوريو . ودخل عليهما الدوق فى أثناء هذا الحديث وبشر ثلنتين بنبأ قدوم صديقه پروتيوس ، فأجابه ثلنتين بقوله « لو طُلب

إلىّ أن أتمنى شيئاً لما تمنيت إلا أن أراه هنا فى هذه الساعة » . ثم أخذ يثنى على پروتيوس أمام الدوق ، وكان مما قاله له « لقد أضعت أنا كثيراً من وقتى فيما لا يفيد ، أما صديقى فقد أفاد من وقته أكبر فائدة ، فكمل جسمه وعقله ، واتصف بجميع الفضائل التى يزدان بها الفتى المهذب الشريف » .

وأجابه الدوق بقوله : « إذن فحيياه التحية التى تليق بقدره ، إنى أوجه كلامى إليك يا سلفيا وإليك يا ثوريو ، أما ڤلنتين فهو فى غير حاجة إلى هذا التنبيه » . وفى هذا الوقت دخل عليهما پروتيوس ، فقدمه ڤلنتين إلى سلفيا بقوله « سيدتى العزيزة أرجو أن تقبليه زميلا لخادمك » .

ولما فرغ ڤلنتين وپروتيوس من زيارتهما وانفردا معاً ، قال ڤلنتين لصديقه « حدثنى عن كل شىء فى البلد الذى جئت منه ، وما هى أخبار حبيبتك ؟ وإلى أى حد وصل حبك ؟ » — وأجابه پروتيوس بقوله « لقد كانت أخبار حبى تضايقك ، وأنا أعلم أن حديث الحب لا يسرك » فأجابه ڤلنتين « لقد تبدلت هذه الحياة ياصاح ، وأنا الآن أكفر عن ذنبى فى احتقار الحب ، وقد اقتضى هذا الحب منى جزاء هذا الاحتقار فنفى الكرى عن عينى ، أى عزيزى پروتيوس إن للحب سلطانا على النفوس ، ولقد أذلنى فأصبحت أرى أن لا عذاب أقوى من عذابه ، ولا لذة على الأرض خيراً من لذة من يقوم على خدمته ، وأشهى حديث لى الآن هو حديث الحب ، وهذا الحديث هو الآن غذائى فى الصباح والظهر والمساء ، وهو موضوع تفكيرى فى يقظتى ومنامى » .

وكان اعتراف ڤلنتين بهذا التحول فى مجرى حياته انتصاراً باهراً لصديقه پروتيوس ، نقول صديقه وإن كان پروتيوس لم يعد فى الحق « صديقا » لأن الحب ، ذلك الإلٰه القادر الذى كانا يتحدثان عنه ، كان فى هذه الساعة يضرم النار فى قلب پروتيوس حتى جعله فى أول مرة يلتقى فيها بسلفيا يغدر بالصديق ويخون حبيبته ؛ فقد ذهب ما كان فى قلبه من حب لچوليا كما تذهب الأحلام عند ما وقعت عيناه على سلفيا لأول مرة ، ولم تكن صداقته الطويلة العهد لڤلنتين لتحول بينه وبين سعيه للاستئثار بحبها دون صديقه . ولم يكن من السهل عليه فى أول الأمر أن يسكت

صوت ضميره عند ما اعتزم أن ينبذ حب چوليا ، شأن ذوى الطبائع الكريمة عند ما ينحدرون لأول مرة فى طريق الشر ؛ ولكنه استطاع آخر الأمر أن يسكت هذا الصوت ، ويتغلب على شعوره بالواجب ، ثم أسلم نفسه لعواطفه وأصبح وليس لضميره سلطان عليه . وأسر إليه ڤلنتين ، وهو مطمئن إليه واثق به ، بقصة حبه من أولها إلى آخرها ، وأخبره أنه أخفى أمرها عن الدوق لأنه لا أمل له فى أن يرضى عن زواجه بها ، ولذلك أقنع سلڤيا بأن تغادر قصر أبيها فى تلك الليلة وتهرب معه إلى منتوا Mantua ، ثم أظهر لپروتيوس سلما من الحبال أعده لتنزل عليه سلڤيا من إحدى نوافذ القصر فى جنح الظلام .

ولما كشف ڤلنتين لپروتيوس عن سره كله وائتمنه عليه ، فعل پروتيوس فعلة لا يصدقها العقل وإن كانت هى الحقيقة بعينها ، فقد اعتزم أن يذهب من فوره إلى الدوق ويفشى له السر كله .

وبدأ هذا الصديق الغادر قصته بحديث كله مكر ودهاء ، فقال له إن واجبات الصداقة كانت تقضى عليه بأن لا يبوح بشىء مما سيقصه عليه ، ولكن ما أظهره الدوق من عطف عليه وإكرام له يحملانه على أن يفضى إليه بما لم يكن ليفضى به إلى أحد ، ولو أعطى فى نظير ذلك كل ما يمكن أن يعطاه إنسان . ثم أخبر الدوق بكل ما سمعه من ڤلنتين ولم يغفل ذكر السلم والطريقة التى يريد بها أن يخفيه تحت ردائه .

وظن الدوق أن پروتيوس مثال الاستقامة الأعلى ، فقد آثر أن يفشى سر صديقه ولا يخفى شرا ينتويه ؛ فأثنى عليه ثناء عظيما ، ووعد أن يكتم عن ڤلنتين مصدر هذا النبأ ، وأن يحتال عليه حتى يجعله يفشى السر بنفسه . ولذلك انتظر الدوق قدوم ڤلنتين فى مساء ذلك اليوم ، ولم يلبث أن رآه مسرعاً نحو القصر ، وتبين أنه يخفى شيئاً تحت ردائه ، فأيقن أنه السلم الذى حدثه پروتيوس عنه ، فاستوقفه الدوق وسأله : « إلى أين تسرع يا ڤلنتين ؟ »

فأجابه ڤلنتين بقوله : « مولاى ، إن رسولا فى انتظارى ليحمل رسائلى إلى أصدقائى ، وأنا ذاهب لأعطيه هذه الرسائل » .

ولم يلق هذا النبأ الكاذب من النجاح أكثر مما لقى حديث پروتيوس لأبيه ، فقال له الدوق : « وهل هذه الرسائل ذات شأن كبير ؟ » .

فأجابه ڤلنتين بقوله : « كل ما لها من شأن أنى أريد أن أبلغ أبى أنى بخير وأنى سعيد بوجودى فى بلاط مولاى الدوق » .

« إذن فلا داعى إلى الإسراع ، ولتبق معى قليلا لأنى أريد أن أستشيرك فى أمور تهمنى » .

ثم أخذ يقص على ڤلنتين قصة اخترعها من عنده ، وأراد بها أن يستخرج منه سره . فقال له إنه يريد أن يزوج ابنته بثوريو ، ولكنها عنيدة لا تريد أن تطيع أمره « وقد تجاهلت أنها ابنتى فلم تخش بأسى كأنى لست أباها . ولست أخفى عليك أن كبرياءها قد نفر قلبى منها بعد أن كنت أظن أنى فى هذه السن سأعتز بعرفانها ما يجب عليها لى ، ولذلك قررت أن أتخذ لى زوجة ، وأن أزوج هذه الفتاة بمن يرضى بها ، وليكن جمالها هو كل ما أمهرها به ، لأنها لا تقدرنى أنا وما لى حق قدرنا » .

ولم يستطع ڤلنتين أن يعرف ما يرمى إليه ذلك كله ، فسأل الدوق : « وماذا يريد سيدى أن أفعله ؟ » . فأجابه الدوق قائلاً : « إن الفتاة التى أريد أن أتزوجها جميلة شديدة الحياء ، لا يؤثر فيها قول من كان فى سنى ؛ وفوق هذا فإن وسائل الخطبة قد تبدلت عما كانت عليه فى أيام شبابى ، وإنى ليسرنى أن أتلقى عليك درساً فى خطبة الفتيات » . وأعطاه ڤلنتين فكرة عامة عن طرق الخطبة التى كان يتبعها شبان ذلك الوقت إذا أرادوا أن يجتذبوا إليهم قلوب الفتيات ، ومنها الهدايا والزيارات ونحوها .

وأجابه الدوق بقوله إن الفتاة قد رفضت هدية أرسلها إليها ، وإن أباها يضيق عليها فلا يستطيع أحد أن يتصل بها فى أثناء النهار .

فقال له ڤلنتين : « عليك إذن أن تزورها ليلا » . ثم دخل الدوق الماكر فى لباب الموضوع وأجابه بقوله : « لكن أبوابها موصدة بالليل » .

وهنا ارتكب ڤلنتين غلطة يؤسف لها ، فعرض على الدوق أن يرقى إلى حجرة

الفتاة بسلم من الحبال ، وقال إنه سيعد بنفسه هذا السلم ، ونصح الدوق فى ختام الحديث أن يخفيه تحت معطف شبيه بذلك المعطف الذى كان يلبسه ڤلنتين وقتئذ . وكان الدوق قد اخترع هذه القصة كلها ليستطيع أن يطلب إلى ڤلنتين أن يخلع معطفه ، فلم يكد ڤلنتين يلفظ بهذا القول حتى قال الدوق على الفور : « أعرنى هذا المعطف إذن » . ثم مد يده إلى ڤلنتين وألقاه عنه ، فوجد تحته السلم ورسالة من سلڤيا ، فتحها وقرأها فوجد فيها بياناً مفصلا عن طريقة هربهما ، فأخذ الدوق يقرع ڤلنتين لجحوده بنعمته ولإساءته لمن أحسن إليه ومحاولته الهروب بابنته ؛ ثم طرده من بلاطه وأمر أن يُخرج من مدينة ميلان ولا يعود إليها أبداً ؛ وغادر ڤلنتين المدينة فى تلك الليلة دون أن يرى سلڤيا .

وبينما كان پروتيوس فى ميلان يسىء إلى ڤلنتين ، كانت چوليا فى ڤيرونا حزينة على فراقه ، وقد اشتد وجدها حتى أنساها ما هو خليق بالفتيات من احتشام ، فاعتزمت أن تخرج من ڤيرونا وتأتى إليه . ولبست هى وخادمتها لوستا ملابس الرجال لتأمنا على نفسيهما فى الطريق ، واتخذتا سبيلهما إلى ميلان ، فوصلتا إليها بعد وقت قصير من خروج ڤلنتين بسبب خيانة پروتيوس .

وكان وصول چوليا إلى ميلان فى وقت الظهيرة ، فاتخذت مقامها فى فندق من فنادق المدينة . ولم يكن يشغل أفكارها فى ذلك الوقت إلا پروتيوس ، فأخذت تحدث صاحب الفندق — أو مضيفها كما كان الناس يسمون أصحاب الفنادق وقتئذ — لعلها تعرف منه شيئاً عن پروتيوس .

وسر صاحب الفندق أيما سرور من أن ترتفع الكلفة بينه وبين هذا الفتى المهذب الذى تدل سيماه على أنه من ذوى المراتب الرفيعة . وكان هذا الرجل طيب القلب فآلمه أن يراه مكتئباً حزيناً ، وأراد أن يفرج همه فعرض عليه أن يذهب معه فى المساء ليستمع إلى موسيقى شجية ، قال إن شابا سيطرب بها محبوبته تحت نافذتها . وكان سبب اكتئاب چوليا أنها لم تكن تعرف رأى پروتيوس فى هذه الفعلة الجريئة التى افتعلتها من غير روية ، لأنها كانت تعلم أن حبه لها قائم على أنفتها ونبل أخلاقها واحتفاظها بكرامتها ، وكانت تخشى أن تكون بما فعلت قد

انحطت منزلتها لديه ، فكان ذلك منشأ ما بدا عليها من هم وتفكير .

ولذلك قبلت وهى مسرورة ما عرضه عليها مضيفها ، وهو أن تذهب معه لتستمع إلى نغمات الموسيقى . وكانت نفسها تحدثها أنها ربما قابلت پروتيوس فى الطريق ، ولكنها حين وصلت إلى القصر الذى أخذها مضيفها إليه ، لم يحدث فيها ما رأت الأثر الذى كان يقصده المضيف الرحيم . ذلك أنها رأت هناك ما أحزنها وآلم قلبها ، رأت حبيبها السابق پروتيوس يطرب سلڤيا بقطعة موسيقية ، ويلقى على مسامعها عبارات الحب والإعجاب ، وسمعت سلڤيا تخاطب پروتيوس من نافذتها وتؤنبه على خيانته لحبيبته الصادقة الوفية ، وعلى غدره بصديقه ڤلنتين ، ثم رأت سلڤيا أن تترك النافذة وترفض أن تصغى إلى موسيقاه وحديثه اللطيف ، لأنها كانت وفية لحبيبها المنفى ڤلنتين ، تبغض أشد البغض مسلك صديقه الخائن پروتيوس .

واستولى اليأس على قلب چوليا عندما شهدت هذا المنظر المؤلم ، ولكنها مع ذلك بقيت على حبها لپروتيوس رغم تقلبه وعدم وفائه ، وسمعت أنه كان قد أخرج من عنده خادماً له فأفلحت بمساعدة مضيفها صاحب الفندق أن تجعل پروتيوس يستأجرها لخدمته . ولم يكن پروتيوس يعلم أنها چوليا نفسها ، فأخذ يبعث معها رسائله وهداياه إلى خصيمتها سلڤيا ، ووصل الأمر إلى أن أرسل معها الخاتم الذى أهدته إليه عند ما افترقا فى ڤيرونا .

فلما ذهبت بالخاتم إلى سلڤيا سرها كل السرور أن تعرف أن هذه الفتاة لا تلقى بالا إلى خطبة پروتيوس ، وأخذ الفتى سبستيان — وهو الاسم الذى تسمت به چوليا فى ذلك الوقت — يتحدث إلى سلڤيا عن چوليا حبيبة پروتيوس الأولى التى تخلى عنها ، ولم تنس أثناء الحديث أن تذكر عن نفسها كلمة طيبة ، فقالت إنها تعرف چوليا — وكانت فى الحق تعرفها لأنها هى چوليا التى تتحدث عنها — وإن چوليا كانت تحب پروتيوس حبا جما ، وإن قسوته عليها وإهماله لها سوف يحزنانها ويمضان قلبها ، ثم واصلت حديثها وقد خلعت عليه ثيابا رقيقة من الغموض فقالت : « إن چوليا قريبة منى فى طول قامتها وفى ملامحها ، ولونُ عينها وشعرها لايختلفان فى شىء عن لون عينى وشعرى » ، والحق أن چوليا كانت تبدو فى لباس

الشبان فتى وسيما جميل الطلعة . وأشفقت سلفيا على هذه الفتاة الجميلة التى تخلى عنها حبيبها بهذه الطريقة المحزنة ، ولما عرضت عليها چوليا الخاتم الذى أرسله معها پروتيوس رفضته وقالت لها : « ويزيدنى ازدراءً له أن يرسل إلى هذا الخاتم ، فأنا أرفضه لأننى طالما سمعت منه أن حبيبته چوليا قد أعطته إياه ، وإنى لمعجبة بك أيها الشاب لأنك تشفق على هذه الفتاة المسكينة . وهاك كيساً به نقود أقدمه إليك إكراماً منى لچوليا » ، وأثرت فى نفس چوليا هذه الكلمات الطيبة الصادرة من خصيمتها الرحيمة فطابت بها نفس الفتاة المتنكرة وذهب عنها الحزن .

والآن فلنعد إلى ڤلنتين المنفى لنقول إنه لم يدر ماذا يفعل ولا أى طريق يسلك ، لأنه لم يكن يرغب فى العودة إلى أبيه مطروداً محقراً . وبينا كان يجوس خلال غابة موحشة بالقرب من ميلان ، التى استودع فيها حبيبته سلفيا أحب الناس إلى قلبه ، هجم عليه جماعة من اللصوص وطلبوا إليه أن يعطيهم ما معه من المال .

وأخبرهم ڤلنتين أنه رجل نزلت به الشدائد ، وأنه مشرد منفى لا مال له ، ولا يملك غير ما عليه من الثياب .

وسمع اللصوص أنه رجل بائس ، وتأثروا من نبل مظهره وعزة نفسه ، فعرضوا عليه أن يقيم معهم ، ويكون زعيما لهم ، فيسلموه قيادهم ويخضعوا لأوامره . فإذا لم يقبل ما يعرضونه عليه فسيقتلونه لساعته .

ولم يكن ڤلنتين ليهتم كثيراً بما يصيبه ، ولذلك أجابهم بأنه يقبل أن يكون قائداً لهم إذا عاهدوه على ألا يسيئوا لامرأة ولا لعابر سبيل مسكين .

وكذلك أصبح ڤلنتين ، الرجل النبيل ، قائد اللصوص وقطاع الطريق الخارجين على القانون كما كان ربن هود Robin Hood الذى نقرأ عنه فى الأقاصيص الشعرية الغنائية . وعلى هذه الحال وجدته سلفيا بالطريقة التى سنقصها على القارئ فيما يلى :

أرادت سلفيا أن تنجو من زواج ثوريو حين أصر أبوها على أن ينفذ رغبته رغم رفضها هذا الزواج ، وسمعت أن حبيبها ڤلنتين قد لجأ إلى مدينة منتوا فقررت أن تتبعه إليها . ولكن ما سمعته من ذلك لم يكن صحيحاً ، لأن ڤلنتين كان لا يزال

يقيم فى الغابة بين اللصوص ، يتولى زعامتهم من غير أن يشترك فى الاعتداء على الناس معهم ، أو يستخدم السلطة التى فرضوها عليه فرضا إلا فى إرغامهم على الرأفة بالمسافرين الذين يغتصب اللصوص أموالهم .

وكانت سلفيا حين فرت من قصر أبيها قد اصطحبت معها رجلا مسنا طيب القلب يدعى إجلامور Eglamour ليرد عنها ما عسى أن تتعرض له من أذى فى الطريق ، وكان لا بد لها أن تخترق الغابة التى يقيم فيها ثلنتين ومن معه من اللصوص ، وقد ألقى أحدهم القبض عليها وهم بالقبض على إجلامور ولكنه نجا منه .

ولما رأى اللص الذى قبض عليها ما حل بها من الرعب ، أمرها ألا ترتاع لأنها لن يصيبها منه أذى ، بل إنه سيذهب بها إلى كهف يعيش فيه رئيسهم ، وهو رجل كريم رحيم بالنساء . ولكن سلفيا لم يهدئ من روعها أن تسمع أنها ستساق أسيرة إلى زعيم طائفة من اللصوص الخارجين على القانون ، وصرخت من فرط حزنها « ياثلنتين كم ذا أكابد من أجلك ! »

وبينا كان اللص يقودها إلى كهف الزعيم إذا بپروتيوس يعترض طريقه ومن ورائه چوليا فى زى الخدم ؛ لأنه حين سمع بفرار سلفيا جاء فى أثرها إلى الغابة ، وبذلك أنقذها پروتيوس من يدى اللص . ولكنها لم تكد تهم بشكره على حسن صنيعه حتى بدأ يضايقها من جديد ويسمعها عبارات الحب ، ويطلب إليها فى غير أدب أو احتشام أن تقبل زواجه بها . وكان خادمه (چوليا المسكينة) واقفا إلى جانبه مضطربا كاسف البال ، لأنه كان يخشى أن ما قدمه پروتيوس من خير لسلفيا قد يلين قلبها له . وبينا هم على هذه الحال وإذا بثلنتين يظهر بينهم على حين غفلة ، وذلك لأنه سمع أن رجاله قد أسروا سيدة جاء لينقذها ويفرج كربها .

وكان پروتيوس يلاطف سلفيا ويتودد إليها ، وأخجله أن يتبين صديقه جلية أمره ، فندم وأنبه ضميره ، وأظهر أسفه الشديد على ما قدم لثلنتين من إساءة . وكان ثلنتين رجلا كريم الطبع شريف النفس ، فعفا عن صديقه من فوره ، وصفا قلبه له ، وعادت الصداقة بينهما إلى ما كانت عليه من قبل ؛ وثارت فى نفسه فجأة عاطفة الشهامة فقال : « إنى أعفو عنك وأنزل لك عن كل ما فى نفسى من

تاجر البندقية

كان شيلك Shylock اليهودى يسكن فى مدينة البندقية ، وكان مرابياً جمع ثروة طائلة بإقراض المال إلى التجار المسيحيين ربا فاحش ، وكان لا يرحم أحداً بل يلجأ فى استرداد مايقرض من الأموال إلى ضروب من القسوة نفرت منه قلوب جميع الناس الطيبين ، وبخاصة قلب شاب من أهل البندقية يدعى أنطنيو Antonio . وكان شيلك نفسه يبغض أنطنيو أشد البغض لأنه يقرض المال لكل من نزلت به كارثة ، ويأبى أن يأخذ عليه فائدة ، ولذلك اشتدت العداوة بين اليهودى الجشع وأنطنيو التاجر الكريم . وكان أنطنيو كلما التقى بشيلك فى سوق المال أنبه وعاب عليه رباه وقسوته فى معاملاته ، فكان اليهودى يتحمل هذا الأذى ويصبر عليه فى الظاهر ويعمل فى الخفاء على الانتقام لنفسه .

وكان أنطنيو من أطيب الناس قلباً وأحسنهم حالاً ، لا يمل من صنع المعروف ، وفى الحق أن النبل الرومانى القديم كان يظهر فى هذا الرجل أكثر مما يظهر فى أى رجل آخر فى إيطاليا بأجمعها . وكان مواطنوه كلهم يحبونه أعظم الحب ، ولكن كان أقرب الناس إليه وأحبهم إلى قلبه رجل من أشراف البندقية يدعى بسانيو Bassanio ، ورث عن أبيه مالاً قليلا كاد يذهب به بسط اليد فى الإنفاق منه ، كما يفعل الشبان ذوو الثروة القليلة من أبناء الطبقات العليا ، وكلما احتاج بسانيو إلى المال أمده به أنطنيو كأنما كان للاثنين قلب واحد ومال واحد .

وجاء بسانيو إلى أنطنيو يوماً ما وأخبره أنه يريد أن يصلح من شأنه بزواج فتاة موسرة يحبها ، توفى أبوها ولم يكن له وارث سواها ، فورثت عنه ضيعة كبيرة ؛ وقال إنه كان يزورها فى منزلها فى حياة أبيها ، وكان يخيل إليه أن عينى هذه الفتاة تبعثان إليه برسائل صامتة ، تكاد تنطق بأنه لن يرد خائباً فى خطبته ؛ وأضاف إلى ذلك قوله إنه ليس له من المال ما يمكنه من أن يظهر بالمظهر الذى يليق بمن يحب فتاة ورثت هذه الثروة الطائلة ، ولذلك جاء يرجو أنطنيو أن يضيف إلى أفضاله

الكثيرة السابقة فضلا جديداً ، فيقرضه ثلاثة آلاف بندقى[1] .

ولم يكن عند أنطنيو فى ذلك الوقت مال يقرضه لصديقه ، ولكنه كان ينتظر وصول سفن تحمل إليه شحنات من البضائع ، فقال لصديقه إنه سيذهب إلى شيلك المرابى السرى ويقترض منه المال بضمانة تلك السفن .

وذهب أنطنيو وبسانيو إلى شيلك ، وطلب إليه أنطنيو أن يقرضه ثلاثة آلاف بندقى بالفائدة التى يرتضيها ، على أن يردها إليه من ثمن البضائع التى تحملها سفنه القادمة فى البحر . ولما سمع ذلك شيلك قال فى نفسه : « إذا استطعت أن أسيطر على هذا الرجل شفيت منه غلى القديم . إنه يحقد على أمة اليهود ، ويقرض المال من غير فائدة ، وإذا رآنى مع التجار استهزأ بى وعاب علىّ معاملاتى المالية الشريفة التى يسميها رباً . ألا لعنة الله على أمتى إذا عفوت عنه ! » . ورأى أنطنيو أن شيلك يقلب الرأى فى فكره وهو صامت لا يحير جواباً ، فنفد صبره وخاطب شيلك بقوله : « أتسمعنى يا شيلك ؟ وهل تريد أن تقرضنى المال ؟ » . وأجابه شيلك بقوله : « يا سيد أنطنيو ، كم مرة استهزأت بى فى سوق المال وسخرت من أموالى ومن أرباحى ، وقد صبرت على هذا الأذى ولم أعبأ به ، لأن الصبر هو شعار أمتى . وكم مرة سميتنى كافراً وكلباً سفاحاً ، وبصقت على ملابسى اليهودية ، وركلتنى بقدمك كما تركل الكلاب . والآن يلوح أنك فى حاجة إلى عونى فتجيئنى وتقول لى : (يا شيلك أقرضنى من مالك) ، فهل للكلب مال ؟ وهل يستطيع الكلب أن يقرض ثلاثة آلاف بندقى ؟ وهل تظن أنى أحنى رأسى إجلالا وأقول لك : أى سيدى العزيز ! لقد بصقت علىّ يوم الأربعاء الماضى ودعوتنى كلباً ، وسأرد إليك اليوم هذا الجميل بأن أقرضك المال ؟ » . وأجابه أنطنيو بقوله : « ليس ما يمنعنى أن أدعوك بهذا الاسم مرة أخرى ، وأن أبصق عليك كما بصقت من قبل ، وأن أضربك بقدمى أيضاً ، فإذا أعطيتنى المال فلا تعطنى إياه كما تعطى الصديق ، بل أقرضه قرض العدو ، حتى إذا لم أوف بالدين حق على العقاب » . ورد عليه شيلك بقوله : « هدئ من روعك إنى أريد أن أكسب

(١) عملة ذهبية قديمة كانت متداولة فى معظم بلاد أوربا قيمتها نحو ٩ شلنات . (المترجم)

حبك ، وأن أكون لك نعم الصديق ، وسأنسى ما جلتنى من عار ، وأقضى حاجتك ولا أطلب ربحاً على ما أقرضك من مال » . وعجب أنطنيو أشد العجب من هذا العرض السخى فى الظاهر ، وظل شيلك يتظاهر بالعطف عليه ويدعى أنه لا يريد بعمله هذا إلا أن يكسب مودته ، وكرر قوله إنه سيقرضه الثلاثة الآلاف من البندقة ولا يأخذ عنها فائدة ، وكل ما يرجوه أن يذهب معه إلى محام ويمضى أمامه من قبيل المزاح صكا يقول فيه إنه إذا لم يوف بالدين فى الموعد المحدد يجز على ذلك بأن يؤخذ منه رطل من اللحم ، يقتطع من جسمه فى المكان الذى يرتضيه شيلك .

وقال أنطنيو : « لك ذلك ، وسأوقع الصك وأقول إن فى قلب اليهودى شيئاً كثيراً من الرحمة » . وأشار بسانيو على أنطنيو ألا يوقع هذا الصك ، ولكن أنطنيو أصر على أن يوقعه ، لأن سفنه ستعود قبل الموعد المحدد وعليها من البضائع ما تربى قيمته على الدين أضعافاً مضاعفة .

وسمع شيلك هذا الحديث فقال متعجباً : « يا أبانا إبراهيم ! ما أكثر ما يسىء أولئك النصارى الظن بالناس ! إن قسوتهم فى معاملاتهم قد علمتهم أن يظنوا بالناس الظنون . قل لى بحقك يا بسانيو ، ماذا يفيدنى هذا الجزاء الذى فرضته عليه إذا لم يوف بدينه فى اليوم المحدد ؟ إن رطلا من اللحم الآدمى لأقل قيمة وأقل نفعاً من لحم الضأن أو البقر ، لقد قلت لكما إننى أعرض عليه هذه الصداقة لأكسب رضاه ، فإذا قبلها فبها ونعمت ، وإذا لم يقبلها فإنى تاركه وإلى اللقاء » .

وأخيراً وقع أنطنيو الصك وهو يظن أن الأمر كله هزل لا جد كما قال اليهودى ، ولم يستمع إلى نصيحة بسانيو الذى لم يكن يريد أن يتعرض صديقه من أجله لهذا الجزاء الرهيب ، ولم يصدق شيئاً مما قاله اليهودى عن حسن نواياه .

وكانت الوارثة السرية التى يريد بسانيو أن يتزوجها تسكن بجوار مدينة البندقية فى مكان يدعى بلمنت Belmont ، وكانت تسمى پورشيا Portia ، وفى الحق أنها كانت لا تقل فى جمالها وكمال عقلها عن پورشيا ابنة كيتو Cato وزوجة بروتس Brutus التى تحدثنا عنها الأخبار .

ولما حصل بسانيو على المال بمساعدة صديقه الوفى أنطنيو الذى عرض حياته للخطر من أجله ، سافر إلى بلمنت تحف به حاشية كبيرة ، ويقوم على خدمته رجل مهذب كريم يدعى جرسيانو Gratiano . ووفق بسانيو فى خطبته ، ورضيت پورشيا بعد زمن قليل أن تكون زوجة له .

واعترف بسانيو لپورشيا بأنه ليس من ذوى الثراء ، وأن كل ما يستطيع أن يفخر به هو نبل أسرته وكرم محتده ؛ ولما كانت هى قد أحبته لنبله وكريم سجاياه ، وكان لها من المال ما يغنيها عن ثروة الزوج ، فقد أجابته فى حياء وتواضع جميل أنها تتمنى لو أنها كانت أجل مما هى ألف مرة ، وأكثر ثروة مما هى عشرة آلاف مرة ، لكى تكون أجدر به مما هى ؛ ثم أخذت تذكر له عيوبها فى ظرف ودعة ، وتقول إنها فتاة قليلة العلم والتجربة ، ولكنها لم تصل بعد إلى السن التى لا تستطيع فيها أن تتعلم ، وإنها تعهد إليه بروحها ليوجهها ويسيرها فى جميع الشؤون كيف شاء ؛ وقالت بعدئذ : « إنى أنا وما ملكت يداى قد أصبحنا طوع أمرك . لقد كنتُ بالأمس يا بسانيو صاحبة هذا القصر الجميل ، سيدة نفسى وسيدة هؤلاء الخدم ، أما الآن فإن هذا القصر وهؤلاء الخدم وأنا نفسى ملك لك يا مولاى أقدمه لك مع هذا الخاتم » . قالت ذلك وهى تهدى إلى بسانيو خاتماً كان فى يدها .

ودهش بسانيو من رقتها وأثر فى نفسه حسن صنعها ، إذ ارتضت هذه السيدة النبيلة أن تتزوج برجل رقيق الحال مثله ، فلم يستطع أن يعبر عن سروره وإجلاله لمن أنالته هذا الشرف العظيم إلا ببضع كلمات متقطعة ، تنم عن حبه واعترافه بالجميل ، ثم أخذ الخاتم من يدها وأقسم ألا يفرط فيه قط .

وكان جرسيانو ونرسا Nerissa وصيفة پورشيا يشهدان هذا الاجتماع بين سيدهما وسيدتهما ، ويسمعانها تعده بأن تكون زوجته المطيعة فدعا جرسيانو لسيده وسيدته بالخير والسعادة ، وطلب أن يؤذن له أن يتزوج معهما فى وقت واحد .

وأجابه بسانيو بقوله : « إنى أوافق على ذلك من صميم قلبى إذا استطعت أن تجد لك زوجة » .

فقال جرسيانو إنه يحب نرسا وصيفة پورشيا الجميلة ، وإنها قد وعدته أن تتزوج به إذا رضيت سيدتها أن تتزوج بسانيو ؛ وسألتها پورشيا فى ذلك فأجابتها بقولها : « إنه صحيح إذا رضيت أنت به » فوافقت پورشيا وهى مغتبطة . وقال بسانيو وهو منشرح مسرور : « وسيزيد من شأن زفافنا أن تزف معنا يا جرسيانو » .

ولكن سرور هؤلاء المحبين قد كدر صفوه فى ذلك الوقت قدوم رسول يحمل رسالة من أنطنيو ، تحتوى أنباء رهيبة . وقرأ بسانيو رسالة أنطنيو فامتقع لونه حتى ظنت پورشيا أنها تنبئ بوفاة صديق عزيز ، وسألته عن ذلك النبأ الذى أحزنه ، وأكسف باله فقال لها : « سيدتى العزيزة ، هنا كلمات هى شر ما سودت به صحيفة . أى سيدتى العزيزة ، إننى حين أفضيت إليك بحبى قلت لك فى صراحة إن كل ما أملكه من الثروة هو الدم الذى يجرى فى عروقى ، وكان ينبغى لى أن أقول لك إن ثروتى أقل من لا شىء لأنى مدين » ، ثم حدثها بما قصصناه على القارئ من قبل ، فأخبرها أنه اقترض المال من أنطنيو ، وأن أنطنيو قد حصل على المال من شيلك اليهودى ، وحدثها عن الصك الذى يتعهد فيه أنطنيو بأن يقدم رطلا من لحمه إذا لم يوف بالدين قبل الأجل المحدد ، ثم قرأ عليها رسالة صديقه وقد جاء فيها « عزيزى بسانيو ، لقد خسرت كل شىء ومضى أجل استحقاق الصك الذى وقعته لليهودى ، وإذ كان الوفاء بما ينص عليه يقضى حتما على حياتى ، فإنى أحب أن أراك فى ساعة موتى ؛ ولكنى مع ذلك أترك لك الخيار ، فإذا لم يحملك حبك لى على الحضور فلا يحملنك عليه خطابى » . فلما سمعت ذلك پورشيا نادت من فورها « أى حبيبى ! أترك كل عمل لديك وبادر بالذهاب إليه ، وسيكون لك من الذهب ما يفى بعشرة أمثال الدين لأنى لا أرضى أن تمس شعره من جسم ذلك الصديق لخطأ وقع فيه بسانيو ، وسيزيد حبى لك كلما زاد ما أنفقه من المال لأجلك » وأضافت إلى ذلك أنها ستتزوج به قبل سفره ليكون من حقه أن يأخذ من مالها ما يشاء ، وتم زواجهما فى ذلك اليوم نفسه ، وتم أيضا زواج جرسيانو ونرسا .

وما كاد يتم الزواج حتى أسرع بسانيو وجرسيانو إلى مدينة البندقية وفيها وجد بسانيو صديقه أنطنيو سجينا .

وكان يوم الوفاء قد فات ، فلم يقبل اليهودى الغليظ الكبد ما عرضه بسانيو عليه من المال ، بل أصر على أن يأخذ رطلا من لحم أنطنيو . وحدد يوم لنظر هذه القضية المروعة أمام دوق البندقية ، وبقى بسانيو ينتظر يوم المحاكمة الرهيب .

وودعت پورشيا زوجها ، وحاولت أن تشجعه وتدخل السرور عليه ، وطلبت إليه أن يأتى بصديقه معه ؛ ولكنها كانت فى قرارة نفسها تخشى أن يصيب أنطنيو سوء ، فلما خلت إلى نفسها أخذت تفكر فيما عسى أن تفعله لتنقذ حياة صديق زوجها العزيز .

وكانت حين أرادت أن تشعر بسانيو بمنزلته عندها قد قالت له فى رقة الزوجات ووداعتهن إنها تأتمر فى كل شىء بحكمته العالية ، ولكنها لما تمثل لها الخطر المحدق بصديق زوجها هداها حسن تدبيرها ، وسداد رأيها ، واعتقادها فى مقدرتها التى لم تشك فيها يوما من الأيام ، أن تذهب من فورها إلى البندقية وتتولى الدفاع عن أنطنيو .

وكان لپورشيا قريب من رجال القانون يدعى بلاريو Bellario ، فكتبت إليه رسالة شرحت فيها تفاصيل القضية ، وطلبت إليه أن يبعث إليها برأيه فيها ، وأن يرسل إليها الملابس التى يرتديها المحامون فى أثناء الدفاع . وعاد الرسول يحمل رسائل من بلاريو يشرح فيها طريقة السير فى الدعوى ، ويحمل أيضاً الملابس التى يجب أن يرتديها المحامون .

ولبست پورشيا ووصيفتها نرسا ثياب الرجال ، وارتدت هى فوق ملابسها رداء المحامين واتخذت نرسا كاتباً لها . وسافرتا من فورهما فوصلتا مدينة البندقية فى اليوم المحدد لبدء المحاكمة . واجتمع الدوق وأعضاء مجلس الشيوخ فى قاعة المجلس ليبدءوا فى نظر القضية ، وإذا بپورشيا تدخل ساحة هذه المحكمة العليا وتعرض عليها رسالة من بلاريو ، بعث بها هذا المحامى القدير إلى الدوق يقول فيها إنه كان يود أن يحضر بنفسه للدفاع عن أنطنيو ، ولكن المرض عاقه عن القيام بهذا

الواجب ، ويطلب إليه أن يسمح للدكتور بلشزار Belshasar ،وهو الاسم الذى سمى به پورشيا ، الشاب النابه أن ينوب عنه فى ذلك . ووافق الدوق وهو يعجب أشد العجب من صغر سن هذا الفتى الغريب ، الذى أخفى حقيقة أمره بلباس المحامين وبالشعر المستعار الطويل . ثم بدأت المحاكمة الرهيبة ، ونظرت پورشيا حولها فرأت اليهودى الغليظ القلب ، ورأت بسانيو وإن كان هو لم يعرفها لأنها بالغت فى إخفاء أمرها ، وكان واقفاً بجوار أنطنيو حزيناً كاسف البال يخشى أن يمس صديقه أذى .

وقوى الواجب الخطير الذى اضطلعت به پورشيا قلبها الغض الرقيق ، فأقدمت على عملها بجنان ثابت وعزم قوى ، ووجهت خطابها أول الأمر إلى شيلك ، فأقرته على حقه فى أخذ ما نص عليه الصك ، ولكنها أشادت بذكر الرحمة تلك الخلة العالية النبيلة ، ووصفتها وصفاً ألان كل قلب إلا قلب شيلك فإنه ظل جامداً لا يلين . ومما قالته فى وصفها إن الرحمة كالغيث ينزل من السماء على الأرض ، وإنها نعمة وبركة على من ينالها ومن يسديها ، وإنها زينة للملوك أفضل من زينة التاج والصولجان ، لأنها من صفات الله القدسية ، وإن سلطانهم فى هذه الأرض يكون أشبه بسلطان الله ، بقدر ما يمتزج به عدلهم من رحمة تلطفه وتخفف من أثره . وقالت لشيلك إن الناس جميعاً إذا كانوا يطلبون الرحمة لأنفسهم فأحر بهم أن يكونوا رحماء فيما بينهم . فما كان جواب شيلك إلا أن قال إنه يريد الجزاء الذى نص عليه الصك ؛ وسألته پورشيا « أعاجز هو عن أداء الدين؟ » فعرض بسانيو من فوره على اليهودى أن يؤدى الثلاثة الآلاف البنادقة أضعافاً مضاعفة يترك تقديرها لشيلك ، ولكن شيلك رفض هذا العرض وأصر على أن يأخذ رطلا من لحم أنطنيو . وعندئذ رجا بسانيو المحامى الشاب القدير أن يحور القانون تحويراً قليلا لينقذ بذلك حياة أنطنيو ، ولكن پورشيا أجابته فى صرامة أن الشرائع إذا سنت وجب ألا تمس . وسمع شيلك پورشيا تقول إن القانون يجب أن لا يعبث به . فظن أنها تناصره ، وصاح قائلا « هذا دنيال قد جاء يحكم بين الناس ، ألا ما أعظم إجلالى لك أيها الفتى القاضى الحكيم ، وما أكبر الفرق بين حكمتك وسنك ! » ثم طلبت پورشيا

إلى شيلك أن يطلعها على الصك ، فلما قرأته قالت « إن هذا الصك قد انقضى أجله ، ومن حق اليهودى بمقتضى القانون أن يطالب برطل من اللحم يقتطعه من أقرب مكان إلى قلب أنطنيو » . ثم التفتت إلى شيلك وقالت له « إرحم هذا الرجل وخذ المال ومرنى أن أمزق الصك » ، ولكن اليهودى الغليظ الكبد أصم أذنه عن سماع النداء وأجابها بقوله « أقسم أن ليس لمخلوق من قوة اللسان ما يستطيع به أن يثنينى عن عزمى » . وقالت پورشيا « إذن فأكشف يا أنطنيو عن صدرك للسكين » . وبينا كان شيلك يشحذ سكيناً طويلا ليقتطع به رطل اللحم التفتت إلى أنطنيو وقالت له « هل لديك ما تقول ؟ » ، فأجابها فى هدوء واستسلام أن ليس لديه شىء يقوله لأنه مطمئن لملاقاة الموت . ثم وجه الخطاب إلى بسانيو وقال له « امدد إلى يدك يا بسانيو ، استودعك الله ، لا تحزن على ما أصابنى من سوء بسببك ، واحمل سلامى إلى زوجتك النبيلة وحدثها عن مبلغ حبى لك » . وأجابه بسانيو فى حزن عميق « إن لى زوجة هى أحب إلى من حياتى ، ولكن حياتى وزوجتى والعالم كله ليست أعز على من حياتك أنت ، ولن أتردد فى أن أضحى بها كلها وأضعها بين يدى هذا الشيطان لأفتدى بها حياتك » .

وسمعت پورشيا هذا فلم يغضبها من زوجها أن يعبر عن حبه لصديقه الوفى هذا التعبير القوى ، ولكنها ردت عليه بقولها : « لو أن زوجتك كانت هنا وسمعت منك هذا العرض لما شكرتك عليه كثيراً » . وكان جرسيانو يحب أن يقلد سيده فيما يعمله ، فظن أن من واجبه هو أيضاً أن يلقى كلمة شبيهة بكلمة بسانيو ، فقال على مسمع من نرسا وكانت جالسة فى ثياب الكتبة إلى جوار پورشيا تدون أقوالها : « إن لى زوجة أحبها ، ولكنى أتمنى أن لو كانت هذه الزوجة فى جوار ربها لتستطيع أن تدعوه أن يلين قلب هذا اليهودى النذل » . وردت نرسا عليه بقولها : « من حسن حظك أنك تقول هذا فى غيبتها ، وإلا لأثرت المشاكل فى بيتك » .

وعيل صبر شيلك فقال مغضباً : « إننا نضيع الوقت سدى ، أرجو أن تنطقوا بالحكم » . وساد ساحة القضاء سكون رهيب وامتلأت قلوب الحاضرين أسى وحسرة

وسألت پورشيا هل أعد الميزان ليوزن به اللحم ؟ ثم التفتت إلى اليهودى وقالت له : « إن عليك أن تستدعى جراحاً لئلا ينزف الدم من أنطنيو فيموت » ، وإذ كان الذى يبغيه شيلك أن ينزف دم أنطنيو فيموت ، فقد قال لها جواباً عن سؤالها : « هذا ما لم ينص عليه الصك » . وأجابته پورشيا بقولها : « نعم إن الصك لم ينص عليه ولكن هلا راعيته كرامنك وإحسانا ؟ » . ولكن شيلك لم يجب بأكثر من قوله : « إنى لا أجده ، إنه ليس فى الصك » . فقالت له پورشيا : « إذن فخذ رطلا من لحم أنطنيو ، إن القانون يقضى به والمحكمة تجيزه ، ولك أن تقطع اللحم من صدره فالقانون يقضى به والمحكمة تجيزه » ، وصاح شيلك مرة أخرى : « ما أعدلك من قاض وما أعظم حكمتك ! لقد جاء دنيال يحكم بين الناس ! » ، ثم أخذ يشحذ سكينه الطويل مرة أخرى ، وصوب نظراته إلى أنطنيو وقال له : « تقدم واستعد ! » .

فقالت پورشيا : « تمهل قليلاً أيها اليهودى ؛ إن ثمة شيئاً آخر ، إن هذا الصك لا يعطيك نقطة دم واحدة ، فهو ينص صراحة على رطل من اللحم ، فإذا أرقت وأنت تقتطع اللحم نقطة واحدة من دم هذا المسيحى فإن أرضك ومالك يصادران بحكم القانون ، ويصبحان ملكا لدولة البندقية » . وإذ لم يكن فى وسع شيلك أن يأخذ اللحم دون أن يريق معه بعض دماء أنطنيو فإن هذه الفكرة الجديدة السديدة التى لاحت لعقل پورشيا ، وهى أن الصك إنما ينص على اللحم دون الدم ، قد أنقذت حياة أنطنيو . وأعجب الحاضرون كلهم بفطنة المحامى الشاب النابه الذى هداه عقله إلى هذا الرأى السديد ، ودوت قاعة الجلسة بالتصفيق ، وصاح جرسيانو مردداً ما قاله شيلك من قبل : « ما أعدلك من قاض وما أعظم حكمتك ، انظر أيها اليهودى لقد جاء دنيال يحكم بين الناس » .

ورأى شيلك أنه قد خاب فى سوء تدبيره ، فقال ودلائل اليأس بادية عليه ، إنه يقبل المال ؛ وسر بسانيو كل السرور بنجاة أنطنيو التى لم تكن فى الحسبان فصاح قائلا : « دونك المال فخذه ! » ، ولكن پورشيا قطعت عليه حديثه بقولها : « تمهل قليلاً ولا داعى للعجلة . لن يأخذ اليهودى إلا الجزاء الذى نص عليه

الصك ، فهيا ياشيلك لقطع اللحم ، ولكن إياك أن تريق نقطة من دمه أو أن تقتطع من لحمه أكثر من رطل أو أقل منه . فإذا زاد الرطل درهما أو نقص درهما ، وإذا مال الميزان بقدر شعرة ، فإن قانون البندقية يقضى بموتك ومصادرة أملاكك » . فقال شيلك من فوره : « إذن فأعطونى مالى ودعونى أغادر هذا المكان » . وقال بسانيو : « إن المال حاضر لدى وها هو ذا بين يديك » .

وهم شيلك أن يأخذ المال ولكن پورشيا حالت مرة أخرى بينه وبين غرضه وقالت له : « تمهل أيها اليهودى ، إن لى عليك حقا آخر . إن شرائع البندقية تقضى بأن تصادر الدولة مالك لأنك ائتمرت على حياة رجل من أهلها ، وإن حياتك الآن لرهينة بأمر الدوق فاركع أمامه وسله المغفرة » .

وقال الدوق لشيلك : « إنى أعفو عنك وأهبك حياتك قبل أن تطلب المغفرة ، وذلك لتعرف الفرق بيننا نحن المسيحيين وبينك ، أما مالك فنصفه حق لأنطنيو ونصفه الثانى حق للدولة » .

وقال أنطنيو فى كرم وإباء إنه ينزل عن نصيبه فى مال شيلك إذا تعهد كتابة أن يتركه بعد موته لابنته وزوجها . وكان أنطنيو يعرف أن لشيلك ابنة وحيدة تزوج بها حديثاً شاب مسيحى يدعى لرنزو Lorenzo من أصدقاء أنطنيو ، وتم هذا الزواج رغم إرادة أبيها فغضب عليها وحرمها حقها فى ماله بعد موته . ووافق اليهودى على ذلك ؛ ولما رأى أنه قد خاب فى سعيه للانتقام من عدوه وخسر ماله ، أثر ذلك فى نفسه فقال : « إنى مريض فاسمحوا لى أن أعود إلى دارى ، وأرسلوا العقد إلى أوقعه وأنزل به عن نصف مالى إلى ابنتى » . فأجابه الدوق إلى طلبه وقال له : « عد إلى دارك ووقع العقد ، وإذا ندمت على قسوتك واعتنقت الدين المسيحى ردت إليك الدولة النصف الآخر من مالك » .

وأطلق الدوق سراح أنطنيو وفض الجلسة ، وأثنى على ذكاء المحامى الشاب وحكمته ، ودعاه إلى الغداء على مائدته . ولكن پورشيا كانت ترغب فى العودة إلى بلمنت قبل زوجها فأجابته فى تواضع جم « أرجو أن يتفضل فخامة الدوق بقبول شكرى ، غير أنى لابد أن أعود إلى بلدى من فورى » ، وأجاب الدوق أنه يأسف

لأن وقته لا يتسع لقبول دعوته ، ثم التفت إلى أنطنيو وقال له : « عليك أن تكافئ هذا السيد فأنت فى رأيى مدين له بالشىء الكثير » .

وغادر الدوق وشيوخ المدينة ساحة القضاء ، والتفت بسانيو إلى پورشيا وقال لها : « أيها السيد الأجل ، لقد أنجيتنى أنا وصديقى أنطنيو فى هذا اليوم ، بفضل حكمتك وحسن تدبيرك ، من شر أنواع العقاب ؛ ولهذا أرجو أن تقبل ثلاثة الآلاف البندقة التى كانت من حق اليهودى » .

وأضاف أنطنيو إلى ذلك : « وسنبقى مدينين لك بما هو أكثر من هذا وأجل شأنا ، وسيكون لك حبنا واستعدادنا لخدمتك على الدوام » . وأبت پورشيا أن تأخذ المال ، وألح عليها بسانيو أن تقبل منه شيئاً جزاء لها على حسن صنعها فقالت له : « هبنى قفازيك فسألبسهما إكراماً لك » . وخلع بسانيو قفازيه فلمحت فى إصبعه الخاتم الذى أعطته إياه من قبل ، وكان هـذا الخاتم هو الذى تريد الفتاة الأريبة أن تأخذه ليكون موضوع فكاهة لها حين ترى بسانيو بعد عودته إليها ، ومن أجل ذلك طلبت إليـه قفازيه . فلما رأت الخاتم قالت له : « وسآخذ منك هذا الخاتم ليكون شاهداً على حبك » .

وتألم بسانيو أشد الألم حين طلب إليـه المحامى الشىء الوحيد الذى لا يستطيع أن يتخلى عنه ، فأجاب فى اضطراب شديد أنه لا يستطيع أن يعطيه الخاتم لأنه هدية من زوجته ، ولأنه قد أقسم ألا ينتزعه من إصبعه ، وقال إنه على استعداد لأن يبتاع له أثمن خاتم فى البندقية وإنه سينشر فى الناس إعلانا بهذه الرغبة . فلما سمعت پورشيا ذلك تظاهرت بالغضب وغادرت قاعة الجلسة وهى تقول : « إنك تعلمنى أيها السيد كيف يُرَد السائل » .

وقال له أنطنيو : « صديقى بسانيو ، أعطه الخاتم واجعل حبك لى وعظيم فضله على يرجحان غضب زوجتك » . واستحى بسانيو أن يظهر بمظهر الجاحد الناكر للجميل فخضع لرغبة صديقه وبعث بالخاتم إلى پورشيا مع جرسيانو . وجاء دور نرسا (الكاتب) وكانت هى أيضاً قد أعطت جرسيانو خاتماً ، فطلبت إليه أن يمنحها إياه . ولم يشأ جرسيانو أن يكون أقل كرماً من سيده فأعطاها الخاتم . ولشد ما ضحكت

هاتان السيدتان حين تصورتا ماسيكون لهما من شأن مع زوجيهما حينما تعودان إلى دارهما وتلومان زوجيهما لتفريطهما فى الخاتمين ، وتقسمان أنهما قد أهدياهما إلى بعض النساء .

وكانت پورشيا وهى فى طريقها تحس بتلك الغبطة التى تلازم من يشعرون بأنهم قد فعلوا الخير للناس ، فكانت تسر من كل شىء تراه ، فالقمر لم يكن ضياؤه فى ليلة من الليالى أبهج منه فى تلك الليلة ، ولما حجبت نوره سحابة من السحب لاح لها بريق ضوء يشع من منزلها فى بلمنت فزاد مرآه من غبطتها وسرورها ، وقالت لنرسا : « إن هذا الضوء الذى نراه خارج من فناء دارى . فانظرى ما أبعد المدى الذى يصل إليه ضياء هذه الشمعة الصغيرة ، وهكذا يشيع ضياء العمل الصالح فى هذا العالم الذى يفيض بالإثم والشرور » . ووقعت على آذانها نغمات الموسيقى يحملها النسيم من منزلها فقالت : « يخيل إلى أن هذه النغمات بالليل أشجى منها بالنهار » .

ودخلت پورشيا ونرسا الدار ولبست كلتاهما ملابس النساء وانتظرتا قدوم زوجيهما . ولم يلبث الزوجان أن أقبلا ومعهما أنطنيو . وقدم بسانيو صديقه العزيز إلى زوجته فأخذت ترحب به وتهنئه بنجاته . ولم تكد تنتهى من ترحيبها وتهنئتها حتى شاهدا نزاعاً قائماً فى أحد أركان الحجرة بين نرسا وزوجها ، فقالت پورشيا : « أنزاعاً ولما يمض غير هذا الوقت القصير ؟ ماذا جرى ؟ » ، وأجابها جرسيانو بقوله : « إنه من أجل خاتم مذهب تافه كانت نرسا قد أعطتنى إياه ، وعليه ألفاظ شبيهة بالشعر الذى ينقش على أيدى المدى وهى : « أحبنى ولا تفارقنى ؟ » .

وقالت نرسا : « وماذا يهمنى من الشعر أو من قيمة الخاتم ؟ لقد أقسمت لى حين أعطيتك إياه أنك ستحتفظ به إلى ساعة مماتك ، وأراك تقول الآن إنك أهديته إلى كاتب المحامى ولست أشك فى أنك قد أهديته إلى امرأة » ، وأجاب جرسيانو : « أقسم إنى قد أهديته إلى شاب ، بل إلى ولد ليس أطول منك قامة ، وهو كاتب المحامى الذى أنقذ بحكمته حياة أنطنيو ، وقد طلب إلىّ هذا الفتى الثرثار أن أهدى إليه الخاتم أجراً له ، ولم أجد فى نفسى قدرة على رفض طلبه » . وقالت پورشيا : « لقد أخطأت يا جرسيانو إذ فرطت فى أول شىء أهدته إليك زوجك ؛ لقد أعطيتُ سيدى بسانيو خاتماً ، ولست أشك فى أنه لن يفرط فيه ولو أعطى ملك هذا العالم » . وأراد جرسيانو أن يبرر فعلته فقال : « إن سيدى بسانيو قد أعطى المحامى

هذا الخاتم نفسه ، فلما فعل ذلك طلب إلىّ كاتبه أن أعطيه خاتمى نظير ما لاقاه من عناء فى الكتابة » .

وسمعت پورشيا ذلك فتظاهرت بالغضب الشديد ، ولامت بسانيو على تفريطه فى خاتمها ، وقالت إن نرسا قد هدتها إلى ما يجب أن تعتقده ، وإنها لا تشك فى أن الخاتم قد أخذته امرأة » . وحزن بسانيو أشد الحزن لغضب زوجته فقال فى جد : « أقسم بشرفى أن هذا غير صحيح ، إن امرأة لم تأخذ الخاتم ، بل أخذه عالم كبير أبى أن يقبل ثلاثة آلاف بندق ، وطلب هذا الخاتم فرفضت ، فانصرف مغضباً . وماذا عساى أن أفعل ياعزيزتى پورشيا ؟ لقد أخجلنى أن أظهر بمظهر الجاحد للنعمة ، الناكر للجميل ، فبعثت إليه بالخاتم ، فاصفحى عنى يا سيدتى وثقى أنك لو كنت معنا لطلبت إلى أن أعطيك الخاتم لتقدميه بنفسك إلى هذا العالم العظيم » . وقال أنطنيو : « ويل لى ! إننى أنا سبب هذا الخصام المؤلم » . وطلبت پورشيا إليه أن لا يبتئس ، وقالت إنها ترحب به وتسر بوجوده على الرغم مما حدث ؛ فقال أنطنيو : « إننى قبل هذا قد ضحيت بحياتى من أجل بسانيو ، ولولا ذلك الرجل الذى أعطاه الخاتم لكنت الآن بين سكان القبور ، وفى وسعى أن أتعهد لك بأن زوجك لن يخونك بعد الآن ، وحياتى نفسها ضمينة لذلك » ، فقالت پورشيا : « فلتضمنه إذن . وهاك خاتماً فأعطه إياه ، ومره ألا يفرط فيه كما فرط فى سابقه » .

وتأمل بسانيو الخاتم فدهش حين وجد أنه هو الذى كان فى يده من قبل ، وأخبرته پورشيا أنها هى المحامى الشاب وأن نرسا كاتبه ، وعجب بسانيو أشد العجب وسر غاية السرور حين علم أن زوجته هى التى أنقذت حياة أنطنيو بشجاعتها وحسن تدبيرها .

وحيت پورشيا أنطنيو ورحبت به من جديد ، وأعطته رسائل وقعت فى يدها بطريق الصدفة وهى تصف سفن أنطنيو التى ظن أنها غرقت ، وتقول إن هذه السفن قد وصلت إلى الميناء بسلام . وهكذا نسى الجميع ما بدأت به قصة هذا التاجر السرى من مآس وآلام ، طغى عليها كلها ما أعقب ذلك من نعم لم تكن فى الحسبان . وعاد الكل يضحكون من قصة الخاتمين ومن الزوجين اللذين لم يعرفا زوجتيهما ، وأقسم جرسيانو أنه لن يحرص فى حياته على شىء حرصه على خاتم نرسا .

سمبلين

فى أيام أغسطس قيصر إمبراطور رومة كان يحكم إنجلترا (وكان اسمها فى ذلك الوقت بريطانيا) ملك يدعى سمبلين Cymbaline . وماتت زوجة الملك الأولى وتركت له ثلاثة أطفال صغار ، ذكرين وأنثى . ونشأت إمچين Imogen كبرى هؤلاء الأطفال فى قصر أبيها ، ولكن ابنيه الآخرين اختطفا من مخدعهما بطريقة خفية ، ولم يكن أكبرهما قد جاوز الثالثة من عمره ، أما أصغرهما فكان لا يزال فى مهده ، ولم يعرف الوالد سمبلين ما جرى لولديه ولا اليد التى امتدت إليهما .

وكانت الملكة تبغض إمچين ، ولكنها كانت ترغب فى أن تزوجها بابن لها من زوج آخر ، فقد تزوجت هى الأخرى مرتين . وكانت ترجو بذلك أن تضع تاج بريطانيا بعد موت سمبلين على رأس ابنها كلوتن Cloten ، وذلك لعلمها أن الأميرة إمچين ستصبح وارثة عرش بريطانيا إذا لم يظهر ولدا الملك الآخران . لكن إمچين نفسها أفسدت عليها هذا التدبير ، إذ تزوجت بغير رضاء أبيها وزوجته بل بغير علمهما .

وكان زوجها پستيمس Posthumus أكثر شبان ذلك الوقت علماً وأدباً ، وكان أبوه قد قتل وهو يحارب حروب سمبلين ، وتوفيت أمه حزناً على زوجها بعد مولد طفلها بقليل . واختار سمبلين للطفل اسم پستيمس لأنه ولد بعد موت أبيه[1] وأشفق الملك على هذا الطفل اليتيم البائس فأخذه فى كنفه ورباه فى بلاطه . وتلقى پستيمس وإمچين العلم معاً على نفس المعلمين ، وكانا رفيقين فى لعبهما من نعومة أظفارهما ، ونشآ متحابين من عهد طفولتهما ، وزاد حبهما كلما كبرت سنهما ، فلما بلغا أشدهما واستويا تزوجا سرا .

وسرعان ما كشفت الملكة هذا السر ، وعرفت خيبة مسعاها ، لأنها كانت تبث العيون على ابنة زوجها يرقبون حركاتها وسكناتها ، فأبلغت الملك من فورها نبأ زواج إمچين وپستيمس .

---

(١) معنى هذا اللفظ « بعد الموت » . (المترجم)

واستشاط الملك غضباً حين عرف أن ابنته قد أهدرت كرامتها وتزوجت بشاب من السوقة ، فأمر پستيمس من فوره أن يغادر أرض بريطانيا منفيا ، ولا يعود إليها أبداً . وتظاهرت الملكة بالإشفاق على إمچين فى محنتها التى حلت بها بفقد زوجها ، وعرضت عليها أن تيسر لها سبيل الالتقاء به خفية قبل أن يبدأ سفره إلى رومة ، وهى المدينة التى اختارها منفى له . وكان غرضها من هـذه الشفقة الظاهرة أن تستعين بها فيما بعد على تنفيذ ما كانت تدبره لابنها كلوتن ، وكانت تريد أن تقنع إمچين بعد أن يسافر پستيمس بأن زواجها به كان زواجاً غير شرعى لأنه تم بغير رضاء الملك .

وودع پستيمس وإمچين كلاهما الآخر أحر وداع ، وأهدت إمچين إلى زوجها خاتماً من ماس ورثته عن أمها ، ووعدها پستيمس ألا يفرط فيه قط ، وألبسها هو سواراً فى ذراعها ورجاها أن تحتفظ به شاهداً على حبه ، ثم افترقا بعـد أن أكد كلاهما للآخر عظم حبه وإخلاصه . وعاشت إمچين فى قصر أبيها وحيدة بائسة ، ووصل پستيمس إلى رومة التى اختارها مقرا له فى منفاه .

واجتمع پستيمس فى رومة بطائفة من الشبان المرحين الذين جاءوا إليها من مختلف البلدان ؛ وكان حديثهم يدور حول النساء لا يستحون من ذكر كل شىء عنهن ، وكان كل منهم يثنى على نساء بلده ويشيد بذكر حبيبته . وكان پستيمس لا ينسى عهد زوجته العزيزة ، فأخذ يؤكد لأصحابه أن إمچين الحسناء كانت أعف نساء العالم وأرجحهن عقلا وأكثرهن وفاء .

وغضب من ذلك شاب يدعى يشيمو lashimo ، وساءه أن تفضل فتاة من أهل بريطانيا على النساء الرومانيات بنات وطنه ، وأثار غضب پستيمس بأن تظاهر بالشك فى إخلاص زوجته التى يثنى عليها هذا الثناء كله . وبعد أن احتدم الجدال بينهما طويلا وافق پستيمس على اقتراح عرضه يشيمو ، مضمونه أن يذهب هذا الشاب إلى بريطانيا ويحاول كسب حب إمچين . ثم تراهنا على أن يدفع يشيمو مبلغاً كبيراً من المـال إذا لم يفلح فى مسعاه الخبيث ، أما إذا نجح فى كسب حب إمچين وأقنعها بأن تعطيه السوار الذى رجاها پستيمس أحر رجاء أن تحتفظ به

تذكاراً لحبه ، فإن يشيمو يكسب الرهان ويأخذ فى نظير ذلك الخاتم الذى أهدته إمچين إلى زوجها فى ساعة وداعه دليلا على حبها له .

وقد بلغ من ثقة پستيمس بوفاء إمچين أن كان يعتقد اعتقاداً أكيداً أن لا خطر مطلقاً من أن تمتحن زوجته فى شرفها بهذه الطريقة .

ولما وصل يشيمو إلى بريطانيا أذن له بمقابلة إمچين ، واستقبلته الفتاة أحسن استقبال على زعم أنه صديق زوجها ، فلما أخذ يسمعها عبارات الحب طردته من عندها بازدراء ، وتبين من فوره أن لا أمل له فى النجاح فى مسعاه الذميم .

ولكن رغبته الملحة فى أن يكسب الرهان حملته على أن يلجأ إلى مخادعة پستيمس والكذب عليه ، فأغرى بالمال بعض خدم إمچين ، فحملوه إلى مخدعها فى حقيبة كبيرة ظل مختفياً فيها حتى آوت إلى فراشها واستغرقت فى نومها ، ثم خرج من الحقيبة وفحص عن كل شىء فى الحجرة ، ودون فى مذكرة له كل ما رآه فيها ، وكان أهم ما استرعى نظره شامة رآها فى عنق إمچين . وأخيراً أخرج السوار بخفة من ذراعها وعاد إلى الحقيبة ؛ ثم انطلق فى اليوم الثانى مسرعاً إلى رومة ، وأخذ يتباهى أمام پستيمس بأن إمچين قد أعطته السوار وسمحت له أن يقضى ليلة فى مخدعها ، وقص يشيمو قصته الكاذبة بهذه الطريقة : « إن جدران مخدعها مغطاة بنسيج من الحرير الموشى بالفضة ، يمثل قصة كليوبطرة تحتال عند لقائها أنطونى وهى قطعة فنية بديعة » .

وأجابه پستيمس بقوله : « هذا صحيح ، ولكنك قد تكون سمعت عنه بأذنك ولم تره بعينك » . وواصل يشيمو حديثه قائلا : « أما الموقد ففى الجهة الجنوبية من الحجرة ، وغطاؤه يمثل ديانا فى الحمام ، ولم أر فى حياتى صورة أبدع من تلك الصورة » ، وقال پستيمس : « وذلك أيضاً ربما كنت قد سمعته لأن الناس يتحدثون به كثيراً » .

فأخذ يشيمو يصف سقف الحجرة بمثل هذه الدقة ، وزاد على هذا الوصف قوله : « وأكاد أنسى مسند موقدها . إن هذا المسند مكون من تمثالين لإلهة الحب صيغا من الفضة ، وهما يتغامزان بالأعين ويقف كل منهما على قدم واحدة » . ثم

أخرج السوار وقال : « أتعرف هذه الحلية يا سيدى ؟ لقد أعطتنى إياها بعد أن انتزعتها من ذراعها ، وما زلت أتصور ساعة انتزعتها ، وكانت طريقة الإهداء أعظم فى نظرى من الهدية نفسها ، وزادتها قيمة على قيمتها . ولقد قالت لى وهى تمد بها يدها إلى إنها كانت من قبل عزيزة عليها » . وكان آخر ما فعل أن وصف الشامة التى رآها فى عنقها .

وكان پستيمس يصغى إلى هذه المكيدة المدبرة بشىء من الشك المؤلم ، وأما الآن فقد انفجر مرجل غيظه على إمچين ، وأسلم خاتم الماس إلى يشيمو ، وكان قد وعده به إذا جاء بالسوار من إمچين .

ثم كتب پستيمس وهو فى سورة الغيرة والغضب رسالة إلى پيزانيو Pisanio ، وهو رجل من سادة بريطانيا كان من قبل فى حاشية إمچين وظل زمناً طويلا من أصدقاء پستيمس الأوفياء المخلصين . وبعد أن قص عليه ما لديه من الأدلة الناطقة بخيانة زوجته ، طلب إليه أن يأخذها إلى ملفرد هيڤن Milford Haven أحد ثغور ويلز Wales ويقتلها فيه . وكتب فى الوقت نفسه رسالة إلى إمچين ملؤها المكر والخداع ، طلب فيها إليها أن ترافق پيزانيو إلى هذا الثغر لأنه وجد الحياة بعيدة عنها مستحيلة فاعتزم المجىء إلى ملفرد هيڤن ليلتقى بها ، وإن كان قد أمر ألا يعود إلى بريطانيا وأهدر دمه إن عاد إليها . وكانت هذه السيدة طيبة القلب لا تظن بالناس سوءاً ، فلما تلقت الرسالة سافرت من فورها فى نفس الليلة مع پيزانيو ، لأنها كانت تحب زوجها حبا لا يعدله حب ، ولأن رغبتها فى أن تراه كانت أشد من رغبتها فى الحياة .

ولما أشرفت رحلتهما على غايتها كشف پيزانيو لإمچين عن حقيقة الأمر الصادر إليه ، لأنه رغم وفائه لپستيمس لم يشأ أن يسخر لارتكاب هذا الجرم الشنيع . وتألمت إمچين أشد الألم حين علمت أنها لن تقابل زوجاً يحبها وتحبه ، بل إن هذا الزوج نفسه يريد أن يسلبها الحياة .

وهدأ پيزانيو من روعها وطلب إليها أن تتذرع بالصبر ، حتى يتبين پستيمس أنه قد ظلمها ويندم على ما فعل . ولما كانت غير راغبة فى العودة إلى قصر أبيها

بعد أن أصابها ما أصابها ، فقد أشار عليها أن تلبس ملابس الفتيان لتأمن على نفسها فى سفرها . وعملت إمچين بهذه النصيحة وفكرت أن تذهب فى هذا الزى إلى رومة لتقابل فيها زوجها الذى لم يبرح حبه قلبها ، وإن كان قد عاملها هذه المعاملة الوحشية القاسية .

وزودها پيزانيو بلباسها الجديد ثم تركها تحت رحمة الأقدار ، فقد كان عليه أن يعود فى ذلك الوقت إلى قصر الملك ؛ وأعطاها قبل أن يفارقها زجاجة من دواء منعش قال إن الملكة قد أعطته إياها ، وإن فى دوائها الشفاء من كل الأمراض .

وحقيقة الأمر أن الملكة التى كانت تكره پيزانيو لما كان بينه وبين إمچين وپستيمس من صداقة قد أعطته هذه الزجاجة ظنا منها أن بها سما ؛ وكانت قد طلبته من طبيبها الخاص مدعية أنها ستجرب أثره فى بعض الحيوانات ، ولكن الطبيب كان يعرف خبث طويتها فلم يأتمنها على سم حقيق ، وأعطاها بدلا منه عقاقير لا تحدث ضرراً لمن يتناولها أكثر من أن تنيمه ساعات قليلة ، تبدو عليه فى خلالها كل مظاهر الموت . وأعطى پيزانيو إمچين هذا المزيج الذى كان يعتقد أنه خير دواء منعش ، وأخبرها أن تتجرع بعضه إذا رأت نفسها متعبة فى أثناء الطريق ، ثم تركها بعد أن دعا لها بالخير والسلامة والنجاة من متاعبها التى لم تكن تستحق منها شيئاً .

وشاءت الأقدار أن تتخذ إمچين سمتها إلى المكان الذى آوى إليه أخواها اللذان اختطفا فى عهد الطفولة . وكان بلاريس Belarius الذى اختطفهما من كبار رجال البلاط فى قصر سمبلين ، ولكن الواشين وشوا به إلى الملك واتهموه بالخيانة كذبا ، فطرده الملك من خدمته ، وانتقم بلاريس لنفسه بأن سرق ولدى سمبلين ورباهما فى الغابة ، وآوى فيها إلى كهف واتخذه مسكناً له . وكان حب الانتقام من والدهما هو الذى حمله على اختطافهما ، ولكنه لم يلبث أن أحبهما كما يحب الآباء أبناءهم ، وأحسن تربيتهم ، فنشآ نشأة طيبة ، ودفعهما كرم عنصرهما إلى القيام بكثير من أعمال الجرأة والبطولة . وكانا يحصلان على قوتهما من صيد الغاب ، فأكسبهما ذلك النوع من المعيشة نشاطا وصلابة . وكانا لا ينفكان يلحان على

أبيهما المزعوم أن يرسلهما ليجربا حظهما فى ميادين القتال .

وساقت الأقدار إمچين إلى الكهف الذى كان يسكن فيه هذان الفتيان ؛ وذلك أنها ضلت سبيلها وهى سائرة فى غابة كبيرة تعترض طريقها إلى ملفردهيڤن حيث كانت تريد أن تسافر بطريق البحر إلى رومة ؛ ولم تجد فى طريقها مكاناً تبتاع معه الطعام فكادت تموت من شدة الجوع والتعب ، لأن ملابس الرجال لا تكفى وحدها لأن تبعث فى نفوس الفتيات اللاتى نشأن فى أحضان النعمة قوة الرجال والصبر على مشاق السفر منفردات فى الغابات . فلما رأت الكهف دخلته لعلها تجد فيه من يمدها بالطعام ؛ ولما لم تجد فيه أحداً أخذت تقلب الطرف فى أرجائه ، فوقعت عينها على بعض اللحم البارد ، ولم تنتظر لشدة الجوع أن يدعوها أحد إلى الطعام ، بل جلست من فورها وأخذت تأكل اللحم ، وقالت فى نفسها « إن حياة الرجال فى نظرى حياة شاقة ، ألا ما أشد ما قاسيت من التعب ! لقد قضيت ليلتين متواليتين أفترش الغبراء ، ولولا عزيمتى الصادقة لأضنانى المرض . لقد أشار پيزانيو إلى ملفردهيڤن من أعلى الجبل فلاحت لى قريبة كل القرب ! » ثم تذكرت زوجها وقسوته عليها فقالت « عزيزى پستيمس إنك لرجل غادر ! » .

ورجع أخوا إمچين فى ذلك الوقت من الصيد مع بلاريس أبيهما المزعوم ؛ وكان بلاريس قد أطلق عليهما اسمى پليدور Polydore وكدول Cadwal ، فلم يكن الأميران يعرفان لهما غير هذين الاسمين ، وكانا يظنان أن بلاريس أبوهما حقا . أما اسماهما الحقيقيان فكانا جيدريس Guiderius وأرڤراجس Arviragus

ودخل بلاريس الكهف قبل الأميرين ، فلما رأى إمچين قال لهما « قفا مكانكما ولا تدخلا الكهف ، إنها تأكل الطعام ، ولولا ذلك لظننتها من بنات الجان » .

وسأله الشابان عن جلية الأمر ، وقال بلاريس حين رأى جمال إمچين البارع وهى فى ثياب الفتيان « أقسم أن فى الكهف ملكا من السماء ، أو آية من آيات الخلائق الأرضية » .

وسمعت إمچين أصواتهم فخرجت من الكهف وخاطبتهم قائلة « أيها السادة النجب ، لا تؤذونى ، فقد فكرت قبل أن أدخل كهفكم أن أسألكم أو أبتاع منكم ما طعمته ، والحق أنى لم أسرق شيئاً ، وليس من شيمتى أن أسرق ، ولو وجدت الذهب منثوراً على أرض هذا الكهف ؛ وها هو ذا المال أقدمه ثمناً لما أكلت من اللحم ، وكان فى نيتى أن أتركه على هذه اللوحة بعد أن أفرغ من تناول الطعام ، وأن أدعو لأصحابه بالخير والبركة » . وأبى أصحاب الكهف أن يأخذوا منها شيئاً من المال ، فقالت لهم فى خجل « يخيل إلى أنى قد أغضبتكم بما فعلت ، ولكن اعلموا ياسادتى إذا أخذتمونى بذنبى ، أننى كنت أموت حتما لو لم أرتكب هذا الذنب » .

وسأل بلاريس « ما اسمك وأنى تذهب ؟ » فأجابته إمچين بقولها « اسمى فيديل Fidele ، ولى قريب مسافر إلى إيطاليا ، وقد ركب البحر من ملفردهيڤن ، وخرجت أنا من بلدى أريد الذهاب إليه ، فاشتد بى الجوع فارتكبت هذا الذنب » .

ورد عليها الشيخ بلاريس بقوله « أيها الشاب الوسيم ، نرجو ألا تظننا أجلافاً غلاظاً ، وألا تحكم على طباعنا بهذا البيت الخشن الذى نعيش فيه . لقد أدركك الليل فمرحباً بك ، وستلقى قبل رحيلك خيراً مما لقيت عند قدومك ، وسنشكر لك ما أقمت عندنا وما طعمت من زادنا . هيا ، ياولدى وأكرم الضيف » .

وتقدم الفتيان إلى أختهما إمچين ودعواها إلى الجلوس فى كهفهما ، وحيياها أحسن تحية ، وقالا إنهما سيحبانها (أو على الأصح سيحبانه) حب الأخ أخاه ؛ ثم دخلا الكهف ومعهما ما صاداه من الغزلان ، فطهت لهما إمچين اللحم أحسن الطهى ، وساعدتهما على تهيئة العشاء . وكان من عادة الفتيات بنات الأسر الكريمة أن يتعلمن طهى الطعام ؛ ولم يكن يستنكفن أن يفعلن ذلك كما تستنكف مثيلاتهن فى هذه الأيام ، ولذلك كانت إمچين تجيد هذا الفن النافع . وعبر الأخوان عن إعجابهما بقولهما : « إن فيديل يقطع الجذور للطهى كأنه يخطها بالقلم ، ويهيئ الحساء كأن چونو Juno زوجة چوپتر Jupiter مريضة ، وكأنما كان هو بإعداد ما يلزمها من الطعام . ثم قال پليدور Polydore لأخيه : « ما أعذب غناء هذا الملاك وما أشجاه ! » .

وقال كلاهما لصاحبه إن ابتسامات فيديل الحلوة لتشف عن حزن عميق يبدو فى وجهه ، وكأنما الحزن والصبر معاً يحزان فى قلبه .

وأصبحت إمچين — أو فيديل كما كان يسميها الفتيان — بفضل هذه الصفات الطيبة ، أو بفضل ما كان يربطها بالفتيين من أواصر القربى على غير علم منهما ، أصبحت إمچين أحب الناس إلى أخويها ، وأحبتهما هى أيضاً أشد الحب ؛ ولولا ذكرى زوجها العزيز پستيمس لودت أن تعيش على الدوام مع هذين الفتيين ساكنى الغابة ، وقد قبلت فى سرور أن تقيم معهما حتى تستريح من عناء السفر ، وتستطيع أن تواصل سيرها إلى ملفردهيڤن .

ولما فرغ لحم الغزلان التى صاداها وأرادا أن يخرجا للصيد مرة أخرى ، لم تستطع الفتاة لمرضها أن تصحبهما ، ولاشك فى أن ألمها من قسوة زوجها ، وما عانته من مشقة فى تجوالها فى الغابة ، كانا سبب هذا المرض ، فودعاها وذهبا للصيد ، وكانا طول الطريق يتحدثان بخير عن الفتى فيديل ويعجبان بكرم أخلاقه وبهاء طلعته .

ولم تكد إمچين تنفرد بنفسها حتى تذكرت الزجاجة التى أعطاها لها پيزانيو ، وشربت كل ما فيها من الدواء ، فنامت لساعتها نوماً عميقاً لا فرق بينه وبين الموت .

وعاد بلاربس وأخواها من الصيد ، وكان پليدور أول من دخل الكهف ، فلما رآها ظنها نائمة ، فخلع نعليه الغليظين لكيلا يوقظها بثقل وطئهما ، وذلك لأن الرقة والظرف نبتا سريعاً فى قلب هذين الأميرين ساكنى الغاب . ولكن پليدور أدرك بعد قليل أنها لا تستيقظ مهما علا الصوت ، فاعتقد أنها ماتت ، وحزن عليها حزن الأخ الشفيق الذى لم يفارق أخاه منذ نعومة أظفاره .

وأشار عليهما بلاريس أن ينقلاها بين الأشجار ليحتفلوا جميعاً بجنازتها بترديد الأغانى وأناشيد الحزن كما كان الناس يفعلون فى تلك الأيام .

وحمل الأخوان إمچين إلى مكان فسيح مظلل فى الغابة ، ووضعاها على الكلأ ، وأخذا ينشدان الأناشيد ويطلبان لها الرحمة ، ثم غطيا جسمها بالزهر وأوراق الشجر . ولما فرغا من عملهما قال پليدور : « سأزور قبرك يا فيديل فى كل يوم من

أيام الصيف ما دمت مقيما فى هذا المكان ، وأنثر عليه الزهر وأوراق الشجر ، سأنثر عليه زهر الربيع الشاحب أشبه الأزهار بوجهك ، والزنبق الأزرق أشبهها بلون أوردتك ، وأوراق الورد الجبلى التى لايفوق شذا عرفها أنفاسك العطرة يوم كنت فى الأحياء ؛ سأنثر كل هذا عليك فى الصيف ، وسأنثر الطحلب الناعم فى الشتاء حين لا أجد من الأزهار ما أغطى به جسمك » .

ولما أتما مراسم دفنها عادا إلى كهفهما حزينين كاسفى البال .

وقبل أن يمضى على فراقهما وقت طويل ، زال أثر الدواء فاستيقظت إمچين ونفضت ما كان عليها من أوراق وأزهار ، ووقفت على قدميها وهى تظن أنها كانت فى حلم فقالت : « يخيل إلى أنى كنت فى كهف أشرف عليه وأطعى فيه الطعام لقوم كرام ، فكيف جئت إلى هذا المكان ؟ وكيف غطتنى هذه الأزهار ؟ » .

وضلت إمچين طريقها إلى الكهف ، ولم تر أحداً من رفاقها الجدد فلم يخامرها شك فى أنها كانت فى حلم ، وبدأت رحلتها الشاقة من جديد وهى ترجو أن تصل آخر الأمر إلى ملفردهيثن وتستقل منها سفينة مسافرة إلى إيطاليا ، لأن أفكارها كانت لا تزال متعلقة بزوجها پستيمس ، وقد اعتزمت أن تبحث عنه وهى فى ثياب الفتيان

ولكن أحداثا خطيرة كانت تحدث فى تلك الأيام ولا تعرف عنها إمچين شيئاً . ذلك أن حربا قد شبت نارها فجأة بين أغسطس قيصر إمبراطور الرومان وسمبلين ملك بريطانيا ، ونزل جيش رومانى فى أرض بريطانيا ليغزوها ، وتقدم الجيش حتى وصل إلى الغابة التى كانت تسير فيها إمچين ، وجاء پستيمس مع الغزاة الفاتحين .

جاء پستيمس مع هذا الجيش إلى بريطانيا ولم يكن فى نيته أن يحارب بلاده فى صفهم ، بل كان يريد أن ينضم إلى جيش بريطانيا ليدافع عن مليكه الذى أخرجه من بلاده .

وكان لايزال يعتقد أن إمچين قد خانته ، ولكن موت زوجته التى كان يحبها ويعزها والتى أمر هو بقتلها — فقد كتب إليه پزانيو يقول إنه أطاع أمره وقتل إمچين — نقول إن موت هذه الزوجة قد أحزنه وأمر عيشه ، فعاد إلى بريطانيا

لعله يخر صريعاً فى ميدان القتال ، أو لعل سمبلين يقتله جزاءً له على عودته من منفاه .

ووقعت إمچين أسيرة فى أيدى جنود الرومان قبل أن تصل إلى ملفردهيڤن ، وأعجب قواد الرومان ببهاء طلعتها وسرعة بديهتها ، فألحقها لوسيس Lucius قائد الجيش بخدمته .

وتقدم جيش سمبلين لملاقاة العدو ، فلما دخل الغابة انضم إليه پليدور وكدول وكانا شديدى الرغبة فى أن يظهرا شجاعتهما وبأسهما ، وإن كانا لايعرفان أنهما سوف يحاربان دفاعاً عن أبيهما الملك ، وسار معهما أيضاً الشيخ بلاريس لأنه قد ندم من زمن طويل على ما آذى به سمبلين باختطاف ولديه . وإذ كان قد تعود الحرب فى شبابه ، فقد سره أن ينضم إلى الجيش ليدافع عن مليكه ويكفر عما جناه عليه من قبل .

وحمى وطيس القتال بين الجيشين ، وكادت تدور الدائرة على البريطانيين ويقتل مليكهم سمبلين ، لولا ما أبداه پستيمس وبلاريس وولدا سمبلين من ضروب الشجاعة النادرة ؛ وبفضل هذه الشجاعة نجا الملك من الهلاك المحقق ، وتغير مجرى القتال ، وهزم الأعداء ، وعقد لواء النصر للبريطانيين . ولما خبت نيران القتال ولم يظفر پستيمس بالموت الذى كان يرجوه ، أسلم نفسه إلى أحد ضباط سمبلين لعله يقتل جزاء له على عودته من منفاه .

وأسرت إمچين مع مخدومها وجئ بهما أمام سمبلين ، وجئ أمامه أيضاً بيشيمو ، وكان ضابطاً فى الجيش الرومانى . وبينا كان هؤلاء كلهم واقفين فى حضرة الملك جئ أيضاً بپستيمس ليتلى عليه حكم الإعدام . وفى هذا الوقت عينه أدخل بلاريس ومعه پليدور وكدول لينالا ما يستحقان من جزاء على ما أديا للملك بشجاعتهما من خدمات جليلة . وحضر هذا المشهد أيضاً پزانيو ، وكان من أتباع الملك ومن رجال بلاطه .

اجتمع أمام الملك إذن فى هـذه اللحظة طائفة من الأفراد لـكل منهم آماله ومخاوفه الخاصة به . وكان منهم پستيمس وإمچين مع القائد الرومانى سيدها الجديد ، وكان منهم الخادم الأمين پزانيو والصديق الغادر يشيمو ، وكان منهم ولدا

سمبلين الضائعان مع بلاريس الذى اختطفهما من أبيهما .

وكان القائد الرومانى أول من تكلم ، ووقفوا كلهم صامتين أمام الملك ، ولكن معظمهم كان فى وجل ترتعد فرائصه فرقاً .

ورأت إمچين پستيمس وعرفته ، مع أنه كان يلبس ثياب القرويين ، أما هو فلم يعرفها فى ثياب الفتيان ، وعرفت كذلك يشيمو ولمحت خاتماً فى إصبعه تبينت أنه خاتمها ، ولكنها لم تكن تعرف وقتئذ أنه سبب كل ما حل بها من شقاء ، ووقفت هى أمام أبيها أسيرة حرب .

وعرف پيزانيو إمچين ، وكان هو الذى ألبسها ثياب الفتيان ، وقال فى نفسه : « إنها لسيدتى بلا ريب ، وما دامت هى على قيد الحياة فليكن بعد ذلك ما يكون خيراً كان أو شرا » . وعرفها بلاريس وأشار إلى كدول قوله : « أليس هذا فتانا قد عادت إليه الحياة ؟ » . فأجابه كدول : « إن هذا الفتى الوسيم ذا الوجنة الوردية ليشبه فيديل الميت كأنما شقا من نبعة واحدة » . وقال پليدور : « إنه هو قد عادت إليه الحياة » . وقال بلاريس : « صه ، صه ! لو كان هو لتحدث إلينا من غير شك » . وأجابه بلاريس : « صه ! » .

وظل پستيمس صامتاً ينتظر الحكم المرتجى بإعدامه ، واعتزم ألا يبوح للملك أنه قد أنجاه من الموت ، لئلا يحرك ذلك عطف سمبلين فيعفو عنه .

وكان لوسيس القائد الرومانى الذى أخذ إمچين فى كنفه وجعلها خادماً له أول من تكلم أمام الملك كما سبق القول ، وكان هذا القائد رجلا نابت الجنان مهيب الطلعة ، وهاك ما قاله للملك :

« سمعت أنك لا تقبل الفداء من الأسرى بل تقضى بإعدامهم ، إنى من بنى الرومان وسألاقى الموت بقلب كقلوب الرومانيين ، ولكن لى رجاء واحداً لا أرجو سواه » . ثم جاء بإمچين أمام الملك وقال : « إن هذا الفتى بريطانى المولد ، فاقبل منه الفداء ، وهو خادمى ولم أر فى حياتى عند سيد من السادة خادماً أشفق منه أو أحرص منه على أداء واجبه ، أو أكثر منه نشاطاً أوأعظم منه إخلاصاً وحنوا .

إنه لم يسئ قط إلى بريطانى وإن كان قد خدم رومانيا . ولا أقل من أن تعفو عنه إن لم تعف عن أحد سواه » .

ونظر سمبلين نظرة ثاقبة إلى ابنته إمچين ، غير أنه لم يعرفها وهى متنكرة فى ثياب الفتيان . وكأن الطبيعة قد حدثت قلبه حديثاً صامتاً فقال : « يقيناً لقد رأيته من قبل ، إنى لا أعرف وجهه ولست أدرى كيف ولِمَ أقول عش أيها الفتى ، ولكنى أهبك الحياة وأقول لك سل ما تشاء فسؤالك مجاب ، ولو طلبت العفو عن أشرف أسير فى قبضة يدى » .

فأجابته إمچين : « أشكر لجلالتك هذا العطف فى خضوع وإجلال » .

وكان قولهم « سل ما تشاء » بمثابة وعد لمن واتاه ذلك الحظ بأن يجاب إلى شىء واحد يرجوه أيا كان شأنه . وسكت الكل ينتظرون ما يطلبه الفتى ، وقال له سيده لوسيس : « لست أرجو لنفسى الحياة أيها الفتى الكريم ، ولكننى أعرف أن هذا هو الذى ستطلبه إلى الملك » . فأجابته إمچين : « كلا ! مع الأسف الشديد ، إن لى مطلباً آخر أيها السيد الشريف ، وليس فى وسعى أن أطلب لك الحياة » .

وعجب القائد الرومانى من هذا الذى ظنه جحوداً .

ثم صوبت إمچين نظرها إلى يشيمو ، ولم تطلب إلى الملك إلا أن يرغمه على أن يعترف بمصدر هذا الخاتم الذى يلبسه فى إصبعه .

وأجابها سمبلين إلى طلبها وأنذر يشيمو بأشد أنواع العذاب إذا لم يدلهم على الطريقة التى حصل بها على خاتم ألماس الذى فى إصبعه .

وعندئذ اعترف يشيمو بفعلته النكراء ، وقص عليهم قصة الرهان ، وأخبرهم كيف نجح فى حيلته بفضل سذاجة پستيمس وسرعة تصديقه .

وليس فى وسع الإنسان أن يصف شعور پستيمس عند ما سمع بأذنه هذا الدليل القاطع على براءة زوجته . وحسبنا أن نقول إنه تقدم من فوره ، واعترف أمام سمبلين بالحكم الصارم الذى أمر پيزانيو أن ينفذه فى الأميرة ، وصاح قائلا : « ملكتى ، حياتى ، زوجتى ! إمچين ، إمچين ، إمچين » .

ولم يكن فى طاقة إمچين أن ترى زوجها المحبوب فى هذه المحنة ولا تكشف له عن أمرها ، ولشد ما سر پستيمس عند ما رفع عنه وزر الجريمة وعبء الحزن الثقيل ، واستعاد ما كان له من مكانة فى قلب السيدة العزيزة التى قسا عليها فى الأيام الماضية .

ولم يكن سرور سمبلين بوجود ابنته المفقودة بهذه الطريقة العجيبة أقل من سرور پستيمس ، فردها إلى مكانتها الأولى عنده ، وعاد حبه الأبوى إلى ما كان عليه من قبل ، ولم يكتف بالعفو عن پستيمس بل رضى به زوجاً لابنته .

واختار بلاريس هذه الساعة ، ساعة الرضا والسرور الشامل ، فأقر هو الآخر بذنبه وقدم إلى الملك پليدور وكدول ، وقال إنهما ولداه جيدريس وأرڤراجس .

وعفا سمبلين عن الشيخ بلاريس ، وهل كان فى وسع إنسان أن يفكر فى الانتقام فى هذه الساعة ، ساعة السعادة الشاملة والسرور الذى لم يكن فى الحسبان ؟ وهل كان يدور بخلد الملك أنه سيجد ابنته على قيد الحياة ، وأن ولديه سيدافعان عنه دفاع الأبطال ؟

وفى هذه الساعة وجدت إمچين الفرصة سانحة لخدمة مولاها السابق القائد الرومانى لوسيس ، فعفا الملك عنه بناء على طلبها ؛ وبفضل وساطة هذا القائد نفسه عقد الصلح بين الرومان والبريطانيين ، ودام هذا الصلح كثيرا من السنين .

وحسبنا أن نشير هنا إشارة عارضة إلى ما كان من أمر الملكة الأثيمة زوج سمبلين . لم تفلح هذه الملكة فى تنفيذ مكائدها ودسائسها ، وندمت على سوء فعالها فمرضت وماتت بعد أن رأت ولدها الأحمق كلوتن يقتل على أثر شجار أثاره بنفسه ، حسبنا أن نشير إلى هذا كله إشارة خاطفة ، لأن فيه مآسى لا يصح أن نكدر بها صفو هذه الهناءة الشاملة . لقد نال السعادة من هذا الجمع كل من كان جديراً بها ، وحتى يشيمو الخائن قد طرد دون أن يوقع عليه عقاب لأن مآربه الخبيثة لم تتحقق .

الملك لير

كان للملك لير ملك بريطانيا ثلاث بنات ، جنرل Goneril زوجة دوق ألبنى Albany ، وريجان Regan زوجة دوق كرنوول Cornwall ، وكردليا Cordelia وهى شابة عذراء كان يتنازع حبها ملك فرنسا ودوق برجنديا Burgundia وكانا يقيمان لهذا السبب فى بلاط لير .

وكان أبوهن قد جاوز الثمانين من عمره ، وهدت قواه الشيخوخة ومتاعب الحكم ، فقرر أن ينفض يده من شؤون الدولة ، ليتولاها من هم أقل منه سنا ، وأقدر منه على تصريف الأمور ، وليقضى ما بقى من أيام حياته فى الاستعداد للموت الذى هو مدركه عما قليل ؛ ولذلك دعا إليه بناته الثلاث ليعرف منهن أيهن أكثر حبا له ، فيقسم مملكته بينهن بنسبة هذا الحب . وقالت كبراهن جنرل إنها تحب أباها حبا تعجز عن التعبير عنه الألفاظ ، وإنه أعز عليها من نور عينيها ، ومن الحياة والحرية إلى غير ذلك من العبارات التى ينطق بها اللسان وليس لها سند من الحب الخالص ، بل هى ألفاظ جميلة ينقصها الإخلاص والوفاء . وسر الملك أن يسمع ابنته تؤكد له بنفسها هـذا الحب الشديد ، وظن أنها تعبر بلسانها عما فى قلبها ، فثارت فى نفسه عاطفة الحب الأبوى ومنحها هى وزوجها ثلث مملكته الواسعة . ثم دعا إليه ابنته الثانية وسألها عما تقول . ولم تكن ريجان أقل من أختها فراغ قلب ، ولذلك لم تشأ أن تسبقها هـذه الأخت فى زلاقة الألفاظ وشقشقة اللسان ، فأجابت بأن ما قالته أختها يقصر عن التعبير عن الحب الذى تكنه لجلالته ، وأن ما يفيض به قلبها من الغبطة بحب مليكها وأبيها العزيز ليتضاءل أمامه كل ما عداه من غبطة وسرور .

فلما سمع الملك هذا القول حمد الله الذى وهبه ذرية طيبة تحبه هذا الحب الصادق فى ظنه ، ولم يسعه بعد هذا التأكيد إلا أن يمنحها هى وزوجها جزءاً من مملكته يعادل ما منحه جنرل .

ثم التفت إلى كردليا صغرى بناته ، التى كان يدعوها بهجته وسروره ، وسألها

ماذا عسى أن تقول ؛ وكان يظن من غير شك أنها ستسمعه مثل أختيها من ألفاظ الحب ما يطربه ، بل كان يعتقد أن ألفاظها ستكون أقوى فى التعبير عن هذا الحب ، لأنها كانت طوال حياتها أعز بناته وأقربهن إلى قلبه . ولكن كرديليا اشمأزت من ألفاظ الملق التى فاهت بها شقيقتاها ، وكانت تعرف أن قلبيهما لا يكنان لأبيهما ذلك الحب الذى نطق به لسانهما ، وأن كل ما كانتا تبغيانه من أقوالهما المعسولة أن تسلبا أباهما الشيخ ملكه ، حتى تتمتعا مع زوجيهما بسلطان الحكم فى حياته . ولذلك لم تجبه بأكثر من قولها إنها تحب جلالته قدر ما يقضى به واجبها له لا أكثر منه ولا أقل .

وبهت الملك حين سمع ابنته المحبوبة تظهر أمامه بهذا الجحود ، فطلب إليها أن تفكر فى ألفاظها وتصلح من قولها لئلا يسوء حظها .

فقالت كرديليا لأبيها إنه هو أبوها الذى رباها وأحبها ، وإنها تجزيه على ما فعل بخير ما يجب أن يجزى به ، فهى تطيعه وتحبه وتجله الإجلال كله ، ولكنها لا تستطيع أن تحمّل لسانها من الألفاظ الضخمة ما نطقت به أختاها ، فتعده بأن لا تحب فى الدنيا سواه ؛ وسألته لم تزوجت أختاها إذا لم تكونا تحبان غير أبيهما كما تدعيان ؟ ثم قالت إنه إذا ما قدر لها أن تتزوج فإن من حق الرجل الذى تتزوجه أن ينال نصف حبها ونصف رعايتها ونصف ما عليها من واجبات ، وإنها إذا كان لها ألا تحب غير أبيها فما أجدرها ألا تتزوج قط كما تزوجت أختاها .

ولو سئلت كرديليا فى غير هذا الظرف عن مقدار حبها لأبيها الشيخ لعبرت عن هذا الحب بألفاظ صريحة أدل عليه وأليق بالبنات عندما يخاطبن آباءهن ، ومن غير أن تضيف إلى قولها تلك العبارات التى لا تخلو من بعض الجفاء . وكانت فى حقيقة أمرها تحب أباها حبا لا يقل عما ادعته أختاها ؛ ولكنها بعد أن سمعت منهما ألفاظ المكر والملق ، وعرفت ما عاد عليهما من هبات كريمة بلغت غاية السخاء ، رأت أن خير ما تستطيع أن تفعله هو أن تحب أباها وأن تطوى على هذا الحب جوانحها ولا تحرك به لسانها ، فيكون حبها خالصاً لا ترقى إليه الشبهات ولا تبغى

به كسباً . وكانت ترى أن كلما كانت ألفاظها أبعد عن التظاهر كانت أكثر صدقاً وإخلاصاً من ألفاظ شقيقتيها .

وكان الملك حتى فى آخر أيامه لا ينفك يهتاج ويركب رأسه ، والآن وقد بلغ أرذل العمر فقد خرف وفسد عقله ، فلم يكن فى مقدوره أن يتبين الصدق من الملق ، أو ألفاظ الرياء المزوقة من عبارات الوفاء والإخلاص . واستشاط الشيخ غضباً من صراحة ابنته التى سماها صلفاً وكبرياء ، ورجع عما كان يريد أن يخصها به من ملكه ، وقسم الثلث الباقى بين أختيها وزوجيهما أميرى ألبنى وكرنوول ، ودعا الأميرين إليه وخلع عليهما تاجه ونزل لهما فى حضرة رجال بلاطه وكبراء دولته عن كل ما كان له من سلطان وخراج وتصرف فى شؤون الدولة ، ولم يستبق لنفسه إلا اللقب ، أما سائر مظاهر الملك فقد نزل عنها لهما ولم يشترط عليهما إلا أن يكون مقامه فى قصر ابنتيه بالتناوب شهراً عند هذه وشهراً عند تلك هو ومائة من فرسانه يستبقيهم ليكونوا حاشية له .

وعجب رجال البلاط من تصرف لير فى مملكته هذا التصرف العجيب الذى أملته عليه عواطفه ولم يُحكِّم فيه عقله ، وحزنوا لذلك أشد الحزن ، ولكن واحداً منهم لم يجرؤ على أن يعارض الملك فى ساعة غضبه إلا إيرل كنت Earl Kent ، فقد شرع يذكر كرديليا بالخير أمام أبيها ، ولكن لير أمره فى حدة وغيظ ألا ينبث ببنت شفته ، وإلا أمر بقتله . غير أن كنت لم يكن بالرجل الذى يرهب مثل هذا الموقف ؛ لقد كان طوال حياته وفيا للير ، يجله إجلال الملوك ، ويحبه حب الآباء ، ويتبعه كالخادم ؛ ولم يكن يعرف لحياته قيمة إلا أنها درع يقى به مولاه من أعدائه ، ولا يتردد فى أن يضحى بها إذا تطلبت ذلك سلامة لير ؛ وحتى فى هذه الساعة التى أصبح فيها الملك ألد أعداء نفسه لم ينس هذا الخادم الوفى خلاله النبيلة ، بل وقف وقفة البطل فى وجه لير ليفعل الخير للير ، ولم يخرجه عن أدبه إلا جنون لير .

وكان كنت مشيراً أميناً للملك فى أيامه الماضية فأهاب به فى هذا الوقت أن يرى بعينيه ويستمع إلى نصيحته كما كان يفعل من قبل فى كثير من الأمور الخطيرة ، وأن يحزم أمره ويرجع عن خرقه الشنيع ؛ وقال إن ابنته الصغرى ليست أقل حبا

له من شقيقتيها ، وإن الصوت الخافت لا يدل على عطل القلب من الحب ، كما أن ضعف الرنين لا يدل على فراغ الإناء ؛ ثم قال إنه يضمن بحياته صدق حكمه ، وإن صاحب السلطان إذا خضع الملق وجب أن يصارحه الرجل الشريف . ولم يكن تهديد لير ليؤثر فيه وهو الذى اعتاد أن يضحى بحياته فى خدمة مولاه ، لأن الواجب كان يدعوه ألا يضن عليه بالنصح .

وتلهب الملك غيظاً من هذه الصراحة النبيلة ، وأمر هذا الخادم الأمين فى ساعة غضبه أن يخرج من مملكته ، ولم يمهله إلا خمسة أيام يهيئ فيها نفسه للرحيل ، فإذا وجد فى اليوم السادس داخل حدود بريطانيا كان هذا اليوم آخر أيام حياته . وكان لير بعمله هذا أشبه بالمريض الأحمق الذى يقتل الطبيب ويصطفى الداء الوبيل . وودع كنت الملك وقال له إنه إذا كان ذلك شأنه فإن البقاء معه هو النفى بعينه ؛ وقبل أن يغادر المكان أهاب بالآلهة أن تعنى بكرديليا ، تلك الفتاة التى لم تضمر إلا الخير ولم تنطق بغير الصواب ، وتمنى أن تحقق أختاها صدق دعواهما الطنانة ، ثم خرج — على حد قوله — ليسلك مسلكه القديم فى بلد جديد[1] .

ودعى ملك فرنسا ودوق برجنديا ليستمعا إلى ما اعتزمه الملك بشأن صغرى بناته ، وليعرف منهما هل يصران على خطبتهما لكرديليا بعد أن استحقت غضبه وسخطه ، ولم يبق لها ما يحببهما فيها إلا شخصها . فأما دوق برجنديا فأعرض عن خطبته وأبى أن يتزوجها على هذه الشروط ، وأما ملك فرنسا فإنه بعد أن عرف حقيقة جرمها الذى حرمها عطف أبيها ، وأيقن أن ذلك الجرم لم يكن إلا عجزها عن أن تنطق لسانها بمثل ما نطقت به أختاها من ملق ورياء ، أخذ بيد الفتاة وقال إن مهرها هو فضائلها التى لا يعادلها ملك مهما عظم ، ثم أمرها أن تودع أختيها وأباها وإن قسا عليها ، وأن تستعد للذهاب معه لتكون ملكة عليه وعلى فرنسا الجميلة ، وتحكم بلاداً أبهى مما تحكم أختاها ، وقال لدوق برجنديا فى ازدراء إن حبه لهذه الفتاة قد نضب معينه فى لحظة وجيزة .

---

(١) أو ليقضى أيام الشيخوخة فى بلد جديد — كما يقول بعض الشراح . (المترجم)

ثم ودعت كرديليا أختيها والدمع يفيض من عينيها ، وطلبت إليهما أن تحبا أباهما جزاء ما أفاض عليهما من ملك واسع . فأجابتهما الأختان فى أنفة ألا تملى عليهما ما تفعلان ، لأنهما أعرف منها بواجبهما ، وأن عليها أن تعمل لاسترضاء زوجها « الذى تصدق عليها بقبولها » كما قالا لها فى سخرية وازدراء . وغادرت كرديليا قصر أبيها حزينة كاسفة البال لأنها كانت تعرف ما تضمره أختاها من مكر وخبث ، وتمنت أن يرزق والدها صدوراً أحن عليه من صدرى أختيها اللتين توشك أن تتركه بينهما .

ولم تكد كرديليا تغادر القصر حتى بان الخفاء وظهر ما فى طبيعة الأختين من خبث . وقبل أن ينقضى الشهر الأول الذى اتفق أن يقيمه لير فى قصر جنرل كبرى بناته بدأ الملك يدرك الفرق بين القول والعمل . فبعد أن حصلت هذه الابنة الدنيئة من والدها على كل ما تستطيع أن تحصل عليه منه حتى تاج رأسه ، بدأت تستكثر عليه ما احتفظ به من بقايا الملك التافهة ليخدع بها نفسه فيظن أنه لايزال ملكا . فلم تكن تطيق رؤيته هو وفرسانه المائة ، وكلما لقيته تجهمته وظلت عابسة الوجه كاشرة ، فإذا أراد الشيخ أن يكلمها تمارضت أو انتحلت من المعاذير ما تتخلص به من رؤيته ، وأصبح غير خاف على أحد أنها تعد أباها الشيخ عبئاً لا خير فيه ، وتعد ما ينفق على حاشيته إسرافاً لا ضرورة له . ولم يكن كل ما لقيه هذا الشيخ أن تظهر هى نفسها عدم اكتراثها به وتوانيها فى القيام بواجبها نحوه ، بل إن خدمها قد اقتدوا بها ، ولعلهم قد تلقوا فى السر أوامرها ، فأخذوا يهملون شأنه ويغفلون أوامره ، أو يفعلون ماهو أبلغ من هذا فى احتقاره ، وهو التظاهر بعدم سماع قوله . ولم يخف على لير ما طرأ على سلوك ابنته من تبدل ، ولكنه أغضى عنه أطول ما استطاع الإغضاء لأن الناس يستنكفون فى العادة أن يصدقوا ما تجره عليهم أغلاطهم وعنادهم من سوء العاقبة .

لكن الحب والإخلاص لايذهب بهما سوء المعاملة ، كما لا يفيد حسن الصنيع فى كسب قلوب الخونة الغادرين ؛ وتظهر هذه الحقيقة بأجلى مظاهرها فى إيرل كنت ، فقد أخرجه لير من بلده ، وأباح دمه إذا وجد فى أرض بريطانيا ، ولكنه فضل

أن يبقى فى تلك البلاد ويعرض نفسه لجميع الأخطار ، لعل فرصة تتاح له لخدمة مولاه الملك ؛ وما أكثر ما يقاسى الأوفياء المساكين حين يضطرون إلى التنكر والظهور بمظهر الذلة والمهانة ، ولكنهم لا يرون فى ذلك عاراً يلحقهم إذا كانوا بعملهم هذا يوفون بحق من أحسن إليهم . ومن أجل ذلك تزيا هذا الأمير الطيب القلب بزى الخدم ، وخلع كل مظاهر العظمة والأبهة ، وعرض نفسه على الملك . ولم يعرف الملك حقيقة أمره ، ولكن أعجبه فى إجاباته شىء من الصراحة ، أو على الأصح شىء من الخشونة ، يختلف عن الملق والدهان وزلاقة اللسان التى عافتها نفسه بحق بعد أن رأى فعال ابنته . وسرعان ما اتفقا على أن يأخذ لير إيرل كنت فى خدمته ، وكان الاسم الذى اختاره كِنت لنفسه هو كيس Caius ، ولم يدر فى خلد الملك أن كيس هو نفسه إيرل كنت القوى العظيم أحد كبار رجاله المقربين .

وسرعان ما أتيحت الفرصة لكيس ليظهر حبه وإخلاصه لمولاه الملك ، ذلك أن أستاذ بيت جنرل أبدى فى ذلك اليوم بمظهره ومقوله شيئاً من الاستخفاف بالملك ، ولا شك فى أن سيدته هى التى شجعته على ذلك سراً ، فلم يطق كيس صبراً على هذه الإهانة التى لحقت بسيده ، ولم يكن منه إلا أن عرقب الخادم الوقح وألقى به فى مجرى الماء القذر . وكانت هذه الحادثة سبباً فى ازدياد تعلق الملك بكيس وإعزازه له

ولم يكن كنت صديق لير الوحيد ، بل كان ممن لازمه بعد أن نزل عن ملكه وخلع التاج عن رأسه شخص آخر وضيع الشأن هو مضحكه أو مهرجه كما كان الناس يسمونه . وكان هذا المهرج أحد أفراد حاشية الملك أيام أن كان للملك حاشية . ذلك أنه كان من عادة الملوك والعظماء فى تلك الأيام الماضية أن يحتفظ كل منهم بمضحك له أو مهرج يسليه ويذهب عنه عناء العمل . وقد أظهر هذا المهرج الحقير الشأن من الإخلاص لسيده ما كان فى وسع رجل مثله أن يظهره ، وكان يسليه ويذهب عنه الكآبة بمرحه وفكاهته ؛ على أنه كان فى بعض الأحيان لا يستنكف أن يهزأ بسيده ويندد بسقم رأيه لما أن خلع التاج عن رأسه ونزل عن ملكه

لابنته « فانهمرت من عيونهما فى تلك الساعة دموع الفرح وغنى هو حزناً على عبث الملك وبلاهته »[1] .

وبهذه الأقوال الغريبة والأغانى الكثيرة القصيرة كان هذا المهرج المرح الشريف يفرغ كل ما فى قلبه من الاستهزاء واللوم الشديد الذى كان يحز فى القلوب ؛ ولم يكن يخشى أن يفعل ذلك فى حضرة جنرل نفسها ، فقد كان مثلا يشبه الملك بالعصفور الذى أخذ يطعم صغار الغراب ، فلما كبرت الصغار جزت العصفور على حسن صنعه بقطع رقبته ؛ وذكر له مرة أن الحمار قد يعرف متى تجر المركبة الحصان (يعنى بذلك أن ابنتى لير اللتين كان عليهما أن تسيرا خلف أبيهما تتقدمان عليه الآن) . وقال مرة أخرى إن لير لم يبق هو لير ، بل أصبح خيال لير . وقد توعده الملك مرة أو مرتين أن يجزيه على هذه الجرأة بالضرب .

ولم يكن الفتور وذهاب الهيبة اللتان أخذ لير يشاهدهما فى كل وقت كل ما قدر لهذا الأب المحب الأخرق أن يلاقيه من ابنته الجاحدة ، فقد أخبرته بصريح العبارة أن مقامه فى قصرها يضايقها ما دام يصر على الاحتفاظ بحاشيته الكبيرة المؤلفة من مائة فارس عديمى النفع كثيرى الكلفة ، ولا عمل لهم إلا أن يملأوا القصر بصخبهم وسوء سلوكهم ، ثم طلبت إليه أن ينقص عددهم وألا يبقى حوله إلا نفراً من أمثاله الشيوخ الذين يليقون بسنه .

ولم يصدق لير أول الأمر ما كان يرى ويسمع ، بل كان يشك فى أن إبنته هى التى تخاطبه بهذه اللهجة القاسية ، لأنه لم يك يعتقد أن هذه الابنة التى وهب لها التاج تعمل على إنقاص حاشيته ، وتستكثر عليه أن ينال من الإحترام ما هو خليق بشيخوخته ؛ ولكنها حين شاقّت أباها وأصرت على طلبها ، اهتاج الشيخ وقال إنها حدأة ممقوتة ، وإن ما اتهمت به فرسانه كذب صريح . والحق أنها كانت فى ذلك كاذبة ، لأن فرسانه المائة كانوا كلهم من صفوة الناس ذوى العفة والأخلاق الكريمة ، لا يخفى عليهم شىء من آداب اللياقة ، ولا يميلون إلى الصخب وسوء السلوك كما تقول . ثم أمر لير أن تسرج له الخيل ليذهب هو وفرسانه المائة إلى

---

(١) من كلام المهرج .

ابنته الثانية ريجان Regan ، وأخذ يصف الجحود ويقول إنه شيطان قُدَّ قلبه من الصخر ، وإنه أبشع ما يكون منظراً فى الأبناء ، وشرع يستنزل على ابنته الكبرى من اللعنات ما تستك منه المسامع ، ودعا عليها أن تبقى عقيما محرومة من الأبناء ، فإذا رزقت البنين عاشت حتى تلقى على أيديهم من الاحتقار والاستهزاء ما لقى أبوها على يديها ، حتى تعلم أن جحود الأبناء أحد من أسنان الأفعى .

ولما أراد دوق ألبنى زوج جنرل أن يبرئ نفسه مما عساه أن يتهمه به لير من الاشتراك فى هذه القسوة ، لم يعره لير سمعه ، بل أمر وهو فى شدة الغيظ أن تسرج خيله ، وخرج من فوره هو وأتباعه إلى قصر ابنته الثانية ريجان . وبدأ لير يستصغر ذنب كرديليا (إن كان ما فعلته ذنباً) ، إذا قيس بما ارتكبته أختها ، وتحدرت الدموع من عينيه ؛ ولكنه عاد إلى نفسه وعز عليه أن يكون لفتاة مثل جنرل من القوة ما تتغلب به على رجولته ، وتستنزل الدمع من عينيه .

وكانت ريجان وزوجها يعيشان فى قصرهما عيشة راضية منعمة ، وأرسل لير مع خادمه كيس Caius رسائل إلى ابنته ينبئها بقدومه لتستعد لاستقباله ، وسافر هو وحاشيته فى أثره . ولكن يلوح أن جنرل قد سبقته إلى العمل ، فأرسلت هى الأخرى رسائل إلى ريجان تتهم فيها والدها بالعناد وسوء الخلق ، وتنصحها ألا تقبل الحاشية الكبيرة التى سيأتى بها معه . ووصل هذا الرسول فى نفس الوقت الذى وصل فيه كيس ، والتقى الرسولان ؛ ومن أغرب المصادفات أن يكون رسول جنرل هو عدو كيس القديم أستاذ الدار الذى عرقبه كيس حين أساء الأدب إلى لير . واستاء كيس من نظرة الرجل إليه ، وحذِر الغرض الذى جاء من أجله ، فأخذ يكيل له السباب ، ودعاه إلى المبارزة ؛ فلما رفض الدعوة ثار كيس عليه ثورة شريفة ، وانهال عليه ضرباً موجعاً جزاء له على جبنه وسوء فعله وما يحمله من رسائل . وسمعت ذلك ريجان وزوجها فأمرت أن توضع رجلاه فى المقطرة مع علمها أنه رسول أبيها الملك ، وأنه من أجل ذلك يستحق كل إكرام . وبذلك كان أول ما وقعت عليه عين الملك حين دخل القصر هو خادمه الأمين كيس جالساً هذه الجلسة المزرية .

وكان هذا نذيراً من أسوأ النذر بما سيلقاه هو من المعاملة ؛ ثم أعقبه نذير آخر أبلغ منه فى الدلالة حين سأل عن ابنته وزوجها ، فقيل له إنهما متعبان من سفرهما طول الليل ، وإنهما لا يستطيعان أن يقابلاه ؛ ولما أصر وهو مغضب حانق على أن يراهما وجاءا آخر الأمر إليه دهش أعظم دهشة حين رأى معهما جنرل ، وقد جاءت لتقص بنفسها قصتها ، وتثير غضب أختها على أبيها الملك !

وآلم ذلك المنظر قلب الشيخ وأغص طرفه ، وزاد ألمه حين رأى ريجان تأخذ بيدها ، فسأل جنرل ألا تستحى أن تنظر بعينها إلى لحيته البيضاء ؟ فنصحته ريجان أن يعود مع جنرال إلى قصرها وأن يعيش معها فى سلام ، بعد أن يخرج من خدمته نصف حاشية ، وأن يعتذر إليها عما فرط منه ، وذلك لأنه شيخ تنقصه الحكمة ، ولأن من واجبه أن يخضع لمن هم أنفذ منه بصيرة ويسلمهم زمامه . وقال لير إن أبعد الأشياء عن العقل أن يخر على ركبتيه ويستجدى ابنته الطعام واللباس ؛ وعارض فى هذا الخضوع المقلوب ، وأعلن أنه مصمم على ألا يعود معها ، وعلى أنه اعتزم أن يبقى هو وفرسانه المائة مع ريجان ، لأنها فى رأيه لم تنس بعد نصف ملكه الذى وهبه لها ، ولأن عينيها لا تشعان القسوة والبغضاء كما تشعهما عينا جنرل ، بل تبدوان أحن عليه وأشفق . وأضاف إلى ذلك قوله إنه لا يستطيع أن يعود إلى جنرل بعد أن يسرح نصف حاشيته ، وإن أفضل من ذلك لديه أن يذهب إلى فرنسا ويطلب إلى ملكها معاشاً له من ماله وإن كان قد تزوج ابنته الصغرى من غير مهر .

ولكن الملك أخطأ حين قدر أن ريجان ستكون أشفق عليه من جنرل وأحسن منها معاملة ، وكأنما أرادت هاتين الابنتين أن تبز كلتاهما أختها فى سوء مسلكها مع أبيها ، فأعلنت ريجان أنها تستكثر عليه خمسين فارساً ، وأنه يكفيه منهم خمسة وعشرون . فكاد لير يصعق من هول ماسمع والتفت إلى جنرل وقال إنه سيعود معها لأن خمسين تبلغ ضعفى خمسة وعشرين ، وعلى هذا الحساب فإن حبها يعدل ضعفى حب ريجان . ولكن جنرل اعتذرت عن عدم قبوله ، وقالت « وما حاجتك إلى خمسة

وعشرين بل إلى عشرة أو خمسة وفى وسع خدمى أو خدم أختى أن يقضوا حوائجك ؟ » وكأن كلتا البنتين العاقتين كانت تنافس أختها فى القسوة على والدهما الشيخ الذى أحسن إليهما ، وتعمل على طرد حاشيته كلها شيئاً فشيئاً ، لتسلبه بذلك كل ما بقى له من مظاهر الاحترام التى تذكر الناس بأنه كان فى وقت ما ملكاً متوجاً ؛ وما أقل هذه المظاهر على رجل كان بالأمس صاحب الأمر والنهى فى مملكة واسعة . نعم إن الحاشية الكبيرة ليست من مستلزمات السعادة ، ولكن الانتقال من أبهة الملك إلى ذلة العدم ، ومن السلطان على ملايين الخلق إلى الافتقار إلى فرد واحد من الأتباع ، أمر صعب على النفس موجع لها . ولم يكن الشىء الذى آلم قلب هذا الملك البائس وأخشع طرفه ما سوف يعانيه بعد طرد حاشيته ، بل كان جحود ابنتيه العاقتين وقسوتهما . وكان من أثر هذه القسوة وأسفه على سفاهته وحمقه ونزوله عن ملكه ، كان من أثر هذا كله أن اختلت موازين عقله ، وأقسم أنه وإن لم يدر الآن ما سوف يفعل ، سينتقم من ابنتيه السليطتين العاقتين انتقاماً تروع له الدنيا بأجمعها .

وبينا كان هذا الشيخ الضعيف يهدد ابنته بما لا يقوى على فعله ، أقبل الليل وعصفت بالبلاد عاصفة هوجاء فيها رعد وبرق ومطر ، وأصرت ابنتاه على ألا تسمحا لأحد من رجاله بالبقاء معه ، فطلب خيله وآثر أن يلقى الريح العاتية فى العراء على أن يظله هو وابنتيه الجاحدتين سقف واحد . وقالت ابنتاه إن ما يجلبه المتمنتون من الأذى على أنفسهم هو الجزاء الحق لهم على عنادهم ، وتركتاه يخرج على هذه الحال وغلقتا دونه الأبواب . واشتد عصف الرياح وزاد هطول الأمطار حين خرج الشيخ ليكافح عناصر الطبيعة الغاضبة ، ولكنه كان يراها أرحم من ابنتيه . ولم يكن فى الأرض التى حوله على مدى عدة أميال منه عشب يتقى به غضب الطبيعة ، فأخذ يضرب فى القفار المحيطة به ، معرضاً جسمه الهزيل للعاصفة الهوجاء ، يتحدى الرياح والرعد والبرق فى هذا الليل البهيم . ثم أمر الريح أن تعصف حتى تكتسح الأرض وتلقيها فى اليم ، أو تقذف الأرض بأمواج البحر حتى تغرقها ولا يبقى عليها أثر للانسان ذلك الحيوان الكنود . ولم يبق مع الملك وقتئذ

من الرفاق إلا المهرج المسكين الذى ظل فى صحبته يحاول أن يخفف بفكاهته المرحة ما يحيط به من بؤس وشقاء ، كقوله إن تلك الليلة المشئومة لا يمكن السباحة فيها ، وإن خير ما يفعل الملك أن يعود إلى ابنتيه ويطلب إليهما أن تدعوا له بالخير ، وإن من كان فى رأسه شىء من العقل وشاهد عصف الريح وهطول المطر فعليه أن يرضى بما قسم له وإن ظل المطر يهطل عليه فى كل يوم ، وأقسم المهرج أن تلك الليلة من أصلح الليالى لكسر زهو السيدات .

وعلى هذه الحال من قلة الرفاق عثر على هذا الرجل البائس ، الذى كان من قبل ملكا عظيما ، خادمُه الأمين إيرل كنت الكريم الذى تسمى الآن باسم كيس والذى أبى أن يفارق الملك ، وإن كان الملك لم يعرف أنه إيرل كنت . فلما تلاقيا قال له الإيرل « أسفى عليك يا مولاى ! ! أأنت هنا والخلائق التى تحب الليل تكره أمثال هذه الليالى ؟ إن هذه العاصفة الهوجاء قد دفعت الوحوش إلى مساكنها ، وإن فطرة الإنسان لأضعف من أن تحتمل هذا العذاب وهذا الهول » . ولامه لير على ذلك وقال له إن الذى يشكو الداء الوبيل لا يشعر بما هو أقل منه إيلاماً لجسمه ، وإن البدن لا يجد متسعاً من الوقت يحس فيه ويتأثر إلا إذا كان العقل هادئاً مطمئناً ، وإن العاصفة التى تعْصف بقلبه قد سلبت حواسه كل شعورها ، إلا ذلك الشعور الذى يضطرم فى قلبه ، وأخذ يتحدث عن عقوق الأبناء ، وقال إنه أشبه بالفم يمزق اليد التى ترفع إليه الطعام ، لأن الآباء كالأيدى والطعام وكل شىء للأبناء .

لكن كيس الطيب القلب ظل يلح على الملك ألا يبقى فى العراء ، وما زال به حتى أقنعه بالدخول فى كوخ صغير قائم فى تلك البقعة الموحشة . ودخله المهرج أولا ولكنه عاد من فوره وهو يرتعد فرقا ويقول إنه وجد عفريتاً ، فلما استطلعوا جلية الأمر تبين لهم أن العفريت المزعوم ليس إلا متسولا مسكينا من بدلم Bedlam آوى إلى هذا الخص المهجور ليتقى به العاصفة ، وأخاف المهرج بحديثه عن الشياطين ؛ وهو واحد من أولئك الفقراء المجانين أو الذين يتصنعون الجنون ليستدروا بذلك العطف والصدقات من أبناء الريف ؛ وهو يسمون أنفسهم تم

Tom المسكين وتر لى جود Turlygood المسكين ويطوفون القرى ينادون « ألا من يحسن لتم المسكين » ويغرسون فى أذرعهم الدبابيس والمسامير والشوك ليزف منها الدم . وبهذه الفعال المخيفة ، وبالدعوات تارة وباللعنات الجنونية تارة أخرى ، يستدرون عطف أهل الريف السذج ، أو يقذفون الرعب فى قلوبهم ، فيتصدقون عليهم . كان هذا الرجل المسكين من أولئك القوم ورآه الملك على هذه الحال من البؤس والشقاء ، لايستر جسمه إلا قطعة من غطاء حول وسطه ، فأيقن أن هذا الشخص التعس أب وهب لبناته كل ما ملك ، فأورد نفسه هذا المورد ، وكان الملك يظن أن الإنسان لاتنزل به مثل هذه المصائب إلا إذا كانت له بنات جاحدات .

واتضح لكيس الرحيم من هذه الأقوال الغريبة وأمثالها أن الملك قد جُن ، وأن سوء المعاملة التى لقيها من إبنتيه قد ذهب بعقله حقاً . وظهر عندئذ ولاء إيرل كنت العظيم فيما أدى لمليكه من خدمات جليلة تفوق كل ما استطاع من قبل أن يؤديه له ، فقد استعان وقتئذ بجماعة من أتباع الملك الذين ظلوا على ولائهم له فنقله عند مطلع فجر اليوم التالى إلى قصر دوڤر Dover ، وكان له فى هذا المكان بوصفه إيرل كنت كثير من النفوذ وعدد عظيم من الأصدقاء . ثم سافر بعد ذلك إلى فرنسا ، وأسرع إلى بلاط كردليا ووصف لها حال أبيها الملك وصفاً مثيراً ، وأنبأها بما لقيه من أختيها من القسوة وسوء الفعال ، فقامت من فورها إلى زوجها الملك والدمع يفيض من عينيها ، وطلبت إليه أن يأذن لها بالذهاب إلى إنجلترا ومعها حملة قوية لتخضع بها أختيها الجاحدتين وزوجيهما ، وترجع أباها الملك إلى عرشه . ولما أذن لها بذلك سارت على رأس الجيش حتى نزلت عند دوڤر .

واستطاع لير أن يفلت من الحراس الذين وضعهم عليه إيرل كنت ليعنوا به فى جنته ، وأخذ يجوس خلال الحقول القريبة من دوڤر وهو فى حال من البؤس يرثى لها ، فقد ذهب عقله وشرع يغنى لنفسه بصوت عال ، وعلى رأسه تاج من القش والحسك وغيرهما من الأعشاب البرية ، جمعها من مزارع القمح فى تلك

الأنحاء ، ووجده بعض أتباع كردليا على هذه الحال . وكانت كردليا شديدة الرغبة فى رؤية أبيها ولكن الأطباء أشاروا عليها بأن تؤجل لقاءها به حتى تهدأ سورته بتأثير النوم وفعل الأعشاب البرية ؛ وما لبث الملك أن أصبح فى حالة تمكنه من رؤية ابنته ، وذلك بفضل هؤلاء الأطباء المهرة الذين وعدتهم كردليا بكل ما لديها من ذهب وجواهر إذا استطاعو أن يردوا إلى الملك الشيخ عقله .

وكان منظراً مؤلماً حقاً منظر لقاء الأب وابنته ، منظر الكفاح القائم بين سرور الملك الشيخ المسكين برؤية ابنته العزيزة مرة أخرى ، وخجله مما تحيطه به من شفقة وحب بنوى ، وهو الذى نبذها لذنب صغير ظن فى ساعة من ساعات غضبه أنها ارتكبته . وكانت هاتان العاطفتان مجتمعتين تصطرعان مع بقايا مرضه الذى كان ينتاب عقله العليل من حين إلى حين ، فلا يذكر أين هو أو من هو ذلك الشخص الحنون الذى يقبّله ويتحدث إليه ؛ ثم يعود فيرجو ممن معه ألا يسخروا منه إذا كان مخطئاً فى ظنه أن هذه السيدة هى ابنته كردليا . ثم يجثو الشيخ على ركبتيه ليعتذر لابنته عن فعلته ؛ وهذه الفتاة الطيبة راكعة طوال الوقت تطلب إليه أن يدعو لها بخير ، وتقول له إنه لايليق به أن يركع لأن الركوع واجب عليها ، فهى ابنته كردليا ما فى ذلك شك . ثم تقبله لتمحو بقبلاتها ، على حد قولها ، عقوق أختيها ؛ وتقول إنهما ستشعران بالخزى حين تذكران أنهما قد أخرجتا أباهما الشيخ الرحيم ذا اللحية البيضاء من دارهما ونبذتاه فى العراء ؛ ولو أنها هى قد عضها كلب عدو لها لآوته فى مثل تلك الليلة بجوار موقدها لتدفئته . ثم ذكرت لأبيها أنها أقبلت من فرنسا لتقدم له العون ، وقال هو لها إن عليها أن تنسى وتعفو لأنه شيخ مأفون لا يدرى ما يفعل ، وكل ما يعلمه علم اليقين أن من حقها ألا تحبه ، أما أختاها فلا تجدان ما يبرر بغضهما له ، وأجابته كردليا بقولها إنها ليس لديها سبب يدعو إلى بغضه ، فهى وأختاها فى ذلك سواء .

ولندع الآن هذا الشيخ فى حماية ابنته المحبة البارة التى استعانت هى وأطباؤها بالنوم والدواء حتى استطاعت آخر الأمر أن تعيد إلى حواسه الهدوء والانسجام

بعد أن اضطربت وساءت حالها من فعال ابنتيه وقسوتهما . لندع الآن هذا الملك الشيخ لنقول كلمة أو اثنتين عن ابنتيه العاقتين .

إن هاتين الابنتين اللتين يتمثل فيهما الجحود بكل ما فيه من فظاعة لم يكن ينتظر منهما أن تكونا وفيتين لزوجيهما بعد أن خانتا أباهما ؛ وسرعان ما ملت كلتاهما حتى مظاهر الحب والاحترام التى كانت تتظاهر بها لزوجها ، وأظهرت علناً أنها تحب غير هذا الزوج . واتفق أن كان هذا الحب الإجرامى لشخص واحد يدعى إدمند Edmund وهو ابن غير شرعى لإيرل جلستر السابق ، وقد أفلح بدسائسه ومكائده فى انتزاع الإرث من أخيه إدجر Edgar الوارث الشرعى ، فأصبح هو إيرل جلستر . وكان بما انطوت عليه نفسه من خبث وخسة أجدر الناس بحب جنرل وريجان الخبيثين الدنيئتين . وحدث أن توفى فى ذلك الوقت دوق كورنوول زوج ريجان فأعلنت من فورها عزمها على أن تتزوج بإيرل جلستر ، وأثار ذلك غيرة جنرل التى كان هذا الرجل الخبيث قد تظاهر بحبها مراراً كما تظاهر بحب أختها . واستطاعت جنرل أن تتخلص بالسم من شقيقتها ، ولكن أمرها افتضح فزجها زوجها دوق ألبنى فى السجن جزاء لها على جرمها وخيانتها له بحبها إيرل جلستر ، وكان قد بلغ نبأ هذا الحب مسامعه . وانتابتها بسبب خيبتها فى حبها وافتضاح أمرها نوبة من الغضب قضت بيدها فى أثنائها على حياتها ، وهكذا نفذت فى الاثنتين عدالة فى السماء .

وبينا عيون الناس كلهم تتطلع إلى هذا الحادث وتعجب بالعدالة التى تجلت فى هذه الخاتمة الخليقة بهما وبسوء فعالها ، إذا بهذه الأعين تتحول فجأة من هذا المنظر لترى فى دهشة وحيرة ما وقع لكردليا الفتاة الطاهرة النقية التى كانت فضائلها جديرة بخير من خاتمتها المحزنة . ولكن من الحقائق المروعة أن الطهر والتقوى لا تنالان الخير فى هذا العالم على الدوام ، فلقد انتصرت الجيوش التى سيرتها جنرل وريجان بقيادة إيرل جلستر الخبيث ، وقضت كردليا حياتها فى السجن بتدبير هذا الرجل الشرير الذى لم يكن يريد أن يحول شىء بينه وبين العرش الذى يطمع فيه ، وصعدت روح هذه الفتاة الطاهرة إلى السماء وهى فى

عنفوان شبابها ، بعد أن رأى فيها العالم أروع مثل من طاعة الأبناء وحبهم آباءهم ، ولم تطل حياة لير بعدها كثيرا .

وظل الرجل الكريم إيرل كنت فى خدمة مولاه الملك لم يفارقه من يوم أن أساءت إليه ابنتاه حتى قضى نحبه ، وحاول فى آخر ساعاته أن يدله على أنه هو نفسه خادمه الأمين كيس الذى لازمه فى أيام محنته ، ولكن لير لم يستطع لخباله أن يدرك كيف يكون كنت وكيس شخصاً واحداً ، ولذلك رأى كنت أن من العبث أن يثقل عليه فى ذلك الوقت بمثل هذه الأقوال . فلما قضى لير نحبه أثر الحزن فى نفس هذا الشيخ الهرم فلم يعش بعد مولاه إلا قليلا .

ولا حاجة بنا إلى أن نقص على القارئ كيف نفذت العدالة الإلهية حكمها فى إيرل جلستر الغادر ، بعد أن افتضح أمره وعرفت خيانته ، فقتله أخوه الإيرل الشرعى فى البراز بيده ، وكيف اعتلى عرش إنجلترا بعد موت لير دوق ألبنى زوج جنرل الذى لم تكن له يد فى موت كرديليا ، والذى لم يشجع قط زوجته فى قسوتها على أبيها ، لا حاجة بنا إلى أن نقص هذا كله على القارئ لأن الذى يهمنا فى هذه الصحف هو أخبار لير وبناته ، وقد مات لير وماتت بناته .

مكبث

فى الوقت الذى كان فيه دنكن Duncan الوديع ملكا على اسكتلندة كان يعيش فى تلك البلاد عظيم من النبلاء يدعى مكبث Macbeth . وكان هذا النبيل من أقارب الملك ، وكانت له فى بلاطه مكانة عظيمة كسبها بشجاعته وبأسه فى الحروب ، وكان آخر ما أظهره من ضروب الشجاعة عندما هزم جيشاً لَجِباً من العصاة يساعده جنود من بلاد النرويج .

وكان طريق القائدين الاسكتلنديين مكبث وبنكو Banquo وهما عائدان ظافرين من هذه الحرب العوان يمر بفلاة جرداء ؛ وبينما هما سائران فيها إذ اعترضتهم ثلاثة أشباح شبيهة بالنساء ، غير أنهن ذوات لحى ، وكانت لهن جلود ذابلة متغضنة وملابس غريبة ، فكن لذلك بعيدات الشبه عن الخلائق الآدمية . وخاطبهن مكبث أولا فأظهرن استياءهن من خطابه ، ووضعت كل واحدة منهن إصبعها المشققة على شفتها الذابلة طالبة إليه السكوت .

وحيت أولاهن مكبث وناداته باسم شريف جلامس Glamis ؛ ودهش القائد أيما دهشة حين رأى هذه المخلوقات تناديه باسمه ، فلما أن زادت الثانية على تحية أختها بأن سمته شريف كودر Cawdor بلغ عجبه غايته لأنه لم يكن له فى هذا اللقب الثانى مطمع . ثم تقدمت الثالثة وحيته بقولها : « مرحباً بملك المستقبل » وكانت هذه النبوءة خليقة أن تحير هذا القائد الذى لم يكن له أمل فى الجلوس على العرش ما دام للملك أبناء من صلبه . ثم التفتت هذه المخلوقات إلى بنكو وقلن له ملغزات فى كلامهن إنه أقل من مكبث وأعظم ، وأشقى منه وأسعد ، وتنبأن له بأن أبناءه سيكونون ملوكا على اسكتلندة وإن لم يجلس هو على عرشها ، ثم استحلن هواء واختفين عن الأنظار ؛ وعرف القائدان وقتئذ أنهن ساحرات .

ووقف القائدان يفكران فى هذا الحادث العجيب ، وإذا برسل قادمين من عند الملك ، وقد عهد إليهم أن يخلعوا على مكبث لقب شريف كودر . ودهش

مكبث إذ رأى هذا الحادث يؤيد تأييداً عجيباً ما تنبأت به الساحرات ، فوقف كالمكسور فى ذرعه لا يحير جواباً . وفى هذه اللحظة عينها أخذت الآمال تجيش فى صدره ، وبدأ يرجو أن تتحقق أيضاً نبوءة الساحرة الثالثة ، فيجلس على عرش اسكتلندة يوماً من الأيام .

ثم التفت إلى بنكو وقال له : «ألست ترجو أن يمسى أبناؤك ملوكا ، وقد تحقق ما وعدتنى به الساحرات على هذا النحو العجيب ؟» . فأجابه القائد : « إن هذا الأمل قد يغريك بالتطلع إلى العرش ، ولكن هاتيك الساحرات رسل الظلام كثيراً ما يصدقننا فى الصغائر ليدفعننا إلى أعمال عظيمة الخطر وخيمة العواقب » .

غير أن ما وسوست به الساحرات الخبيثات قد استولى على عقل مكبث وملك عليه تفكيره ، فأصم أذنيه عن سماع نصيحة بنكو الأمين وتحذيره ، وأخذ من ذلك الحين لا يفكر إلا فى السبيل التى توصله إلى عرش اسكتلندة .

وكان لمكبث زوجة أسر إليها نبوءة الساحرات العجيبة وما تحقق منها ؛ وكانت هذه الزوجة شريرة طموحة لا تبالى إذا ما وصلت هى زوجها إلى العظمة أى السبيل تسلكانها إليها ، فأخذت تحرض مكبث وتغريه ، ولكن مكبث ظل متردداً لأنه كان يشعر بوخز الضمير حين يتمثل له منظر الدم المراق ؛ أما هى فظلت تردد على مسامعه قولها إن قتل الملك أمر لا بد منه لتحقيق النبوءة .

وكان من عادة الملك أن يزور كبار رجال دولته إظهاراً لتواضعه وعطفه عليهم ؛ واتفق أن جاء فى ذلك الوقت يحف به ولداه ملكلم Malcolm ودنلبين Donalbain وحاشية كبيرة من النبلاء والأتباع مبالغة منه فى تكريم مكبث جزاء ما ناله من نصر فى الحروب .

وكان قصر مكبث Macbeth ذا موقع جميل ، وكان الهواء من حوله منعشاً لطيفاً كما تدل على ذلك كثرة الأوكار التى بناها طير السنونو فى طنف القصر وأسانيده البارزة وفى كل مكان صالح لبنائها ؛ وقد شوهد أن الهواء يكون على الدوام منعشاً لطيفاً حيث تبنى هذه الطيور أوكارها . ودخل الملك القصر مسروراً معجباً به وبما لقيه من ربة الدار السيدة مكبث من عناية وتعظيم ؛ وكانت هذه

السيدة بارعة فى إخفاء ما تنتويه من غدر وراء ستار من البسمات اللطيفة ، كما كان فى مقدورها أن تظهر كالزهرة البريئة ومن تحتها الأفعى السامة المميتة .

وكان الملك متعباً من مشاق السفر ، فآوى إلى فراشه فى أوائل الليل ، وأعدت له حجرة فخمة نام فيها ، ونام بالقرب منه رجلان من خاصة حاشيته كما كانت عادة الملوك فى تلك الأيام .

وكان قد سره حسن استقباله فأنعم قبل أن يأوى إلى فراشه بعدد من الهدايا على كبار ضباطه ، وكانت السيدة مكبث ممن تمتعوا بعطفه ، فقد بعث إليها بماسة غالية ولقبها باسم أكرم مضيفة له .

وانتصف الليل وخيم على نصف الكون سكون شامل كأنه الموت ، وبدأت تنتاب عقول النائمين أحلام خبيثة ، وخلا الفضاء إلا من الذئاب والقتلة . وفى ذلك الوقت استيقظت السيدة مكبث لتأتمر بالملك وتدبر قتله ؛ وما كانت هى لتقدم على هذا الجرم الشنيع الذى يتنافى مع أنوثتها لولا أنها كانت لا تثق بطبع زوجها ، فقد كانت تعرف أن فيه من الرحمة الإنسانية ما يمنعه من الإقدام على القتل غيلة . لقد كانت تعرف أنه طموح ، ولكنها كانت تعرف أنه حى الضمير لم يعد نفسه بعد إلى ارتكاب هذا الجرم الشنيع الذى يلازم الطموح المفرط . وكان قد وافقها على ارتكاب الجرم ، ولكنها كانت غير مطمئنة إلى صدق عزيمته ، وتخشى أن تحول رقة قلبه بينه وبين غرضه ، ومن عجب أن يكون هو أرأف منها وأرحم . ولذلك أقبلت نحو سرير الملك والخنجر فى يدها ، وكانت قد حرصت على أن تسكر خادميه بالنبيذ ، فناما لا يعيان شيئاً ، وأهملا ما عليهما من واجب . وكان دنكن غارقاً فى نومه على أثر ما عاناه من مشاق السفر ، وتأملت وجهه وهو نائم فرأته شبيهاً بعض الشبه بوجه أبيها ، ولم تجد فى قلبها من الجرأة ما يمكنها من الإقدام على تنفيذ إرادتها .

فعادت لكى تشاور زوجها ، فوجدت عزيمته قد أخذت تخور ، وظهر له من الأسباب القوية ما يمنعه من الإقدام على هذا العمل . فلم يكن هو من رعايا الملك فحسب ، بل كان أيضاً من أقاربه الأقربين ؛ والملك فى ذلك اليوم ضيف مقيم فى

داره ، ومن حق الضيف على مضيفه أن يدفع عنه من يريد قتله لا أن يأخذ السكين بيده ليقتله ؛ ثم تذكر أن دنكن ملك عادل رحيم لم يسئ قط إلى شعبه ، محب لأعيان أمته وبخاصة له هو نفسه ، وأن العناية الإلهية تحرس أمثاله من الملوك ؛ وأن من أوجب الواجبات على رعاياهم أن يثأروا لمقتلهم ؛ يضاف إلى هذا كله أن لمكبث منزلة عالية فى نفوس طوائف الشعب بأجمعها لما بينه وبين الملك من قرابة وما له عنده من مكانة ، فكيف يليق به أن يدنس هذا الشرف بذلك الغدر الذميم ؟

وأقبلت السيدة مكبث فوجدت هذه العوامل تتنازع عقل زوجها ، ورأته أميل إلى الخير ، معتزماً أن يقف عند هذا الحد ، وكانت هى من النساء اللاتى لا ينثنين بسهولة عما يعتزمنه من فعل الشر ، فبدأت تلقى على مسامعه من الألفاظ ما أثر فى نفسه وأوحى إليه بشىء من روحها ؛ وأخذت تنتحل له من الأسباب مايوجب عليه عدم النكوص عن عزمه ، فالعمل سهل لا صعوبة فيه يتم فى طرفه عين ، يفرغ منه فى ليلة واحدة قصيرة ، ولكنه يضع فى أيديهما أزمة الملك والسلطان طوال لياليهما وأيامهما المقبلة ؛ ثم شرعت تستهزئ بتردده وتتهمه بالتذبذب وخور العزيمة ، وقالت إنها قد أرضعت من ثديها أبناء ، وإنها تعرف ما ينطوى عليه قلب الأم من حب لطفلها الذى أرضعته ، ولكنها لا تتردد فى أن تنتزع هذا الطفل من صدرها وهو يبسم فى وجهها وتقتله بيدها إذا كانت قد أقسمت أن تفعل هذا من قبل كما أقسم هوأن يقتل دنكن . وأضافت إلى ذلك أن من السهل أن تعزى الجريمة إلى الخادمين النائمين فى مخدع الملك . وما زالت به تقلبه بين الذروة والغارب حتى أزالت خور عزيمته ، فاستجمع قواه استعداداً لتنفيذ جرمه الشنيع ، وأخذ الخنجر بيده وتسلل إلى الحجرة الظلماء التى ينام فيها دنكن . وخيل إليه وهو سائر فى طريقه أنه يرى فى الهواء خنجراً آخر ويده متجهة نحوه ، وعلى يده وفى طرفه نقط من الدماء ؛ ولما حاول أن يقبض عليه بيده لم يجده شيئاً ولم يمسك إلا بالهواء ، لأن الخنجر لم يكن إلا صورة موهومة صورها له مخه المستعر المثقل ، والعمل الذى كان مقدماً عليه .

ثم سكن روعه وتقدم نحو الملك وقضى عليه بطعنة واحدة من خنجره ؛ وفى الساعة التى كان يطعن فيها دنكن بخنجره ضحك أحد الخادمين النائمين فى مخدع الملك وهو مستغرق فى نومه ، وصاح الآخر قائلا «قتل» فاستيقظ كلاهما ولكنهما لم يزيدا على أن تليا دعاء قصيراً ، فقال أحدهما « اللهم بارك لنا » وقال الآخر « آمين» ، ثم غشيهما النعاس مرة أخرى . ووقف مكبث يستمع إليهما ، وحاول أن يؤمن على دعاء أولهما حين قال « اللهم بارك لنا » ، ولكن اللفظ لم يطاوعه فلم يستطع إخراجه ، وإن كان فى شدة الحاجة إلى طلب البركة من الله . ثم خيل إليه أنه سمع صوتاً يناديه : « لاتنم بعد الآن . إن مكبث يقتل النوم ، النوم الهادئ البرىء الذى يعين على الحياة » ، وظل الصوت يردد فى جميع نواحى الدار « لاتنم بعد الآن لقد قتل جلامس الموت ، ولن ينام كودر بعد الآن ، ولن ينام مكبث بعد الآن » .

وعاد مكبث إلى زوجته تنتابه هذه الخيالات المروعة ، وقد بدأت تظن أنه عجز عن تنفيذ عزمه ، وأن شيئاً قد حال بينه وبين قصده ؛ وأقبل عليها فى حال من الرعب لا توصف ، فأخذت تؤنبه على ضعفه ، وأرسلته ليغسل الدم الذى كان يلوث يديه ، وأخذت منه الخنجر لتلطخ بدمه خدود الخادمين حتى يستطاع إلصاق التهمة بهما .

وأصبح الصباح وكشفت الجريمة ، ولم يكن من المستطاع إخفاؤها . وتظاهر مكبث وزوجته بالحزن الشديد ، وكانت الأدلة قوية على الخادمين ، فقد كان الخنجر شاهداً عليهما ، وكان وجه كليهما ملوثاً بالدماء ؛ لكن الظنون كلها كانت تحوم حول مكبث لأن هناك مغريات تدفعه إلى هذا العمل أقوى مما تدفع الخادمين البائسين ، اللذين لا ينالان من وراء هذا الجرم شيئاً . وفر ولدا دنكن فى تلك الساعة ، فلجأ ملكم أكبرهما سنا إلى بلاط إنجلترا ، وفر أصغرهما دنلبين إلى إيرلنده .

ولما خلا العرش بفرار ابنى دنكن اللذين كانت لهما ولاية الملك بعد أبيهما آل الملك لمكبث ، فتوج وتحققت نبوءة الساحرات برمتها ؛ وبلغ مكبث وزوجته

ما كانا يبغيان من مرتبة سامية ، ولكنهما لم ينسيا نبوءة الساحرات التى قلن فيها إن مكبث سيصبح ملكا ولكن أبناءه لن يكونوا ملوكا ، بل سيلبس التاج من بعده أبناء بنكو . وأخذا يفكران فى هذا وفى أنهما قد لطخا أيديهما بالدماء ، وارتكبا ما ارتكبا من الجرائم الشنعاء ، لكى يجلسا على العرش أبناء بنكو ، فأورثهما هذا التفكير غِلاً ما زال يغلى فى صدريهما حتى اعتزما أن يقتلا بنكو وولده ليبطلا نبوءة الساحرات التى تحققت فى حالهما بقضها وقضيضها .

وأقاما لهذا الغرض وليمة كبرى دعيا إليها أكابر رجال الدولة بأجمعهم ، وكان ممن دعوه بنكو وابنه فلينس Fleance ، واختصا هذين الشريفين بأكبر قسط من الرعاية والإكرام . وأرصد مكبث القتلة على طول الطريق الذى كان بنكو سيسلكه إلى القصر ليلا ، وأفلح هؤلاء فى قتل بنكو ، ولكن ابنه فلينس استطاع أن ينجو بنفسه فى أثناء الهرج الذى ساد عقب مقتل أبيه ؛ ومن نسل هذا الابن تعاقب على عرش إسكتلندة عدة ملوك كان آخرهم چيمس السادس James VI ملك اسكتلندة وهو بعينه چيمس الأول James I ملك إنجلترا ، وفى عهده توحد تاج المملكتين .

وأظهرت الملكة فى أثناء العشاء من اللطف ودماثة الخلق وحميد الشيم والعناية بالمدعوين ما أرضى جميع الحاضرين ؛ وأخذ مكبث يسامر رجال الدولة ونبلاءها بحديثه الودى ، ويقول إن قصره قد حوى الآن كل ما هو عظيم ونبيل ، ولا ينقصه إلا صديقه الكريم بنكو . وزاد على ذلك أنه يرجو أن يلقاه فيلومه على تقصيره ، وألا يحزن على ضريبه . وما كاد يفرغ من قوله هذا حتى دخل الحجرة طيف بنكو الذى عمل على قتله ، وجلس الطيف على المقعد الذى أوشك مكبث أن يجلس عليه . وكان مكبث رجلا جريئاً رابط الجأش لا يرهب الشيطان نفسه ، ولكنه حين رأى هذا المنظر البشع امتقع لونه ووقف مبهوتاً خائر القوى يحدق ببصره فى الطيف . ولم تر الملكة ولا النبلاء شيئاً إلا الملك شاخصاً ببصره نحو المقعد الذى رأوه خالياً ، فظنوا أن مليكهم قد أصابته نوبة من الذهول ؛ وأخذت الملكة تؤنبه وتهمس فى أذنه قائلة له إن الذى أصابه هو نفس

الوهم الذى صور له الخنجر فى الهواء حين هَمَّ بقتل دنكن . ولكن مكبث ظل يرى الطيف أمامه ، ولم يعبأ بشىء من أقوالهم ، وأخذ يناديه بألفاظ مشوشة حائرة ولكنها عظيمة الدلالة . وخشيت الملكة أن يفتضح أمرها فبادرت من فورها إلى فض الوليمة ، وشيعت الأضياف معتذرة إليهم بأن مكبث قد أصابه اضطراب تعود أن ينتابه الفينة بعد الفينة .

وصارت هذه الرؤى المزعجة تنتاب مكبث حقاً ، فأصبح هو وزوجته عرضة للأحلام المروعة . ولم تكن دماء بنكو التى لوثا بها أيديهما أكثر إزعاجاً لهما من هرب ولده فلينس ، فقد رأيا فيه أباً لطائفة من الملوك سيحولون بين أبنائهما وبين العرش ؛ وأقلقت هذه الأفكار بالهما ونغصت عليهما حياتهما ، فجد مكبث فى طلب الأخوات الساحرات ليعرف منهن أسوأ ما يستطيع معرفته .

وذهب يطلبهن فى كهف فى الفلاة ، وعرفت الأخوات بسحرهن أنه آت إليهن ، فعكفن على إعداد رقاهن المرعبة يستحضرن بها الأرواح الجهنمية لتكشف لهن عما فى ذمة المستقبل . وكن يستخدمن لهذا الغرض خليطاً من الضفادع والوطاويط والأفاعى ، وعين ورل ولسان كلب وساق ضب وجناح بومة الليل وقشر تنين وسن ذئب ومعدة فرس البحر الملح النَّهِم وجيفة ساحرة وجذر نَبَات الشوكران السام (ولا يكون لهذا الجذر أثره إلا إذا اقتلع فى الظلام) ، ومرارة عنزة وكبد يهودى وقطعا من شجرة سرو نابتة فى القبور وإصبع طفل ميت . وقد جمعت هذه الأشياء كلها ووضعت على النار فى وعاء كبير ، وكلما اشتدت حرارتها بُرِّدت بدماء قرد ، وصب على هذا كله دم خنزيرة أكلت صغارها ، وألقى فى اللهب الدهن الذى يسيل من المشانق . هذه هى الرقى التى كن يرغمن بها الأرواح الجهنمية على الإجابة عن أسئلتهن .

وسئل مكبث هل يرغب فى أن يزلن شكوكه بأنفسهن ، أو أن يزيلها له سادتهن الأرواح . ولم يُرْعب الملك ما شاهده من مراسم مروعة ، فأجابهن فى غير وجل « وأين تلك الأرواح ؟ إنى أريد أن أراها » . فدعتها الساحرات وخرج إليه منها ثلاثة كان أولها فى صورة رأس مسلح ، ونادى مكبث باسمه ، وأمره أن يأخذ

حذره من شريف فيف Fife ؛ فشكر له مكبث هذه النصيحة ، لأنه كان فى خبيئة نفسه يخشى مكدف شريف فيف .

وظهر الروح الثانى فى صورة طفل مضرج بالدماء ، ونادى هو الآخر مكبث باسمه ، وأمره ألا يخشى شيئاً بل يضحك ويهزأ بقوة بنى الإنسان ، فلن يكون لابن أنثى قدرة على إيذائه . ثم نصح له أن يكون سفاحاً جريئاً ذا عزيمة ماضية . فلما سمعه الملك قال لنفسه « إذن فعش يا مكدف فلا حاجة لى بأن أخشاك ، ولكنى مع ذلك سأزيد المؤكد تأكيداً حتى أقول للخوف المنخوب القلب إنك كاذب ، وأنام رغم الرعود والبروق » .

ثم انصرف هذا الروح وظهر روح آخر فى صورة طفل على رأسه تاج وفى يده شجرة ، ونادى مكبث باسمه وأراح باله من عواقب المؤامرات ، وقال إنه لن يغلبه غالب حتى تسير عليه غابة برنم Birnam ، وتنتقل من موضعها إلى تل دنسبين Dunsibane . فصاح الملك من شدة الفرح « ما أحلى تلك النبوءات ، إنها لتبشر بالخير ؛ فمنذا الذى يستطيع أن يقتلع الغابة من أصولها الثابتة فى مغارسها ويحركها ؟ سأعيش إذن من الأيام بقدر ما يعيش الناس ولن يغتالنى مغتال ؛ ولكن قلبى يتحرق شوقاً لمعرفة شىء واحد ، هل فى مقدور سحر الساحرات أن ينبئنى أيحكم أبناء بنكو هذه المملكة ؟ » وفى هذه اللحظة ابتلعت الأرض الوعاء ، وسمعت نغمات موسيقية ، ومرت أمام بنكو ثمانية أطياف فى صورة الملوك ، ومن ورائهم بنكو وفى يده زجاجة تتراءى فيها أطياف أخرى كثيرة . فلما مر بنكو وهو مضرج بالدماء أمام مكبث ، ابتسم له وأشار إلى هذه الأطياف ، فأدرك مكبث أنهم أبناء بنكو الذين سيحكمون بلاد إسكتلندة من بعده . ثم علت فى الجو أصوات موسيقية رقيقة ، ورقصت الساحرات كأنهن يحيين مكبث ويظهرن له إجلالهن ، ثم توارين عن الأنظار . ومن ذلك الحين فظَّت نفس مكبث وسقم ضميره ، ولم يعد يفكر إلا فى القتل والدماء .

وكان أول ما سمعه بعد خروجه من كهف الساحرات أن مكدف شريف فيف قد فر إلى إنجلترا ، لينضم إلى الجيش الذى كان يتجمع فيها برياسة ملكم أكبر

أبناء الملك القتيل ، ليخلع مكبث ويُجلس ملكلم الوارث الشرعى على عرش إسكتلندة . وغلت مراجل الغيظ فى قلب مكبث عندما سمع هذا النبأ ، فسار من فوره إلى قصر مكدف وقتل زوجه وأطفاله الذين خلفهم الشريف وراءه ، وأعمل السيف فى رقاب كل من يمتون إلى مكدف بصلة مهما كانت بعيدة .

ونَفَّرت هذه الجرائم وأمثالها قلوب أعيان البلاد من مكبث ، واستطاع جماعة منهم أن يغادروا موطنهم وينضموا إلى ملكلم ومكدف ، وكانا فى ذلك الوقت يسيران على رأس جيش قوى جهزاه فى إنجلترا . وأما من بقى منهم فكانت قلوبهم مع الفارين تدعو لهم بالنصر ، وإن لم يكن فى وسعهم أن يقوموا بعمل إيجابى لخوفهم من مكبث . وتجمعت جيوش مكبث تجمعاً بطيئاً ، فقد كان كل من فى البلاد يبغض هذا الطاغية ، ولم يكن فيها من يحبه أو يجله ، بل كانوا على بكرة أبيهم لا يأمنون له . وبدأ يحسد دنكن الذى قتله هو بيده ، والذى نال منه الغدر أسوأ ما يبتغيه ، فهو الآن ينام مطمئناً فى قبره ، لا تستطيع الأسنة أو السم أو حقد القلوب فى داخل البلاد أو الجيوش القادمة من خارجها أن تمسه بأذى .

وبينا كانت هذه الحوادث جارية قضت الملكة نحبها ، وقال الناس إنها قتلت نفسها ، لأنها لم تستطع أن تصبر على كره الناس وتأنيب الضمير . وكانت الملكة وحدها شريكة مكبث فى آثامه وجرائمه ، وكان فى وسعه أحياناً أن يلجأ إلى صدرها يجد فيه بعض الاطمئنان والراحة من تلك الأحلام المزعجة التى كانت تروعهما جميعاً فى كل ليلة . ماتت وتركته وحيداً فى هذا العالم ، لا يرى فيه من يحبه أو يعنى به ، ولا يجد صديقاً يفضى إليه بمقاصده الأثيمة . وسئم الملك الحياة وتمنى الموت ، ولكن اقتراب جيوش ملكلم أثار فى نفسه ما بقى فيها من بأس قديم ، فاعتزم أن يموت *ودرعه فوق ظهره* .

وكانت الوعود الجوفاء التى منته بها الساحرات قد ملأت قلبه ثقة باطلة ؛ وتذكر كذلك قول الأرواح إنه لن يصيبه من ابن أنثى مكروه ، وإنه لن يُغلب حتى تنتقل غابة برنم إلى دنسبين ، وهذا فى ظنه لن يكون ، فتحصن فى قصره ، وكان من المناعة بحيث يستطيع مقاومة الحصار ؛ وبقى فى داخل القصر كئيباً

ينتظر قدوم ملكلم . وفيما هو كذلك إذ دخل عليه فى يوم من الأيام رسول ممتقع الوجه ، ترتعد مفاصله من شدة الخوف ، ولا يكاد يقوى على أن يحدث الملك بما رأى . ثم استطاع أن يتكلم ، وأكد له أنه وهو واقف فى موضع حراسته تطلع نحو برنم فبدا له كأن الغابة قد أخذت تتحرك . فأجابه مكبث وهو غاضب « إنك وغد كاذب ، وإذا كنت تكذب فى قولك فلأصلبنك حياً فى جذع أقرب شجرة إليك حتى تقضى نحبك من الجوع ، أما إذا كانت قِصَّتُك صادقة فإنى لن أبالى إذا فعلت بى أنت مثل هذا الفعل » . وبدأت عزيمة مكبث تخور ، وأخذ يشك فى أقوال الأرواح المبهمة الملتوية . ألم تقل له ألا يخاف حتى تنتقل غابة برنم إلى دنسبين ؟ وها هى ذى الغابة قد تحركت . وقال فى نفسه « إذا كان ما يقوله صحيحاً فلنحمل سلاحنا ونخرج للقتال ، إذ لا مفر لنا من هذا المكان ولا بقاء لنا فيه ، لقد بدأت أمل الحياة وأرجو أن تنقضى أيامى » . وخرج وهو يردد هذه الأقوال وأمثالها للهجوم على المحاصِرين الذين بلغوا فى ذلك الوقت أسوار القصر . ولم يكن المنظر الغريب الذى ظنه الرسول غابة تتحرك بالذى يصعب فهمه ؛ وجلية الأمر أنه لما مر الجيش بغابة برنم فى طريقه لمحاصرة القصر ، عمل ملكلم ما يعمله القائد المحنك ، فأمر جنده أن يقطع كل منهم غصن شجرة ويحمله أمامه ، حتى لا يعرف العدو عدة جيشه . ولاح سير الجنود من بعيد وهم يحملون الغصون كأن الغابة تتحرك ؛ ذلك هو المنظر الذى ألقى الرعب فى قلب الرسول ، وتحققت به نبوءة الروح على معنى يخالف ما فهمه منها مكبث ، وزال سبب من أسباب ثقته واطمئنانه .

وحدثت فى تلك الساعة مناوشة شديدة ، أظهر فيها مكبث شجاعة وبأساً ، ولم يكن حوله إلا عدد قليل من أولئك الذين كانوا يسمون أنفسهم أصدقاءه ، ولكنهم كانوا فى الحقيقه يبغضونه لاستبداده وظلمه ، ويميلون بقلوبهم إلى جانب ملكلم ومكدف . ولم يزل مكبث يصارع الأعداء ويفتك بكل من يلقاه حتى أقبل على مكدف ، فلما رآه وذكر قول الروح له أن يأخذ من مكدف حذره ، أراد أن يولى الأدبار ، ولكن مكدف الذى كان يبحث طول الموقعة عنه اعترض سبيله ؛

وتصادم البطلان وحمى وطيس القتال بينهما ، وأخذ مكدف يعنف قرنه ويصفه بأقبح الأوصاف لقتله زوجته وأبناءه . وكان مكبث ينوء بوزر من قتل من أفراد تلك الأسرة فأراد مرة أخرى أن ينكص عن القتال ، ولكن مكدف أخذ يستثير غيظه ويدعوه ظالماً سفاحاً وكلباً دنيئاً .

وعاد إلى ذاكرة مكبث قول الروح إنه لن يصيبه ابن أنثى بأذى ، فابتسم ابتسامة الواثق وقال لمكدف « عبثاً تحاول يا مكدف ، فلأن تمزق بسيفك هذا الهواء أسهل لك من أن تسفك قطرة من دمى ، إن لى حياة مُحَصَّنة لا يمسها ابن أنثى بسوء » ، فرد عليه مكدف بقوله « لا تركن بعد إلى هذه الرقيه ، وسَلْ الروح الكاذب الذى أسلمته زمام أمرك ينبئك أن مكدف لم تلده أنثى كما تلد النساء الرجال ، بل أخرج من بطن أمه ولما يحن يوم مولده » .

وقال مكبث وهو يرتعد فرقاً ، وقد انقطع آخر سبب من أسباب أمله : « ألا لعنة الله على ذلك اللسان الذى ينطق بهذا ، ونصيحتى إلى الناس فى المستقبل ألا يصدقوا أقوال الساحرات الملتبسة الغامضة ، وعبارات الأرواح الملتوية التى تخدعنا بألفاظها المزدوجة المعنى ، فتصدق فى وعدها حين نستمسك بحروفها ، ثم يتبدل معناها فيقضى على آمالنا ؛ إنى لن أقاتلك » .

فأجابه مكدف فى سخرية لاذعة : « إذن فعش ، وسنعرض صورتك أمام الناس كما تعرض صور الوحوش النادرة ، مرسومة على لوحة قائمة فوق عمود ، وقد كتب عليها هنا يرى الناس الظالم المستبد » .

وعادت إلى مكبث شجاعة المستيئس فقال « لا ، لن يكون ذلك أبداً . لن أعيش لأقبل الأرض بين قدمى الفتى ملكلم وتصبّ علىّ لعنات السوقه ، سأجرب حظى للمرة الأخيرة حتى بعد أن انتقلت غابة برنم إلى دنسبين ووقفت أنت أمامى يا من لم تلدك أنثى » ، قالها وقد ملئ غيظاً وحقداً ، وألقى بنفسه على مكدف ، واستعر القتال بينهما ، وتغلب عليه مكدف آخر الأمر وجز رأسه وقدمها هدية منه إلى الشاب ملكلم الملك الشرعى . وتولى ملكلم الحكم بعد أن وقفت فى سبيله أعمال ذلك المغتصب الباغى زمناً طويلا ، وجلس على عرش دنكن الوديع بين تهليل الشعب والنبلاء واغتباطهم الشديد .

إن الأمور بخواتيمها

(كل ما انتهى بخير فهو خير)

ورث برترم Bertram كنت روزين Count Rousillon لقبه ومزارعه من زمن قليل على أثر وفاة أبيه . وكان ملك فرنسا يحب والد برترم ، فلما سمع بوفاته أرسل إلى ولده يستدعيه إلى بلاطه فى باريس من فوره ، ليشمله بعطفه وحمايته ، وفاء لعهد المصداقة التى كانت بين الملك وبين الكنت المتوفى .

وكان برترم يعيش مع أمه أرملة الكنت المتوفى حين قدم لافيه Lafeu ، أحد كبار رجال البلاط الفرنسى ، ليصحب برترم إلى قصر الملك . وكان ملك فرنسا يحكم البلاد حكما مطلقاً ، فكان إذا دعا أحداً للمثول بين يديه وجه إليه الدعوة فى صورة قرار ملكى أو أمر صريح ، لا يستطيع إنسان فى البلاد أيا كان قدره أن يعصيه ؛ ولذلك لم تجرؤ والدته على أن تطلب تأجيل السفر يوماً واحداً ، بل أمرته بالرحيل لساعته ، وإن كان فراق ولدها العزيز قد آلمها بقدر ما آلمتها وفاة زوجها الذى وارته الثرى من زمن قليل . وحاول لافيه الذى جاء لاستدعاء ولدها أن يخفف من لوعتها ويواسيها فى فقد زوجها وفراق ولدها المفاجئ ؛ وقال وهو يثنى على الملك بلغة أصحاب الملوك إنها ستجد فى جلالته زوجاً لها وأباً لولدها ؛ ولم يكن يقصد بهذا القول بطبيعة الحال إلا أن الملك الكريم سيعطف على برترم ويعنى بأمره . وأخبر لافيه الكنتة أن الملك يعانى آلام المرض ، وأن أطباءه قد قرروا أن داءه عضال لا يرجى له شفاء . وأظهرت السيدة شديد حزنها عند ما سمعت بنبأ مرض الملك ، وقالت إنها تتمنى لو أن والد هلنا Helena (وهى فتاة من أتباعها كانت حاضرة معها فى ذلك الوقت) كان حيا ، إذن لاستطاع من غير شك أن يشفى جلالة الملك من مرضه . ثم قصت على لافيه شيئاً من تاريخ هلنا فقالت إنها ابنة الطبيب الذائع الصيت جرار ده نربن Gerard de Narbon ، وإنه لم يعقب سواها ، وإنه عهد إليها بابنته وهو على فراش الموت ، وإنها من تلك الساعة قد أخذت هذه الفتاة

فى كنفها وتحت رعايتها . ثم أخذت تثنى على أخلاق هلنا وعفتها وفضائلها ، وقالت إنها ورثت هذه الصفات عن والدها العظيم . وكانت هلنا فى خلال هـذا الحديث صامتة تذرف الدمع حزناً وكمداً ، فأخذت الكنتة تلومها فى رفق لاستسلامها للحزن على موت أبيها .

وودع برترم والدته ، وفارقت الأم ولدها العزيز والدمع ينهمر من عينيها ، وقلبها يُشَيِّعه بدعواتها الصالحة ، وأوصت به لافيه خيراً ، وقالت له : « أى سيدى العزيز كن له نعم المشير ، فإنه لم يستعد بعـد ليكون من أصحاب الملوك » . ووجه برترم آخر كلماته إلى هلنا ، ولـكنها لم تـكن تزيد على تحية وداع تمنى لها فيها السعادة ، وختم وداعه لها بقوله : « آنسى سيدتك والدتى ، وقدريهـا حق قدرها » .

وكانت هلنا تحب برترم من زمن بعيد ، ولمـا أخذت تبكى وهى حزينة صامتة لم تـكن الدموع التى تذرفها حزناً على چرار ده نربن . نعم إن هلنا كانت تحب أباها ، ولـكن قلبها فى تلك الساعة كان يخفق بحب أقوى وهو حب من سيفارقها بعد قليل ، فأنساها صورة أبيها الميت وملامحه ، ولم ترتسم فى مخيلتها وقتئذ إلا صورة برترم وحده .

وأحبت هلنا برترم من زمن بعيد ، ولـكنها كانت تذكر على الدوام أنه كنت روزين سليل أعرق الأسر فى فرنسا كلها ، وأنها هى من أسرة وضيعة لا يعرف الناس عن أبويها شيئاً ؛ أما برترم فقد ورث آباؤه المجد كابراً عن كابر ، ولذلك كانت تنظر إليه نظرتها إلى سيدها العزيز عليها ، ولم تـكن تطمع فى أكثر من أن تبقى خادمة له ، وأن تظل من أتباعه حتى تموت . ولاح لها بعد ما بين عظمته وفقرها فـكانت تقول لنفسها : « لا فرق بين أن أحبه وأن أحب نجما ساطعاً فى السماء وآمل أن أتزوجه . ألا ما أعظم الفرق بينى وبينه ! » .

وأثر بُعد برترم فى نفسها ، فأفاض الدمع من عينها وملأ قلبها حسرة . نعم إنها كانت تحبه حب اليائس ، ولـكن وجوده بالقرب منها تقع عينها عليه فى كل ساعة كان يسرى همها ويريح بالها ، وكانت تجلس طويلا تتأمل عينيه السوداوين ،

وحاجبيه المقوسين وليات شعره الجميل ، كأنها تريد أن تنقش صورته على شغاف قلبها ، ذلك القلب الذى يستطيع أن يحتفظ بجميع قسمات هذا الوجه المحبوب .

ولما مات چرار ده نرڤن لم يترك لابنته ما تمهر به إلا وصفاً لأدوية نافعة مجربة هدته إليها دراسته العميقة وتجاربه الطويلة فى علم الطب ، مفعولها أكيد لا يكاد يخطئ ؛ وكان من بينها دواء وصفه بأنه ناجع يفيد فى شفاء العلة التى أضنت الملك فى ذلك الوقت . فلما سمعت هلنا بمرض الملك ، وكانت فى ذلك الوقت فتاة وضيعة معدومة الرجاء ، بدأت تعظم آمالها ، وفكرت فى الذهاب إلى باريس لتعالج الملك من دائه . على أنه لم يكن يتوقع أن يثق الملك وأطباؤه بهذه الفتاة الجاهلة المسكينة إذا عرضت عليهم أن تقوم بعلاجه ، وذلك لاعتقادهم أن داء الملك عضال لا يرجى له شفاء . ولم يكن يرجى أن يفيدها وقتئذ وجود هذا الدواء العجيب فى حوزتها ، لكن أملها فى النجاح ، إذا سمح لها بأن تجرب الدواء ، لاح لها فى ذلك الوقت أقوى حتى مما يبرره حذق أبيها ، وإن كان فى حياته أشهر أطباء عصره ، وذلك لأنها كانت قوية الإيمان بأن هذا الدواء قد هيأته لها الأقدار ليكون هو الوسيلة التى ترفع منزلتها ، حتى تبلغ تلك المكانة العالية التى تؤهلها لأن تكون زوجا للكنت روزين .

وقبل أن يمضى على غياب برترم وقت طويل جاء أستاذ الدار إلى الكنتة ، وأخبرها أنه سمع هلنا تحدث نفسها حديثاً ، فهم من بعض عباراته أنها تحب برترم وأنها تفكر فى اللحاق به إلى باريس . فصدقت الكنتة أستاذ دارها ، وشكرت له أن أفضى إليها بهذا النبأ ، وطلبت إليه أن يبلغ هلنا رغبتها فى التحدث إليها . وأعاد لها حديث أستاذ الدار عن هلنا ذكرى أيامها الخالية ، ولعلها الأيام التى بدأ فيها حبها لوالد برترم ، فقالت لنفسها : « لقد كان هذا شأنى فى أيام شبابى ، إن الحب شوكة فى ورد الشباب ، وإذا ما نشأنا نشأة طبيعية عادية فلا مفر لنا من ارتكاب هذا الخطأ ، وإن كنا لا نعرف وقتئذ أننا نرتكب خطأ » . وبينا كانت الكنتة تفكر فيما وقعت فيه أيام شبابها من أخطاء محببة ، دخلت عليها هلنا فقالت لها : « هلنا ، إنك تعرفين أننى أم لك » ، فأجابتها بقولها : « إنك سيدتى الجليلة » . فقالت لها

الكنتة مرة أخرى : « إنك ابنتى ، وإننى والدتك ، لماذا تفزعين من هذا ؟ ولم امتقع لونك عندما سمعت هذه العبارة ؟ » فأجابت هلنا وهى مروعة مرتبكة ، تخشى أن يكون نبأ حبها برترم قد تسرب إلى ظن الكنتة : « عفواً يا سيدتى ، إنك لست أمى ، وليس الكنت روزين أخى ، ولست أنا ابنتك » ؛ فقالت الكنتة : « ولكنك يا هلنا قد تكونين كنّتى ، ولعل هذا ما ترغبين فيه ، ولذلك تضطربين لسماع لفظى أم وبنت ؛ أصدقينى يا هلنا أتحبين ولدى ؟ » فأجابتها هلنا وهى خائفة مرتاعة : « عفواً يا سيدتى الكريمة » . فسألتها الكنتة مرة أخرى : « أتحبين ولدى ؟ » فأجابت هلنا : « ألست تحبينه يا سيدتى ؟ » فقالت لها الكنتة : « لا تراوغى فى الجواب ، تعالى وا كشفى لى عن مكنون عواطفك ، لأن حبك لم يبق منه شىء خافياً » . وعندئذ جثت هلنا على ركبتيها واعترفت بحبها ، وسألت سيدتها الكريمة فى خجل ورعب أن تعفو عنها ، وأكدت لها بألفاظ تنم عما تشعر به من فرق عظيم بينها وبين برترم إنه لا يعرف شيئاً عن هذا الحب ، وقالت إنها فى حبها الذى لا أمل لها فى تحقيقه لتشبه الهندى الحقير الذى يعبد الشمس وهى تطل عليه من مكانها العالى فى السماء ، ولا تعرف عنه شيئاً ؛ وسألتها الكنتة ألم تعترم أخيراً أن تذهب إلى باريس ؟ وأقرت هلنا بما دار فى خلدها حين سمعت لافيه يتحدث عن مرض الملك ، فقالت لها الكنتة : « وهل كان هذا قصدك من الذهاب إلى باريس؟ أصدقينى ياهلنا ولا تخفى عنى شيئاً » ؛ وأجابتها هلنا بصراحة : « إن سيدى ولدك هو الذى جعلنى أفكر فى هذا ، ولولاه لما فكرت فى باريس ولا فى الدواء ولا فى الملك ، لقد كان كل ذلك بعيداً عن أفكارى قبل ذهابه إليها » .

وسمعت الكنتة هذا الاعتراف بأجمعه دون أن تقول كلمة رضا أو ملامة ، ولكنها سألت هلنا أسئلة دقيقة عن أثر الدواء وعن فائدته المرجوة فى شفاء الملك ، فعرفت منها أنه أثمن ما كان يدخره چرار ده نربن ، وأنه قد أعطاه لابنته وهو على فراش الموت . وتذكرت الكنتة ما قطعته على نفسها فى تلك الساعة الرهيبة من وعد مقدس بأن تعنى بهذه الفتاة ، ولاح لها أن مصيرها وأجل الملك نفسه معلقان على هذا المشروع الخطير الذى أوحت به إلى هذه الفتاة الوالهة أوهام الحب وآمال

المحبين ، ولـكنه قد يكون من تصاريف الأقدار التى لا تراها الأعين ، والتى تريد بها أن يشفى الملك من مرضه ، فيكون شفاؤه سبباً فى سعادة ابنة چراردە نربن . ومن أجل ذلك أذنت لهلنا أن تسير فى طريقها ، وأعانتها بكل مايلزمها من المال ومن يليق بها من الأتباع . ويممت هلنا شطر باريس تصحبها دعوات الـكنتة ورغبتها الصادقة فى نجاح مسعاها . وأقبلت هلنا على باريس واستطاعت بفضل صديقها الشيخ اللورد لافيه أن تقابل الملك . على أنه كان لا يزال أمامها كثير من الصعاب ، فلم يكن من السهل أن يرضى الملك بأن يجرب الدواء الذى تعرضه عليه هـذه الطبيبة الصغيرة الحسناء ، ولـكنها خبرته أنها ابنة چراردە نربن الذى يعرف الملك من هو وما شأنه ، وقالت إن الدواء الثمين الذى تعرضه عليـه هو أعز ما ادخره أبوها ، وإنه خلاصة تجاريبه الطويلة وحذقه العظيم ، وإنها تضع حياتها رهينة فى يد الملك ضماناً لقدرتها على إعادة صحته كاملة إليه فى خلال يومين . ورضى الملك أخيراً أن يجرب الدواء على أن تعدم هلنا بعد يومين إذا لم يتم شفاؤه ، ووعدها إذا نجحت أن يزوجها بمن تختاره من الرجال فى أرض فرنسا بأجمعها ، لا يستثنى منهم إلا الأمراء ، وكان اختيار الزوج الذى ترتضيه لنفسها هو الأجر الذى طلبته هلنا إذا شفت الملك من مرضه .

ولم تكن هلنا مخدوعة فى ثقتها بفائدة دواء أبيها ؛ ذلك أنه قبل أن يمضى الأجل المحدد عادت إلى الملك صحته كاملة ، فدعا إليـه جميع الشبان النبلاء من حاشيته ليزوج طبيبته الحسناء بمن تختاره منهم ، برا منه بوعده لها . وطلب الملك إلى هلنا أن تجيل بصرها فى هؤلاء الشبان الأشراف الأعزاب ، وتختار منهم من تشاء . ولم تبطئ هلنا فى اختيار هذا الزوج لأنها رأت الـكنت روزين بين هؤلاء الشبان ، فالتفتت إلى برترم وقالت « هذا هو الرجل . لن أجرؤ يا سيدى على القول بأنى سأتخذك لى زوجا ، ولـكننى أسلم نفسى إليك ، وأضع خدماتى بين يديك ما حييت ، فوجهنى كيف شئت » . وقال الملك « إذن نخذها يا برترم فهى زوجتك » . ولم يتردد برترم فى أن يجهر بعدم رغبته فى هذه الهدية التى تعرض نفسها عليه ، وقال إن هلنا ابنة طبيب رقيق الحال ، نشأت فى كنف أبيه وتعيش الآن كَلاًّ على أمه . وسمعته هلنا ينطق بهذه الألفاظ ، ألفاظ الرفض والسخرية ، فقالت للملك « أما

شفاؤك فقد سرنى وأثلج صدرى ، وأما ما بقى بعد ذلك فلترح بالك منه ولا تفكر فيه قط » . ولكن الملك لم يرض أن يستهان بأمره إلى هذا الحد ، وكان من حقوق ملوك فرنسا وامتيازاتهم الخاصة الكثيرة أن يهبوا نبلاء البلاد أزواجا لمن يشاءون من النساء ، ولذلك تزوج برترم بهلنا فى ذلك اليوم نفسه ، وهو زواج أرغم عليه برترم ولم يكن مرتاحا إليه ، كما أن هلنا المسكينة لم تكن ترجو من ورائه خيراً . نعم إنها استطاعت أن تحصل على الزوج النبيل الذى خاطرت بحياتها للحصول عليه ، ولكن بدالها أنها لم تكسب فى حقيقة الأمر إلا فراغاً مزوقاً ، لأن حب زوجها لم يكن من الهدايا التى يستطيع ملك فرنسا أن يهديها إليها .

ولم يكد هذا الزواج يتم حتى طلب برترم إلى هلنا أن تستأذن له الملك فى الرحيل عن بلاطه . فلما نبأته أن الملك قد أذن له قال لها إن شؤونه قد اضطربت بسبب هذا الزواج المفاجئ الذى لم يكن مستعدا له ، ولذلك فليس لها أن تعجب من الخطة التى سيسلكها . وإذا لم تكن هلنا قد عجبت من هذه الخطة فإنها قد حزنت حين عرفت أنه يريد أن يفارقها . ولقد أمرها بالفعل أن تعود إلى والدته ، فلما سمعت هذا الأمر القاسى أجابت قائلة « ليس لى ما أقوله جوابا عن هذا إلا أنى أطوع الخدم لك ، وأنى سأعمل بكل ما تأمرنى به ، لعلى أنال منك ذلك التقدير الذى حرمته بسبب الفارق الكبير بين منزلتى الحقيرة وحظى العظيم » . ولكن هذا التذلل لم يؤثر فى نفس برترم ولم يكسر من زهوه فيشفق على زوجته الظريفة ، وفارقها دون أن يودعها بكلمة طيبة كما تقضى به آداب اللياقة المعتادة بين الناس .

وعادت هلنا إلى بيت الكنتة بعد أن أتمت ما كانت تبغيه من رحلتها . لقد أنجت الملك من الموت ، وتزوجت بالكنت روزين أحب الناس إلى قلبها وأعزهم عليها ، ولكنها عادت تتقسمها الغموم إلى بيت حماتها النبيلة ، وما كادت تدخل الدار حتى تلقت رسالة من برترم هدّتها وفتت فى عضدها .

وأحسنت الكنتة الكريمة استقبالها ، كأن ابنها قد اختارها بنفسه لتكون زوجة له ، وكأنها فتاة من أرقى الطبقات ؛ وأخذت تحييها بأطيب الألفاظ لتنسيها ما وقع فى نفسها من إهمال برترم لها وإرسالها وحدها إلى بيت أمه فى يوم زواجه

بها ؛ ولكن هذا الاستقبال الحسن لم يذهب الحزن من قلب هلنا وقالت « سيدتى لقد ذهب سيدى ، ذهب إلى حيث لا يعود أبداً » . ثم قرأت العبارة الآتية من خطاب برترم « **حين تحصلين على هذا الخاتم من اصبعى ، ولن يخرج هذا الخاتم منه قط ، فسمنى وقتئذ زوجك ؛ ولكن اذا جاء وقتئذ فسأكتب فيه أبدا** » . وأضافت هلنا إلى ذلك قولها « تلك عبارة رهيبة » ، وطلبت إليها الكنتة أن تصبر ولا تجزع ، وقالت لها إنها بعد أن ذهب برترم ستكون هى ابنتها ، وإنها جديرة بزوج يقف فى خدمته عشرون فتى وفقاً من أمثال برترم ، ويدعوها فى كل ساعة من ساعات النهار سيدتى . ولكن هذه الأم الرءوم ، التى لا مثيل لها بين الأمهات ، لم تستطع بتواضعها وتذللها ، أن تذهب الحزن عن كنتها . وظلت هلنا تحدق ببصرها فى خطاب زوجها ثم صرخت من شدة الحزن قائلة : « **الى أنه يجىء الوقت الذى لا تكونه لى فيه زوجة لن يكونه لى شىء فى فرنسا** » [1] . وسألتها الكنتة هل وجدت هذه العبارة فى الخطاب ؟ وكل ما استطاعت هلنا البائسة أن تجيب به عن سؤالها هو قولها « نعم ، سيدتى » .

وفى اليوم التالى افتقدوا هلنا فلم يجدوها ، بل وجدوا منها خطابا طلبت أن يعطى إلى الكنتة بعد ذهابها ، وقد شرحت فى هذا الخطاب سبب غيابها المفاجئ ، وقالت فيه إنها قد أحزنها كل الحزن أن يخرج برترم بسببها من بيته ووطنه ، وإنها أرادت أن تكفر عن ذنبها فاتخذت سبيلها إلى مزار القديس چاك الأكبر St. Jaques le Grand ، وختمته برجاء إلى الكنتة أن تبلغ ولدها أن الزوجة التى يكرهها هذا الكره كله قد خرجت من داره ولن تعود إليها أبدا .

ولما خرج برترم من باريس يمم شطر فلرنس Florence وعمل ضابطا فى جيش دوقها ، وانتصر هذا الجيش فى بعض الحروب ، وأظهر برترم من ضروب الشجاعة والبطولة ما امتاز به على أقرانه ، وتلقى وهو فى هذه المدينة رسائل من أمه

---

(١) إن الغموض الذى فى هذه العبارة مقصود بالذات ولكن معناها رغم ذلك مما لا يصعب إدراكه . فهو يقول إنه لن يكون له ما يعنى به فى فرنسا إلا حين لا تكون له فيها زوجة .

تحتوى ذلك النبأ السار وهو أن هلنا لن تقلق باله بعد . وبينا هو يستعد للعودة وإذا بهلنا نفسها تصل إلى مدينة فلرنس فى ثياب حاج .

وكانت مدينة فلرنس على الطريق الذى يسير فيه الحجاج إلى ضريح القديس چاك الأكبر . ولما وصلت هلنا إلى هذه المدينة سمعت أن فيها أرملة كريمة تستضيف النساء اللاتى يفدن على المدينة لزيارة ضريح القديس الكبير ، فتسكنهم وتطعمهم . وذهبت هلنا إلى دار هذه السيدة الكريمة فأحسنت استقبالها ، ودعتها إلى مشاهدة كل ما فى تلك المدينة الشهيرة من عجائب ، ثم أخبرتها أنها إذا رغبت فى مشاهدة جيش الدوق فإنها تستطيع أن تأخذها إلى حيث ترى هذا الجيش أحسن رؤية ، وقالت لها « وسترين شابا من بنى وطنك يدعى الكنت روزين أدى للدوق خدمات جليلة فى حروبه » . ولم تكن هلنا فى حاجة إلى تكرار الدعوة حين علمت أنها ستشاهد برترم فيمن تشاهده من رجال الجيش ، فسارت مع مضيفتها ، وكان سرورها بالنظر إلى وجه زوجها العزيز مرة أخرى سروراً يشوبه الحزن والأسى . وسألتها السيدة الأرملة « أليس هو رجلا وسيما ؟ » فأجابتها هلنا جوابا صادقا كل الصدق « إنى لأحبه كثيراً » . وظلتا طول الطريق تتحدثان ، وكان حديث الأرملة الثرثارة يدور كله حول برترم ، فروت لهلنا خبر زواجه وهجره زوجته البائسة ، وانضمامه إلى جيش الدوق حتى لا يعيش معها . وصبرت هلنا على استماع هذه القصة ، قصة بؤسها وشقائها ، حتى فرغت الأرملة من سردها ، ولكنها لم تفرغ من سره تاريخ برترم ، بل أخذت تروى قصة أخرى وعت هلنا كل كلمة منها ، لأنها قصة حب برترم لابنة هذه السيدة .

ذلك أن برترم ، وإن لم يعجبه الزواج الذى فرضه الملك عليه ، لم يصم أذنه عن سماع نداء الحب ، بل إنه من يوم أن انضم إلى جيش الدوق فى فلرنس قد وقع فى قلبه حب فتاة مهذبة حسناء تدعى ديانا Diana ، وهى ابنة الأرملة التى أضافت هلنا . وكان يأتى فى كل ليلة ويقف تحت نافذتها ليطربها بنغمات موسيقية مختلفة ، ويتغنى بجمالها ويدعوها إلى حبه . وكل ما كان يرجوه منها أن تسمح له بأن يزورها خلسة وأهلها هجَّع ، ولكنه لم يجد وسيلة يحمل بها ديانا على أن تستجيب لهذا الرجاء

الأخطل ، وأن تشجعه على الاسترسال فى حبه ، لأنها تعرف أنه رجل محصن ، ولأنها نشأت فى كنف أم حازمة من أسرة كريمة ، وإن كانت الآن ذات عسرة فهى من نسل أسرة كبولت Capulet النبيلة .

وقصت السيدة هذا كله على هلنا ، وأثنت ثناء مستطابا على فضائل ابنتها العاقلة ، وقالت إن هذا كله نتيجة ما تعهدتها به من تربية حسنة ، وما أسدته إليها من نصائح حكيمة غالية ، وختمت حديثها بقولها إن برترم شديد الإلحاح على ديانا أن تسمح له فى هذه الليلة ذاتها بالزيارة التى يرغب فيها من صميم قلبه ، لأنه سيغادر مدينة فلرنس فى باكورة اليوم التالى .

وأحزن هلنا أن تسمع عن حب برترم لابنة هذه الأرملة ، ولكن هذه القصة قد أوحت إلى عقلها الخصيب بالخطة التى يجب أن تتبعها لتستعيد بها زوجها الآبق الوانى . ولم يثبط من همتها ما أصابها من خيبة فى مشروعها الأول فأخذت تدبر خطتها الجديدة ، واعترفت للأرملة بأنها هى هلنا الزوجة التى هجرها برترم ، وطلبت إلى هذه السيدة وابنتها أن تسمحا لبرترم بالزيارة التى يرجوها ، وأن تأذنا لها بأن تدخل فى روعه أنها هى ديانا نفسها ، وأخبرتهم أن الغرض الذى ترمى إليه من وراء هذا الاجتماع بينها وبين زوجها أن تحصل منه على خاتم قال إنها إذا حصلت عليه اعترف بها زوجة له . ووعدتها الأرملة هى وابنتها أن تقدما لها ما تحتاجه من معونة ، شفقة منهما على هذه الزوجة البائسة المهجورة ، وطمعاً فيما وعدتهما به من مكافأة ، وقد أعطتهما بالفعل بدرة من المال شاهدا على ما سوف تحبوهما به فى المستقبل . وفى هذا اليوم نفسه عملت هلنا على أن يصل إلى مسامع برترم أنها ماتت ، لعله إذا بلغه هذا النبأ وظن أن فى وسعه أن يختار له زوجة ثانية تقدم إليها يطلب الزواج بها معتقداً أنها ديانا ، ولم تشك فى أنها إذا استطاعت أن تحصل منه على الخاتم الذى بيده وعلى وعد منه بالزواج ، كان فى مقدورها أن تجنى من وراء ذلك بعض الخير فى المستقبل .

وأذن لبرترم فى ظلام الليل أن يدخل حجرة ديانا ، وكانت فيها هلنا مستعدة لاستقباله . ووقعت عبارات الحب والثناء التى وجهها إلى هلنا أحسن الوقع على

مسامعها ، رغم ما كانت تعرفه من أن ديانا هى المقصودة بها . وأعجب بها برترم إعجابا لم يتمالك معه أن يعدها وعداً صريحاً بأن يتزوجها ويحبها حبا يدوم على مدى الدهر ، ودعت هلنا ربها أن يكون هذا حبا صادقا يبقى بعد أن يعرف أن التى سر من حديثها هذا السرور العظيم هى زوجته هلنا التى كان يمقتها ويزدريها .

ولم يكن يدور بخلد برترم أن هلنا فتاة رقيقة مرهفة الحس إلى هذا الحد ، وأكبر الظن أنه لو فطن إلى ذلك من قبل لما أهملها هذا الإهمال كله ، كما أن رؤيته لها فى كل يوم قد حجبت عن عينيه حقيقة جمالها البارع ، وذلك لأن الوجه الذى تراه العين كل يوم يفقد ما لجماله من أثر فى النفوس ؛ وأما عقلها فلم يكن فى وسعه أن يدرك رجاحته لأن حبها له كان يمتزج به نوع من الإجلال يلزمها الصمت فى حضرته . أما الآن فقد لاح لها أن حظها وتوفيقها فيما دبرته من خطط تسعد بها فى حبها رهن بما تستطيع أن تتركه بحديثها هذه الليلة من أثر طيب فى نفس برترم ، فلم تأل جهداً فى إدخال السرور عليه . وسحر برترم برقة ألفاظها البسيطة الحية الخالية من كل تكلف ، ومن أخلاقها الحلوة الجذابة ، فأقسم أن يتخذها له زوجة . وطلبت إليه هلنا أن يعطيها الخاتم الذى فى إصبعه ليكون شاهداً على منزلتها لديه ، وكان يهم هلنا أن تحصل عليه فأعطاها إياه لساعته ، وأعطته بدلا منه خاتماً أهداه إليها الملك ، وأخرجت برترم من حجرتها قبل مطلع الفجر وسافر من فوره متجهاً إلى بيت والدته .

واستطاعت هلنا أن تحمل الأرملة وابنتها ديانا على الذهاب معها إلى باريس ، لأنها كانت فى حاجة إلى معونتهما لنجاح مسعاها ؛ فلما وصلن إلى هذه المدينة علمن أن الملك قد ذهب فى زيارة إلى كنتة روزين ، فسافرت هى ومن معها فى أثره بأسرع ما تستطيع .

وكان الملك لا يزال يتمتع بصحة جيدة ، وكان اعترافه بفضل الفتاة التى أنقذت حياته لا يبرح عقله ، فما كاد يرى كنتة روزين حتى أخذ يحدثها عن هلنا ويقول إنها جوهرة ثمينة أضاعها ولدها بطيشه . ولما رأى هذا الحديث يؤلم قلب الكنتة ، وكانت لا تزال حزينة مخلصة فى حزنها على موت هلنا ، قال لها : «سيدتى الكريمة

تذليل السليطة

كانت كترين السليطة Katharine the Shrew كبرى بنات بپتسته Baptista أحد أثرياء مدينة پدوا Padua ، وكانت فتاة متمردة جامحة صخابة لا يعرفها الناس فى پدوا إلا باسم كترين السليطة . ولاح أن من أبعد الأشياء ، بل أن من المستحيل ، أن يتقدم أحد من الرجال للزواج بتلك الفتاة ، ولذلك كان الناس كثيراً ما يلومون بپتسته حين يسوف فى قبول العروض الطيبة التى كان يتقدم بها كثير من الشبان للزواج بأختها الظريفة بينكا Bianca ، فقد كان يؤجل خطبتها قائلا إنه لا يقبل أن تخطب ابنته الصغرى بينكا إلا بعد أن يتم زواج أختها الكبرى .

واتفق أن جاء إلى پدوا فى ذلك الوقت رجل يدعى پتروشيو Petruchio ، ليبحث فيها عن زوجة . ولم يؤثر فيه ما يتحدث به الناس عن أخلاق كترين ، لأنه سمع أنها ثرية حسناء ، فقال لأتزوجن بهذه الصخابة الذائعة الصيت ، ولأذللنها حتى أجعل منها زوجة وديعة طيعة . والحق أنه لم يكن أحد أقدر على هذا العمل الشاق من پتروشيو ، فقد كان لا يقل عن كترين قوة إرادة ، ولكنه كان فكها مرحا لبقا ، وكان إلى ذلك كله حكيما سديد الرأى ، يعرف كيف يتصنع الغضب والثورة وهو هادئ النفس ، حتى ليسعه أن يضحك ساخراً من غضبه المتكلف ، لأنه كان فى حقيقة أمره سهلا متهاوناً . ولم يكن ما يتصنعه من الغضب والصخب بعد أن أصبح زوجا لكترين إلا مزاحا ، أو على الأصح تصنعا ، تمليه عليه حصافته وحكمته ، لأنه هو السبيل الوحيدة التى يستطيع بها أن يطفئ نار غضبها .

ذهب پتروشيو إذن ليخطب كترين السليطة ، وكان أول ما فعل أن طلب إلى أبيها بپتسته أن يأذن له بأن يتودد إلى ابنته الظريفة كترين ، كما سماها ، وقال فى مكر ودهاء إنه سمع بحيائها وخفرها ورقة طبعها ، فجاء من ڤيرونا يسعى لكسب قلبها . وكان أبوها راغباً فى زواجها ، ولكنه اضطر إلى الاعتراف بأنها بعيدة عن هذا الوصف . وقد بدا على الفور مقدار ما فى طبعها من رقة ولطف ، إذ دخل

عليهما معلم الموسيقى مهرولا ليقول إن تلميذته كترين الظريفة قد شجت رأسه بعودها لأنه تجاسر على تخطئتها فى عزفها . فلما سمع بتروشيو ذلك قال « ما أشجعها من فتاة ! إن هذا يزيدنى حبا لها ورغبة فى التحدث إليها » ؛ وألح على والدها الشيخ أن يجيبه جوابا صريحاً وقال له : « إن عملى ياسيد بتسته يدعونى إلى العودة بسرعة ، وليس فى مقدورى أن آتى كل يوم لأتودد وأخطب ، إنك لا تجهل أن أبى قد مات وترك لى كل ما يمتلك من أرض ومتاع ، فقل لى بأى شىء تمهر ابنتك إذا كسبت حبها ؟ » وظن بتسته أن فى خطبته شيئاً من الخشونة لاتليق بالمحبين ، ولكنه كان يسره أن تتزوج كترين ، فأجابه بأنه يمهرها بعشرين ألف ريال وبنصف أرضه بعد موته . وكذلك اتفق على هذا الزواج الغريب بعد وقت قصير ، وذهب بتسته ليبلغ ابنته السليطة ما قاله عنها حبيبها ، وبعث بها إلى بتروشيو لتستمع إلى خطبته .

وكان بتروشيو فى أثناء ذلك يرتب الخطة التى سيتبعها فى مغازلة الفتاة فقال : « سأغازلها بشىء من الكبرياء حين تجىء ؛ فاذا سخرت منى قلت لها إنها تغنى بصوت شجى كصوت البلبل ، فاذا عبست قلت إنها أصفى لوناً من الورد بلله القطر ، فاذا لم تنطق بكلمة أثنيت على فصاحتها ، وإذا أمرتنى بالخروج من حضرتها شكرت ذلك لها كأنها قد أمرتنى بالبقاء معها أسبوعا » . وفى ذلك الوقت دخلت كترين فى عظمة وخيلاء فابتدرها بتروشيو بقوله : « عمى صباحا يا كيت ، فقد قيل لى إن ذلك اسمك » . ولم تُعجِب كترين هذه التحية الخالية من الاحترام فقالت فى ازدراء « إن الذين يخاطبوننى يسمونني كترين » ، فأجابها المحب بقوله : « إنك تكذبين ، فهم يسمونك باسم كيت مجرداً من كل وصف ، ويسمونك أحياناً كيت الظريفة ، وأحياناً السليطة ، ولكنك يا كيت أجمل كيت فى العالم ، ولذلك فإنى يا كيت لما سمعت الناس فى كل بلد يثنون على رقتك وظرفك جئت لأخطبك وأتخذك لى زوجة » .

وكانت خطبة بالغة منتهى الغرابة ، فقد كانت هى بضجيجها وغضبها تُشهد على نفسها بأنها أجدر الناس باسم السليطة ، وكان هو لا يفتأ يثنى على ألفاظها العذبة الرقيقة ، ولما سمع وقع أقدام أبيها أراد أن يفرغ من خطبته بأسرع مايستطيع فقال :

«عزيزتى كترين ، دعينا من هذا الحديث الذى لا خير فيه ، فقد رضى أبوك أن تكونى لى زوجة ، واتفقنا على مهرك وسأتزوج بك رضيت أو لم ترضى » .

ودخل بپتستة فقال له پتروشيو إن ابنته قد أحسنت لقاءه ، وإنها اتفقت معه على الزواج فى يوم الأحد المقبل ، وأنكرت كترين ذلك وقالت إنها تود أن يساق إلى المشنقة يوم الأحد ، وأخذت تعنف أباها لأنه رضى أن يزوجها بجلف فظ مخبول مثل پتروشيو . وطلب پتروشيو إلى أبيها ألا يعبأ بألفاظها الغضبى لأنهما قد اتفقا على أن تتظاهر بالرفض فى حضرته ، ولكنها كانت من ورائه حبيبة وديدة ، ثم قال لها « مدى إلىَّ يدك يا كيت ، سأذهب إلى البندقية لأبتاع لك أجمل الملابس استعداداً ليوم زفافك ، فاستعد للوليمة يا أبت وادع الأضياف فى يوم الزفاف ، وسآتيكم بالخواتم وأغلى الملابس وأجمل أدوات الزينة لأجمل بها حبيبتى كترين ، فقبلينى يا كيت ؛ إننا نتزوج يوم الأحد » .

وفى يوم الأحد المحدد اجتمع المدعوون لحفلة الزفاف ، وطال انتظارهم لپتروشيو ، وبكت كترين حزنا لأنها ظنت أن پتروشيو كان يسخر منها . ثم جاء أخيراً ولكنه لم يكن معه شىء من لوازم الزفاف التى وعد بها كترين ، ولم يرتد هو نفسه ثياب العرس بل كانت عليه ملابس غريبة غير منتظمة كأنما هو يريد أن يهزأ بهذا العمل الجدى الذى جاء لينجزه ، وكان على خدمه وعلى الخيل التى يركبونها أردية حقيرة غريبة .

ولم يستطع أحد أن يحمل پتروشيو على تغيير ملبسه ، وقال حين خوطب فى ذلك إن كترين ستتزوج به هو لا بملابسه . ولما رأى القوم أن لافائدة ترجى من الإلحاح عليه ذهبوا به إلى الكنيسة ، وظل هو يسلك مسلك البلهاء ، ولما سأله القسيس هل يرضى بكترين زوجة له أقسم بأعلى صوت أنها ستكون زوجته . وارتاع القسيس من ذلك فسقط الكتاب من يده ، ولما هم بالتقاطه ضربه هذا العريس الأرعن ضربة سقط منها هو وكتابه على الأرض ، وظل فى أثناء مراسم الزواج ثائراً يضرب الأرض برجليه ، حتى ارتاعت كترين رغم جرأتها .

ولما انتهت حفلة الزفاف وكان الناس لا يزالون فى الكنيسة ، طلب أن

يحضروا له نبيذاً ، وشرب نخب الجماعة معلناً ذلك بأعلى صوته ، وألقى بقطعة من الخبز كانت فى قاع الإناء فى وجه خادم الكنيسة ، ولم يبرر عمله هذا بأكثر من أن لحيته كانت رفيعة ضئيلة ، حتى بدا له وهو يشرب النبيذ أنها تسأله قطعة الخبز . والحق أن الناس لم يروا قبل هذا زواجا أحاط به مثل هذا الجنون ، ولكن بتروشيو إنما تكلف هذا الهرج كله ليكون أقدر على النجاح فى تنفيذ الخطة التى وضعها لتذليل زوجته السليطة .

وكان بتسته قد أعد للزواج حفلة فخمة ، ولكنهم عند ما عادوا من الكنيسة أخذ بتروشيو بيد كترين وأعلن أنه يعتزم أخذ زوجته إلى داره من فوره . ولم يفلح الوالد باحتجاجه ، ولا الزوجة الغاضبة بصخبها ، فى أن يثنياه عن عزمه ، بل قال لهم إن من حق الزوج أن يتصرف فى زوجته كما يشاء ، وخرج بها فى الحال وأظهر من العناد والجرأة ما لم يستطع أحد معهما أن يقف فى سبيله . وأركب بتروشيو زوجته حصانا بائساً ضامراً هزيلا ، اختاره لهذا الغرض خاصة ، ولم يكن فرسه وفرس خادمه خيراً من هذا الحصان نفسه . وساروا جميعاً فى طرق وعرة وحلة ، وكان إذا عثر حصان كترين ثار بتروشيو وغضب وسب البهيم المنهوك الذى لم يكن يقوى على المسير بحمله ، وكأنما كان بتروشيو فى هذه الساعة أشد خلق الله غضباً وأحدهم طبعاً .

ووصل الركب أخيراً إلى بيت بتروشيو بعد سفر طويل شاق ، لم تسمع كترين فى أثنائه إلا صخباً ولعناً يصبه بتروشيو على الخادم وعلى الخيل . ورحب بتروشيو بزوجته عندما دخلت داره ولكنه اعتزم ألا يسمح لها فى تلك الليلة بشىء من الطعام أو الراحة . وهيئت المائدة ووضع عليها العشاء ، ولكن بتروشيو ادعى أنه وجد عيباً فى كل صنف من الطعام ، فألقى باللحم على الأرض وأمر الخدم أن يخرجوا به ، وقال إنه يفعل هذا كله حبا فى كترين ، لأنه لا يريد أن يطعمها لحما لم يحسنوا إعداده ، ولما آوت كترين آخر الأمر إلى فراشها متعبة طاوية ، وجد زوجها أن الفراش لم يعد إعداداً حسنا ، فأخذ يلقى بالوسائد وأغطية الفراش فى أرض الحجرة ، حتى اضطرت أن تقضى الليلة جالسة على كرسى . وكانت إذا هفا النعاس بجفنيها استيقظت

مذعورة على صراخ زوجها وهو يعنف الخدم لأنهم لم يحسنوا إعداد فراش زوجته فى يوم زفافها .

وسار بتروشيو على هذه الخطة نفسها فى اليوم التالى ، فظل يخاطب كترين بأرق الألفاظ وأحسنها ، حتى إذا ما هممت بتناول الطعام رأى عيبا فى كل ما يقدمه لها ، وقذف بطعام الإفطار كما قذف بطعام العشاء ، واضطرت كترين — كترين المتغطرسة — أن تسأل الخدم أن يأتوها خلسة بشىء منه ، ولكنهم أجابوها بأمر من سيدهم أنهم لا يستطيعون أن يقدموا لها شيئاً من غير علمه . فلما سمعت ذلك قالت : « ويلى ! هل تزوج بى ليميتنى جوعاً ؟ إن من يفد على بيت أبى من المتسولين يجد الطعام ، أما أنا التى لم أعرف فى حياتى معنى الرجاء ، فإنى أكاد أهلك من الجوع ، وأجن من السهر ، وأحرم الرقاد من كثرة الصراخ ، ولا أطعم إلا بالصخب والضجيج . وأشد ما يؤلمنى فى هذا كله أنه يفعل ما يفعل باسم الحب ، ويدعى أنى إذا نمت أو طعمت كان فى ذلك موتى على الفور » .

وفى تلك اللحظة قطع عليها حديثها لنفسها دخول بتروشيو عليها ، فقد جاء لها بقطعة صغيرة من اللحم لأنه لم يكن يريد أن تقضى حياتها جوعاً ، وقدمها لها وهو يقول : « هاك يا كيت شيئاً من الطعام . أنظرى ما أكثر جدى ونشاطى ، فقد أعددته لك بنفسى ، ولا شك عندى فى أن هذا اللطف من جانبى يستحق منك الشكر . ما هذا ، ألا تنطقين بكلمة ؟ إذن فلست تحبين اللحم ، وقد ضاع علىّ كل ما بذلته من جهد فى إعداده » ؛ ثم أمر الخادم أن يخرج باللحم . وكان الجوع الشديد قد كسر من زهوها فقالت وهى مغضبة محنقة : « أرجو أن تسمح ببقائه » . ولكن ذلك لم يكن كل ما يريد بتروشيو أن يلجئها إليه فأجابها : « إن أحقر الخدمات يجازى عليها صاحبها بالحمد ، وستشكرين لى ما فعلت قبل أن تمس يدك اللحم » . ونطقت كترين على الرغم منها بقولها « شكراً لك يا سيدى » ؛ فسمح لها أن تتناول شيئاً من الطعام وقال لها « قد يفيد هذا سجيتك السمحة فائدة كبيرة ، أطعمى سريعاً ، وستعودين ياحبيبتى إلى بيت أبيك لنمرح هناك ونلعب ، ونلبس ثيابا وقبعات من الخز على أجسامنا وفوق رءوسنا ، وخواتم من الذهب فى أيدينا ، وأطواقا

من الريش الناعم والطيلسان على أكتافنا ، وسنمسك بالمراوح فى أيدينا ، وسيكون لكل منا مجموعتان من الملابس غير التى نلبسها » . وأراد أن يقنعها بأنه حقيقة يرغب فى أن يمتعها بهذا كله ، فدعا إليه تاجراً وخياطا جاء معه بملابس لها كان قد أمره بإحضارها . ثم رفع الطبق الذى أمامها وأعطاه للخادم قبل أن تنال نصف كفايتها من الطعام وقال « ماهذا ، هل فرغت من الأكل ؟ » وأخرج التاجر قبعته وقال « هذه القبعة التى أمرتم سيادتكم بإحضارها » . وعندئذ بدأ بتروشيو يصخب من جديد ، وقال إن القبعة صنعت على شكل قصعة ، وإنها لا تزيد فى حجمها على قشرة جوزة ، وأمر التاجر أن يذهب بها ويأتى بأخرى أكبر منها ؛ وقالت كترين « إنى أريدها فكل السيدات المهذبات يلبسن قبعات من هذا النوع » . وأجابها بتروشيو بقوله « وستلبسين أنت مثلها عندما تكونين مهذبة ، أما قبل ذلك فلا » . وكان اللحم الذى أكلته كترين قد أعاد إليها شيئاً من قوتها الخائرة فقالت له : « سيدى ، لا شك فى أنك تأذن لى بالكلام ، على أننى سأتكلم أذنت أو لم تأذن فلست طفلة ، وقد رضى من هم خير منك أن أقول لهم ما فى ضميرى ، فإذا لم تكن تستطيع سماعه فأصم أذنيك » . ولم يشأ بتروشيو أن يصغى لهذه الألفاظ المضطرمة لأنه عرف لحسن حظه وسيلة أخرى يعاملها بها أفضل من الجدل والخصام ، فلم يجبها إلا بقوله « نعم إن ما تزعميه صحيح ، فالقبعة حقيرة غير صالحة ، ويزيد حبى لك أنك لا ترضين بها » . فردت عليه كترين بقولها « سواء علىّ أأحببتنى أم لم تحبنى ، ولكنى أرغب فى هذه القبعة وسآخذها أولا آخذ قبعات قط » . وقال بتروشيو وهو لا يزال يظهر أنه قد أساء فهم أقوالها . « أتقولين إنك تريدين أن ترى المئزر ؟ » وجاء الخياط وعرض عليهما مئزراً جميلا قال إنه صنعه لها . ولم يكن بتروشيو فى الحقيقة يريد أن يشترى لها قبعة ولا مئزراً ، فوجد فيه كثيراً من العيوب وقال : « رباه ! رحمة بنا أيتها السماء ! أى رداء هذا ؟ أتسمى هذا كما ؟ ما أشبهه بنصف مدفع ، وقد قطع من أعلاه ومن أسفله كما تقطع الفطائر » . فقال له الخياط « لقد أمرتنى أن أصنعه على طراز هذه الأيام » . وقالت كترين إنها لم ترفى حياتها خيراً من طراز هذا المئزر . واكتفى بتروشيو بهذا ، وكان فى سريرة نفسه

يود أن ينال التاجر والخياط ثمن بضاعتهما ، وأن يعتذر لهما عما لقياه من معاملة غريبة فى ظاهرها ، ولكنه مع ذلك أمرهما بالخروج من حجرته بعبارات شديدة ، وإشارات محنقة مغيظة ، ثم التفت إلى كترين وقال لها : « تعالى يا عزيزتى كيت ، سنذهب إلى بيت أبيك فى هذه الملابس الحقيرة التى نلبسها الآن » .

ثم أمر أن تسرج الخيل ، وأكد أن لابد من الوصول إلى دار بتسته قبل موعد الغداء لأن الساعة كانت وقتئذ السابعة صباحاً . وكان الوقت ساعتئذ هو الظهر لا الصباح الباكر ، ولذلك سمحت كترين لنفسها أن تقول فى تواضع شديد ، لأنه قد غلبها بحدة طبعه « أؤكد لك ياسيدى أن الساعة الآن الثانية بعد الظهر ، وأننا لن نصل إلى هنالك قبل موعد العشاء» . ولكن پتروشيو كان قد اعتزم أن يخضعها لإرادته قبل أن يذهب إلى بيت أبيها خضوعاً لا تستطيع معه أن تعارضه فى أى شىء ينطق به ، ولذلك قال إنه لن يبرح مكانه إلا إذا وافقت على أن الوقت هو ما يريده أن يكون ، كأنما هو المتصرف فى الشمس ، وصاحب السيطرة على ساعات النهار والليل ، ثم قال : « ومالك لا تفتئين تعارضيننى فى كل ما أقوله أو أفعله ؟ لن أسافر اليوم ، وعند ما أعتزم السفر ستكون الساعة كما أنطق بها أنا » . واضطرت كترين إلى البقاء يوماً آخر تمارس فيه هذا النوع الجديد من الخضوع ، ولم يسمح لها بالذهاب إلى بيت أبيها إلا بعد أن خضعت له خضوعاً لا تجرؤ معه على أن تسمح للفظ المعارضة أن يدور فى خلدها ، أو يتحرك به لسانها . وكادت وهى سائرة فى طريقها أن تُرَد إلى دارها لأنها لاحظت أن الشمس طالعة ، حين أكد هو أن القمر ساطع فى وقت الظهيرة .

وقال لها مغضباً : « أقسم بابن أمى ، أى بنفسى ، أنى لن أبرح هذا المكان إلى دار أبيك حتى يكون هو القمر أو النجوم أو ما أريد أن يكون » . ثم تظاهر بأنه قد اعتزم العودة ، ولكن كترين ، التى لم تبق الآن كترين السليطة بل الزوجة المطيعة ، قالت له « أرجو أن نواصل السير بعد أن قطعنا هذه المرحلة ، وليكن هذا هو القمر أو الشمس أو ماتريد أنت أن يكون ، وإذا شئت أن تسميه من الآن شمعة ، فإنى أقسم لك أنه سيكون كذلك بالنسبة لى» . واعتزم هو أن يتثبت من هذا

فقال مرة أخرى «أقول إنه القمر» ، فأجابته كترين : « وأنا أعرف أنه القمر » ، فقال لها : « إنك كاذبة ، تلك هى الشمس المباركة » ، فأجابته : « إذن فهى الشمس المباركة ، ولكنها لن تكون الشمس إذا قلتَ إنها ليست شمساً ، فهى ما تريد أن تسميها وستكون كذلك على الدوام بالنسبة لكترين » . ثم سمح لها أن تواصل سفرها ، ولكنه أراد أن يمتحنها مرة أخرى ليرى هل يدوم هذا الخضوع ، فخاطب رجلا مسنا قابلاه فى الطريق كما تخطب الفتيات وقال له : « عمى صباحاً أيتها الفتاة الظريفة » . ثم سأل كترين هل رأت فى حياتها فتاة أبهى منها طلعة ؟ وأخذ يثنى على توردخدى هذا الشيخ وبياضهما ، ويشبه عينيه بنجمين ساطعين ، وخاطبه من جديد بقوله : « أيتها الفتاة الحسناء عمى صباحاً مرة أخرى » ، ثم وجه الخطاب إلى زوجته قائلا : « عزيزتى كترين ، عانقيها إكراماً لجمالها» . وكانت كترين قد ذللت فى هذا الوقت إلى أقصى حد ، فبادرت بتنفيذ رغبة زوجها ، وخاطبت الشيخ بنفس النغمة التى خاطبه بها ، فقالت له : « أيتها العذراء الناشئة ، إنك جميلة نضرة حلوة ، إلى أين تذهبين وأين تسكنين ؟ . ما أسعد الأبوين اللذين ينجبان فتاة فى هذا الجمال ! » ثم قال لها بتروشيو : « ما هذا يا كيت ؟ أرجو ألا تكونى قد أصبت بخبل فى عقلك . إن هذا رجل طاعن فى السن مجعد الوجه ذهبت نضرته وذبل جسمه ، وليس فتاة كما تدعين » . وعندئذ قالت كترين « عفواً أيها الشيخ ، لقد بهرعينى ضياء الشمس الساطع فبدا لى كل شىء غضا . والآن تبين لى أنك أب مبجل ، فأرجو منك أن تعفو عما وقعت فيه من خطأ » . وقال بتروشيو : « اعف عنها أيها السيد الكريم ، وقل لنا أين تذهب ؟ إنا ليسرنا أن ترافقنا إذا كنت سائرا فى طريقنا » . وقال لهما الشيخ : « أيها السيد الأنيق ، وأنت أيتها السيدة الظريفة ، إن هذا اللقاء العجيب قد أدهشنى كثيراً ، أما اسمى فهو ڤنسنتيو Vincentio وأنا ذاهب لزيارة ابن لى يقيم فى مدينة پدوا » . وعندئذ عرف بتروشيو أن هذا الشيخ والد لوسنتيو Lucentio ، وهو شاب سيتزوج بينكا صغرى ابنتى بپتسته ، فأخذ يحدثه عن ثراء الفتاة التى سيتزوجها ولده ، فسره ذلك سروراً كثيراً . وظلوا كلهم سائرين حتى وصلوا إلى بيت بپتسته ،

وهناك وجدوا جمعاً حاشداً واستعداداً للاحتفال بزفاف بينكا ولوسنتيو ، وكان بپتسته قد رضى فى سرور أن يزوج بينكا بعد أن نفض يديه من أختها كترين .

ولما دخلوا الدار حياهم بپتسته ودعاهم إلى وليمة العرس ، وكان من الحاضرين أيضاً فتى وفتاة تزوجا من عهد قريب .

ولم يستطع لوسنتيو زوج بينكا وهرتنسيو Hortensio الزوج الآخر الجديد أن يمسكا لسانهما عن المزاح والإشارة من طرف خفى إلى طباع زوجة پتروشيو الشكسة السليطة . ولاح أن هذين الزوجين المحبين مغتبطان برقة طباع الفتاتين اللتين وقع عليهما اختيارهما ، وأخذا يسخران من پتروشيو ويرثيان لحاله لأنه لم يوفق مثلهما فى اختياره . ولم يعبأ پتروشيو بمزاحهما وصبر حتى انفردت النساء بأنفسهن بعد الغداء ، ولاحظ عندئذ أن بپتسته قد انضم إليهما فى استهزائهما به ، لأنه حين أكد أن زوجته ستكون أطوع من زوجتيهما قال له والد كترين : « إنى ليحزننى يا ولدى پتروشيو أن أقول لك إنك اخترت أكثر الفتيات شكاسة وسلاطة » . وقال پتروشيو : « إنى أنكر هذا ، ولكيما تثقون أنى لا أقول إلا الحق أرى أن يستدعى كل منا زوجته ، ومن تكن منهن أطوع لأمر زوجها وأسرع فى تلبية دعوته يكسب رهاناً نتفق عليه » . ورضى الزوجان الآخران بهذا الرهان مسرورين ، وسرا به لثقتهما بأن زوجتيهما رقيقتى الطباع ستكونان أطوع من كترين العنيدة . وعرضا أن يكون الرهان عشرين ريالاً ، ولكن پتروشيو قال ضاحكا إنه يراهن بهذا القدر على صقره أو كلبه ، أما زوجته فلن يراهن عليها إلا بقدر هذا المبلغ عشرين مرة . ورفع لوسنتيو وهرتنسيو الرهان إلى مائة ريال ، وأرسل لوسنتيو أولاً خادمه يدعو بينكا أن تحضر إليه ، ولكن الخادم رجع إليه يقول : « إن سيدتى تخبرك أنها مشغولة لا تستطيع الحضور » . وقال پتروشيو : « حسن ، أتقول إنها مشغولة لا تستطيع الحضور ؟ هل هذا جواب يصح أن تنطق به زوجة ؟ » لكنهم سخروا منه وقالوا إنهم يسرهم ألا تبعث كترين برد أسوأ من هذا . ثم جاء دور هرتنسيو فأرسل يستدعى زوجته وقال لخادمه : « إذهب وارج زوجتى أن تحضر إلى » . وقال پتروشيو : « أترجوها ؟ إذن فهى حاضرة لا محالة » . وأجابه

هرتنسيو بقوله : « إنى أخشى ياسيدى أن ترجو أنت زوجتك فلاتجيب الرجاء ». وسرعان ما دهش هذا الزوج المؤدب حين عاد الخادم من غير سيدته ، فناداه : « أين زوجتى ؟ » فأجابه الخادم : « مولاى ، إن سيدتى تقول إنكم تمزحون ، ولذلك فإنها لن تحضر إليك ، وهى تأمرك أن تذهب أنت إليها » . وقال پتروشيو : « هذا جواب أسوأ من سابقه » . ثم نادى خادمه وقال له : « يا غلام اذهب إلى سيدتك وقل لها إنى آمرها أن تأتى إلى » . وقبل أن يفكر الجماعة فى أنها ستعصى أمره صاح بپتسته مندهشاً : « قسما إن كترين حاضرة ». ثم دخلت كترين وقالت لپتروشيو فى رقة ووداعة : « بماذا تأمر يا سيدى ؟ وما الذى دعوتنى لأعمله ؟ » فقال لها : « أين أختك وأين زوجة هرتنسيو ؟ » فأجابته قائلة : « إنهما جالستان تتحدثان إلى جانب النار فى حجرة الاستقبال » ، فقال لها : « اذهبى وأحضريهما إلى هنا » . وخرجت كترين دون أن تجيب بكلمة لتنفذ أمر زوجها ، وقال لوسنتيو : « تلك أعجوبة إذا كان فى الدنيا عجائب » . وقال هرتنسيو : « إنها لعجيبة حقا ، ولست أدرى ما وراء هذا ؟ » ، فقال پتروشيو : « إن وراءه الوئام والحب والحياة الهادئة ، وقوامة الرجال الحقة على النساء ، وجملة القول إن وراءه كل ما تتطلبه الهناءة والسعادة » . وسر والد كترين أن يرى هذا التحسن فى أخلاق ابنته فقال : « ولدى پتروشيو ، جوزيت كل خير ، لقد كسبت الرهان ، وسأضيف إلى مهرها عشرين ألف ريال ، كأنما هى ابنة أخرى لى ، فقد تبدل طبعها حتى كأنها ليست كترين » . ورد عليه پتروشيو بقوله : « لن آخذ الرهان حتى أثبت فوق ما أثبته أننى جدير به ، وحتى أظهر لكم من الشواهد على فضائلها وطاعتها غير ما أظهرت » . ودخلت كترين فى ذلك الوقت ومعها الفتاتان فواصل حديثه قائلا : « ها هى ذى قد حضرت ومعها زوجتا كما العنيدتان ، وقد سيطرت عليهما بقوة حجتها » ، ثم وجه إليها الخطاب قائلا : « كترين ، إن هذه القبعة لاتلائمك فاخلعى هذا الشىء الحقير وألقيه تحت قدميك » . وخلعت كترين قبعتها على الفور وألقت بها على الأرض ، فقالت زوجة هرتنسيو : « أرجو ألا يصيبنى مكروه أحزن منه قبل أن يصل أمرى إلى هذا السخف » . وقالت بينكا : « ما أسخف هذا العمل ، أتسمون هذا السخف

طاعة ؟ » وقال زوج بينكا لها : « ليت طاعتك قد بلغت بك هذا السخف نفسه . إن رأيك فيما يجب أن تكون الطاعة قد كلفنى مائة ريال بين وقت الغداء وهذه الساعة » . فردت عليه بينكا قائلة : « وإن فى رهانك على طاعتى لدليلا آخر على قلة عقلك » . فقال بتروشيو : « إنى آمرك يا كترين أن تفهمى هاتين الفتاتين العنيدتين ما عليهما من واجبات نحو سيديهما وزوجيهما » . وما كان أشد دهشة الحاضرين حين أخذت الفتاة السليطة ، بعد أن صلح حالها ، تتحدث بلسان طلق فصيح عن فضيلة الطاعة التى هى أليق الفضائل بالزوجات ، بعد أن ما رستها بنفسها ، ووضعت نفسها تحت سيطرة زوجها ، تخضع له وتطيعه طاعة عمياء . واشتهرت كترين مرة أخرى فى پدوا وذاع صيتها ، ولكنها لم تشتهر باسم كترين السليطة كما كانت من قبل ، بل اشتهرت باسم كترين أطوع الزوجات فى پدوا وأعرفهن بما عليهن من واجبات .

ملهاة الأخطاء

كان بين مدينتى سرقوسة Syracuse وإفسوس Ephesus عداوة ، ولذلك سنت إفسوس قانونا صارما يقضى بقتل كل من يرى من تجار سرقوسة فى إفسوس إلا إذا افتدى حياته بألف مرك Mark .

ووُجد إچيون Eegeon ، وهو تاجر كبير السن من سرقوسة ، فى شوارع إفسوس ، وجىء به أمام الدوق ليؤدى هذه الغرامة الثقيلة أو يحكم عليه بالإعدام .

ولم يكن مع إچيون من المال ما يفتدى به حياته ، وأراد الدوق قبل أن يقضى بإعدامه أن يعرف قصته ، وكيف جرؤ على أن يأتى إلى مدينة إفسوس ، حيث يقضى القانون بقتل من يفد إليها من سرقوسة .

وقال إچيون إنه لا يرهب الموت لأن الحزن قد بغّض إليه الحياة ، ولكنه لا يرى واجباً أثقل عليه من أن يقص تاريخ حياته البائسة ، ثم أخذ يقص هذا التاريخ قائلا :

ولدت فى مدينة سرقوسة ، ونشأت فيها وتعلمت التجارة ، وتزوجت بسيدة عشت معها سعيداً كل السعادة ، ولكن أعمالى اضطرتنى إلى السفر إلى إپدمنم Epidamnum والبقاء فيها ستة أشهر . ولما رأيت أن مقامى فيها سيطول ، استدعيت إليها زوجتى فجاءت ، ولم تكد تصل إليها حتى وضعت ولدين . ومن عجب أنهما كانا متشابهين حتى لا يستطيع من يراهما أن يميز أحدهما من الآخر . وفى الساعة التى وضعت فيها زوجتى هذين التوأمين وضعت امرأة فقيرة فى الفندق الذى كانت تقيم فيه ولدين لا يقلان تشابها عن طفلىّ . وكان والد الطفلين ووالدتهما فى فقر مدقع فابتعت منهما طفليهما وربيتهما ليخدما ولدىّ .

وكان ولداى جميلى الطلعة ، وكانت أمهما شديدة الإعجاب بهما ، وأخذت فى كل يوم تلح علىّ فى العودة إلى بلدنا ، فرضيت بذلك مكرها ، وفى ساعة منحوسة ركبنا السفينة عائدين إليها . ولم نكد نبتعد عن مدينة إپدمنم أكثر من فرسخ

واحد حتى عصفت الريح واشتد عصفها ، وأيقن الملاحون أن لا أمل لهم فى إنقاذ السفينة ، فتجمعوا فى قارب النجاة لينجوا بأنفسهم ، وتركونا وحدنا على ظهر المركب ننتظر فى كل لحظة أن تحطمها العاصفة . ولم أكن ممن يرهبون الموت ، ولكننى تملكنى الرعب حين رأيت زوجتى تبكى بكاء مرا . ورأيت طفلىّ الوسيمين يبكيان أيضاً ، وإن كانا لا يدركان ما يخيفهما ، بل كان بكاؤهما تقليداً لوالدتهما . وحصرت تفكيرى كله فى البحث عن وسيلة أنجيهم بها من الغرق ، فهدانى تفكيرى إلى أن أشد أصغر ولدىّ إلى طرف سارية من الساريات الزائدة التى يدخرها الملاحون ليستخدموها أثناء العواصف ، وأن أشد أصغر العبدين إلى طرفها الثانى . وعلمت زوجتى فى الوقت نفسه أن تشد الولدين الآخرين إلى سارية أخرى بنفس الطريقة السابقة ، فكان عليها أن تعنى بالولدين الكبيرين وكان علىّ أنا أن أعنى بالصغيرين . ثم شد كل منا نفسه إلى ساريته مع الطفلين ، ولولا هذه الحيلة لهلكنا عن آخرنا ، لأن السفينة اصطدمت بصخرة كبيرة وتحطمت . وتعلقنا نحن بالساريتين الرقيقتين وحملتنا المياه ، ولم يكن فى طاقتى أن أقدم أية معونة إلى زوجتى لأن همى كان منصرفا إلى العناية بالطفلين . ولم تلبث أن بعدت عنى هى والطفلان الآخران ، ولكنهم قبل أن يختفوا عن عينى التقطهم قارب لبعض الصيادين من مدينة كرنثة Corinth على ما أظن . ولما اطمأننت عنهم لم يبق لى ما أهتم به إلا أن أكافح الأمواج الغضبى لأنقذ حياة طفلى العزيز وأصغر العبدين . وفى آخر الأمر التقطتنا نحن أيضاً سفينة عرفنى بحارتها ، فرحبوا بى وقدموا لى كل ما استطاعوا من معونة ، ثم أنزلونا سالمين فى سرقوسة . ولكننى منذ افترقت من زوجتى وأكبر ولدىّ لم أعرف من أمرهما شيئاً ، وبذلك لم يبق لى من أرعاه إلا ولدى الصغير . ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره ، أخذ يكثر من السؤال عن أمه وأخيه ، وكثيراً ما كان يلح علىّ أن يأخذ عبده الصغير الذى فقد هو أيضاً أخاه ليبحثا عن أمه ومن معها . ورضيت آخر الأمر على الرغم منى ، لأنى وإن كنت شديد الرغبة فى أن أعرف ما جرى لزوجتى وولدى الأكبر ، لم أكن أجهل أننى حين أرسل أصغر ولدىّ للبحث عنهما قد أعرضه هو الآخر للضياع . وقد مضى

الآن على فراق ولدى سبع سنوات ، قضيت منها خمساً أضرب فى الأرض باحثاً عنه ، وذهبت فيها إلى أقصى حدود بلاد اليونان ، واخترقت حدود آسية . وبينا أنا راجع إلى بلدى نزلت بهذه المدينة لأنى لا أريد أن يبقى فى العالم مكان يستطيع الناس أن يأووا إليه إلا بحثت عن ولدى وزوجتى فيه . وستنتهى قصة حياتى فى هذا اليوم ، ولو أننى عرفت أن ابنى وزوجتى على قيد الحياة لمت سعيداً ناعم البال .

وهكذا ختم إچيون البائس حديث أحزانه ، وأخذت الدوق الرأفة بهذا الأب السيء الحظ الذى جلب الشقاء على نفسه بحبه لولده المفقود ، وقال إنه كان يود أن يعفو عنه ويطلق سراحه لولا ما فى ذلك من خرق لقوانين بلده ، التى لا تسمح بمخالفتها كرامته ولا يمينه التى أقسمها بالمحافظة عليها . ثم قال إنه لن يحكم عليه بالموت فوراً كما تقضى بذلك حرفية القانون ، بل سيؤجل الحكم يوما واحداً لعله يستطيع أن يستجدى الناس المال الذى يفتدى به حياته أو يقترضه منهم .

ولم ير إچيون فى هذا اليوم الذى أمهله له الدوق منة كبرى له ، لأنه لم يكن يعرف أحدا فى إفسوس ، وبدا له أنه لن يعثر على أحد فى تلك المدينة يستجديه أو يقترض منه ألف مرك يفتدى بها نفسه ، وخرج من حضرة الدوق فى حراسة أحد السجانين عاجزاً بائساً لا أمل له فى النجاة .

كان إچيون يظن أنه لا يعرف أحداً فى إفسوس ، ولكنه فى الوقت الذى أوشك فيه أن يلقى حتفه بسبب مايبذله من الجهد فى البحث عن ابنه الأصغر ، كان هذا الابن نفسه وأخوه الأكبر كلاهما فى مدينة إفسوس .

ولم يكن ولدا إچيون متشابهين فى ملامحهما وجسميهما فحسب ، بل كانا إلى ذلك يسميان باسم واحد ، فكان يطلق على كليهما اسم أنتفلس Antipholus ، وكذلك كان كلا التوأمين الخادمين يسمى درميو Dromio

واتفق أن وصل إلى إفسوس ، فى نفس اليوم الذى وصل فيه إليها إچيون ، ابنه الأصغر أنتفلس السرقوسى ، الذى كان والده الشيخ يبحث عنه ، ومعه عبده درميو . وإذ كان هذا الابن أيضاً تاجراً سرقوسيا ، فقد كان معرضاً لنفس الخطر الذى تعرض له أبوه ، ولكن الحظ واتاه فلقى صديقاً له أخبره بالنكبة التى توشك

أن تحل بشيخ تاجر من أبناء سرقوسة ، وأشار عليه بأن يدعى أنه تاجر من إپدمنم . وعمل أنتفلس بهذه النصيحة ، ولكنه أسف حين سمع أن أحد مواطنيه كان معرضاً للخطر ، ولم يكن يدور بخلده أن هذا التاجر الشيخ هو أبوه نفسه .

وكان ابن إچيون الأكبر (وسنسميه من الآن أنتفلس الإفسوسى تمييزاً له من أنتفلس السرقوسى) يقيم فى إفسوس من عشرين عاما ؛ وكان تاجراً مثريا فى مقدوره أن يبذل المال المطلوب لافتداء أبيه ، ولكن أنتفلس لم يكن يعرف شيئاً عن أبيه ، فقد كان صغير السن حين أخرجه الصيادون هو وأمه من البحر ، فلم يذكر إلا أنه قد نجا من الموت بهذه الطريقة ، ولا يعرف شيئاً عن أبيه أو عن أمه ، لأن الصيادين الذين أخرجوه هو وأمه والعبد الصغير درميو قد انتزعوا منها الطفلين ليبيعوهما بيع الرقيق ؛ ولَشَدَّ ما أحزن ذلك هذه السيدة البائسة .

وباع الصيادون أنتفلس ودرميو إلى دوق منفون Menaphon ، وكان محاربا ذائع الصيت وعمّا لدوق إفسوس . وجاء العم ومعه الولدان إلى إفسوس فى زيارة لابن أخيه .

وأعجب دوق إفسوس بالشاب أنتفلس فعينه حين كبر ضابطا فى جيشه ، وأظهر هذا الضابط فى الحرب شجاعة عظيمة فأنجى مرةً حياة الدوق ولىّ نعمته ، فكافأه على ذلك بأن زوجه بفتاة من سراة إفسوس تدعى أدريانا Adriana . وكان أنتفلس لايزال يعيش معها ، وعبده درميو ما زال فى خدمته ، حين جاء والده إلى تلك المدينة .

ولما فارق أنتفلس السرقوسى صديقه الذى أشار عليه بأنه يقول إنه قادم من إپدمنم ، أعطى عبده درميو بعض المال ليذهب به إلى الفندق الذى اعتزم أن يتغدى فيه ، وأنبأه أنه سيقضى بعض الوقت فى الطواف بأحياء المدينة ليعرف شيئاً عن أخلاق أهلها .

وكان درميو شخصاً مرحا ، فكان إذا أصاب أنتفلس غم أو حزن سرى عنه عبده غمه وحزنه بفكاهته المضحكة اللطيفة ، ولذلك كان سيده يسمح له فى حديثه معه بنصيب من الحرية أكثر مما يسمح به السادة لخدمهم .

ولما أرسل أنتفلس السرقوسى خادمه درميو إلى الفندق ، وقف برهة يفكر فى تجواله بمفرده للبحث عن أمه وأخيه اللذين لم يسمع عنهما شيئاً فى كل مكان نزل

فيه فاستولى عليه الحزن وقال فى نفسه : « إننى كقطرة من الماء فى المحيط ، تريد أن تعثر على أخواتها فتفقد نفسها فى هذا البحر اللجى . وتلك هى حالتى المحزنة بعينها ، فقد خرجت لأبحث عن أخى وأمى ففقدت نفسى » .

وبينا هو يفكر فى تجواله المتعب الذى لم يجن منه حتى ذلك الوقت نفعاً ، عاد درميو (كما ظن هو) ، وعجب أنتفلس من سرعة عودته فسأله أين ترك المال ؟ ولم يكن هذا الذى يكلمه هو درميو خادمه ، بل كان التوأم الثانى الذى يعيش مع أنتفلس الإفسوسى . وكان درميو وأخوه لا يزالان كما وصفهما إچيون فى صغرهما لا يفترق أحدهما عن الآخر فى شىء ، كما كان أنتفلس وأخوه ، ولذلك لم يكن عجيباً أن يظن أنتفلس أن الذى يحدثه هو خادمه قد عاد من الفندق ، فأخذ يستفسر عن سبب إسراعه فى العودة . وأجابه درميو بقوله « قد أرسلتنى سيدتى لأدعوك للغداء ، إن الديك يحترق ، والشواء من لحم الخنزير يسّاقط من السفُّود[1] ، وسيبرد اللحم كله إذا لم تعد مسرعا إلى البيت » . فأجابه أنتفلس بقوله : « ليس هذا أوان المزاح . إنى أسألك أين تركت المال ؟ » . ولما كرر درميو قوله إن سيدته قد أرسلته ليستدعى أنتفلس للغداء قال له أنتفلس « أى سيدة تعنى ؟ » فأجابه درميو : « زوجتك يا مولاى » . ولما لم تكن لأنتفلس زوجة فقد غضب من درميو وقال له : « أمن أجل أنى أتحدث إليك أحياناً فى غير كلفة تجرؤ على المزاح معى على هذا النحو الخالى من الاحتشام ؟ لست أرغب فى المزاح الآن ، فقل لى ماذا فعلت بالمال ؟ وكيف تجرؤ ونحن غريبان هنا على أن تضيع هذا القدر من المال الذى عهدت به إليك ؟ » . وسمع درميو سيده يقول إنهما غريبان فظن أنه يمزح ، وأجابه هو الآخر فى مرح : « أرجو يا سيدى أن تبقى المزاح حتى تجلس إلى المائدة ، إني لم يعهد إلى بشىء إلا أن أعود بك إلى البيت لتتغدى مع سيدتى وأختها » . وعندئذ عيل صبر أنتفلس فلطم درميو ، وعاد هذا إلى المنزل وأخبر سيدته أن مولاه يأبى أن يعود إلى الدار لتناول الغداء ، وإنه يقول إنه ليست له زوجة » .

---

(١) جاء فى قاموس المحيط . سفود كتنور حديدة يشوى بها . وتسفيد اللحم نظمه فيها للاشتواء .

ولما سمعت أدريانا زوج أنتفلس الإفسوسى قول زوجها المزعوم إنه لا يعرف له زوجة غضبت أشد الغضب ، لأنها كانت حادة المزاج غيورة ، وقالت إن الذى يعنيه زوجها بهذا القول هو أنه يحب سيدة أخرى خيراً منها ؛ وأحفظها ذلك ، فأخذت تنطق بألفاظ الغيرة والعيب فى زوجها ، وحاولت أختها لسيانا Luciana التى كانت تقيم معها أن تبعد عنها هذا الظن السىء الذى لم يكن له ما يبرره ، ولكنها لم تفلح . وعاد أنتفلس السرقوسى إلى الفندق فوجد درميو والمال آمنين لم يمسسهما سوء ، ولما وقعت عينه على خادمه درميو هم أن يؤنبه على مزاحه وعدم احتشامه فى حديثه معه ، ولكن أدريانا جاءته فى تلك اللحظة ، ولم يدر بخلدها أن الذى أمامها غير زوجها ، فأخذت تعيب عليه نظراته الغريبة إليها ، وحق له أن ينظر إليها هذه النظرات لأنه لم ير هذه السيدة الغضبى من قبل . وكان مما قالته له إنه كان شديد الحب لها قبل أن يتزوج بها ، أما الآن فإنه يحب سيدة أخرى غيرها . ثم قالت : « وماذا جنيت الآن يا زوجى ؟ ماذا جنيت حتى فقدت حبك ؟ » وقال أنتفلس فى دهشة شديدة : « أتتحدثين إلى أيتها السيدة الحسناء ؟ » وحاول عبثاً أن يفهمها أنه ليس زوجها ، وأنه لم يقم فى إفسوس أكثر من ساعتين ، وأصرت هى على أن يذهب معها إلى المنزل . ولم يفلح أنتفلس فى التخلص منها فذهب معها إلى دار أخيه . وتغدى مع أدريانا وأختها ، وكانت إحداهما تدعوه زوجاً والثانية أخا . ودهش هو أشد الدهشة وظن أنه بين اثنين : إما أن يكون قد تزوجها فى نومه وإما أنه نائم فى تلك الساعة ، ولا ثالث لهما . ولم يكن درميو الذى ذهب معه أقل دهشة منه لأن خادمة المطبخ زوجة أخيه ادعت أيضاً أنه زوجها .

وبينا كان أنتفلس السرقوسى يتغدى مع زوجة أخيه ، عاد هذا الأخ زوجها الحقيقى ومعه عبده درميو لتناول الغداء ، ولكن الخدم أغلقوا دونهما الباب لأن سيدتهم قد أمرتهم ألا يسمحوا لأحد بالدخول ؛ ولما أخذا يدقان الباب ويقولان إنهما أنتفلس ودرميو ، سخرت منهما الخادمات وقلن لهما إن أنتفلس يتغدى مع سيدتهما ، وإن درميو فى المطبخ ؛ ومع أنهما كادا يكسران الباب من شدة الضرب

فإنهما لم يسمح لهما بالدخول ؛ فعاد أنتفلس آخر الأمر من حيث أتى ، وهو غاضب مندهش حين سمع أن رجلا يتغدى مع زوجته .

ولما فرغ أنتفلس السرقوسى من تناول الطعام تحير فى أمره حين رأى السيدة تصر على أن تدعوه زوجها ، وسمع أن خادمة المطبخ تدعو درميو أيضاً زوجها ، فلم يكد يجد حجة يتذرع بها للخروج من المنزل حتى غادره من فوره ؛ فهو وإن أعجب بلسيانا قد غضب أشد الغضب من غيرة أختها أدريانا ؛ ولم يكن درميو أقل من سيده كرهاً لزوجته الظريفة خادمة المطبخ ؛ ولذلك سر السيد وخادمه حين خرجا من الدار بأسرع ما يستطيعان .

وما كاد أنتفلس السرقوسى يغادر الدار حتى قابله صائغ ظنه أنتفلس الإفسوسى كما ظنته أدريانا ؛ فناداه باسمه وأعطاه سلسلة ذهبية ؛ ولما هم أنتفلس أن يرفض السلسلة ويقول إنه ليس صاحبها ، أجابه الصائغ أنه قد صنعها طوعاً لأمره ، وسار فى طريقه بعد أن ترك السلسلة فى يد أنتفلس ، فلم يكن منه إلا أن أمر خادمه درميو بأن يحزم أمتعته وينقلها إلى السفينة لأنه لا يريد أن يطيل المكث فى هذا المكان الذى لقى فيه تلك العجائب كلها ؛ ولم يشك قط فى أن السحر كان مصدر هذا كله .

وقبض بعد ذلك بقليل على الصائغ الذى أعطى السلسلة لغير صاحبها ؛ لأنه لم يوف بدين كان عليه ؛ واتفق أن مر بذلك المكان أنتفلس الإفسوسى المتزوج ، وظن الصائغ أنه هو الذى أعطاه السلسلة من زمن قليل ، فلما رآه طلب إليه أن يؤدى ثمنها ، وكان هذا الثمن يعادل بالتقريب المبلغ الذى قبض عليه من أجله . وأنكر أنتفلس أنه أخذ السلسلة ، وأصر الصائغ على قوله إنه أعطاه إياها من دقائق معدودة ، وظلا يتناقشان فى هذا زمناً طويلا ، وكلاهما يظن أنه صادق فى قوله ، لأن أنتفلس كان يعلم أن الصائغ لم يعطه السلسلة ، وكان الأخوان متشابهين لدرجة لم يشك معها الصائغ فى أنه أعطاه إياها ؛ وبقيا على ذلك حتى ساق الضابط الصائغ إلى السجن جزاء له على عدم وفائه بالدين . وقبض فى نفس الوقت على أنتفلس بناء على

طلب الصائغ لأنه لم يؤد ثمن السلسلة ؛ وبذلك انتهى نقاشهما بأن سيقا معاً إلى السجن .

ولقى أنتفلس وهو فى طريقه إلى السجن درميو السرقوسى عبد أخيه ، وظنه عبده فأمره أن يذهب إلى زوجته أدريانا ويخبرها أن تحضر له المال الذى قبض عليه من أجله . وعجب درميو أن يرسله سيده مرة أخرى إلى ذلك البيت العجيب الذى طعم فيه ، والذى أسرع فى الخروج منه من زمن قليل ، ولم يرد عليه بكلمة مع أنه جاء ليخبر سيده بأن السفينة توشك أن تغادر الميناء ؛ وذلك لأنه رأى أنتفلس فى حالة لا يصح معها أن يمزح معه . ثم تركه وهو غاضب متذمر من رجوعه على الرغم منه إلى بيت أدريانا حيث « تصر دوزبل Dowsable على أننى زوجها ، ولكن على أن أذهب لأن من واجب الخدم أن يطيعوا أمر سادتهم » .

وأعطته أدريانا المال ، وبينا هو فى طريقه إذ به يقابل أنتفلس السرقوسى ؛ وكان لا يزال فى أشد الدهشة مما لقيه فى إفسوس ، فقد كان أخوه من أهلها المعروفين فيها ، ولذلك فإنه لم يكن أحد منهم يراه فى طرقاتها حتى يحييه كما يحيى الناس من يعرفونهم من قديم الزمن .

وكان بعضهم يعرض عليه مالا يقول إنه مدين له به ، وبعضهم يدعوه إلى زيارته ، وبعضهم يشكر له نعمة أولاه إياها ، وكلهم يظنه أخاه . وعرض عليه أحد الخياطين حريراً قال إنه اشتراه له ، وأصر على أن يقيس طوله ليصنع منه ملابس له .

وبدأ أنتفلس يظن نفسه بين أمة من السحرة والساحرات ، ولم يكن درميو لينقذ سيده من حيرته ودهشته حين سأله كيف نجا من يد الضابط الذى كان يسوقه إلى السجن ، وأعطاه كيس النقود الذى بعثت به أدريانا إليه ليوفى به دينه . فلما سمع أنتفلس حديث درميو عن القبض عليه ، وعن السجن ، وعن المال الذى جاء به من أدريانا ؛ سُقط فى يده وقال : « إن الفتى درميو قد جن من غير شك ، ونحن نطوف هنا فى جو من الأوهام » . وارتاع هو نفسه من أفكاره المضطربة فصاح قائلا : « لعل قوة تعمل لخير البشر تنجينا من هذا المكان العجيب » .

وجاء وقتئذ شخص آخر غريب ، وكان هذا الشخص سيدة نادته هى الأخرى باسمه ، وادعت أنه قد تغدى معها فى ذلك اليوم ، وطلبت إليه أن يعطيها سلسلة ذهبية قالت أنه وعدها بها . فعيل صبر أنتفلس وقال إنها ساحرة ، وأنكر أنه وعدها بسلسلة أو أنه تغدى معها أو رأى وجهها قبل تلك الساعة . وأصرت السيدة على قولها إنه تغدى معها وإنه وعدها بسلسلة ؛ وأصر أنتفلس على إنكاره ، فقالت إنها قد أعطته فوق ذلك خاتماً ثميناً ، فإذا لم يأتها بالسلسلة فعليه أن يرد إليها خاتمها . وجن جنون أنتفلس فى هذه الساعة ، وسماها عرافة ساحرة ، وأنكر أنه يعرفها أو يعرف شيئاً عن خاتمها ؛ وانتزع نفسه منها وتركها مندهشة من ألفاظه ومنظره المضطرب العجيب ، لأنها لم تكن تثق بشىء وثوقها بأنه قد تغدى معها وأنها أعطته خاتماً حين وعدها أن يهدى إليها سلسلة ذهبية . ولكن الحقيقة أن هذه السيدة قد وقعت فى نفس الخطأ الذى وقع فيه غيرها من أهل المدينة ، وظنته أخاه . ذلك أن أنتفلس المتزوج هو الذى فعل كل ما عزته إلى أنتفلس هذا .

وجلية الأمر أن أنتفلس المتزوج لما حيل بينه وبين الدخول فى بيته ، لأن من كان فى البيت قد ظنوا خطأ أنه فى داخله ، ذهب مغضباً وظن أن الأمر لا يعدو أن يكون نوبة من نوبات الغيرة التى تنتاب زوجته فى كثير من الأحيان ، وذكر أنها كثيراً ما اتهمته بأنه يزور غيرها من النساء . وأراد أن ينتقم منها لأنها منعته الدخول فى داره ، فصمم على أن يذهب ويتغدى مع هذه السيدة . فلما ذهب إليها وأحسنت استقباله ، مع أن زوجته قد أساءت إليه ، وعد أن يعطيها سلسلة ذهبية كان قد اعتزم أن يهديها إلى زوجته ، وكانت هى السلسلة التى أعطاها الصائغ خطأ إلى أخيه . وسر هذه السيدة سروراً كثيراً أن تعطى سلسلة ذهبية جميلة فأهدت إلى أنتفلس المتزوج خاتما ذهبيا . فلما حسبت أنه أنكر هذا (لأنها ظنته أخاه) ، وقال إنه لا يعرفها ، وفر منها بهذه الطريقة المضطربة التى رأتها ، ظنت أن بعقله خبالا ، واعتزمت أن تذهب إلى أدريانا وتخبرها أن زوجها قد جن . وبينا هى تقص الخبر على أدريانا جىء به فى صحبة السجان ، وقد أذن له أن يأتى بيته ويأخذ منه المال ليؤدى ما عليه من الدين ، لأن كيس النقود الذى أرسلته أدريانا مع درميو قد وصل إلى يد أنتفلس الثانى .

وصدقت أدريانا ما قصته عليها السيدة من نبأ جنون زوجها حين أخذ يعنفها على إغلاق بيته دونه ، وذكرت ما كان يردده أثناء الغداء من أنه ليس زوجها ، وأنه لم يأت إلى إفسوس إلا فى ذلك اليوم ، فلم يبق لديها شك فى أن موازين عقله قد اختلت ، ولذلك أدت المال إلى السجان ، ولما انصرف من عندها أمرت الخدم أن يوثقوا زوجها بالحبال وينقلوه إلى حجرة مظلمة ، وأرسلت تستدعى طبيباً ليعالجه من جنونه . وكان أنتفلس فى أثناء هذا كله يحتج بأعلى صوته على هذه التهمة الباطلة التى لصقت به لما بينه وبين أخيه من شبه تام ، ولكن احتجاجه لم يكن له من أثر إلا أن يقوى اعتقادهم بجنونه . ولما كان درميو قد بقى هو أيضاً مصراً على نفس القصة التى قصها سيده ، فقد أوثقوه هو أيضاً وألقوه فى الحجرة المظلمة .

ولم يمض وقت طويل على حجز أنتفلس ودرميو ، حتى جاء أدريانا خادم يقول لها إن أنتفلس ودرميو قد فرا من حراسهما ، وإنهما يسيران فى الطريق المجاور للدار . فلما سمعت ذلك أسرعت لتعيده إلى البيت ، واستصحبت بعض الناس لتكون أقدر على الإمساك بزوجها ، وذهبت معها أيضاً أختها . ولما وصلوا إلى باب دير مجاور للبيت شاهدوا أنتفلس ودرميو ، وخدعوا مرة أخرى بما كان بين التوأمين من تماثل تام .

وكان أنتفلس السرقوسى لا يزال يعانى أثر المتاعب التى جرها عليه هذا التشابه ، فقد كانت السلسلة الذهبية حول عنقه ، وكان الصائغ يعنفه على إنكارها ورفضه أداء ثمنها ، وكان أنتفلس يحتج على ذلك ، ويقول إن الصائغ قد أعطاه السلسلة فى الصباح ولم يطالبه بثمنها ، وإنه لم يره من ذلك الوقت إلا فى هذه الساعة .

ثم جاءته أدريانا تقول إنه زوجها المجنون الذى فر من حراسه ، وهمَّ الرجال الذين جاءت بهم معها أن يقبضوا عليه هو ودرميو بالعنف ، ولكنهما دخلا الدير مسرعين ، وطلب أنتفلس إلى رئيسته أن تأويه فيه .

وخرجت الرئيسة نفسها إلى القوم تسألهم عن سبب هذا الضجيج ؛ وكانت سيدة وقورة رزينة ، صادقة الحكم على ما تقع عليه عينها ، ولم تتسرع فى تسليم الرجل الذى جاء إلى بيتها يطلب حمايتها ، ووجهت إلى الزوجة أسئلة دقيقة عن قصة

جنون زوجها ، وقالت لها : « ما سبب هذا التغير الفجائى فى طباع زوجك ؟ . هل خسر ثروته فى البحار ؟ أو هل مات له صديق عزيز فاضطرب لموته عقله ؟ » . وأجابت أدريانا بأن اضطرابه لا يرجع إلى شىء من هذا ، فقالت رئيسة الدير : « لعله قد أحب سيدة غير زوجته فساقه الحب إلى هذه الحال التى نراها ؟ » وأجابت أدريانا أنها كانت تظن من زمن بعيد أن سبب غيابه الكثير عن البيت يرجع إلى حب سيدة أخرى غيرها . والحق أن الذى كان يضطر أنتفلس إلى ترك بيته هو أنه كان يضيق ذرعا بغيرة زوجته ، ولم يكن سبب ذلك أنه يحب غيرها من النساء . وحذرت رئيسة الدير هذا حين شاهدت ما فى أخلاق أدريانا من عنف وحدة ، ولكنها شاءت أن تتثبت منه فقالت لها : « كان عليك أن تزجريه على هذا » . فأجابتها أدريانا : « لقد فعلت ذلك » . فقالت رئيسة الدير . « لعلك لم تزجريه زجراً كافياً » . وأرادت أدريانا أن تقنع رئيسة الدير بأن ما قالته لأنتفلس كان كافياً له فردت عليها قائلة : « لقد كان هذا موضوع حديثنا فى كل آن : فإذا آوينا إلى الفراش منعت عنه النوم بحديثى عنه ، وإذا جلسنا إلى المائدة لم يذق للأكل طعما لما كنت أسمعه من الكلام فى هذا الموضوع ، وإذا خلوت إليه لم أحدثه فى شىء غيره ، وإذا كان معنا غيرنا أشرت إليه إشارات خفية عارضة ، وكان كل حديثى ينحصر فى أن من النذالة والخسة أن يحب غيرى أكثر منى » .

ولما استدرجت ربة الدير أدريانا إلى الاعتراف بهذا كله قالت لها : « ومن أجل هذا جن زوجك . إن فى لجاجة المرأة الغيور لسما أشد فتكا من ناب الكلب السعر ، ويلوح أن سخريتك قد حرمته طعم النوم ، فلا عجب أن يخف رأسه ، وقد امتزج طعامه بتأنيبك ، والغضب وقت الطعام يفسد الهضم ، ولهذا حُمَّ زوجك . وتقولين إنك أفسدت عليه رياضته بتعنيفك ، فإذا كنتِ قد حَرَّمت عليه التمتع بمجالسة الرفاق والرياضة والألعاب ، فلا مفر من أن يؤدى به هذا إلى الكآبة والحزن واليأس الكريب ، فغيرتك إذن هى التى ذهبت بعقل زوجك » .

وأرادت لسيانا أن تدافع عن أختها فقالت إن تعنيفها لزوجها كان دائماً فى

رفق ، ثم قالت لأختها : « ما بالك تسمعين هذا التأنيب ثم لا تجيبين عنه ؟ » ولكن رئيسة الدير كانت قد كشفت لها عن خطئها فلم تجب عن سؤال لسيانا بأكثر من قولها : « لقد استدرجتنى حتى أقررت بذنبى » .

وأقرت أدريانا بسوء سلوكها ، ولكنها ظلت مصرة على أن يُسَلَّم إليها زوجُها ؛ غير أن رئيسة الدير لم تسمح لأحد بأن يدخل بيتها ، وأبت أن تسلم هذا الرجل البائس إلى زوجته الغيور ، واعتزمت أن تستعين على شفائه بالرقة واللين ، ثم دخلت دارها وأمرت بإغلاق الأبواب .

وفى أثناء هذا النهار الملىء بالأحداث ، والذى وقعت فيه كل هذه الأغلاط لما كان بين الأخوين التوأمين من تماثل تام ، كان اليوم الذى أمهله الشيخ إچيون يمر حتى أشرفت شمسه على المغيب ، وكان مغيب الشمس هو الموعد المحدد لتنفيذ حكم الإعدام إذا لم يؤد الفِداء . وكان موضع تنفيذ الحكم بجوار الدير ، وجىء به إلى هذا المكان فى الوقت الذى دخلت فيه رئيسة الدير إلى بيتها ، وجاء الدوق أيضاً بنفسه ليستطيع أن يعفو عن الشيخ إذا ما تقدم أحد بأداء الفدية عنه .

واعترضت أدريانا هذا الموكب الحزين وصاحت طالبة من الدوق تنفيذ العدالة ، وقالت له إن رئيسة الدير تأبى أن تسلمها زوجها المعتوه لتعنى به . وبينا هى فى حديثها إذ أقبل زوجها الحقيقى ومعه خادمه درميو ، بعد أن انطلق الزوج من سجنه ، وطلب إلى الدوق أن ينصفه من زوجته ، لأنها قد سجنته واتهمته بأنه معتوه ، وقص عليه كيف حل وثاقه وفر من حراسه ، ودهشت أدريانا حين رأت زوجها الذى كانت تظنه فى داخل الدير .

ورأى إچيون ولده فأيقن أنه هو ابنه الذى فارقه ليبحث عن أمه وأخيه ، ولم يخامره شك فى أن هذا الابن العزيز سيؤدى من فوره المال اللازم لفدائه ، ولذلك خاطب أنتفلس بألفاظ العطف الأبوى ، وهو مبتهج يرجو أن يطلق سراحه . وما كان أشد دهشة إچيون حين أنكر ولده معرفته به ، ولم يكن عليه فى ذلك حرج لأن أنتفلس هذا لم ير أباه من اليوم الذى افترقا فيه وهو طفل حين ثارت العاصفة . وبينا كان هذا الرجل البائس يحاول عبثاً أن يحمل ابنه على أن يعترف بأنه أبوه ،

وتحدثه نفسه بأن أحزانه وما صادفه من قلق واضطراب قد بدلته حتى لم يعرفه ولده ، أو أن هذا الولد استنكف أن يعترف بأبيه لما كان يبدو عليه من بؤس وشقاء ، بينا هو فى هذه الحيرة إذا بربة الدير تخرج ومعها أنتفلس الثانى ودرميو ، ورأت أدريانا فى دهشة وحيرة زوجين وخادمين يقفون أمامها .

واتضحت لهم الآن كل هذه الأغلاط والألغاز التى حيرتهم . ذلك أن الدوق حين رأى أنتفلس وأخاه ، ورأى ما بينهما من تماثل ، هداه عقله إلى سبب هذه الألغاز التى بدت له محيرة عجيبة ، وذكر القصة التى رواها له إچيون فى صباح ذلك اليوم ، فقال إن أولئك الرجال هم من غير شك ولدا إچيون وخادماها التوأمان ،

وانتهت هذه الحوادث كلها بسرور آخر لم يكن منتظراً ؛ ذلك أنه قبل أن تغرب شمس ذلك اليوم اختتمت القصة التى رواها فى الصباح وهو حزين بائس ينتظر الحكم عليه بالإعدام بخاتمة سعيدة ، فقد كشفت ربة الدير الوقورة عن حقيقة أمرها ، فإذا هى زوجة إچيون التى طال غيابها ، وأم أنتفلس وأخيه .

ذلك أنه لما أخذ الصيادون منها أنتفلس وخادمه دخلت الدير ، ورفعها رأيها السديد وخلقها الكريم حتى صارت رئيسته ، ولم تكن وهى تقوم بواجب الضيافة للرجل الغريب البائس تعرف أنها إنما تحمى ولدها .

وأخذ الأبوان والولدان يتبادلون عبارات التهنئة والتحية ، بعد أن دام فراقهم زمناً طويلا ، فنسوا فى غمرة الأفراح أن إچيون لم يرفع عنه حكم الإعدام ؛ فلما هدأت سورة عواطفهما بعض الشىء عرض أنتفلس الإفسوسى على الدوق المال اللازم لافتداء أبيه ، ولكن الدوق عفا عن إچيون ورد الفداء . ودخل الدوق الدير ومعه رئيسته وولداها اللذان عثرت عليهما فى تلك الساعة ليستمع إلى أفراد هذه الأسرة البائسة ، وهم يتحدثون على مهل عن هذه الخاتمة السعيدة التى احتتم بها شقاؤهم . وجدير بنا ألا ننسى اغتباط درميو وأخيه على قلة شأنهما ، فقد تبادلا هما أيضاً عبارات التحية والتهنئة ، وأخذ كل منهما يثنى على ما يمتاز به أخوه من وسامة ، وقد سرَّ كلا منهما أن يرى صورته الجميلة فى وجه أخيه كأنه يراها فى مرآة .

وأفادت أدريانا فائدة كبيرة من نصائح والدة زوجها وآرائها السديدة ، فلم يبق فى قلبها من تلك الساعة أثر للريبة الخاطئة من زوجها أو الغيرة عليه .

وتزوج أنتفلس السرقوسى بلسيانا الحسناء أخت زوجة أخيه ، وعاش الشيخ إچيون الطيب القلب مع زوجته وأولاده سنين طويلة فى إفسوس .

على أن هذه الأغلاط الماضية التى كشف سرها بهذه الطريقة لم تحل دون وقوع أغلاط أخرى من نوعها فى الأيام المقبلة ؛ فقد كانت تحدث أغلاط أخرى يضحكون منها ويذكرون بها ما أصابهم فى أيامهم الماضية ، فكان الناس يخطئون فى التعرف على أنتفلس هذا أو ذاك ، وعلى درميو وأخيه . واجتمع من هذه الأخطاء ملهاة من الأغلاط سارة ومسلية .

دقة بدقـــة

كان يحكم مدينة ويانة Vienna فى غابر الأزمان دوق بلغ من حلمه ودماثة أخلاقه إن كان يسمح لرعاياه ألا يراعوا شريعة البلاد دون أن يخشوا عقاباً . وكان من قوانين الدولة قانون كاد ينسى الناس وجوده بنوع خاص ، لأن الدوق لم ينفذه قط فى أثناء حكمه كله . وكان هذا القانون يقضى بالإعدام على كل شخص يعيش مع امرأة غير زوجته ؛ وأغفل الناس هذا القانون وتجاهلوه بسبب لين الدوق وتساهله ، حتى أهملت سنة الزواج المقدسة ، وتتابعت الشكاوى فى كل يوم على الدوق من آباء الفتيات فى ويانة يقولون فيها إن بناتهم قد أغرين بالخروج عن طاعتهم والمعيشة فى صحبة الرجال الأعزاب .

وشاهد الدوق فى حزن هذا الشر يستفحل بين رعاياه ، ولكنه خشى أن يتحول شعبه عن حبه ويصمه بالظلم والاستبداد إذا بدل طبعه وخرج فجأة عن تسامحه ولينه إلى الشدة التى يتطلبها حسم هذا الداء . ولذلك عول على أن يخرج من دوقيته وقتاماً وينزل لغيره عن سلطانه كله ، ليستطيع من يتولى الأمر عنه أن ينفذ القانون فى هؤلاء المحبين الأدنياء ، من غير أن يسىء هو إلى الناس ويلجأ بنفسه إلى هذه الشدة غير المعتادة .

واختار الدوق للاضطلاع بهذا الواجب الخطير رجلا عرف فى ويانه بأنه من الأتقياء الصالحين ، لما كان يلتزمه فى حياته من التقشف والاستمساك بحميد الأخلاق . وكان هذا الرجل يسمى أنچلوا Angelo ، ولما أسر الدوق هذه النية إلى لورد إسكلس Escalus كبير مستشاريه ، قال له : « إذا كان فى ويانة رجل جدير بأن يعهد إليه بهذا الشرف الرفيع فهو لورد أنچلو » . وخرج الدوق من ويانة زاعماً أنه ذاهب فى زيارة إلى پولندة Poland وأناب أنچلوا عنه فى حكم المدينة ، ولكن الدوق لم يغب فى الحقيقة عن ويانة ، بل عاد إليها سراً فى لباس راهب ليراقب خفية مسلك أنچلو الذى يظنه الناس قديساً .

وحدث فى الوقت الذى خلع فيه السلطان على أنجلو أن أغرى رجل يدعى كلوديو Claudio فتاة من أهل المدينة بالفرار من بيت أبويها ، وقبض على هذا الرجل بأمر نائب الحاكم وزج فى غيابة السجن ، ثم حكم عليه بالإعدام تنفيذاً لهذا القانون القديم الذى طالما أغفل . وبذلت جهود عظيمة لاستصدار العفو عن الشاب كلوديو ، وتدخل فى الأمر ذلك الرجل الطيب لورد إسكلس نفسه ، وكان مما قاله « أسفى عليه ! لقد كان لهذا الفتى الذى أسعى للعفو عنه أب شريف ، وإنى لأرجوك أن تغفر له ذنبه إكراما لأبيه » ، فأجابه أنجلو بقوله : « يجب ألا نعبث بالقانون ونستهزئ به ، فنجعله أشبه بالنصب الذى يقام لتخويف الطير ، حتى إذا اعتادت ألا ترى منه ضرراً لم تعد ترهبه ، واتخذته لها مجثما ، إذن فلا بد أن يموت » .

وزار كلوديو فى السجن صديق له يدعى لوسيو Lucio وقال له كلوديو : « أرجو أن تصنع معى هذا الجميل ، اذهب إلى أختى إزبل Isabel التى اعتزمت أن تدخل اليوم دير القديس كلار Saint Clare ، وأطلعها على الخطر المحدق بى ، وتوسل إليها أن تتصل بنائب الدوق المتشدد ، وقل لها أن تذهب بنفسها إلى أنجلو . إن أملى فى نجاحها كبير ، فهى تجيد فن الحديث ، وهى قادرة على الإقناع ، وفوق هذا فإن لحزن الشباب قوة صامتة تفعل فعلها فى قلوب الرجال » .

وكانت إزبل أخت كلوديو قد دخلت الدير فى ذلك اليوم كما قال أخوها لتقضى فيه مدة التمرين على الرهبنة ؛ وكانت نيتها منصرفة إلى لبس ثياب الراهبات بعد أن تقضى فى الدير مدة التمرين . وبينا هى تسأل إحدى الراهبات عن قوانين الدير إذا بهما تسمعان صوت لوسيو يقول وهو يدخل هذا البيت من بيوت الله : « سلام على هذا المكان » ، وقالت إزبل : « منذا الذى يتكلم ؟ » . وقالت الراهبة : « إن ذلك صوت رجل ، فاذهبى إليه يا إزبل واسأليه ماذا يريد ؟ إن لك أن تفعلى هذا ، أما أنا فلا أستطيع . فاذا لبستِ النقاب وجب عليك ألا تخاطبى الرجال إلا فى حضرة كبيرة الراهبات ، فاذا خاطبتهم فعليك ألا تظهرى لهم وجهك ، وإذا أظهرت وجهك لهم وجب عليك ألا تخاطبيهم » . وسألتها إزبل « أليس لكن أيتها الراهبات

بعد ذلك حقوق لا يتمتع بها غير كن من الناس ؟ » ، فأجابتها الراهبة بقولها : « أليس فى هذه ما يكفيك ؟ » ، وقالت إزبل « بلى إنه يكفينا حقا ، فأنا لا أتكلم لأطلب المزيد من الحقوق بل لأظهر رغبتى فى أن تفرض على الراهبات المتعبدات فى دير القديس كلار قيود أشد من هذه القيود » . وسمع صوت لوسيو مرة أخرى فقالت الراهبة : « إنه يناديا من جديد فأرجو أن تجيبيه » . وخرجت إزبل للقاء لوسيو ، ولما سلم عليها ردت عليه السلام بقولها : « سلام ورخاء ، منذا الذى يناديا ؟ » ثم تقدم إليها لوسيو فى أدب واحترام وقال : « تحية أيتها العذراء ، إذا كنت حقا عذراء ، كما تدل على ذلك وجنتاك الورديتان . هل فى وسعك أن تأخذينى إلى حيث أرى إزبل الفتاة التى تقضى مدة التمرين فى هذا المكان ؟ وهذه الحسناء أخت لأخيها البائس كلوديو » . وقالت إزبل : « ولم تقول لأخيها البائس ؟ نبئنى فأنا إزبل وأنا أخته . » وأجابها لوسيو « أيتها السيدة الحسناء الظريفة ، إن أخاك يقرئك على لسانى السلام ، وهو فى السجن » . فقالت إزبل : « ويل لى ، وبأى ذنب سجن ؟ » وأخبرها لوسيو أنه فى السجن جزاء له على إغرائه فتاة من بنات المدينة ، فردت عليه قائلة ! « أسفى عليه ، إننى أخشى أن تكون هى ابنة عمى چوليت Juliet » . ولم تكن إزبل وچوليت من الأقارب ولكن كلتيهما كانت تقول للأخرى يا ابنة العم تذكاراً للصداقة التى نشأت بينهما فى عهد الدراسة . وكانت إزبل تعرف أن چوليت تحب كلوديو فخشيت أن يكون حبها له قد أوقعها فى هذا الزلل . وأجاب لوسيو « إنها هى » . وقالت إزبل : « إذن فليتزوجها أخى » ، فرد عليها بقوله إن كلوديو يسره أن يتزوج بها ، ولكن نائب الدوق قد حكم عليه بالإعدام جزاء له على جرمه « إلا إذا استطعت أن ترقق قلبه بلطفك وجميل رجائك . وهذه هى الرسالة التى جئت بها إليك من عند أخيك » . وقالت إزبل : وا أسفاه ! أى خير أستطيع أنا العاجزة أن أفعله ؟ إنى لأشك فى قدرتى على التأثير فى أنچلو » . وأجابها لوسيو « إن الشكوك تغدر بنا وتذهب بالخير الذى فى وسعنا أن ناله بما تدخله فى نفوسنا من خشية الإقدام عليه . اذهبى إلى لورد أنچلو . إن الفتيات إذا تشفعن وجثون وبكين ، أجزل الرجال العطاء كأنهم أرباب » . وقالت

إزبل : « سأنظر ماذا أستطيع أن أفعل . ولن أنتظر إلا ريثما أبلغ الأمر لرئيسة الدير ، ثم أذهب من فورى إلى أنچلو . بلغ تحياتى لأخى وسأبعث إليه فى هذه الليلة بنبأ نجاحى فى مهمتى » .

وذهبت إزبل إلى القصر وجثت على ركبتيها أمام أنچلو وقالت له : « إنى فتاة حزينة ألجأ إلى مكارمك إذ سمح كرمك بالإصغاء إلى » ؛ ورد عليها أنچلو بقوله : « وماذا تطلبين ؟ » فشرحت له مطلبها بألفاظ تلين الجماد ، وسألته أن يعفو عن أخيها . فقال لها أنچلو : « أيتها الفتاة لا رجوع فيما قضيت ، فقد صدر الحكم على أخيك ولابد من موته » . فقالت أزبل : ما أعدل هذا القانون ، ولكن ما أشده ، إذاً فقد كان لى أخ ، والله يحفظك » . وهمت بالخروج ولكن لوسيو ، وقد جاء معها ، قال لها : « لا تيأسى بهذه السرعة ، بل عودى إليه ، وتضرعى إليه ، واركعى أمامه ، وتعلقى بأذياله ، إنك فاترة فى رجائك فوق ما ينبغى ، ولو أنك كنت فى حاجة إلى أقل الأشياء قيمة لما طلبتها منه بأكثر مما طلبت ثقلا فى اللسان وكلالة » . وعندئذ جثت أزبل على ركبتيها وتضرعت إليه أن يرحم أخاها . فقال لها أنچلو : « لقد قضى الأمر وفات الأوان » . فأجابته أزبل : « أتقول فات الأوان ؟ إنه لم يفت . إن فى طاقتى أنا التى أنطق بالكلمة أن أستردها . ثق أيها السيد العظيم أن التاج على رأس الملك ، والسيف فى قبضة الحاكم ، والعصا فى يد القائد العظيم ، والوشاح على جسم القاضى ، أن شيئاً من هذا لا يزين صاحبه كما تزينه الرحمة » . فرد عليها أنچلو بقوله : « أرجو أن تذهبى من هذا المكان » . ولكن أزبل ظلت ترجو وتتوسل وقالت : « لو كان أخى مكانك وكنت أنت مكانه لوقعت فيما وقع فيه ، ولما قسا عليك مثل قسوتك عليه ؛ ولو كان لى مالك من سلطان ، وكنت أنت إزبل أفتظن أن الأمر يكون كما هو الآن ؟ كلا ! لو كان الأمر كذلك لعلمتك كيف يكون القاضى وكيف يكون السجين » . فرد عليها أنچلو بقوله : « أرجو أن تثقى أيتها الفتاة الحسناء أننى لم أقض بالموت على أخيك ، وإنما قضى عليه بذلك القانون ؛ ولو كان هو من أقاربى ، بل لو كان أخى أو ولدى ، لما لقى منى غير هذا . ولا بد أن يموت غداً » . فقالت إزبل : « غداً ؟ ما هذه العجلة ؟

أمهله ، إنه لم يستعد بعد للموت . إن الدجاجة التى نذبحها لطعامنا لا نذبحها فى غير الأوان ، فهل يصح أن يكون إجلالنا لله أقل من إجلالنا لأنفسنا الخبيثة ؟ . أيها السيد الكريم ، تروّ فى الأمر ولا تعجل . إن إحداً لم يمت بسبب هذا الجرم الذى ارتكبه أخى ، وإن كان كثيرون غيره قد ارتكبوه ؛ فإذا قضيت بقتله كنت أول من قضى بهذا القتل ، وكان هو أول من قضى عليه به . ارجع إلى قلبك وسله هل طاف به ما يشبه الذنب الذى ارتكبه أخى ؟ فإذا أقر لك بأنه قد ارتكب هذا الذنب الذى هو من طبيعة البشر ، فلا تترك له مجالاً للتفكير فى موت أخى » . وكان وقع عبارتها الأخيرة أشد من وقع كل ما قالته قبل ، وذلك لأن جمال أزبل البارع قد أثار عاطفة أثيمة فى قلبه ، وأخذت تجيش فى صدره أفكار من الحب الدنىء ومن نوع الجريمة التى ارتكبها كلوديو . وثار فى قلبه صراع عنيف لم ير معه إلا أن يدير وجهه عن أزبل ؛ فنادته قائلة : « عد أيها السيد الرحيم ، واستمع لما أرشوك به ، عد أيها السيد الكريم » . وصاح أنچلو مندهشاً من جرأتها على التفكير فى رشوه ، وواصلت أزبل حديثها قائلة : « نعم أرشوك رشاً تشترك معى فيها السماء ، ولست أرشوك بالذهب أو الحجارة المتلألئة التى يعلو ثمنها أو ينخفض كما تشاء أوهام الناس ، بل أرشوك بالدعوات الصالحة ترتفع إلى السماء قبل مطلع الشمس ، وهى دعوات صادرة من نفوس معصومة من الزلل ، من عذارى صائمات لا تفكر عقولهن فى شىء من متاع الدنيا » . وقال لها أنچلو : « إذاً فاحضرى إلىّ غداً » . وخرجت أزبل من حضرته وقد بعثت هذه المهلة القصيرة وسماحه لها أن تعود إليه لتحدثه فى الأمر مرة أخرى ، بعثت فيها هذه المهلة وهذه المنحة ، أملا ساراً بأن تتغلب آخر الأمر على طبعه القاسى ، وقالت وهى تهم بالانصراف من عنده : « أسأل الله أن يحفظ عليك شرفك ، أسأل الله أن يسلم شرفك » . فلما سمع أنچلو هذا الدعاء قال فى نفسه : « آمين ، لعل الله ينجينى منك ومن سحر فضائلك » . وروعته فى ذلك الوقت أفكاره الخبيثة فقال : « ما هذا ؟ هل أحببتها فبعث هذا الحب فى نفسى الرغبة فى سماعها والتمتع بجمال عينيها ؟ فى أى شىء أفكر ؟ إن الشيطان الماكر ، عدو الإنسان الألد ، إذا أراد أن يغوى أولياء الله

اتخذ الأولياء سبيلا إلى هذه الغواية . إن امرأة من النساء المتبرجات لم تستطع أن تغوينى ، ولكن هذه المرأة العفيفة قد سيطرت على وأخضعتنى لأمرها ، ولقد كنت حتى هذه الساعة أسخر من المحبين وأعجب من أمرهم . »

وقضى أنچلو تلك الليلة يصارع هذه العاطفة الاجرامية التى ثارت فى قلبه ، وكان ما قاساه من الألم فى هذا الصراع أشد مما قاساه السجين الذى قضى هو بإعدامه ، وذلك لأن الدوق الرحيم قد زار كلوديو فى سجنه وهو فى ثياب الرهبان ، وأخذ يرشده إلى سبيل رضاء الله ، ويعلمه عبارات التوبة والنجاة من العذاب . أما أنچلو فقد كان طوال الليل يكابد الآلام التى يكابدها المجرم المتردد ، فهو آناً يفكر فى أن يغوى إزبل ويضلها عن طريق الطهر والشرف ، وآناً يرتاع ويؤنبه ضميره على الجريمة التى لم تكن قد خرجت بعد من طور التفكير إلى طور العمل ، وفى آخر الأمر ضل وغلبت عليه شقوته ، واعتزم هذا الرجل الذى ارتاع من زمن قصير من سماع لفظ الرشوة أن يغوى هذه الفتاة العذراء برشوة غالية لا تقوى على ردها ، وهى حياة أخيها العزيز .

ولما جاءت إزبل فى الصباح طلب إليها أنچلو أن تدخل عليه ، فلما أقبلت عليه قال لها إنها إذا أسلمت شرفها إليه ، وزلت كما زلت چوليت مع كلوديو ، وهب لها حياة أخيها ، وأضاف إلى ذلك قوله : « وذلك لأنى أحبك يا إزبل » ، فردت عليه إزبل بقولها : « وهكذا كان أخى يحب چوليت ، ومع ذلك تقول لى إنه سيقتل بسبب هذا الحب » . وقال أنچلو « ولكن كلوديو سينجو من الموت إذا رضيت أن تأتى إلى خلسة فى ظلام الليل كما خرجت چوليت من بيت أبيها فى الليل لتأتى إلى كلوديو » . ودهشت إزبل من قوله هذا ومن إغرائه لها على أن ترتكب نفس الإثم الذى من أجله قضى بإعدام أخيها ، فقالت له : « إننى لا أتردد فى أن أفعل من أجل أخى البائس ما أفعله من أجل نفسى ، ولكنى لو خيرت بين هذا الفعل الذميم وبين أن يلهب جسدى بالسياط ، ويقضى على بالإعدام ، لفضلت أن تمزق السياط جلدى حتى ينزف منها الدم فيكون كاليواقيت أزيّن بها ، ولذهبت إلى لقاء الموت كأنما أذهب إلى فراش وثير طالما تاقت نفسى إليه » . ولما أخبرته أنها ترجو ألا يكون كلامه هذا إلا وسيلة

يختبر بها طهرها وعفتها قال لها : « صدقيني وأقسم لك أن ألفاظي لا تعبر إلا عن غرضي » . واغتاظت إزبل حين سمعت كلمة الشرف تستخدم للتعبير عن هذا الغرض غير الشريف فقالت : « ما أقل هذا الشرف الذي يراد أن نؤمن به ، وما أحقر هذا الغرض الذي ترمي إليه ! لأفضحنك يا أنجلو ، فتدبر في أمرك وأنفذ الآن أمراً بالعفو عن أخي ، وإلا أذعت بأعلى صوتي في طول البلاد وعرضها أي رجل أنت » .

فأجابها أنجلو بقوله : « ومنذا الذي يصدق قولك يا إزبل ؟ إن حسن سمعتي ، وحياة الزهد التي أحياها ، وأقوالي التي أدحض بها فريتك ، كل هذا يجعل كفتي هي الراجحة ، ويُسقط عني تهمتك ، فأنقذي أخاك بالخضوع لإرادتي وإلا أعدم غداً . أما أنت فقولي للناس كل ما تشائين ، فإن قصتي الكاذبة سترجح قصتك الصحيحة ، وسأمهلك في الجواب إلى غد » .

وخرجت إزبل متجهة إلى السجن الرهيب الذي زج فيه أخوها ، وقالت وهي في طريقها إليه : « لمن أشكو يا إلهي ؟ إذا قلت هذا فمنذا الذي يصدقني ؟ » ولما وصلت إلى السجن كان الدوق وأخوها يتناجيان ، وكان الدوق قد زار أيضاً جوليت وهو في ثياب راهب وأشعر هذين المحبين الآثمين بحقيقة إثمهما ، وأقرت جوليت التعسة والدموع تنهمر من عينيها ، والندم باد في أقوالها ، بأن الذنب يقع معظمه عليها لا على كلوديو ، لأنها استجابت لرجائه الأثيم .

ولما دخلت إزبل الحجرة التي كان فيها أخوها قالت : « السلام على من هنا ، مغفرة وحسن رفقة » . وقال الدوق المتنكر : « من الطارق ؟ ادخل ، إن هذا الدعاء جدير بحسن الاستقبال » . وقالت إزبل : « إني أريد أن أقول كلمة أو كلمتين لكلوديو » . وعندئذ تركهما الدوق وحدهما وطلب إلى محافظ السجن أن يرشده إلى مكان يسمع فيه حديثهما ولا يراه فيه .

وقال كلوديو : « أي أختي ! ماذا جئت به لتريحيني وتطمئني بالي ؟ » وأجابته إزبل قائلة إنه يجب عليه أن يستعد للموت غداً . وسألها كلوديو : « هل من سبيل إلى الخلاص ؟ » . فأجابته إزبل : « نعم ، نعم إن للخلاص سبيلا ، ولكنها سبيل إذا رضيت بها جردتك من الشرف وجللتك العار » . وسألها كلوديو :

« خبريني بها » ، فأجابته أخته بقولها : « إني أخشاك يا كلوديو ، وإني لترتعد فرائصي خوفاً من أن تكون راغباً في الحياة ، فتشتري بشرفك الدائم فترة صغيرة من الزمان ، هي ست سنين أو سبع تضيفها إلى أجلك . هل تقوى على احتمال الموت ؟ إن الناس يخشون الموت أشد خشية ، ولكن الخنفسة الحقيرة التي نطؤها بالأقدام لتشعر بألمه كما يشعر به أقوى الرجال » . وأجابها كلوديو قائلا : « ولماذا تجلينني هذا العار ؟ هل تظنين أني أستمد عزيمتي من قلب رقيق كالزهر النضير ؟ إذا كان لا بد أن أموت فسأستقبل ظلام القبر كأني أستقبل عروسي ، فأعانقه وأضمه إلى صدري » . فأجابته إزبل : « إنك أخي بحق ، وإن هذا الصوت لصوت أبي قد شق قبره . أجل لا بد أن تموت ، ولكن هل تصدق يا كلوديو أن هذا الذي يتظاهر بالصلاح والتقى يرضى بأن يهب لك الحياة إذا رضيتُ بأن يدنس شرفي ؟ قسما لو أنه طلب حياتي لقدمتها راضية كما تقدم أحقر الأشياء لأنجيك بها من الموت » . وقال لها كلوديو « شكراً لك يا عزيزتي إزبل » . وأجابته إزبل : « استعد للموت غداً » . فقال كلوديو : « إن الموت رهيب » ، فأجابته أخته : « والمعرة شيء كريه » . وتغلب خوف الموت على عزيمة كلوديو ، وتملكه رعب لا يعرفه إلا المجرمون في ساعة احتضارهم ، فصاح قائلا : « أختي العزيزة ، دعيني أعيش ؛ إن الله ليعفو عن الذنب الذي ترتكبينه لتنقذي به حياة أخيك ، حتى ليصبح هذا الذنب فضيلة » . فأجابته إزبل : « ويلك أيها الغادر الجبان ، النذل التعس ، أتشتري حياتك بتدنيس شرف أختك ؟ تبا لك ! تبا لك ! تبا لك ! لقد كنت أظن أيها الأخ أنك لو كانت لك عشرون رأساً لقدمتها كلها إلى الجلاد قبل أن ترضى لأختك هذا العار » . وقال لها كلوديو ونار الألم تلتهم فؤاده : « إصغ إلي يا إزبل » . ومهما تكن تلك الألفاظ التي أراد كلوديو أن ينطق بها دفاعاً عن خور عزيمته وشرائه الحياة بشرف أخته الطاهرة ، فقد قطعها دخول الدوق وقوله له : « لقد سمعت يا كلوديو ما دار بينك وبين أختك من حديث ؛ إن أنچلو لم يفكر قط في تلويث شرفها ، ولقد قال ما قال ليختبر به عفتها ، ولقد وجدها عفيفة شريفة حين نطقت بهذا الرفض الجميل الذي تقبله بأحسن قبول ،

ولا أمل لك فى أن يعفو عنك ، فاقض ما بقى من ساعات لك فى هذه الدنيا فى الصلاة والعبادة واستعد للموت » . ولما سمع كلوديو ذلك ندم على ما أظهر من ضعف وقال : « دعونى أطلب العفو من أختى ، لقد كرهت الحياة كرهاً يدفعنى إلى طلب الخروج منها » ، وانتحى كلوديو ناحية ، وقد غلب عليه الغضب والأسف على ما وقع فيه من خطأ .

ولما خلا الدوق إلى إزبل أخذ يثنى على طهرها وقوة عزيمتها ، وقال لها : « إن اليد التى أبدعت جمالك قد صاغته من العفة والطهر » ، وقالت إزبل : « ما أشد ما خدع الدوق الكريم فى أنچلو ، ولو قدر أن يعود الدوق ، واستطعت أن أتحدث إليه ، لأطلعته على ما خفى عليه فى حكومته » . ولم تكن إزبل تدرك أنها فى هذه اللحظة نفسها تطلع الدوق على تلك الأسرار التى تهدد بإفشائها ، وأجابها الدوق قائلا : « لا بأس من أن تفعلى هذا ، ولكن الظروف الحاضرة تجعل أنچلو قادراً على أن يرد عن نفسه التهمة ، ولذلك أطلب إليك أن تستمعى إلى نصيحتى . إنى أعتقد أن فى وسعك أن تحسنى الإحسان كله إلى سيدة مظلومة خليقة بهذا الإحسان ، وأن تنقذى حياة أخيك من سطوة القانون ، ولا تسيئى إلى شرفك أية إساءة ، وأن تسرى الدوق الغائب كل السرور ، إذا ما عاد من منفاه ووصل هذا إلى علمه » . وأجابته إزبل بقولها إنها ترضى أن تفعل كل ما يطلبه إليها ما لم يكن فيه شر ، فقال الدوق : « إن النفوس الطاهرة جريئة ولا تخاف قط » . ثم سألها هل سمعت شيئاً عن مريانا Mariana أخت فردرك Frederick الجندى الباسل الذى مات غرقاً فى البحر ؟ فأجابته إزبل « إنى سمعت عن هذه السيدة وسمعت الناس يذكرونها بالخير » . فقال الدوق : « إن هذه السيدة زوجة أنچلو ، ولكن مهرها كان على ظهر السفينة التى هلك فيها أخوها ، وما كان أشد وقع هذا على الفتاة المسكينة ، فقد فقدت أخاً كريماً ذائع الصيت ، كان فى حبه لها مثال البر والرحمة ، وخسرت إلى ذلك ثروتها فخسرت أيضا حب زوجها أنچلو هذا الذى يتظاهر بالورع والتقوى ؛ فقد ادعى أنه عرف عن هذه السيدة الطاهرة ما يشين سمعتها ، فتخلى عنها فى أحزانها ، ولم يواسها فى محنتها ، وكان السبب الحقيقى هو أنها فقدت

مهرها . وكان خليقا بهذه القسوة الظالمة أن تذهب بما كان فى قلب مريانا من حب لزوجها ، ولـكنها زادت نار الحب ضراماً ، كما تزيد الحواجز السيل قوة على قوته ، وظلت مريانا تحب زوجها القاسى كما كانت تحبه من قبل » . ثم كشف الدوق عن قصده فطلب إلى إزبل أن تذهب إلى لورد أنچلو وتتظاهر بأنها ستجيبه إلى طلبه وتأتى إليه فى منتصف الليل ، فتحصل منه بذلك على العفو الموعود ، ثم تذهب مريانا بدلا منها فى الموعد المحدد ، وتتظاهر أمام أنچلو بأنها إزبل . وقال الراهب الزائف « ولا تخشى يا ابنتى شيئا إذا فعلت هـذا ، فإن أنچلو زوجها وليس فى الجمع بينهما خطيئة » . وأعجبت إزبل بهذه الخطة فخرجت لتفعل ما أشار عليها به ، وذهب هو ليبلغ مريانا ما اتفقا عليه . وكان قد زار مريانا من قبل وهو فى زى الرهبان ، ولقنها بعض التعاليم الدينية وواساها مواساة الأصدقاء ، وعرف منها قصتها فى تلك الزيارات ، وكانت هى الآن تنظر إليه نظرتها إلى الرجال الأتقياء الصالحين ، فلم تتردد قط فى أن تهتدى فى هذا العمل برأيه .

وبعد أن فرغت إزبل من حديثها مع أنچلو عادت إلى بيت مريانا ، وكان الدوق قد وعدها أن يلتقى بها هناك ، فقال لها : « نعم اللقاء ، وفى أحسن الأوقات ، ماذا لديك من أخبار عن نائبنا الـكريم ؟ » وأفضت إليه إزبل بالطريقة التى سويت بها الأمور فقالت : « إن لأنچلو حديقة لها سور من الحجارة ، وفى الجهة الغربية منها كرمة ذات باب » ثم أظهرت للدوق ومريانا مفتاحين أعطاها إياهما الدوق ، وقالت لهما : « فأما المفتاح الـكبير فمفتاح باب الـكرمة ، وأما هذا المفتاح الثانى فيفتح به باب صغير يوصل الـكرمة بالحديقة ، وقد وعدته أن أجيئه هنا فى منتصف الليل ، وحصلتُ منه على وعد أكيد بأن يعفو عن أخى . ولقد حرصت الحرص كله على أن أعرف أمارات المـكان ، وأرانى هو الطريق مرتين ووصفه لى بصوت خافت ودلنى عليه بجد إجرامى » . وسألها الدوق : « ألم تتفقا على أمارات وأشياء يتحتم على مريانا أن تعرفها ؟ » فأجابته إزبل بقولها : « كلا لم نتفق على شىء ، اللهم إلا أن أذهب إليه فى ظلمة الليل ، وقد أخبرته أن الوقت لا يسمح لى بالبقاء معه طويلا ، وأدخلت فى روعه أن خادما سيأتى معى ، وأن هذا الخادم يعتقد أنى آتية لأمر يتعلق

بأخى » . وأثنى الدوق على حسن تدبيرها ، والتفتت هى إلى مريانا وقالت لها : « ليس لك أن تقولى شيئاً إلى أنجلو حين تخرجين من عنده إلا قولك فى صوت خافت رقيق : لا تنس الآن أخى » .

وأخذت إزبل مريانا فى تلك الليلة إلى المكان الموعود ، وقد سرها أنها استطاعت بحسن تدبيرها ، حسب اعتقادها ، أن تحتفظ بشرفها وبحياة أخيها ؛ ولكن الدوق لم يكن واثقا بأن أخاها قد نجا من الموت ، ولذلك عاد إلى السجن فى منتصف الليل ؛ وكان من حسن حظ كلوديو أن فعل الدوق ذلك ، ولولا هذا لقطع رأسه فى تلك الليلة نفسها . ذلك أن الدوق لم يكد يصل إلى السجن حتى جاء أمر من النائب القاسى بأن يقتل كلوديو ويرسل رأسه إليه قبل الساعة الخامسة صباحا . ولكن الدوق حمل محافظ السجن على أن يؤجل قتل كلوديو ويخدع أنجلو بإرسال رأس سجين آخر مات داخل السجن فى صباح ذلك اليوم . وأراد الدوق أن يقنع المحافظ باجابة طلبه هذا — وكان المحافظ لا يزال يظنه راهباً لا أكثر من ذلك ولا أقل — فأبرز له خطابا بخط الدوق نفسه وعليه خاتمه ، فلما رآه أيقن أن الراهب يحمل أمراً سريا من الدوق ، فرضى ألا يقتل كلوديو ، وقطع رأس الرجل الميت وحمله إلى أنجلو .

ثم كتب الدوق إلى أنجلو كتابا وقعه باسمه ، يقول فيه إن حوادث مفاجئة اضطرته إلى اختصار رحلته ، وإنه سيكون فى ويانة فى صباح الغد ، وطلب إلى أنجلو أن يقابله عند باب المدينة ليرد إليه سلطانه ، وأمر الدوق كذلك أن يذاع فى الناس أنه إذا كان لأحد منهم ظلامة فعليه أن يتقدم بها فى الطريق العام عندما يدخل المدينة .

وجاءت إزبل إلى السجن فى الصباح الباكر حيث كان الدوق فى انتظارها ، فرأى لحاجة فى نفسه لم يشأ أن يعلنها وقتئذ أن يخبرها أن كلوديو قد قتل . فلما سألته هل أرسل أنجلو أمره بالعفو عن أخيها ؟ قال الدوق : « لقد أنقذ أنجلو أخاك من هذا العالم . لقد قطع رأسه وأرسل إلى نائب الدوق » ، وصاحت إزبل من فرط حزنها : « ما أشقاك يا كلوديو ، وما أتعس حظك يا إزبل ، وما أشد ظلمك

أيتها الدنيا ، وما أخبثك يا أنچلو » . وأمرها الراهب ألا تبتئس ؛ وبعد أن هدأ روعها قليلا نبأها بقرب رجوع الدوق ، وأرشدها إلى الطريقة التى يجب عليها أن تتبعها فى عرض شكواها من أنچلو ، وأمرها ألا ترتاع إذا رأت الأمور تسير على غير ما تشتهى وقتا ما . وبعد أن قدم لإزبل من النصائح ما فيه الكفاية ، ذهب إلى مريانا وأشار عليها هى أيضاً بما يجب عليها أن تفعله .

ثم خلع الدوق ملابس الرهبنة ودخل مدينة ويانة فى ثيابه الملكية يحيط به جمع حاشد من رعاياه المخلصين وقد اجتمعوا كلهم ليحيوه ، واستقبله أنچلو وأسلمه حقوقه بالطرق الرسمية ، وتقدمت إزبل تلتمس الإنصاف ، وقالت له : « العدالة أيها الدوق العظيم ، إنى شقيقة فتى يدعى كلوديو حكم عليه بالإعدام لأنه أغوى فتاة من بنات المدينة ، وطلبت أنا إلى لورد أنچلو أن يعفو عن أخى . ولا حاجة لى بأن أصف لفخامتكم كيف ركعت ورجوت ، وكيف ردنى وكيف أجبته ، فذلك أمر يطول ، وحسبى أن أخبر مولاى بالنتيجة المزرية التى أُحَدِّثه عنها فى حسرة وخجل ، فقد أبى أنچلو أن يطلق سراح أخى إلا إذا خضعت لحبه الشائن ، وفرطت له فى عفتى . وبعد صراع طويل بين عفتى وحزنى على أخى ، تغلبت عاطفة الحب على العفة وأسلمته نفسى . وفى صباح اليوم التالى أخلف أنچلو وعده وأمر بقتل أخى » . وتظاهر الدوق بعدم تصديق قصتها ، وقال أنچلو إن حزنها على أخيها الذى نفذ فيه حكم القانون قد أثر فيها فذهب بعقلها . ثم تقدم شخص آخر يلتمس العدالة ، وكان ذلك الشخص مريانا فقالت : « أيها الأمير النبيل ! إنى أنا زوجة هذا الرجل ، لا شك فى هذا كما لا شك فى أن النور يأتى من السماء ، والصدق يخرج مع الأنفاس ، والحق تدركه العقول ، وهو والفضيلة متلازمان . إن الذى تقوله إزبل هو الكذب بعينه ، لأنى قضيت تلك الليلة معه فى بيته الذى فى الحديقة ، فإذا كان هذا صحيحاً — وهو صحيح لا شك فيه — فاسمح لى بالنهوض ، وإذا لم يكن فلأبقين هنا على الدوام كأننى تمثال من الرخام » . واستشهدت إزبل على صدق قولها بالراهب لدوك Lodowick ، وهو الاسم الذى تسمى به الدوق وهو متنكر ، حين كانت إزبل ومريانا تعملان بأمره وحين قالت كلتاهما ما قالته . وكان

يقصد من وراء هذا أن تظهر براءة إزبل بهذه الطريقة العلنية أمام أهل ويانة كلهم . ولم يكن أنجلو يعرف أن هذه الرغبة هى منشأ الخلاف بين قصتيهما ، ولذلك كان يرجو أن يبرئه هذا التناقض الظاهر فى شهادتيهما مما اتهمته به إزبل . وتظاهر الرجل بأنه قد مست كرامته وقال مغضباً : « لقد كان كل ما فعلته حتى هذه الساعة أن تبسمت وصبرت ، أما الآن يا سيدى الدوق فلم يعد فى قوس الصبر منزع ، وتبين لى أن هاتين المرأتين البائستين اللتين ذهب عقلهما تسخرهما يد قوية تأتمران بأمرها . فليسمح لى مولاى أن أكشف سر هذه المؤامرة » .

فأجابه الدوق بقوله : « لك ذلك وأنا راض به كل الرضا ، ولك أن تعاقبهما العقاب الذى ترتضيه . وأنت أيا لورد إسكلس Escalus اجلس إلى جانب لورد أنجلو وأعنه على كشف سر هذه الفرية الدنيئة ، وقد بعثت أستدعى الراهب الذى حرضهما عليها ، فاذا جاء فانظرا فى هذه التهم وعاقبا المفترين بما تريانه من أنواع العقاب . أما أنا فسأتركما إلى حين ، ولا تبرح يا لورد أنجلو هذا المكان حتى تفصل فى هذه الفرية » .

وخرج الدوق وترك أنجلو مغتبطاً أشد الاغتباط إذ اختير لأن يكون قاضياً ومحكماً فى قضيته . ولكن الدوق لم يغب إلا ريثما خلع ملابسه ولبس ثياب الرهبان ، ثم عاد فى هذه الثياب ومثل أمام أنجلو وإسكلس . وظن الشيخ إسكلس الطيب القلب أن أنجلو قد ألصقت به تهمة باطلة فقال للراهب المزعوم : « تقدم يا سيدى ، هل حرضت هاتين المرأتين على أن تفتريا عليه هذا الافتراء ؟ » فأجابه الراهب بقوله : « أين الدوق ؛ إنه هو الذى يجب أن يسمعنى » . فقال إسكلس : « إننا نمثل الدوق ، وسنستمع إليك فقل الحق » ، وأجابه الراهب : « سأكون على الأقل جريئاً » . ثم أخذ يعيب على الدوق تركه قضية إزبل فى يد الرجل الذى اتهمته ويفصح عن كثير من الشرور التى رآها وهو فى ويانة يرقب أحوالها ، حتى أنذره إسكلس بأشد أنواع العقاب لأنه أهان الدولة وطعن فى أعمال الدوق ، ثم أمر أن يساق إلى السجن . وما كان أشد دهشة الحاضرين جميعاً وحيرة أنجلو حين خلع الراهب المزعوم ملابسه ، ورأى الناس أنه هو الدوق بعينه .

ووجه الدوق خطابه أولا إلى إزبل فقال : « تقدمى هنا يا إزبل ، إن الراهب الذى كان يحدثك هو الآن أميرك ، ولكننى وإن بدلت ملابسى لم أبدل قلبى نحوك ، بل إننى لا أزال كما كنت وفيا لك راغباً فى خدمتك » . وأجابته إزبل بقولها : « عفواً يا مولاى ، فقد استعنت بك وأتعبتك وأنا لا أعرف فخامتك » . ورد عليها بقوله إنه فى أشد الحاجة إلى عفوها لأنه لم ينج أخاها من الموت — ولم يشأ أن يخبرها فى ذلك الوقت أن أخاها حى يرزق ، يريد بذلك أن يمتحنها امتحانا جديداً . وعرف أنجلو وقتئذ أن الدوق كان يطلع سرا على سوء تصرفه فقال له « مولاى الرهيب ، لو أننى ظننت الآن أن جريمتى ستظل مستترة لكان ذلك جرما أشد من كل جرائمى الأخرى ، لأنى أراك يا مولاى قد اطلعت على أعمالى كما يطلع عليها الإله القدير . إذن فلا تُطل أجل فضيحتى أيها الأمير الكريم ، ولتنته محاكمتى باعترافى ؛ وكل الذى أرجوه من فخامتك أن تصدر حكمك على الفور ، وأن يكون هذا الحكم بإعدامى » . وأجابه الدوق بقوله « إن ذنوبك يا أنجلو غير خافية ، إنا نحكم عليك بأن تموت حيث مات كلوديو ، فخذوه ولا تمهلوه كما لم يمهل هو كلوديو ، أما أملاكه فإنا نهبها لك يا مريانا لتشترى به زوجا خيراً منه » .

وردت عليه مريانا قائلة « مولاى ، ليس لى مأرب فى غيره أحسن منه » ؛ ثم جثت على ركبتيها كما جثت من قبل إزبل وهى ترجو العفو عن كلوديو ، جثت هذه الزوجة الرحيمة تطلب العفو عن أنجلو زوجها الذى جهل قدرها وقالت : « سيدى الرحيم ، ومولاى الطيب الكريم ، أعينينى يا إزبل واركعى أمامه ، وسأكون فى خدمتك ما حييت » .

فأجابها الدوق بقوله « إنك تطلبين إليها المحال ، ولو ركعت إزبل أمامنا ترجو له الرحمة ، لحطمت روح أخيها جدران قبره وخرجت منه مرتاعة ، واختطفتها من هذا المكان » . ولكن مريانا ظلت تقول « عزيزتى إزبل ، حسبك أن تركعى إلى جانبى ، وأن ترفعى يدك ولا تقولى شيئا فسأتولى أنا القول كله . يقولون إن خير الناس قد خلقوا من الذنوب ، وما أكثر ما يصلح القليل من الشر أحوالهم ، وقد يكون زوجى من هؤلاء الناس . إزبل ألا تركعين من أجلى ؟ » .

وقال الدوق « إنه يموت جزاء ما فعل بكلوديو » . ولشد ما أثلج قلب الدوق الكريم أن يرى إزبل نفسها ، التى لم يكن ينتظر منها إلا كل فعل كريم ، تركع أمامه وتقول : « سيدى يا أكرم الناس طرًّا ، انظر إلى هذا الرجل المقضى عليه كما لو كنت تنظر إلى أخى حيًّا . إنى لأظن أن شيئا من الإخلاص كان رائده فى أعماله ، حتى وقعت عينه علىّ . فإذا كان ذلك حقا فلا تدعه يموت . إن أخى لم يلق إلا الجزاء الحق ، فقد ارتكب الذنب الذى قتل من أجله » .

وكان خير ما يستطيع الدوق أن يجيب به رجاء هذه السيدة الكريمة التى تطلب العفو عن عدوها ، أن يأتى لها بأخيها الذى تندبه ، وكان قد أرسل رسولا ليحضر كلوديو من السجن حيث كان ملقى فى غيابته لا يعرف ما قدر له . وقال بعد ذلك لإزبل « مدى إلى يدك يا إزبل ، إنى أعفو عن كلوديو إكراما لك ؛ قولى إنك ستكونين لى ، وإنه هو سيكون أخى » . وكان لورد أنجلو قد عرف فى ذلك الوقت أنه نجا من الموت ، ورأى الدوق عينيه تبرقان قليلا فقال : « احرص على حب زوجتك ، إن نبل خلالها هو الذى أنجاك . فليدم لك السرور يا مريانا ، ولتحبها يا أنجلو . لقد خبرتها وعرفتُ كريم طباعها » . وعاد إلى ذاكرة أنجلو ما أظهره من القسوة حين تولى الأمر برهة قصيرة وشعر الآن بلذة الرحمة .

وأمر الدوق كلوديو أن يتزوج چوليت ، وتقدم هو إلى إزبل مرة أخرى يطلب يدها بعد أن تملكت قلبه بعفتها وكريم فعالها . ولم تكن إزبل قد لبست ثياب الرهبان ، فلم يكن عليها من حرج فى الزواج ، فقبلت هذا العرض الكريم الذى عرضه عليها الدوق متأثرة بما أدى لها من خدمات صادقة وهو رجل متواضع متنكر فى زى الرهبان . ولما أصبحت إزبل دوقة ويانة ، كان المثل الطيب الذى ضربته لفتيات المدينة فى الطهر والعفة عظيم الأثر فى تقويم أخلاقهن وإصلاح شأنهن ، فلم تقع إحداهن بعدئذ فيما وقعت فيه چوليت ، التى ندمت على فعلتها وصلح حالها وأصبحت زوجا لكلوديو . ودام حكم الدوق الرحيم هو وزوجته المحبوبة إزبل زمنا طويلا وكان أسعد الأزواج والأمراء .

الليلة الثانية عشرة

أو

ما تريد

كان سبستيان Sebastian أحد سادة مسلين Messaline وڤيولا Viola إحدى سيداتها توأمين . وكان من أغرب الأشياء فى ظن الناس أن كان بين الأخ وأخته من الشبه ما يعجزون معه عن أن يميزوا هذه من ذاك إذا افترقا لولا اختلاف لباسهما . ولقد ولدا فى ساعة واحدة ومرت بهما ساعة كادا يهلكان فيها ، فقد تحطمت سفينتهما على شاطئ إلريا Illyria فى سفرة لهما هناك ، على أثر اصطدامها بصخرة فى عاصفة هوجاء ، ولم ينج من ركبها إلا عدد قليل . ونزل قائد السفينة وقليل ممن كان معه من الملاحين فى قارب صغير وصلوا به إلى البر سالمين ، وأخذوا معهم ڤيولا . ولكن هذه الفتاة البائسة لم تغتبط بنجاتها بل أخذت تندب ما أصابها بفقد أخيها ، وأخذ قائد السفينة يواسيها ويطمئنها عنه ، ويؤكد لها أنه قد أبصره حين تحطمت السفينة يشد نفسه إلى سارية قوية ، وأنه ظل يراه فوق الماء حتى اختفى عن الأنظار . وخفف الأمل الذى بعثه هذا القول فى نفسها ما كان يساورها من خوف على أخيها ، وأخذت تفكر فيما تفعله فى هذا البلد الغريب ، وهى بعيدة عن وطنها . وسألت قائد السفينة هل يعرف شيئاً عن إلريا ، فأجابها القائد بقوله : « نعم ياسيدتى إنى أعرفها حق المعرفة ، فقد ولدت على مسيرة ثلاث ساعات من هذا المكان . وسألته ڤيولا « ومن الذى يحكم هذا البلد ؟ » فأجابها القائد بأن إلريا يحكمها أرسينو Orsino وهو دوق جليل القدر كريم الطباع . وقالت ڤيولا إنها سمعت أباها يتحدث عن هذا الدوق ، ويقول إنه لم يكن وقتئذ قد تزوج ، وأجابها القائد بقوله « نعم ، وهو لا يزال كذلك إلى الآن ، أو أنه كان كذلك من عهد قريب ، لأنى لم أبرح هذا البلد إلا من شهر واحد ، وكان الناس كلهم عند خروجى يتحدثون بأن أرسينو يسعى للزواج بألڤيا Olivio ، وأنت تعملين أن ما يفعله العظماء

يتحدث به الدهماء . وألفيا هذه فتاة عفيفة وابنة أحد النبلاء ، مات أبوها من عام واحد وتركها فى رعاية أخيها ، ومات هذا الأخ أيضا بعد ذلك بقليل ، وقد بلغ من حبها له وحزنها عليه أن اعتزمت بعد موته أن تمتنع عن رؤية الرجال وصحبة الرجال . وكانت ڤيولا فى مثل هذه الحال من الحزن والألم لفقد أخيها فتمنت لو تستطيع أن تعيش مع هذه الفتاة التى حزنت على أخيها هذا الحزن كله ، وسألت القائد هل فى وسعه أن يقدمها لألفيا ، لأنها تحب أن تكون خادمة لهذه السيدة ، فأجابها بأن هذا من أشق الأمور لأن ألفيا من يوم أن مات أخوها لا تسمح لإنسان بالدخول إلى بيتها ولو كان ذلك الانسان هو الدوق نفسه . وعندئذ فكرت فى وسيلة أخرى وهى أن تتزيا بزى الفتيان وتدخل فى خدمة الدوق أرسينو . وكان غريباً أن تفكر فتاة فى ارتداء ملابس الرجال لتوهم الناس بأنها شاب ، ولكن الذى يبرر هذا العمل أن ڤيولا كانت فتاة بائسة لا ناصر لها ، وهى إلى ذلك صغيرة السن بارعة الجمال تعيش بمفردها فى بلد غريب .

ورأت فى أخلاق قائد السفينة كرما ، وتبينت فيه عطفاً عليها واهتماما بخيرها ، فأفضت إليه بخطتها ، ووعدها من فوره بتقديم المعونة لها . وأعطته ڤيولا بعض المال ، وطلبت إليه أن يأتى لها بما يناسبها من اللباس ، وأمرت أن تصنع ملابسها على طراز الملابس التى كان يرتديها أخوها سبستيان ، وألا تختلف عنها فى اللون . فلما ارتدت ملابس الرجال لم يكن ثمة فرق بينها وبين أخيها ، حتى لقد حدثت بعض أخطاء عجيبة كان منشؤها عدم قدرة الناس على تمييزها منه ، وذلك لأن سبستيان كان أيضاً قد نجا كما سيظهر فيما بعد .

وكان لصديقها القائد عملا فى بلاط الدوق ، فأخذ ڤيولا معه بعد أن أحال الفتاة الحسناء إلى شاب وسيم ، وقدمها لأرسينو باسم سيزاريو Cesario . وسر الدوق غاية السرور من خطاب هذا الفتى ومظهره الجميل ، فاتخذه خادما خاصا له ، وهذا هو العمل الذى كانت ڤيولا تبتغيه . وأحسنت الفتاة أداء واجبها الجديد ، وأظهرت من الإخلاص لسيدها والتعلق به ما جعلها أحب أتباعه إليه . وأفضى أرسينو إلى سيزاريو بقصة حبه لألفيا من أولها إلى آخرها ، فحدثه عن خطبته الطويلة غير

الموفقة لتلك الفتاة التى رفضته واحتقرته ولم تسمح له بلقائها . وقد بلغ من حب الدوق النبيل للفتاة التى عاملته هذه العاملة القاسية أن ترك ألعاب الفروسية وجميع أنواع الرياضة التى كان مولعاً بها ، وجعل يمضى وقته كله فى الخمول الذى لا يليق به ، يستمع إلى النغمات الموسيقية المختلفة ، والأصوات الرقيقة ، وأغانى الغرام ، وأعرض عن صحبة أعيان البلاد العالمين المحنكين الذين كانوا من قبل رفقاءه وخلانه ، وأصبح لا عمل له طول النهار إلا التحدث إلى الشاب سيزاريو . ولم يكن هؤلاء النبلاء الوقورون يرتاحون بطبيعة الحال إلى مصاحبة هذا الفتى للدوق أرسينو أميرهم العظيم ، الذى كان من قبل أميراً خطيراً كريماً .

على أن من الخطر الكبير أن تكون الفتيات موضع ثقة الشبان ذوى الرونق والبهاء ، يفضون إليهن بما فى قلوبهم من وجد وهيام . وقد حاق هذا الخطر بفيولا فأحزنها وأمر عيشها ، ذلك أنها أخذت تحس بعد قليل بأنها تقاسى من حب الدوق كل ما حدثها به عما يقاسيه من حبه لألفيا ؛ وعجبت كيف لا تكترث هذه الفتاة بسيدها العظيم الذى لا نظير له بين الأمراء ، والذى لا يستطيع أحد فى ظنها أن ينظر إليه بغير أن يعجب به أشد الإعجاب . وقد تجرأت فى أحد الأيام فلمحت إليه فى لطف أنها تأسف إذ ترى الدوق يشغف بحب فتاة تعمى عن رؤية مايتحلى به من خلال كريمة ، وقالت له : « إذا أحبتك يا سيدى فتاة كما تحب أنت ألفيا (ولا يبعد أن يكون فى الفتيات من تحبك هذا الحب) ، وإذا لم يكن فى مقدورك أن تبادلها حبا بحب ، ألا تقول لها فى صراحة إنك لا تستطيع أن تحب ؟ ثم ألا يجب عليها فى هذه الحال أن تقنع بهذا الجواب ؟ » ولكن أرسينو لم يعجبه هذا المنطق ، وأنكر أن فى النساء من تستطيع أن تحبه كما يحب هو ، وأن المرأة التى يتسع قلبها لهذا الحب كله لم تخلق بعد ، ولذلك فإن من الظلم أن يشبه حب أية فتاة له بحبه لألفيا .

وكانت فيولا تجل الدوق وتحترم آراءه الاحترام كله ، ولكنها لم يسعها فى هذا الوقت إلا أن تعتقد أنه مخطئ فيما يقول ، وأن ما ينطوى عليه قلبها من الحب له لايقل عما ينطوى عليه قلبه هو ؛ وقالت له : « آه ! ولكننى أعلم يامولاى .. »

وسألها أرسينو : « ما ذا تعلم ياسيزاريو ؟ » فأجابته ڤيولا بقولها : « إننى أعلم حق العلم أى حب للرجال تنطوى عليه قلوب النساء . إن فى قلوبهن من خالص الحب مثل ما فى قلوبنا . لقد كان لأبى بنت أحبت رجلا بقدر ما أحبك يا مولاى لو كنت امرأة » . وسألها أرسينو : « وما هى قصتها ؟ » . فأجابته ڤيولا : « ليست لها قصة يا مولاى . إنها لم تبح قط بحبها ، بل كتمته وتركته يحرق فؤادها حتى ذبلت وجنتاها الورديتان ، وتقسمتها الهموم ، وتوزعتها الفكر ، ولكنها صبرت على بلواها ولم تجزع حتى لكأنها تمثال للصبر يسخر من الجزع » . وسأل الدوق هل قضت الفتاة نحبها من شدة الوجد ؟ ولكن ڤيولا لم تجبه عن هذا السؤال جواباً صريحاً ، ولعلها قد اخترعت هذه القصة لتنطق فى خلالها ببضع كلمات تعبر بها عما يكنه فؤادها من حب صامت للدوق ، وما تقاسيه بسبب هذا الحب من آلام خفية .

وبيناهما فى حديثهما إذا برجل يدخل عليهما ، وكان الدوق قد بعث معه برسالة إلى ألڤيا ، ويقول للدوق : « أرجو أن يسمح لى مولاى أن أقول إنى لم يؤذن لى بالدخول عند السيدة ، ولكنها بعثت إليك مع خادمة لها هذا الرد الذى تقول فيه إن السماء والأرض لن تريا وجهها إلا بعد سبع سنين ، تظل فى خلالها كالراهبات مقنعة الوجه ، تروى أرض حجرتها بدموعها حزناً على أخيها » . ولما سمع الدوق هذا القول صاح قائلا : « ترى ماذا يكون شأن هذه الفتاة عند ما تمس قلبها سهام الحب الذهبية ، إذا كان لها هذا القلب الرقيق وكان هذا مبلغ حبها لأخيها الميت ؟ » ثم قال لڤيولا : « لقد كشفت لك ياسيزاريو عن مكنون قلبى ، ولهذا أرجوك أيها الفتى الكريم أن تذهب إلى بيت ألڤيا ، ولا يمنعك شىء من الدخول عليها ، بل قف عند بابها ونبئها أنك ستظل قائما لا تبرح مكانك حتى تتحدث إليها . » وسألته ڤيولا : « وإذا تحدثت إليها يا مولاى فماذا أقول ؟ » فأجابها أرسينو : « إذن فاكشف لها عما فى قلبى من حب ، وأسهب فى وصف إخلاصى ووفائى ، وأنت خير من يصف آلامى ، ويقينى أنها ستصغى إليك أكثر مما تصغى لغيرك من ذوى الوجوه الوقورة » .

وسارت ڤيولا فى طريقها تحمل رسائل الحب وهى غير راضية عن هذه المهمة ، وكيف ترضى أن تكون رسولاً يخطب فتاة لرجل تريد هى أن تتزوجه ؟ ولكنها وقد قبلت أداء هذا الواجب لم تر بدا من أن تؤديه بأمانة وإخلاص . وعرفت ألڤيا بعد قليل أن بالباب شابا يصر على مقابلتها ، وقال لها الخادم : « ولقد أخبرته أنك مريضة فأجاب بأنه يعرف ذلك ، وأنه من أجل هذا جاء ليتحدث إليك . وقلت له إنك نائمة ، فكأنه كان يعرف ذلك أيضاً من قبل ، وقال إنه لهذا يجب أن يتكلم معك ، فماذا أقول له ياسيدتى وهو يأبى أن يُرَدَّ ويصر على أن يتحدث إليك أردت ذلك أو لم تريديه ؟ » . وتاقت نفس ألڤيا إلى أن تعرف من يكون هذا الرسول العنيد فأذنت له بالدخول ، وغطت وجهها بنقابها ، وقالت إنها ستستمع مرة أخرى إلى رسالة أرسينو ، لأن لجاجة الرسول لم تترك لها مجالا للشك فى أنه موفد من قبل الدوق . ودخلت ڤيولا الدار وحرصت على أن تظهر بمظهر الرجال بأحسن ما تستطيع ، وتكلفت ما فى لغة بطانة أصحاب السلطان وحاشية العظماء من رقة ، وخاطبت هذه السيدة المقنعة بقولها : « يا ذات الجمال الرائع ، والنور الساطع ، والسناء المتألق ، الذى ليس نظير ! أرجو أن أعرف هل أنت ربة الدار فإنى ليسوءنى أن ألقى بحديثى على غير مسامعها ، فهو حديث أجيد تحبيره وأجهدت نفسى فى حفظه » .

وسألتها ألڤيا : « من أين جئت ياسيدى ؟ » . فأجابتها ڤيولا : « ليس فى مقدورى أن أقول غير ما تعلمت ، وليس هذا السؤال مما حفظت » . وسألتها ألڤيا : « أأنت ممثل ؟ » . فأجابتها ڤيولا : « كلا ! ومع ذلك فلست أنا ما أمثله[1] » وكانت تقصد بهذا القول أنها وهى امرأة تظهر بمظهر الرجال . ثم سألت ألڤيا مرة أخرى هل هى ربة الدار ؟ وأجابتها ألڤيا أنها هى ، ولكن رغبة ڤيولا فى أن ترى وجه خصيمتها كانت أشد من حرصها على أن تسرع بالإفضاء برسالة سيدها فقالت : « أيتها السيدة الكريمة ، دعينى أنظر إلى وجهك » . ولم تر ألڤيا ما يمنعها من إجابة هذا الطلب الجرئ لأن هذه الغانية المعجبة بنفسها التى

(١) وهذا الغموض أيضاً مقصود .

ردت الدوق خائباً هذا الزمن الطويل قد أحبت خادمه المزعوم الفتى سيزاريو الصغير الشأن عند ما وقعت عينها على عينه .

ولما سألتها ڤيولا أن تكشف عن وجهها قالت لها : « هل لديك مهمة من عند سيدك تتفاوضين فيها مع وجهى ؟ » ونسيت تصميمها على أن تظل مقنعة سبع سنين طوالا ، فرفعت النقاب عن وجهها وهى تقول : « ولكننى سأرفع الستار وأكشف عن الصورة ، فهل تظن أنها قد أحسن تصويرها ؟ » فأجابتها ڤيولا : « لقد مزجت عناصر الجمال فيها خير مزج . إن حمرة خديك قد أبدعتها يد الطبيعة البارعة ، وإنك لتكونين أقسى مَن خُلق من النساء لو أنك سمحت لهذا الجمال أن ينحدر إلى القبر دون أن يترك للعالم صورة منه » . فأجابتها ڤيولا قائلة : « كلا يا سيدى ، لن أكون قاسية إلى هذا الحد ، بل سأترك للعالم سجلا بهذه الصفات كتب فيه مثلا : أولا : شفتان فيهما بعض الحمرة ، ثانيا . عينان سنجابيتان ذواتا حاجبين . ورقبة واحدة ، وذقن واحد وهلم جرا . فهل جئت هنا لتثنى علىّ ؟ » وأجابت ڤيولا بقولها : « لقد عرفت حقيقة أمرك ؛ إنك صَلِفَةٌ تياهة ، ولكنك جميلة . إن مولاى وسيدى يحبك وإن حبه لجدير بأن يقابل بمثله ولو كنت ملكة الجمال ، لأن أرسينو يحبك » . وأجابتها ألڤيا قائلة : « إن رأيى غير خاف على سيدك ، فليس فى وسعى أن أحبه وإن كنت لا أشك فى عفته وفضائله ، أو أجهل أنه رجل نبيل شريف القدر رفيع المنزلة ، ذو شباب نضير برىء من العيوب ، اشتهر بين الناس بعلمه وظرفه وبسالته ، ولكنى مع ذلك لا أستطيع أن أحبه ، وقد كان خليقاً به أن يعرف ذلك من زمن بعيد » .

وقالت لها ڤيولا : « لو أننى كنت أحبك كما يحبك سيدى لأنشأت لنفسى بيتاً من الصفصاف[1] عند باب قصرك وأقمت فيه ، وأنشأت القصائد فى شكواك ، وأنشدتها فى ظلام الليل حتى تتجاوب الجبال باسمك ، ولا ينفك الهواء الثرثار ينادى يا ألڤيا ، فلا يقر لك ما حييت قرار بين الأرض والسماء حتى تشفقى على وترحمينى » : وأجابتها ألڤيا بقولها : « إنك لأجدر من يفعل هذا ولكن قل

(١) كان شجر الصفصاف يعد رمز الحب غير الموفق . (المترجم)

لى من أبواك ؟ » فردت عليها ڤيولا قائلة : « إننى أرقى من حالى هـذه وإن كانت هذه الحال طيبة ، فأنا سيد مهذب » . ثم صرفت ألڤيا ڤيولا على كره منها وقالت لها « اذهب إلى مولاك ونبئه أننى لا أستطيع أن أحبه ، ولتكن هذه آخر رسائله إلا إذا جئت أنت مرة أخرى لتخبرنى كيف تلقى هذا الرد » . وخرجت ڤيولا بعد أن ودعت هذه السيدة وسمتها « القاسية الحسناء » . ولما ذهبت أخذت ألڤيا تردد لنفسها قول الرسول : « أرقى من حالى هذه وإن كانت هذه الحال طيبة ، فأنا سيد مهذب » ؛ ثم قالت بصوت عال : « قسما إنه لكذلك ، وإن لسانه ووجهه ، وجسمه ، وروحه ، وأفعاله لتنطق كلها بأنه سيد مهذب » وتمنت لو أن سيزاريو كان هو الدوق . ثم تنبهت إلى أن هذا الفتى قد ملك عليها قلبها من أول لقاء فأخذت تلوم نفسها على هذا الحب المفاجئ ؛ ولكن اللوم اللطيف الذى يوجهه الناس لأنفسهم على ما يرتكبونه من أغلاط لا تتأثر به قلوبهم . ولم تلبث ألڤيا هذه السيدة العظيمة الشأن أن غفلت عما بينها وبين الخادم المزعوم من فارق عظيم كما غفلت أيضاً عن حياء العذارى الذى هو خير ما تزين به الفتيات ، واعتزمت أن تخطب ود الشاب سيزاريو فأرسلت وراءه خادما لها ومعه خاتم من ماس ، قالت إنه تركه عندها على أنه هدية من أرسينو ؛ وكانت ترجو أنها إذا احتالت على إهداء الخاتم إلى سيزاريو بهذه الطريقة استطاعت أن توحى إليه بمقصدها . وقد حذرت ڤيولا ذلك بالفعل ، لأنها تعرف أن أرسينو لم يرسل معها خاتماً ، وشرعت تتنبه إلى أن نظرات ألڤيا وحركاتها كانت كلها تفصح عن إعجابها بها ، فشعرت من فورها أن حبيبة سيدها قد أصبحت أسيرة حبها ، وقالت لنفسها : « أسفى عليها ! أولى لهذه السيدة المسكينة أن تحب حلماً من الأحلام . إن التنكر أمر كريه فقد جعل قلب ألڤيا يكتوى بحبى كما يكتوى قلبى بحب أرسينو ، وما أضيع هذا الحب وما أقل جدواه » .

وعادت ڤيولا إلى قصر أرسينو ونبأته بخيبة مسعاها ، وأعادت على مسامعه أمر ألڤيا بأن يمتنع عن مضايقتها برسائله ، ولكن الدوق ظل يرجو أن يفلح الفتى الظريف سيزاريو آخر الأمر فى إقناع ألڤيا بأن تشفق بعض الشفقة عليه ،

وأمره أن يعود إليها فى اليوم الثانى . وأراد أن يسلى نفسه فى تلك الفترة القصيرة حتى يجئ ذلك الوقت ، فأمر أن تغنى له أغنية يحبها ، وقال لألقيا : « إنى ياسيزاريو لما سمعت هذه الأغنية فى الليلة الماضية خيل إلى أنها قد خففت كثيراً من لواعج هواى . استمع إليها ياسيزاريو ، إنها أغنية قديمة ساذجة ، يغنيها النساء وهن جالسات فى الشمس يغزلن الخيوط أو يصنعن الجوارب ، ويترنم بها الفتيات وهن ينسجن غزلهن بأبر من العظام ؛ ولا شك فى أنها أغنية ساذجة صادقة[١] وأنا أحبها لأنها تحدث عن الهوى العذرى فى الأيام الخالية » :

أقبل أيها الموت أقبل ،
وفى تابوت من السرو [٢] ضعونى ،
ولتخرجن أنفاسى ،
فقد قتلتنى فتاة قاسية القلب حسناء .
وأعدوا إلى أكفانى البيضاء ،
وغطوها بأغصان الشجر ،
فلم يلق إنسان وفىّ
ذلك الموت الذى لقيت .
ولا تنثروا على تابوتى الأسود
شيئاً من الزهر النضير ،
ولا يشيعن أحد هذا الجسم النحيل
إلى حيث تلقى عظامى .
وادفنونى حيث لا يعرف المحزونون من المحبين الأغياء ،
موضع قبرى ليبكوا علىّ ،
فتنجوهم من آلاف الحسرات .
ولم تفت ڤيولا كلمة واحدة من هذه الأغنية القديمة التى تصف عذاب المحبين

---

(١) هذا هو معنى كلمة Silly فى هذا الموضع وليس معناها أنها سخيفة كما قد يتبادر إلى الظن .
(٢) أو فى تابوت مغطى بأغصان السرو . وكان السرو من شارات الحداد وكانت أشجاره تزرع فى المقابر .

البائسين هـذا الوصف الصادق الساذج ، وكانت تفصح بملامحها عن المشاعر التى يختلج بها فؤادها . ولا حظ أرسينو ما بدا عليها من كآبة فقال لها : « أقسم بحياتى ياسيزاريو أنك على صغر سنك قد وقعت عينك على وجه تحبه ، أليس كذلك ياولدى؟» فأجابته ڤيولا بقولها : «نعم إلى حد ما إن أذنت لى بذلك» . وسألها أرسينو «أى فتاة هذه ؟ وما هى سنها ؟» وأجابته ڤيولا «إنها فى سنك يا مولاى وفى لون وجهك» . وتبسم الدوق حين سمع هذا الفتى الوسيم يقول إنه يحب فتاة أكبر منه ولها وجه أسمر كوجه الرجال ، ولـكن ڤيولا كانت تعنى بقولها هذا أرسينو نفسه ، ولم تكن تقصد أنها تحب امرأة شبيهة به .

ولما ذهبت ڤيولا فى زيارتها الثانية لألڤيا لم تلق صعوبة فى الدخول عليها ؛ ذلك أن الخدم لا يلبثون أن يعرفوا من تلقاء أنفسهم متى ترغب سيداتهم فى أن يتحدثن إلى الرسل الشبان الحسان .

ولذلك فإن ڤيولا لم تكد تصل إلى القصر حتى فتحت لها الأبواب ، وأدخل رسول الدوق إلى جناح ألڤيا ، ولقى من الخدم أعظم مظاهر الأدب والإجلال ، ولما قالت ڤيولا إنها جاءت مرة أخرى لترجوها أن تعطف على سيدها قالت لها « لقد طلبت إليك من قبل ألا تحدثنى فى شأنه ، أما إذا كان لك مطلب آخر فإنى يسرنى أن أستمع إليك أكثر من سرورى بسماع موسيقى الأفلاك[1] » . وكان هذا قولا صريحا لا لبس فيه ولا غموض ، ولـكن ألڤيا لم تكتف به بل أفصحت من فورها عن غرضها بعبارات أكثر من هذه وضوحا ، وجهرت بحبها لرسول الدوق . ولما رأت الدهشة والحيرة باديتين فى وجه ڤيولا قالت « ألا ما أجمل هذه السخرية الشديدة التى تبدو على شفتيه إذا غضب أو احتقر ! أقسم ياسيزاريو بورد الربيع ، وبعفة العذارى ، وبالشرف والصدق ، أننى أحبك ، وأنك قد سلبتنى عقلى فلم أستطع رغم كبريائك أن أكتم هذا الحب » . ولـكن ألڤيا لم يجدها هذا كله نفعا ، وخرجت ڤيولا من عندها وهى تنذرها بأنها لن تعود بعد اليوم لتحدثها

(١) يشير إلى ما كان يعتقده فيثاغورث ومن يتبعونه من القدماء وهو أن النجوم فى حركاتها تحدث أصواتا موسيقية سماوية ، وفى رواية تاجر البندقية إشارة أخرى إلى هذه العقيدة (المترجم)

عن حب أرسينو ، وكل ما أجابت به عن توسل ألفيا أن أعلنت أنها قد عقدت نيتها على « ألا تحب امرأة قط » .

ولم تكد ڤيولا تخرج من عندها حتى امتحنت شجاعتها امتحانا قاسيا . ذلك أن رجلا ممن خطبوا ألفيا وردتهم خائبين علم أنها أحسنت لقاء رسول الدوق ، فدعا هذا الرسول إلى المبارزة . وماذا تفعل ڤيولا المسكينة وهى التى لها قلب كقلب النساء وإن ظهرت بمظهر الرجال ، والتى لا تقوى على النظر إلى سيفها ؟

ولما رأت عدوها القوى يتقدم نحوها وسيفه مسلول فى يده بدأت تفكر فى الاعتراف بأنها امرأة ، ولكن رجلا غريباً مر بها فى ذلك الوقت فأذهب عنها روعها وأنجاها من ذلة هذا الاعتراف ؛ فقد جاءها هذا الرجل الغريب ، وكأنه يعرفها من زمن طويل ، وكأنهما صديقان من أعز الأصدقاء ، وقال لخصيمها : « إذا كان هذا الشاب قد أساء إليك فأنا أتحمل تبعة هذه الإساءة ، وإذا كنت تريد أن تؤذيه فإنى من أجله أتحداك » ؛ وقبل أن تهم ڤيولا بأن تشكر له دفاعه عنها ، أو تسأله عن سبب عطفه عليها ، لقى صديقها الجديد خصما لم تجده شجاعته معه نفعاً ، وذلك أن رجال الشرطة أقبلوا فى تلك اللحظة وقبضوا بأمر الدوق على هذا الرجل الغريب ليحققوا معه فى ذنب ارتكبه من بضع سنين . وقال الرجل لڤيولا : « هذا ما جناه على بحثى عنك » . ثم طلب إليها كيساً من النقود وهو يقول : « إننى الآن مضطر إلى طلب هذا الكيس ، وإنى ليؤلمنى عجزى عن الدفاع عنك أكثر مما يؤلمنى ما سوف ألقاه أنا نفسى ؛ إنى أرى علائم الدهشة بادية عليك ولكنى أنصحك ألا تنزعج » . والحق أن قوله هذا قد أدهش ڤيولا فأقسمت أنها لا تعرفه ، وأنها لم تأخذ منه كيساً ، وعرضت عليه مبلغاً صغيراً من المال هو كل ما كان معها تقريباً جزاء ما أظهره من عطف عليها ، فما كان من هذا الرجل الغريب إلا أن فاه بأشد الألفاظ ، واتهمها بالقسوة ونكران الجميل ، وقال لمن حوله : « إننى قد اختطفت هذا الفتى الذى ترونه هنا من بين أنياب الموت ، ومن أجله وحده قد جئت إلى إلريا Illyria وحاق بى هذا الخطر » . ولكن رجال الشرطة لم يهتموا قط بشكوى هذا السجين وساقوه أمامهم وهم

يقولون : « وما شأننا نحن وهذا ؟ » . فلما استاقوه أمامهم نادى ڤيولا وسماها باسم سبستيان وعاب على هذا الفتى المزعوم إنكاره صداقته ، وأخذ يردد هذا القول طالما كان على مسمع من ڤيولا .

وسمعت ڤيولا هذا الرجل الغريب يناديها باسم سبستيان ، ولكن رجال الشرطة أسرعوا به فلم تستطع أن تسأله عن جلية الأمر ؛ غير أنها بدا لها أن هذا اللغز الخفى فى ظاهره قد يكون منشؤه أن الرجل حسبها أخاها . وبدأت تأمل أن يكون أخوها هو الذى يقول عنه هذا الرجل إنه أنجاه من الموت . ولقد كان الأمر كذلك حقا ، فقد كان هذا الرجل الغريب — واسمه أنطنيو — ضابطاً بحريا ، وكان قد انتشل سبستيان من البحر ، وأخذه فى سفينته بعد أن أعياه التعب وهو يطفو فوق الماء ملتصقاً بالسارية التى شد إليها نفسه فى أثناء العاصفة . وأحب أنطنيو سبستيان حبا لم يقو معه على فراقه ، فاعتزم أن يلازمه أينما ذهب ؛ ولما تاقت نفس الشاب لزيارة بلاط أرسينو جاء معه إلى إلريا ، وآثر ذلك على فراقه وإن كان يدرك أنه إذا عُرف فى هذا البلد عرض حياته للخطر ، لأنه أصاب ابن أخى الدوق بجرح خطير فى معركة بحرية ، وكان هذا هو الذنب الذى قبض عليه من أجله .

وكان أنطنيو وسبستيان قد نزلا إلى البر من بضع ساعات قبل أن يلتقى أنطنيو بڤيولا ، وأعطى سبستيان كيس نقوده لينفق منه ما يشاء إذا رأى شيئاً يرغب فى شرائه ، وأخبره أنه سيبقى بالفندق حتى يعود سبستيان من تجواله فى المدينة . ولم يعد سبستيان إلى الفندق فى الموعد المحدد ، فجازف أنطنيو بالخروج منه ليبحث عنه ، ورأى ڤيولا فى ثياب كثياب أخيها ، وكانت مثله فى ملامحها ، فاستل سيفه للدفاع عن الشاب الذى حسب أنه هو الذى أنجاه من الموت . فلما ظن أن سبستيان أنكره وأنكر أيضاً كيس نقوده ، اتهمه بالجحود ولم يكن عليه فى هذا الاتهام حرج . وخشيت ڤيولا حين غادرها أنطنيو أن يدعوها شخص آخر للبراز فتسللت إلى الدار بأسرع ما تستطيع ، ولكنها لم تبتعد إلا قليلا حتى ظن خصمها أنه يراها عائدة إليه ، والحقيقة أنه فى هذه المرة كان يرى أخاها سبستيان ، وقد اتفق أن جاء فى تلك اللحظة إلى ذلك المكان ، فخاطبه بقوله : « والآن ياسيدى

هل أراك مرة أخرى ؟ فليكن هذا من نصيبك » ، قالها ولطم سبستيان . ولم يكن سبستيان بالرجل الجبان فرد اللطمة مضاعفة واستل سيفه . وجاءت فى تلك الساعة سيدة فمنعت هذا ؛ وكانت هذه السيدة هى ألفيا خرجت من بيتها وقتئذ وحسبت أن سبستيان هو سيزاريو فدعته إلى دارها ، وأظهرت أسفها الشديد على هذا الهجوم الوقح . ولم يكن عجب سبستيان من حسن المعاملة التى لقيها من هذه السيدة أقل من عجبه من سفاهة عدوه المجهول ، ولكنه مع ذلك سره أن يدخل معها دارها ، ولشد ما اغتبطت ألفيا حين رأت سيزاريو حسب ظنها يستجيب لعواطفها ، وذلك لأنها لم تر فى وجه هذا الفتى ما كان يبدو فى وجه سيزاريو من احتقار وغضب ، كانا موضع شكواها حين أظهرت له حبها ، على الرغم من تشابههما فى كل ما عدا ذلك .

ولم ير سبستيان بأسا فيما كانت تفيضه عليه هذه السيدة من عطف شديد ، ولم يبد عليه ما يدل على أنه يسىء الظن بهذه العواطف وإن عجب منها أشد العجب ؛ ولعله كان يميل إلى الظن أن بعقل ألفيا خبالا ، ولكنه رآها ربة بيت جميل ، تحسن تدبير أمورها والإشراف على بيتها ، وتتصرف فى كل شؤونها تصرف العقلاء اللهم إلا فى حبها المفاجئ له ، رآها كذلك فلم يعارضها فى حبها وتوددها إليه . ووجدت ألفيا سيزاريو فى هذه الحالة النفسية الطيبة ، وخشيت أن يغير رأيه بعد حين ، فعرضت عليه أن تتزوج به على الفور ، لأن القسيس كان فى ذلك الوقت حاضراً فى دارها .

ووافق سبستيان على طلبها ، ولما انتهت حفلة الزفاف انصرف من عند زوجته ليغيب عنها وقتا قصيراً يذهب فيه إلى صديقه أنطنيو ويخبره بما صادفه من حظ سعيد .

وجاء أرسينو وقتئذ فى زيارة لألفيا ، فلما وصل إلى دارها وجد عندها رجال الشرطة ومعهم أنطنيو السجين . وكانت ڤيولا فى ذلك الوقت مع سيدها أرسينو ، فلما رآها أنطنيو ، وكان لا يزال يظنها سبستيان ، أخذ يقص على الدوق كيف أنجى هذا الفتى من أخطار البحر ، ويحدثه عما له عليه من يد — كانت له فى الحقيقة على

سبستيان — وخم شكواه بقوله إن هذا الفتى الجحود قد بقى معه ثلاثة شهور طوال لم يفارقه لا ليلا ولا نهارا . وفى هذه الساعة خرجت ألفيا ، فلم يعد فى وسع الدوق أن يصغى إلى قصة أنطنيو ، وقال حين رآها « ها هى ذى الكنتة مقبلة ، كأن ملكا من السماء يمشى على الأرض . ولكنى أقول لك أيها الرجل إن حديثك هذا هو الجنون بعينه ، لأن هذا الفتى فى خدمتى منذ ثلاثة أشهر » ، وأمر أن يبعد أنطنيو عنه . ولكن الكنتة — ملاك أرسينو — قدمت للدوق من الأسباب ما جعله يتهم سيزاريو بالجحود كما اتهمه أنطنيو من قبل . وذلك لأنه لم يسمع من ألفيا إلا ألفاظ العطف على سيزاريو ؛ ورأى أن خادمه قد أصبحت له فى نفس ألفيا هذه المكانة العالية فأنذره بأنه سوف يحل به غضبه وانتقامه العادل . ولما هم بالانصراف أمر ڤيولا أن تتبعه ، وقال لها « سر معى أيها الغلام فإن ساعة نقمتى قد دنت » . ولاح أن أرسينو سيقضى من فوره على ڤيولا فى سورة غضبه ، غير أن حبها له قوى قلبها وأذهب عنها خور عزيمتها ، فقالت إنها بسرها أن تلقى الموت إذا كان فى هذا ما يريح قلب سيدها . ولم تكن ألفيا تريد أن تفقد زوجها فنادت بأعلى صوتها « أين يذهب عزيزى سيزاريو ؟ » وأجابتها ڤيولا بقولها « إنى ذاهب وراء من أحبه أكثر مما أحب حياتى » . ومنعتها ألفيا من الذهاب حين أعلنت جهرة أن سيزاريو زوجها واستدعت القسيس فشهد أنه من ساعتين لا أكثر قد زوج ألفيا بهذا الفتى . ولم يفد ڤيولا احتجاجها وقولها إنها لم تتزوج ألفيا ، وكانت شهادة ألفيا وشهادة القسيس كافيتين لإقناع أرسينو أن خادمه قد سلبه هذا الكنز الثمين الذى كان يحرص عليه أكثر من حرصه على حياته . ولكنه ظن أن ما مضى لا مرد له فأخذ يودع حبيبته الغادرة وزوجها الذى سماه الفتى المرائى ، ويحذره من أن يريه وجهه بعد ذلك الوقت . وبينا هو يفعل ذلك إذا بأعجوبة — فى ظن الحاضرين — تحدث أمامهم . فقد أقبل فى ذلك الوقت سيزاريو آخر وخاطب ألفيا بقوله «يازوجتى» . وكان سيزاريو هذا هو الفتى سبستيان زوج ألفيا الحقيق . ولما ذهب عنهم بعض دهشتهم حين رأوا شخصين لا يفترقان فى الوجه والصوت واللباس ، أخذ الأخ وأخته يتبادلان السؤال والجواب ، وذلك لأن ڤيولا لم تكن تعتقد أن أخاها حى يرزق ، ولأن سبستيان لم يدر كيف يفسر وجود أخته التى

ظنها قد غرقت ويراها فى ثياب الشبان ؛ ولكن ڤيولا بادرت، إلا الاعتراف بأنها أخته حقا متنكرة فى ثياب الرجال .

ولما كشفت كل هذه الأخطاء التى نشأت مما كان بين التوأمين الأخ وأخته من تشابه تام ، أخذوا يضحكون من الخطأ الذى وقعت فيه ألڤيا حين أحبت فتاة مثلها ، ولم تغضب هذه السيدة حين تبينت أنها قد تزوجت بالأخ بدل أن تتزوج بالأخت .

وقضى زواج ألڤيا على آمال أرسينو قضاء لا مرد له ، ولاح أن حبه قد ذهب بذهاب آماله ، وانحصرت أفكاره كلها فى كيفية انقلاب سيزاريو فتاه المحبوب إلى سيدة حسناء ، فأخذ يوجه التفاته إلى ڤيولا ، وعاد إلى ذاكرته أنه كان على الدوام يظن سيزاريو فتى وسيما ، ولم يلبث أن اقتنع بأنها ستبدو بارعة الجمال إذا لبست ملابس النساء . وذكر بعد ذلك أنها كانت على الدوام تقول إنها تحبه ، وهو قول لم يفهم منه فى ذلك الوقت إلا أنه يعبر عما يجب على الخادم الوفى لسيده . ولكن نفسه أخذت تحدثه الآن بأن لهذه الألفاظ من المعانى أكثر مما كان يفهمه منها ، وعاد إلى ذاكرته كثير من الأقوال الظريفة التى كانت تبدو له غامضة محيرة . ولم تكد هذه الأشياء تجول فى ضميره حتى عزم على أن يتخذ ڤيولا زوجة له ، فقال لها : (ولم يكن فى وسعه أن يناديها إلا باسم سيزاريو والغلام) « أيها الغلام لقد طالما قلت لى إنك لن تحب أحداً من النساء بقدر ما تحبنى ، وقد كنت مخلصاً وفيا فيما أديت لى من خدمات ليست جديرة بنشأتك الرقيقة المنعمة ، ولطالما دعوتنى سيدك ، ومن أجل هذا وذاك ستكون سيدة سيدك وتصبح دوقة أرسينو الحقة » .

وتبينت ألڤيا أن أرسينو يصارح ڤيولا بذلك الحب الذى لم تكترث هى به ولم تتجمل فى رفضه ؛ فدعتها إلى الدخول إلى دارها وعرضت عليها أن تدعو القسيس الذى زوجها بسبستيان فى صباح ذلك اليوم ليعقد لها على أرسينو فيما بقى من ساعات النهار . وبذلك تزوج التوأمان الأخ وأخته فى يوم واحد ، وكانت العاصفة التى حطمت سفينتهما وفرقتهما هى التى جمعت شملهما وأنالتهما منتهى السعادة ، فقد أصبحت ڤيولا زوجة لأرسينو دوق إلريا ، وأصبح سبستيان زوج ألڤيا الكنتة الشريفة النبيلة .

تيمن الأثينى

كان تيمن Timon شريفاً من أشراف أثينة ، ذا ثروة طائلة ، ولكنه كان طلق اليدين ، لا يقف جوده عند حد ، ولا يكاد إيراده الضخم يصل إلى يده حتى ينفقه على كل من هب ودب . كان مخلفاً متلفاً ، لا يقصر نواله على الفقراء ، بل إن أشراف الناس كانوا لا يستنكفون أن يكونوا من خدمه وتبعه . وكانت مائدته ملتقى المترفين المولعين بلذيذ الطعام والشراب ، وداره مفتحة الأبواب لكل قادم على أثينة أو نازح عنها . وكانت ثروته الطائلة عوناً لطبيعته الكريمة السمحة على كسب القلوب وجمعها على حبه ، فكانوا على اختلاف طباعهم ومراتبهم يعرضون عليه خدماتهم ، لا فرق فى ذلك بين المرائى المتملق الذى تنعكس على وجهه أهواء سيده ونصيره ، وبين الرجل النكد الناقم على الحياة الذى يتظاهر بازدراء الناس وعدم المبالاة بأمر الدنيا ، ولكنه تأسره رقة طباع لورد تيمن وظرفه ، فيأتى إليه مرغماً لينال قسطه من كرمه الفياض ، ويعود وقد كبر فى عين نفسه إذا أسعده الحظ بتحية أو إيماءة من تيمن .

وإذا أنشأ شاعر قصيدة وأراد أن يصدِّرها بكلمة يقدمها بها إلى العالم ، لم يجد خيراً من أن يهديها إلى لورد تيمن ، فيضمن لها بذلك الرواج ، فضلاً عما ينفحه به اللورد من المال ، وعن دعوته إياه للتردد على بيته فى كل يوم والجلوس إلى مائدته . وإذا كان عند رسام صورة يبغى التخلص منها فما عليه إلا أن يذهب بها إلى لورد تيمن ويتظاهر بأنه يريد أن يستأنس برأيه فى قيمتها ، فإذا فعل ذلك كان هذا كافياً لإغراء اللورد السمح الكريم بابتياعها . وإذا كان عند صائغ حجر كريم ، أو عند بزاز ثوب من نسيج ثمين ، ولم يعثر كلاهما على من يشترى بضاعته لارتفاع ثمنها ، وجد فى بيت تيمن سوقاً دائمة يبيع فيها جوهرته أو ثيابه بالثمن الذى يشتهيه . وكان اللورد الطيب القلب يشكر لهم حسن صنيعهم ، كأنهم هم قد أحسنوا إليه إذ عرضوا عليه بضاعتهم الثمينة . وبذلك

غُصَّ بيته بالسلع التى تزيد على حاجته ، والتى لم تكن لها فائدة أكثر من أن تزيد فى أبهته الكاذبة المتعبة . وكان يضايقه أكثر من ذلك طوائف من الزائرين المتعطلين الذين لا يعملون عملاً ، كالشعراء الكاذبين ، والمصورين ، والتجار المحتالين ، وأعيان البلاد وسيداتها ، ورجال البلاط المعسرين ، والطالبين عطاءه الذين تزدحم بهم فى كل حين ردهات قصره ليلقوا على مسامعه عبارات الملق والدّهان ، يتذللون له ويطرونه بألفاظ لا يوصف بها إلا الخلاق العظيم ، ويقدسون كل شىء فيه ، حتى الركاب الذى يستعين به على امتطاء جواده ؛ وكأن الهواء الطليق الذى يتنفسونه هبة منه لا تصل إليهم إلا بإذنه .

وكان من أولئك الصنائع المرتزقين الذين يفدون إليه فى كل يوم طائفة من الشبان أبناء الأسر الكريمة ، بسطوا أيديهم فى الإنفاق حتى لم تكفهم مواردهم ، فاستدانوا ولم يوفوا بدينهم ، فزجوا فى أعماق السجون ، ثم أخرجوا منها بعد أن أدى عنهم تيمن دينهم ، فتعلق هؤلاء المبذرون بأذياله ، كأن الإسراف رابطة وثيقة تؤلف بينه وبينهم ، وتجعله صديقاً عزيزاً لهؤلاء المسرفين الذين لم يكن فى وسعهم أن يضارعوه فى ثروته ، ولكنهم رأوا أن من السهل عليهم أن يقلدوه فى بذخه ، وفى الإنفاق مما لا يملكون . وكان من هؤلاء الطفيليين رجل يدعى ڤنتديس Ventidius ، أدى عنه تيمن من زمن قصير ديناً باهظاً تورط فيه ، يزيد مقداره على خمس تالنتات من المال[1] .

وكان أظهر الناس فى هذا السيل الجارف من الزوار أولئك الذين يتقدمون إلى الشريف بالهدايا والهبات . وكان السعيد الموفق منهم من يعجب تيمن بكلب له أو فرس أو قطعة رخيصة من أثاث . فكان هذا الشىء الذى يعجب به تيمن أياً كان شأنه يهدى إليه حتماً فى صباح اليوم التالى مصحوباً بتحيات المهدى واعتذاره عن حقارة الهدية . وما من مرة إلا رد تيمن فى نظير الكلب أو الحصان عشرين كلباً أو حصاناً ، أو هدية أعظم منهما قيمة ، لأنه لم يكن فى الناس كلهم من هو أندى من تيمن يدا . وكان هؤلاء المهدون المراءون يعرفون هذا منه ،

(١) التالنت وزن قديم يتراوح مقداره بين : ٢١٣، ٢١٥ جنيهاً ذهباً .

فلم تكن هداياهم المزعومة إلا استثماراً لأموالهم تُرَدُّ إليهم رباً فاحش عاجل . وعلى هذا النحو أرسل لورد لوسيس Lord Lucius إلى تيمن من وقت قريب هدية من أربعة جياد ناصعة البياض وعليها سروج من فضة ، وكان تيمن قد أثنى عليها مرة من قبل ، ولاحظ ذلك هذا الشريف الماكر ؛ وكذلك أهدى إليه شريف آخر يدعى لورد لكلس Lord Lucallas بهذه الطريقة الباطلة عينها كلبي صيد سمع تيمن مرة يثنى على شكلهما ويعجب بسرعة عدوهما . وقبل تيمن الرجل السمح الطيب القلب هاتين الهديتين دون أن يسيء الظن بمقاصد صاحبيهما ، وكان أصحاب الهدايا يجزون بطبيعة الحال بهدايا أخرى قيمة كقطعة من الماس أو حلية ثمينة تربى قيمتها على هديتهم الزائفة ، أو تجارتهم إن شئت الحقيقة ، عشرين ضعفاً .

وكانت هذه الخلائق تعمل أحياناً سافرة وتلجأ فى احتيالها إلى اساليب ظاهرة السماجة ، ولكن تيمن لم يكن يراها لسذاجته وغفلته ، فكانوا يتظاهرون بالإعجاب بشيء مما يمتلكه أو بمدح شيء مما اشتراه أخيراً ، فكان هذا الإعجاب وهذا المديح ينتزعان من ذلك السيد الرقيق القلب هذا الشيء الممدوح . وكل ما كان يؤديه هؤلاء من خدمات له نظير هذه الهدايا القيمة هو ذلك الملق السهل الرخيص الذى لم يكن يخفى على أحد . وعلى هذا النحو أهدى تيمن من وقت قريب إلى أحد هؤلاء السادة الأنذال جواده الكميت ، وهو ركوبته الخاصة ، لأن هذا السيد قد سره أن يثنى على الجواد وعلى حسن خطوه ، وكان تيمن يعلم أن الناس لا يثنون قط على شيء لا يريدونه لأنفسهم ، لأنه كان يقيس عواطف الناس بعواطفه ، وقد تعود بسط الكف حتى لم يكن يصعب عليه أن يهب لهؤلاء المتظاهرين بصداقته ممالك ودولا دون أن يمل العطاء .

ولكن ثروة تيمن لم تذهب كلها لإشباع هؤلاء المتملقين الآثمين ؛ فقد كان فى وسعه أن يعمل أعمالاً طيبة محمودة . مثال ذلك أن خادما قد أحب مرة ابنة أثينى ثرى ، ولم يكن ثمة أمل لهذا الخادم فى الزواج بهذه الفتاة ، لأنها كانت أعظم منه ثروة وأرفع درجة ، فما كان من تيمن إلا أن منح خادمه ثلاثة تالنتات ليستطيع أداء المهر الذى طلبه والد الفتاة . لكن الكثرة الغالبة ممن كانوا ينالون

عطاءه كانوا هم السفلة المتطفلين والأصدقاء الكاذبين الذين لم يكن يعرف كذبهم وخداعهم ، بل كان يظن أنهم يحبونه حتما لأنهم يلازمونه ويلتفون حوله . ورأى هؤلاء القوم يتملقونه ويبسمون له ، فلم يشك فى أن خيار الناس وعقلاءهم على بكرة أبيهم يعجبون به ويرضون عن عمله . وبينا هو يولم الولائم لهؤلاء المرائين والأصدقاء الكاذبين ، وبينا كانت موارده فى طريق النضوب لما كان يقدم لهؤلاء وأولئك من طعام وشراب ، كان هو عاجزاً عن أن يميز الصديق الوفىّ من المتملق المرائى كأن على بصره غشاوة ، — لأن كثرة هؤلاء الصحاب قد أضلته وأعمت بصيرته — فبدا له أن السعادة فى أن يرى هذا العدد الجم من الأصدقاء يتصرف كل منهم فى مال أخيه (وإن كان ماله فى الحقيقة هو الذى يتصرفون كلهم فيه) ، ويبادرون فى غبطة إلى الاجتماع بعضهم ببعض فى بهجة وإخاء كما كان يبدو له فى ذلك الحين .

وبينا كان هذا الرجل المتلاف ينفق ماله بلا حساب ، ويبدد ثروته ذات اليمين وذات الشمال كأن بلوتوس إلٰه الذهب كان خازنه ، ويندفع فى هذا الطريق لا يعوقه فيه عائق من عناية ، لا يفكر فيما ينفق ولا فى الوسيلة التى تمكنه من المضى فى إنفاقه ، ولا ينقطع فى يوم من الأيام عن إسرافه وبذخه ، بينا هو يفعل هذا كله كان معين ثروته آخذا فى النضوب من جراء هذا الإسراف الذى لا آخر له . ولكن منذا الذى يستطيع أن ينبهه إلى هذا ؟ أينبهه إليه متملقوه ومصالحهم تقضى عليهم أن يخفوا ذلك عنه حتى لا يرى عاقبة أمره ؟

وعبثا حاول فلافيس Flavius أستاذ داره الأمين أن يبين له حقيقة أمره ، ويطلعه على حساب دخله وخرجه ، ويرجوه ، ويتوسل إليه ، ويلح عليه إلحاحاً لم يكن فى غير هذه الأحوال يليق أن يصدر من خادم إلى سيده ، ويتضرع إليه والدموع تنهمر من عينيه ، أن يفكر فى عاقبة أمره . ولكن تيمن كان يصرفه عن هذا ويحول مجرى الحديث إلى غير هذه الشؤون ، لأن الغنىّ إذا افتقر كان أقل الناس قبولا للنصح ، وأكثرهم مضيا فى عمايته ، وأشدهم بغضا للاعتراف بحقيقة حاله ، وأبعدهم عن الإقرار ببؤسه . وبينا كانت حجرات قصر تيمن العظيم غاصة

بالضيوف يصخبون فيها ويطعمون على نفقته ، والخمر تجرى على أرضها جريان الماء ، والأنوار تتلألأ فى سمائها فتبدل ليلها نهاراً ، والقصر كله يردد صدى الأنغام الموسيقية وأصوات القصف والمرح ، بينا كان هذا كله يحدث فى قصر تيمن كان أستاذ داره الأمين وخادمه الطيب الكريم كثيراً ما يأوى بمفرده إلى مكان بعيد ويفكر فى أمر سيده الأخرق المتلاف ، وفى أنه إذا ذهب المال الذى يشترى به ثناء هؤلاء الناس انقطعت الأنفاس التى يخرج معها ، لأن الثناء الذى يشترى بالطعام يذهب به الصيام ويختفى المادحون عند أول سهم يرمى به الزمان ، كما يختفى الذباب عندما تسقط فى الشتاء أول مطرة من السماء .

ثم جاء الوقت الذى لم يستطع فيه تيمن أن يصم أذنيه عن سماع نصح هذا الخادم الأمين ؛ فقد احتاج يوما إلى المال وأمر فلاقيس أن يحصل عليه ببيع جزء من أرضه ، فأخبره فلاقيس بما كان قد حاول مراراً من قبل أن يحذره منه ، وهو أن أرضه كلها قد بيعت أو استولى عليها الدائنون ، وأن كل ما يمتلكه فى ذلك الوقت لا يفى بنصف ديونه .

وذهل تيمن عند ما سمع هذا النبأ فأجاب من فوره : « إن أملاكى تمتد من أثينة إلى نسديمون Lacaedemon » ، فرد عليه فلاقيس بقوله : « إن ذلك لا يغير من طبيعة العالم فهو هو وله حدود ، ولو أنك ملكته كله ثم وهبته للناس بكلمة لما بقى لك إلا ريثما تنطق بهذه الكلمة » .

وأخذ تيمن يعزى نفسه بأنه لم يعط من ماله شيئا لغرض ذميم ، وأنه إذا كان قد أخطأ فى إنفاق ماله فإنه لم ينفقه فى شهواته ، بل بذله فى تأليف قلوب الصحاب ؛ وأمر أستاذ داره الكريم الذى كان يبكى من فرط حزنه أن يطيب نفسا ، وأن يطمئن إلى أن سيده لن يعدم المال وله هذا العدد الجم من الأصدقاء الأوفياء . وظن هذا السيد المفتون أن ليس عليه إلا أن يرسل إلى الأصدقاء فيستدين منهم المال ، وأن ينفق فى هذه الشدة من مال أولئك الذين نالوا عطاءه كأنما هو ماله الخاص . ثم انبسطت أسارير وجهه كأنما كان واثقاً من نتيجة هذه المحاولة الجديدة وأرسل من فوره رسولا إلى كل من النبلاء لوسيس ولوكلس وسمپرونيس ، وهم

أولئك الذين أفاض عليهم من ماله وغمرهم بنعمته فيما مضى من الأيام . وأرسل أيضاً رسولا إلى ڤنتديس Ventidius الذى أخرجه من السجن من وقت قريب ، بعد أن أدى عنه جميع ديونه ، ثم مات أبوه أخيراً فورث عنه أموالا طائلة ، وأصبح فى وسعه أن يكافئ تيمن على حسن صنيعه . وطلب تيمن إلى ڤنتديس أن يرد له خمسة الآلاف تالنت التى أداها عنه ، وإلى كل من النبلاء الآخرين أن يقرضه خمسين ألف تالنت . ولم يكن يشك فى أن ما أسداه إليهم من جميل سيحملهم على أن يفرجوا كربه ويقرضوه من مالهم أضعاف ما طلبه إليهم خمسمائة مرة ، إذا احتاج الأمر إلى ذلك .

وكان لوكلس أول من لجأ إليه تيمن ، وكان هذا السرى الدنىء قد رأى فى منامه كأساً وآنية من فضة ، فلما أخبروه بقدوم رسول تيمن صور إليه طمعه أن رؤياه قد تحققت ، وأن تيمن قد أرسل إليه هذه الهدية التى كان يحلم بها ؛ فلما تبين جلية الخبر وعرف أن تيمن إنما أرسل إليه يطلب المال ، ظهرت حقيقة صداقته الواهية ، وأقسم جهد أيمانه أنه قد رأى بثاقب بصره من زمن بعيد ما سيحل بتيمن من الخراب ، وأنه كثيراً ما لبى دعوته للغداء ليطلعه على رأيه ، وجاءه وقت العشاء ليحاول أن يقنعه بالاعتدال فى الإنفاق ، ولكن تيمن أصم أذنه عن سماع نصحه ولم ينفعه تحذيره . فأما أن لوكلس كان كما قال هو نفسه ضيفاً مستديماً يطعم على موائد تيمن ، وأنه قد نال من عطائه ما هو أهم من الطعام وأعظم ، فذلك حق لا مراء فيه ؛ وأما أنه كان يتردد عليه لهذا الغرض ، أو أنه قد أسدى إليه نصحاً أو تحذيراً فذلك كذب دنىء . وقد أتبعه بعمل يماثله فى الخسة والدناءة ، فحاول أن يرشو الرسول ليغريه على أن يعود إلى مولاه وينبئه أنه لم يجد لوكلس فى داره .

ولم يلق الرسول الذى ذهب إلى لورد لوسيس خيراً مما لقى هذا الرسول . ذلك أن هذا الشريف الذى أفاض عليه تيمن من نعمته ، وغمره بهداياه الثمينة ، لما وجد أن الدهر قد تقلب ، وأن معين هذه الهدايا قد نضب فجأة ، لم يصدق هذا النبأ أول الأمر ، فلما أن أكد الرسول صدقه ، تظاهر بالأسف الشديد لعدم

قدرته على تقديم المعونة إلى لورد تيمن ، فقد كان من سوء حظه أنه تورط بالأمس فى شراء صفقة كبيرة استغرقت كل ما كان حاضراً لديه من المال — وقد كان هذا القول كذباً دنيئاً — وزاد على ذلك قوله إنه مما يزيد فى حقارته أنه بعمله هذا عجز عن خدمة صديقه الكريم ، وأن أشد ما يؤلمه ويحز فى نفسه أن يعجز هذا العجز عن تفريج كرب هذا السيد الشريف .

ومنذا الذى يسمى ذلك الشخص الذى يتناول معه الطعام فى صفحة واحدة صديقاً له ؟ لو سمّى هذا صديقاً لكان المراءون المتملقون كلهم أصدقاء . لقد كان الناس كلهم يذكرون أن تيمن كان أباً للوسيس ، يرد عنه بماله كل ما يسىء إلى سمعته ، ويؤدى له من ماله رواتب خدمه ، وأجور العمال الذين كانوا يكدحون فى بناء البيوت الجميلة التى يتطلبها كبرياؤه . ولكنه كفر بنعمته ، والكفران بالنعمة يفقد المرء إنسانيته ، وقد عز على لوسيس أن يمد تيمن بمبلغ من المال إذا قيس بما أفاضه عليه تيمن كان أقل مما يجود به المحسنون على السائلين .

وكذلك فعل سمپرونيس وغيره من النبلاء الذين مَدَّ إليهم تيمن يده ، والذين كانوا يبيعون صداقتهم بالمال ، فردوا عليه بمثل هذا الرد المراوغ أو بالرفض الصريح ؛ وحتى ڤنتديس نفسه الذى أخرجه تيمن من سجنه ، والذى أصبح الآن من المثرين المنعمين ، لم يكن خيراً من أولئك كلهم ، فقد أبى أن يعينه بالخمسة التالنتات التى أداها عنه تيمن ، والتى لم يقرضها له إقراضاً ، بل وهبها له هبةً خالصة ليفرج بها كربته .

وتفرق الناس من حول تيمن فى أيام فقره بأسرع مما كانوا يتجمعون حوله فى أيام غناه ، وأخذت تلك الألسنة التى كانت تلهج بالثناء عليه وتصف جوده وسخاءه وبسط يده تسمى جوده خرقاً ، وكرمه سفاهة ، وبسط يده تبذيراً ؛ ولم تر فى هذا عاراً عليها ولا مذمة ، وإن كان خرقه لم يبد فى شىء أكثر مما بدا فى اصطناعه هذه الخلائق الدنيئة . وهجر الناس قصر تيمن الفخم حتى أصبح مكاناً كريهاً يمرون به سراعا ، بعد أن كان من قبل ملتقى كل عابر سبيل ينزل فيه فيجد الطعام والشراب وحسن اللقاء ؛ وبعد أن كان هذا القصر غاصا بالأضياف

يقصفون فيه ويصخبون ، أصبح الآن يعج بالدائنين الملحين المتذمرين ، والمرابين والسالبين المغتصبين ، يتقدمون بمطالبهم فى عنف وقسوة لا تطاق ، ليوفى لهم بديونهم وأرباح أموالهم ورهونهم ، وكلهم عاتون لا تلين لهم قناة ، لا يقبلون عذراً ولا يرضون بتأجيل يوم الوفاء ، حتى صار القصر سجنا لتيمن لا يجرؤ على الخروج منه أو الدخول فيه ؛ فمنهم من كان يطالب بخمسين ألف تالنت ، ومنهم من بيده صك بخمسة آلاف كرون لو أن تيمن استطاع أن يعد دمه قطرة قطرة ليؤدى بها هذه الآلاف لما وجد فى جسمه من الدم ما يفى بها .

وبينا هو فى هذه الحال من الشقاء التى لا يرجى لها صلاح ، إذا بالناس يدهشون حين يرون هذه الشمس الكاسفة يشع منها على حين غفلة بريق جديد يكاد سناه يذهب بعقولهم ، فلا يدرون أحق هو أم وهم صوره لهم الخيال . فقد أولم لورد تيمن مرة أخرى وليمة دعا إليها ضيوفه الأولين من النبلاء والنبيلات ، وكل من كان فى مدينة أثينة ذا شأن ومقام . ولبى الدعوة لورد لوسيس ولوكلس وڤنتديس وسمپرونيس وغيرهم من وجوه القوم . ولم يكن أحد أكثر أسفا من هؤلاء الأنذال الأشقياء حين حسبوا أن فقر لورد تيمن كان كله تصنعا ادعاه ليبتليهم به ويعرف مقدار حبهم له ، وتمنوا لو أنهم أدركوا الحقيقة وقتئذ ، فكان لهم عليه ذلك الفضل الرخيص . ومع ذلك فلم يكن أحد أشد منهم سروراً حين رأوا أن ذلك المورد العذب الذى ظنوه قد نضب لا يزال يفيض كما كان يفيض من قبل ، وجاءوا هم وغيرهم يراءون وينافقون ويقيمون الحجة على حبهم وإخلاصهم ، ويعلنون شديد أسفهم وخجلهم ، لأنهم حين دعاهم تيمن لمعونته لم يكن لديهم لسوء حظهم من المال ما يجيبون به طلب هذا الصديق الكريم . ولكن تيمن رجاهم ألا يفكروا فى هذه الأمور التافهة ، لأن هذا الحادث لم يبق له أثر فى ذاكرته . ولم ير هؤلاء السادة الأدنياء الأنذال ، الذين أبوا أن يعينوه فى أيام محنته ، حرجا عليهم فى أن يلتفوا حوله حين رأوا نجمه يتلألأ من جديد ، وذلك لأن من كانت هذه طباعهم يتهافتون سراعا على دور العظماء ، إذا بسم لهم الحظ

ورأوا فيها مغنما لهم ، حتى إذا ما عبست الأيام لهم ذابوا من حولهم أسرع مما تذيب حرارة الشمس الجليد .

ومدت الموائد ووضعت عليها الصحاف ، وكان الدخان يخرج منها والموسيقى تصدح بشجى ألحانها ، وقضى الأضياف وقتاً قصيراً وهم فى حيرة لايدرون كيف استطاع تيمن الملق أن يجد المال الذى ينفق منه على هذه المائدة الفخمة ؛ وبلغت الدهشة من بعضهم أنه لم يصدق ما كانت تراه عيناه ، بل كان يظن نفسه واهما أو حالماً . ثم أمر تيمن فرفعت الأغطية عن الصحاف وظهر الغرض الذى كان يرمى إليه ؛ فلم يجد المدعوون ما كانوا يتوقون إليه من أصناف نادرة شهية ، كانت تنوء بها موائده فيما مضى من الأيام ، بل رأوا تحت الأغطية استعداداً أليق منها بفقر تيمن ، رأوا قليلا من الدخان والماء الفاتر ، وهو خير ما يليق من الطعام لهذه الطغمة من أصدقاء البطون ، أصحاب الدعاوى الباطلة التى تتطاير كالدخان ، والقلوب الفاترة القلقة كالماء الذى حيا به هؤلاء الأضياف . وقال لهم تيمن وهم فى حيرتهم : « ارفعوا الأغطية أيها الكلاب والعقوا ما فى الصحاف » ؛ وقبل أن يذهب عنهم روعهم قذف الماء فى وجوههم حتى ينالوا منه كفايتهم ، ثم قذف الصحاف وأدوات المائدة فى ظهورهم ، وهم يهرولون رجالا ونساء ، بعد أن اختطفوا قبعاتهم على عجل . وما كان أغرب منظرهم فى حيرتهم واضطرابهم ، وتيمن من ورائهم يدعوهم بأسمائهم الحقة : الطفيليين الباسمين ، الناعمين ، المتلفين تحت ستار المجاملة ، والذئاب الباشة ، والدببة الوديعة ، الماجنين أتباع الموسرين ، أصدقاء البطون ، المتهافتين على الطعام تهافت الذباب على الأقذار » .

وتزاحموا كلهم كيلا تقع أعينهم عليه ، وخرجوا من الدار أسرع مما دخلوها ، فمن الرجال من ترك معطفه وقبعته ، ومن النساء من تركت حليها ؛ ولم يكن لأحد منهم هم إلا الفرار من وجه هذا السيد الأحمق ، وتجنب سخريته اللاذعة ، وولميته المزورة الهزلية .

وكانت هذه آخر وليمة أولمها تيمن ، وفيها ودع أثينة وودع صحبة الناس ، ولجأ بعدها إلى الغابات ، واعتزل المدينة والناس أجمعين ، وتمنى أن تدك جدران

هذه المدينة الممقوتة وتنهار بيوتها على أهلها ، وأن تسلط على سكانها جميع المصائب التى تحل بالبشر ، من حرب طاحنة ، وانتهاك حرمة ، وفقر ووباء ؛ ودعا الآلهة العدول أن تصب جام غضبها ونقمتها على الأثينيين طرا ، صغيرهم وكبيرهم ، عظيمهم ووضيعهم ؛ ثم غادر المدينة وآوى إلى الغابات ، لأن الوحوش الضارية — على حد قوله — أرحم بالإنسان من الإنسان . وجرد تيمن نفسه من ملابسه حتى يقطع كل صلة بينه وبين الإنسانية ، واحتفر لنفسه كهفاً يسكنه ، وعاش فيه وحيداً كما يعيش الحيوان الأبكم ، يطعم الجذور البرية ، ويشرب الماء الجارى ، ويفر من وجوه بنى جنسه ، ويفضل صحبة الوحوش الكاسرة لأنها أقل من الإنسان أذى وأكثر منه مودة .

وما كان أكبر الفرق بين لورد تيمن الموسر صاحب المال الكثير ، مصدر البهجة للخلائق أجمعين ، وبين تيمن العارى الجسد ، الحاقد على البشر . فأين الآن كل أولئك الذين كانوا يتملقونه ويتذللون له ؟ فهل تكون الريح العاتية خادمه الذى يدفئ له قميصه ؟ وهل تستحيل الأشجار الجامدة المعمرة إلى شبان يقومون بخدمته ، ويقضون له حوائجه ، وينفذون أوامره ؟ وهل يقف فى خدمته جدول الماء الذى تجمد فى الشتاء ، فيقدم له حساءه وشرابه الدفىء إذا أصابته تخمة بالليل ؟ أو هل تأتيه الخلائق التى تسكن هذه الغابات الموحشة فتمسح بلسانها كفه وتتملقه ؟

وبينا هو يحفر الأرض فى يوم من الأيام ليخرج منها ما يقتات به من الجذور ، إذا بفأسه تصطدم بجسم صلب ثقيل ، فلما أخرجه رآه كومة من الذهب ، لعل إنساناً بخيلا دفنها فى ساعة رعب ، وفى نيته أن يعود إليها ليستخرجها من مخبئها ، ولكنه مات قبل أن تتاح له فرصة الرجوع إليها ، ومن غير أن يطلع أحداً من الناس على سرها . وهكذا بقى الذهب فى باطن أمه الأرض لا ينفع الناس ولا يضرهم ، وكأنه لم يخرج منها قط ، حتى أصابه معول تيمن مصادفة فأراه ضوء النهار .

وهكذا عثر تيمن على كنز كان فى وسعه أن يبتاع به مرة أخرى الصحاب

والمتزلفين ، لو أنه ظل على تفكيره القديم ، ولكنه كان يمقت العالم المخاتل ، فكان منظر الذهب كريهاً مبغضاً له ؛ وكان يستطيع أن يعيده إلى موضعه من الأرض ، ولكنه تذكر ما يجره الذهب على البشر من مصائب تجل عن الحصر ، وما يثيره بريقه بين الناس من سلب ونهب ، واضطهاد وظلم ، ورشا واعتداء وتقتيل ؛ وكان يضمر لبنى جنسه من الحقد والضغينة ما حبب إليه التفكير فى أن هذا الذهب الذى عثر عليه وهو يحفر قد يكون إذا أخرجه منها مصدراً للمصائب تحل ببنى الإنسان . ومر بكهفه فى الغابة وقتئذ جماعة من الجند كانوا فرقة من جيش القائد الأثينى السبيديس Alcibiades ؛ وكان هذا القائد قد غضب على شيوخ أثينة — لأن الأثينيين قد اشتهروا بأنهم قوم يكفرون بالنعمة ويسيئون إلى قادتهم وأصدقائهم — فساق عليهم جيشه الظافر الذى قاده من قبل للدفاع عنهم . وسر ذلك تيمن فوهب المال لقائدهم ليؤدى به إليهم رواتبهم ، ولم يطلب إليه فى نظير ذلك إلا أن يدك بجيشه الظافر أبنية أثينة ، ويهلك كل من فيها ذبحاً أو حرقا ، لا يرحم الشيوخ لضعفهم لأنهم على حد قوله مرابون ، ولا الأطفال لما يبدو عليهم من طهر ابتساماتهم لأنهم إذا عاشوا أصبحوا خونة مارقين ؛ وأشار عليه أن يغمض عينيه ويصم أذنيه ، فلا يرى شيئاً ولا يسمع صوتاً قد يبعث فى نفسه الرحمة بهم ، وألا يمنعه عويل العذارى وصياح الأطفال وبكاء الأمهات من تقتيل كل من فى المدينة والقضاء عليهم كلهم حين يظفر بهم ، حتى إذا ما تم له ما أراد دعا الآلهة أن تصب عليه جام غضبها ونقمتها . إلى هذا الحد كان تيمن يحقد على أثينة والأثينيين والناس أجمعين .

وظل تيمن يحيا حياة أشبه بحياة الحيوان منها بحياة الإنسان ، حتى رُأى فجأة فى يوم من الأيام رجلا واقفاً بباب كهفه ينظر إليه فى عجب ودهشة . وكان هذا القادم خادمه الأمين فلافيس ، دفعه حبه وإخلاصه لسيده إلى البحث عنه فى مسكنه الحقير ليعرض عليه خدمته . وأثر فى نفس هذا الخادم الوفى منظر تيمن وهو فى هذه الحال من البؤس ، عارياً كيوم ولدته أمه ، يعيش كالوحش بين الوحوش ، هزيلاً متهدماً ، فلم يستطع أن يحرك لسانه ، بل وقف حائراً مذهولا

مرتاعا . فلما ذهب عنه الروع واستطاع النطق ، غص بريقه وفاضت دموعه حتى تعذر على تيمن أن يتبينه ويعرف مَن هذا الإنسان الذى خرج عن طبيعة البشر فجاء إليه فى بؤسه يعرض عليه خدمته . ورآه فى صورة البشر فارتاب فى أمره ، وظنه خائناً يتصنع البكاء لغرض فى نفسه ، غير أن هذا الخادم الأمين أثبت بالقول والعمل أنه صادق وفى ، وأظهر أنه لم يأت به إلى هذا المكان إلا حبه لسيده القديم وحرصه على أداء واجبه إليه . واضطر تيمن آخر الأمر أن يعترف أن فى العالم كله رجلا وفيا شريفاً ؛ ولكنه رآه فى صورة البشر ، فلم يستطع أن ينظر إلى وجهه من غير أن تعاف منظره عيناه ، وأن يستمع إليه من غير أن تستك من ألفاظه أذناه ، واضطر هذا الرجل الذى تفرد بالوفاء بين الرجال أن يرجع أدراجه ، لا لشىء إلا لأنه رجل ، ولأن له هيئة الرجال الممقوتة وملامحهم الكريهة ، وإن أوتى من الرحمة والحنان ما لم يؤت الكثيرون من الناس .

لكن زواراً أعظم شأناً من الخادم المسكين كانوا يتأهبون للمجىء إلى هذه الغابة ليقطعوا على تيمن هدوءه الموحش فى وحدته ، فقد حل اليوم الذى ندم فيه وجهاء أثينة الجاحدون على ما أساءوا إلى تيمن الكريم . ذلك أن السبيديس كان فى ذلك الوقت يزمجر عند أسوار المدينة كما يزمجر الوحش المهتاج ، وكانت جيوشه المحيطة بأثينة الجميلة تهددها بالدمار والخراب . فلما جد الجد عادت ذكرى تيمن إلى عقول هؤلاء الناس بعد أن غفلوا عنه زمناً طويلا ، وذكروا بأسه وشجاعته فى القتال ، فقد كان تيمن قائدهم فيما مضى من الأيام ، وكان جنديا مقداماً خبيراً بفنون الحرب ، فلم يأنسوا فى غيره القدرة على لقاء هذا الجيش اللجب الذى كان يحاصر المدينة ويهددها بالتدمير ، وصد هجوم السبيديس العنيف .

وأرسل إليه أهل المدينة فى محنتهم وفداً من شيوخها ليعرضوا عليه أمرهم ، وجاء قومه يهرعون إليه فى هذه المحنة ، وهم الذين تخلوا عنه فى بؤسه ولم يمدوا إليه يدا ، كأنهم كانوا يطلبون إليه أن يشكر لهم ما قدموا له من إساءة ، وكأنهم كانوا أهلا لمعروفه وفضله لما عاملوه به من القسوة والفظاعة .

فقد جاءوه الآن متذللين متضرعين يدعونه والدموع تنهمر من عيونهم أن

يعود إليهم ويرد العدو عن مدينتهم ، وقد أخرجه منها جحودهم من وقت قريب ؛ جاءوا يعرضون عليه المال والسلطان والجاه والشرف الرفيع ، ليعوضوه بهذا كله عما لحقه من الأذى فى أيامه الماضية ؛ ويؤكدون له أن قلوب أهل المدينة ملتفة حوله ، ويمنحونه ألقاب الشرف ، ويضعون أرواحهم وأموالهم وكل ما ملكت أيمانهم بين يديه إذا عاد إليهم ونجاهم من عدوهم . ولكن تيمن العارى الجسد ، الكاره للبشر ، لم يعد هو لورد تيمن الجواد المعطاء ، والبطل المقدام ، حاميهم فى الحرب ، وزينتهم فى السلم ؛ فإذا أهلك السبيديس بنى وطنه فذلك ما لا يعنيه ، وإذا دك أبنية أثينة الجميلة دكا ، حتى كانت هباء منبثا ، وقتل شيوخها وأطفالها ، قرت بذلك عينه وطابت به نفسه . ذلك ما قاله لهم وزاد عليه أن ليس فى يد أحد من الجند المهاجمين خنجر إلا وهو فى نظره أعظم قيمة من أشرف رأس فى أثينة .

هذا هو كل ما أجاب به عن توسل الشيوخ الباكين النادمين ، ولم يزد عليه حين ردهم خاسرين إلا أن أمرهم أن يذكروه بخير لمواطنيه ، ويبلغوهم أنهم قد بقيت لهم وسيلة تخفف عنهم آلامهم ، وتذهب عنهم مخاوفهم ، وتنجيهم من عواقب غضب السبيديس ووحشيته ، وأنه لا يضن عليهم بوصفها لهم ، لأن قلبه لا يزال فيه بقية من حبه لمواطنيه الأعزاء ، تغريه بالإحسان إليهم مرة قبل أن يوافيه أجله المحتوم . وسمع الشيوخ هذا الكلام فانتعشت نفوسهم بعض الانتعاش ، وظنوا أن الرحمة قد وجدت سبيلا إلى قلبه ، ثم أخبرهم أن بالقرب من كهفه شجرة سيقطعها لبعض أغراضه عما قليل ، ودعا كل من أراد أن ينجو من العذاب من أصدقائه الأثينيين على بكرة أبيهم ، عظيمهم وحقيرهم ، أن يذوقوا طعم هذه الشجرة قبل قطعها . وكان يريد بقوله هذا أن عليهم أن يشنقوا أنفسهم على أغصانها لينجوا من العذاب .

وكانت هذه آخر يد يسديها تيمن لبنى الإنسان ويختتم بها جوده ونبله ، كما كانت آخر مرة يراه فيها مواطنوه ؛ فقد مر أحد الجنود البائسين بعد أيام قليلة بشاطئ البحر غير بعيد من الغابة التى كان يأوى إليها تيمن ، فوجد عنده قبراً

وعليه من النقوش ما يدل على أنه قبر تيمن الحاقد على بنى جنسه ، « الذى كان فى حياته يمقت الناس أجمعين ، والذى تمنى عند وفاته أن يرسل عليهم وباء يذهب بكل من بقى من أولئك الأنذال » .

وليس يدرى أحد هل قضى تيمن على نفسه بيده ، أو أن كره الحياة ومقت بنى الإنسان هما اللذان أوصلاه إلى هذه الخاتمة ؛ ولكن ما من أحد إلا أعجب بهذا النقش الذى خطه على قبره ، وبحرصه على ما أخذ به نفسه بعد خروجه من بلده ، وبأنه مات كما عاش حاقداً على بنى جنسه . ومن الناس من رأى معنى آخر فى اختياره شاطئ البحر موضعاً لقبره ، حتى يبكى عليه البحر إلى الأبد ؛ كأنه بذلك يعلن ازدراءه ومقته للدموع المصطنعة السريعة الجفاف ، دموع المنافقين من بنى الإنسان .

رميو وجليت

كان أكبر الأسر التى تسكن ڤيرونا أسرة كپيلت Capulet الثرية وأسرة منتجيو Montague ؛ وكان بين الأسرتين نزاع قديم ، واشتدت العداوة بينهما حتى وصلت إلى أقاربهما الأبعدين ، بل إنها امتدت إلى الخدم والأتباع ، فإذا تقابل فرد من أسرة كپيلت بآخر من أسرة منتجيو ، أو التقى بطريق الصدفة خادم لهذه الأسرة بخادم لتلك ، تبادل الإثنان قوارص الكلم وجرت الدماء بينهما أحيانا ؛ وكثيراً ماثار النزاع فى طرقات المدينة الهادئة السعيدة إذا التقى الفريقان فيهامصادفة فأزعج ذلك أهلها وأقلق بالهم .

وأولم لورد كپيلت الكبير ذات مرة وليمة عشاء فخمة ، دعا إليها كثيرات من السيدات الحسان وكثيراً من النبلاء العظام ، ولبى الدعوة كل من كان فى المدينة من الغانيات ذوات الجمال البارع الفتان ؛ ورحب رب البيت وأهله بالمدعوين جميعا إذا لم يكونوا من أسرة منتجيو . وكان من الفتيات اللاتى حضرن الوليمة روزلين Rosaline حبيبة رميو Romeo ابن لورد منتجيو الكبير ؛ ومع أن وجود أحد من بيت منتجيو فى هذه الوليمة يعرضه لأشد الأخطار فإن بنڤليو Benvolio صديق رميو أقنعه بالذهاب إليها لينظر بعينه حبيبته روزلين ، ويرى الفارق العظيم بينها وبين غانيات ڤيرونا ، ويدرك إن قطاته ليست إلا حداه . ولم يكن رميو ليصدق شيئا من أقوال بنڤليو ، ولكنه وافق على الذهاب إلى الوليمة ليشاهد روزلين ، لأنه كان يحبها حباً صادقاً قوياً أرقه وأطار الرقاد من عينه ، واعتزل من أجلهالناس لينفرد بنفسه ويفكر فى روزلين . ولكن هذه الفتاة كانت تزدريه ولا تأبه بحبه ، ولم تظهر نحوه شيئا من العطف أو المجاملة ؛ وكان الغرض الذى يرمى إليه بنڤليو أن يزج بصديقه بين الصحاب والفتيات لعل ذلك يشفيه من حبه .

وجاء رميو إلى وليمة آل كپيلت ومعه بنڤليو وصديقهما مركوتيو Mercutio وكانوا كلهم متخفين مقنعين . وحياهم لورد كپيلت الكبير وأبلغهم أنهم يراقصون

المتصرف فى أمرها ، وسارت معه أينما سار . ونادتها مربيتها أكثر من مرة فى أثناء هذا الحديث ، وطلبت إليها أن تأوى إلى فراشها ، فكانت تذهب إليها ثم لا تلبث أن ترجع إلى مكانها من النافذة ، لأنها كانت تحرص على قرب رميو منها حرص الطفلة الصغيرة على عصفور بيدها ، تتركه يقفز قليلا أمام عينيها ثم تعود فتجذبه إليها بخيط من حرير . وكان رميو لا يقل عنها بغضاً لفراقها لأن أعذب النغمات وأشجاها للمحبين صوت أحبائهم فى سكون الليل . ثم افترقا آخر الأمر وكلاهما يرجو لحبيبه اطمئنانا ونوما هادئا فى تلك الليلة .

وكان ستر الليل وقتئذ قد تمزق ، وكانت صورة چليت لا تبرح ماثلة أمام عينى رميو ، وذكرى تلك الليلة جاثلة فى ضميره تؤرقه وتطيل ليله ، فتوجه تلقاء دير قريب يطلب الراهب لورنس Lawrence . وكان هذا الراهب قد استيقظ من نومه وعكف على صلواته ، ولكنه حين رأى رميو فى ذلك الوقت المبكر ظن أن عواطف قوية كانت تجيش فى صدره ، فبات منها مسهدا . وأصاب الأب حين ظن أن الحب هو الذى أرقه ، ولكنه أخطأ حين خال أن حب روزلين هو الذى أطار الرقاد من عينيه ؛ فلما أطلعه رميو على حبه لچليت وطلب إليه أن يساعده على الزواج بها فى ذلك اليوم نفسه ، دهش الرجل من هذا التحول المفاجىء فى عواطفه ، لأنه كان مطلعاً على سره وعلى حبه لروزلين وألمه من رفضها واحتقارها له ، وقال لرميو إن حب الشبان لا يستكن فى قلوبهم بل فى أعينهم . ولكن رميو أجاب الراهب بأنه هو نفسه كثيراً ما لامه على هيامه بروزلين التى لم تكن تحبه ، فى حين أن چليت تبادله حبا بحب ، فوافقه إلى حد ما على رأيه وبدا له أن زواج چليت ورميو قد يساعد على إزالة أسباب العداوة بين آل كپيلت وآل منتجيو بعد أن غلت مراجلها فى قلوبهم زمنا طويلا . ولم يكن أحد يألم لهذه الحال أكثر مما يألم لها هذا الراهب الصالح ، فقد كان صديقا لكلتا الأسرتين وكثيراً ما حاول التوفيق بينهما من غير طائل . ورضى هذا الرجل بأن يجمع بين هذين المحبين مدفوعا إلى ذلك بحس السياسة والعطف على رميو ولم يكن فى وسعه أن يرفض له رجاء .

وشعر رميو بأن الدهر قدصفاله ، وعرفت چليت من رسول أرسلته إلى رميو وفاء بوعدها له ما اتفق عليه مع الراهب لورنس ، فجاءت إلى الدير فى الصباح الباكر وتم زواجهما فى تلك الساعة ، ودعا الراهب الصالح ربه أن يبارك هذا الزواج ، وأن يحسم به أسباب الشقاق والبغضاء التى طال عليها الأمد بين أسرتيهما .

ولما تمت مراسم الزواج أسرعت چليت إلى دارها وانتظرت حلول الليل وهى على أحر من الجمر ؛ وكان رميو قد وعدها أن يقابلها فى الحديقة التى تلاقيا فيها فى الليلة السابقة ؛ وبدت لها تلك الفترة طويلة مملة كما تبدو الليلة السابقة ليوم العيد طويلة مملة للطفل الذى جىء إليه بملابس جديدة وحرم عليه أن يلبسها إلا فى الصباح .

واتفق أن كان بنڤليو ومركوتيو صديقا رميو يسيران فى هذا اليوم نفسه فى شوارع ڤيرونا ، فالتقيا بجماعة من آل كپيلت على رأسهم تيبلت الشائر العنيف . وكان هو الذى هم بقتال رميو فى دار لورد كپيلت الكبير فى يوم وليمته ، فلما رأى مركوتيو اتهمه فى غير أدب بأن له صلة برميو أحد أفراد أسرة منتجيو . وكان مركوتيو يغلى فى عروقه دم الشباب ولا يقل مزاجه حدة عن مزاج تيبلت ، فرد عليه ردا عنيفاً ، وحاول بنڤليو أن يهدىء من ثورة غضبهما فلم يفلح ، وأخذ الشابان يقتتلان . واتفق أن مر رميو نفسه بهذا المكان فترك تيبلت قتال مركوتيو واتجه إلى رميو وسماه « نذلا » . وأراد رميو أن يتجنب أسباب النزاع مع تيبلت بنوع خاص ، لأنه قريب چليت ، ولأنها شديدة الحب له ، ولأن رميو نفسه كان شابا عاقلا رزينا لا يتدخل كثيراً فى النزاع القائم بين الأسرتين ؛ وفوق هذا وذاك فإن اسم كپيلت ، وهو الاسم الذى تحمله حبيبته چليت ، قد أصبح بلسما يأسو جراح صدور الأسرتين الوغرة ، وكان من قبل يستثير غلها الدفين ؛ فتقدم إلى تيبلت يريد أن يجادله بالحسنى ، وحياه بيشاشة ، ودعاه باسم كپيلت الكريم كأنه وهو من أسرة منتجيو يجد لذة خفية فى النطق بذلك الاسم . ولكن تيبلت كان يبغض هذا الاسم الأخير ولا يطيق سماعه ، فلم يصغ إلى شىء من أقوال رميو ، بل استل سيفه . ولم يكن مركوتيو يعلم السبب الخفى الذى يبعث

فى نفس رميو الرغبة فى مصافاة تيبلت ، بل كان يعد إمتناعه عن القتال خضوعا منه واستسلاما مزريا ، فأخذ يستثيره بشتى الألفاظ القبيحة ، ويذكره بما جرى بينهما قبل ذلك من نزاع . وتقاتل تيبلت ومركوتيو حتى جرح ثانيهما جرحا مميتاً خر على أثره صريعاً ، بعد أن حاول رميو وبنفليو عبثاً أن يفرقا بينهما . فلما قتل مركوتيو لم يستطع رميو أن يكظم غيظه ، ورد على قول تيبلت بأنه « نذل » ردا يماثله ، ثم تقاتلا حتى قتل تيبلت بطعنة من يد رميو . حدث هذا القتال العنيف فى وسط المدينة وفى رائعة النهار ، فاجتمع حول المتقاتلين جم غفير من أهلها ، ومن بينهم زعيما أسرتى كپيلت ومنتجيو وزوجتاهما . وجاء الأمير بعد ذلك بقليل وكان يمت بصلة القرابة إلى مركوتيو الذى قتله تيبلت ، ووجد أن هذه المنازعات بين آل كپيلت وآل منتجيو طالما أقلقت بال حكومته ، فصمم على أن ينفذ القانون بصرامة ويأخذ من تثبت منهم إدانته بأشد أنواع العقاب . وكان بنفليو قد شاهد الواقعة بعينه ، فدعاه الأمير لأن يقص عليه سببها ، فأجابه إلى ما طلب وحاول أن يكون قريبا من الحقيقة بقدر ما يستطيع ، دون أن يسىء بشىء إلى رميو ، وأخذ يلطف من نصيب صديقه فى هذا الشجار . وحزنت زوجة لورد كپيلت أشد الحزن على ما أصاب قريبها تيبلت وأرادت أن تقتص له من قاتليه ، فأخذت تحرض الأمير على أن يقسو على القاتل ، وألا يلتفت إلى شهادة بنفليو الذى كان يميل إلى رميو لما بين الأثنين من الصداقة وصلة القرابة . ثم شرعت توغر قلب الأمير على زوج ابنتها الجديد ، دون أن تعرف أنه قد أصبح زوجا لچليت . ووقفت كذلك زوجة لورد منتجيو تدافع عن ولدها وتقول ، ولها بعض الحق فى قولها ، إن رميو حين قتل تيبلت لم يرتكب جرما يستحق عليه العقاب ، لأن تيبلت قد خرج على القانون بقتله مركوتيو . ولكن الأمير لم تؤثر فيه أقوال السيدتين المهتاجتين وأخذ يقلب الأمر على جميع وجوهه ثم قضى بنفى رميو من مدينة ڤيرونا .

ووقع هذا الخبر وقوع الصاعقة على قلب چليت التى لم يمض على زواجها إلا بضع ساعات ، والتى خيل إليها الآن أنها قد طلقت من زوجها طلاقاً أبدياً ، وغضبت أول الأمر من رميو أشد الغضب ، وثار ثائرها عليه لأنه قتل ابن عم لها

عزيز عليها ، وأخذت تدعوه ظالماً جميلاً ، وملاكا شيطانياً ، وقطاة جارحة ، وحملا له طبيعة ذئب ، وقلباً كالأفعى بوجه كالزهر ، وما إلى ذلك من الأضداد التى تكشف عن الثورة القائمة فى نفسها بين عاطفتى الحب والغضب . ثم تغلبت عاطفة الحب فى آخر الأمر واستحالت الدموع التى أذرفتها حزناً على مقتل ابن عمها على يد رميو دموع فرح لنجاة زوجها من القتل الذى كان يريده له تيبلت . ثم انهمرت من عينيها دموع أخرى حزناً على نفى رميو ، وكان هذا النفى أشد وقعاً عليها من موت تيبلت وكثير من أمثاله .

ولجأ رميو بعد الشجار إلى صومعة الراهب لورنس ، وهناك بُلِّغ نص الحكم الذى أصدره عليه الأمير ؛ وبدا له هذا الحكم أشد هولاً من الموت ، ولاح له أن لا عالمَ خارج أسوار ڤيرونا ، ولا حياة بعيداً عن چليت ، فحيثما تكن تكن الجنة ، وحيث لا تكون تكون الجحيم والعذاب الأليم . وكان الراهب الصالح يود لو يستطيع أن يخفف بفلسفته حزنه ولوعته ، ولكن هذا الشاب الهائج الذى لم يكن ليستمع نصحاً أخذ يقتلع بيديه شعره كمن به جنة ، ثم ألقى بنفسه على الأرض ليقيس على حد قوله سعة قبره .

وأفاق من هذه الحاله الموئسة على صوت رسول جاءه من قبل زوجته العزيزة ، فبعث فيه شيئاً من الحياة ، وانتهز الراهب هذه الفرصة السانحة ليبين له ما فى عمله هذا من ضعف لا يليق بالرجال ، فقال له إنه قد قتل تيبلت ويريد الآن أن يقتل نفسه ويقتل الفتاة التى لا تحيا إلا بحياته ، وإن هذه الصورة البشرية النبيلة يصبح شأنها كشأن دمية من الشمع إذا أعوزتها شجاعة الرجال . لقد كان القانون رحيما به فلم يقض عليه بالموت الذى يستحقه ، بل قضى ، على لسان الأمير ، بنفيه من البلاد . لقد قتل تيبلت وكان من الجائز أن يقتل هو بيد تيبلت نفسه ، وفى هذا ما فيه من السعادة . ثم إن چليت لا تزال حية وهى الآن زوجة له ، وكان هذا مطلباً عزيز المنال ، وتلك سعادة ليس بعدها زيادة لمستزيد . هذه هى النعم — كما يقول الراهب — التى يريد رميو أن يحرمها على نفسه كما تفعل الفتاة المنكدة السيئة السلوك ، ثم حذره من الاستسلام لليأس لأن اليائسين يموتون

أشقياء بائسين . فلما هدأ رميو قليلا أشار عليه أن يذهب فى تلك الليلة ويودع چليت سراً ثم يسافر من فوره إلى منتوا Mantua ويقيم فيها حتى تسنح الفرصة للراهب فيعلن زواجه بچليت ، ولعل هـذا الزواج يكون وسيلة للتوفيق بين الأسرتين وإزالة ما بينهما من شقاق . وقال إنه لا يشـك فى أن الأمير سيشفق عليه وقتئذ ويعفو عنه ، فيعود إلى بلده وفى قلبه من الغبطة أضعاف ما كان فيه من الحزن حين خرج منه منفياً طريداً . واقتنع رميو بهذه النصائح السديدة واستأذن الراهب فى الذهاب إلى زوجته ، واعتزم أن يقيم معها تلك الليلة ثم يخرج من عندها فى مطلع الفجر ويسافر وحده إلى منتوا ؛ ووعده الراهب الرحيم أن يبعث إليه من حين إلى حين برسائل يبلغه فيها ما يحدث فى موطنه .

وقضى رميو تلك الليلة مع زوجته المحبوبة بعد أن وصل إلى حجرتها خفية من الحديقة التى سمع فيها حديث الحب فى الليلة الماضية . لقد كانت تلك الليلة مفعمة بالسرور الخالص الذى لا يشوبه ما يكدر صفوه ، أما سرور هذه الليلة واغتباط الحبيبين بهذا اللقاء فقد كان يعكر صفوهما تفكيرهما فى الفراق ، وما وقع فى اليوم السابق من حوادث أليمة . وأحزنهما طلوع الفجر الذى ظناه قد لاح قبل الأوان ؛ ولما سمعت چليت سجع القبرة فى الصباح حاولت أن تقنع نفسها أنها تسمع شدو العندليب الذى لا يغنى إلا فى الليل ، ولـكنها كانت تخدع نفسها ، فقد كان هذا صوت القبرة ، وقد بدت لها نغماتها متنافرة كئيبة ، ولاحت تباشير الصباح فى الشرق تنذر الحبيبين بأن قد آن وقت الفراق .

وودع رميو زوجته العزيزة وهو مكتئب حزين ، ووعدها أن يكتب إليها من منتوا فى كل ساعة من ساعات النهار ، ولما نزل من نافذة غرفتها ووقف من تحتها على الأرض بدا لها فى حزنها كأنه ميت فى قبره . ولم يكن رميو نفسه أقل منها جزعاً ، ولـكنه اضطر وقتئذ إلى مغادرة المـكان ، فقد كان الموت جزاءه إذا وجد داخل أسوار المدينة بعد مطلع الفجر .

على أن هذا لم يكن إلا بداية مأساة هذين المحبين المنحوسى الطالع . ذلك أنه لم يمض على نفى رميو إلا بضعة أيام حتى عرض لورد كپيلت الزواج على چليت ،

وكان الزوج الذى اختاره لها أبوها هو الكنت باريس ، وهو شاب مهذب شهم كريم ، جدير بأن يكون زوجاً لها لو أنها لم تكن قد رأت رميو من قبل . ولم يكن يدور بخلد هذا الشاب أن جليت قد تزوجت بغيره .

وتحيرت جليت فى أمرها حيرة ممزوجة بالحزن والأسى حين عرض أبوها الزواج عليها ، فاحتجت أولاً بصغر سنها ثم بمقتل تيبلت الذى لم يمض عليه إلا القليل ، والذى أحزنها وآلم قلبها ، وتركها عاجزة عن أن تقابل زوجاً لها بوجه باش وثغر باسم ، ثم قالت إنه لا يليق بآل كپيلت أن يحتفلوا بالزفاف وهم لم يفرغوا بعد من الحداد على فتى من فتيان أسرتهم ؛ وجملة القول أنها أبدت كل ما تستطيع أن تبديه من الأعذار إلا العذر الصحيح ، وهو أنها قد تزوجت من قبل . ولكن لورد كپيلت أصم أذنيه عن سماع هذه المعاذير كلها ، وأمرها أمراً لا رجوع فيه أن تستعد للزواج بالكنت باريس فى يوم الخميس الآتى . وكان مما قاله إنه وقد وجد لها زوجاً شاباً ثرياً نبيلا ، يسر أعز فتيات ڤيرونا نفساً وأكثرهن شمماً أن تتخذه لها زوجاً ، فإنه لا يرضي منها أن تقيم العراقيل فى سبيل هنائها بسبب حيائها المتصنع ، وهو ما حسبه هذا الأب سبباً لامتناعها عن الزواج .

ولجأت جليت فى هذه المحنة إلى صديقها الراهب ، الذى كانت ترجع إليه كلما ألمت بها ملمة ، فسألها هل أوتيت من قوة العزيمة ما تستطيع معه أن تلجأ فى موقفها هذا إلى علاج المستيئسين ؟ فأجابته بأنها تفضل أن تدفن نفسها حية على أن تتزوج بباريس وزوجها العزيز على قيد الحياة . فأشار عليها أن تعود إلى بيتها وتتظاهر بالبشر والسرور ، وتجيب أباها إلى رغبته فى الزواج بباريس ؛ ثم أعطاها زجاجة وطلب إليها أن تشرب ما فيها فى الليلة التالية ، وهى الليلة السابقة ليوم الزفاف ، وقال إنها إذا شربته برد جسمها وبدت كأنها قد فارقت الحياة ، وظلت كذلك اثنتين وأربعين ساعة كاملة ، فإذا جاء الزوج ليأخذها إلى داره فى الصباح ظن أنها قد ماتت ، فيحملونها عارية فى نعشها كما جرت بذلك عادة هذا البلد ليدفنوها فى مدافن أسرتها . وإعاد عليها قوله إنها إذا اطرحت ضعف النساء وقبلت أن تجرب هذه التجربة الرهيبة ، فإنها تصحو من نومها لا محالة بعد اثنتين وأربعين

ساعة من شرب الدواء الذى له هذا الأثر الأكيد . ووعدها فوق ذلك أن يطلع زوجها على هذا السر قبل أن تصحو من نومها ، ليأتى إليها فى ظلام الليل ويحملها إلى منتوا . ووافقت چليت على هذا الرأى ، وكان حبها لرميو وخوفها من زواج باريس كافيين لأن يبعثا فى قلبها من الشجاعة ما تستطيع به أن تجازف هذه المجازفة الرهيبة . وأخذت زجاجة الدواء من الراهب وعاهدته على أن تفعل ما أمرها به .

ثم خرجت من الدير ، وقابلت الكنت باريس ، ووعدته فى حياء متكلف أن تكون زوجة له . وسر ذلك النبأ لورد كپيلت وزوجته ، وكأنه قد أعاد إلى هذا الشيخ شبابه أيضا ، وما من شك فى أنه أعاد حب چليت إلى قلبه ، لأنها وعدته أن تطيع أمره بعد أن آلمته من قبل أشد الألم برفضها الزواج بالكنت . وأصبح القصر كله فى هرج ومرج استعداداً للزفاف القريب ، وبذل المال عن سعة ليكون الاحتفال أفخم ما شهدته ڤيرونا فى تاريخها كله .

وفى ليلة الأربعاء شربت چليت الدواء جميعه ، وكانت تخشى أن يكون الراهب قد أعطاها سماً لينجو مما عساه أن يصيبه من اللوم لأنه زوجها برميو ، وإن كان قد عُرف بين الناس طول حياته بالتقى والورع . وماذا يكون أمرها لو أنها أفاقت قبل أن يجىء رميو لأخذها ؟ ألا يحتمل أن يذهب بعقلها هول المكان ، ذلك القباء الذى تكدست فيه عظام آل كپيلت ، ورقد فيه تيبلت مضرجاً بدمه ، وقد أخذ جسمه يتحلل فى كفنه ؟ ثم تذكرت كل ما سمعته من القصص عن الأرواح ، وما قيل من أنها تأوى إلى المكان الذى دفنت فيه أجسامها ، لكن حب رميو وكره باريس عادا إليها فابتلعت الجرعة وغابت عن الوجود .

ولما عاد باريس فى الصباح الباكر ليوقظ عروسه من نومها بأنغام الموسيقى الشجية ، رأى فى حجرتها منظراً رهيباً ، رأى جثة هامدة لا حراك فيها ، وعرف أن چليت قد قضت نحبها وقُضى معها على آماله . وساد الاضطراب القصر كله ، وأخذ باريس يندب سوء حظه ويبكى عروسه التى اختطفها الموت الممقوت وطلقها منه قبل أن تزف إليه . وكان أشد من هذا وقعا وأكثر منه إيلاماً ، أن تسمع بكاء لورد كپيلت الكبير وبكاء زوجته ، وهما اللذان لم يكن لهما إلا هذه الفتاة المسكينة

العزيزة ، التى كانت قرة أعينهما وبهجة حياتهما ، فإذا بالموت الغادر يختطفها من بين أيديهما ، بعد أن بذلا عنايتهما فى تربيتها ، وبعد أن حسبا أن الحظ قد بدأ يبسم لهما بهذا الزواج الموفق السعيد . وجىء بكل ما كان قد أعد لحفلة الزفاف واستخدم فى موكب الجنازة الأسود ، فانقلبت فرحة العرس ترحة مأتم ، وبُدِّلت أناشيد الزواج السارة بمراثى الموت الحزينة ، ودقت الأجراس المحزنة بدلا من الآلات الموسيقية المطربة ، ووضعت على جثتها الأزهار التى أعدت لتنثر فى طريق موكب الزفاف ، وجىء بالقسيس ليضعها فى لحدها لا ليعقد لها على زوجها ، وحملت إلى الكنيسة لتزيد فى عدد سكان القبور لا لتبعث الأمل قوياً فى قلوب الأحياء .

ووصل النبأ المحزن ، نبأ موت جليت ، إلى رميو فى منتوا قبل أن يصل إليها رسول الراهب لورنس ليبلغه أن ما حدث فيها من مراسم المأتم والدفن مراسم صورية ، ليست إلا ظلا من الحقيقة ، وأن زوجته العزيزة لن تظل فى قبرها إلا زمناً قصيراً ، تترقب فيه قدومه ليخرجها من مثواها الرهيب ، حدث هذا لأن النذر المحزنة أسرع انتشاراً على الدوام من البشائر السارة . وكان رميو قبل وصول النبأ فرحاً مستبشراً فوق عادته ، فقد رأى فى منامه تلك الليلة أنه قد مات — وما أغرب هذه الرؤيا التى حملت هذا الرجل الميت على التفكير فى أمره — وأن زوجته العزيزة قد جاءته ورأته على هذه الحال فبعثت فيه الحياة بتقبيل شفتيه ، فانتعش وأصبح ملكا كبيراً . فلما جاءه رسول من ڤيرونا لم يخامره شك فى أنه جاء يزف إليه بشرى تحقق ما رآه من قبل فى حلمه . فلما أخبره بما يناقض هذه البشرى ، وبأن زوجته هى التى ماتت ، وأن ليس فى مقدوره أن يعيد إليها الحياة بقبلاته ، أمر أن تسرج له الخيل ، وقرر أن يسافر إلى ڤيرونا فى تلك الليلة ، ويمتع نظره برؤية زوجته فى قبرها . وسرعان ما وجدت أفكار السوء سبيلها إلى عقله ، لأن أفكار السوء أسرع الأفكار إلى البائسين ، فتذكر أنه رأى فى منتوا من زمن قريب صيدلياً فقيراً تبدو عليه علائم الذلة والفاقة ، وعلى حانوته مظاهر البؤس الشديد ، فلم يكن فيه إلا صناديق فارغة على رفوف قذرة ؛ ولعله قد دار بخلده فى تلك الساعة أن حياته البائسة قد تصل إلى حال من الذلة شبيهة بحال هذا الرجل

المسكين ، فقال فى نفسه : « إذا احتاج إنسان إلى سم ، وهو ما يحرم قانون منتوا بيعه ويقضى بالإعدام على بائعه ، فإن هذا الرجل البائس قد يبيعه من هو فى حاجة إليه » . وعادت هـذه الألفاظ وقتئذ إلى ذاكرته ، فذهب يطلب الصيدلى ، وعرض عليه طلبته . وتظاهر الرجل بالرفض أول الأمر ، فعرض عليه رميو مقداراً من الذهب لم يقو على رده لشدة فقره ، وباعه سماً قال إنه إذا تجرعه قضى عليه لساعته ، ولو كانت له قوة عشرين رجلاً .

وأخـذ رميو السم معه وتوجه نحو ڤيرونا ليلقى نظرة على زوجته فى قبرها ، حتى إذا ما متع عينه برؤيتها تجرع السم ودفن إلى جوارها . ودخل المدينة فى منتصف الليل ، وجاء إلى المقابر التى كان يقوم فى وسطها قبر آل كپيلت من عهد بعيد ، وجاء معه بفأس وإزميل من حديد ، وهم أن يفتح بهما القبر ، وإذا بصوت يقطع عليه عمله ويدعوه باسم « المنتجيو النذل » ويأمره أن يمتنع عن إجرامه . وكان هذا الصوت صوت باريس ، جاء إلى قبر چليت فى هذا الوقت من الليل ، الذى لم يكن مجيئه فيه يخطر ببال ، لينثر عليه الزهر ويبلل بدموعه قبر الفتاة التى كان يود أن تكون له زوجة . ولم يكن يدرى سبب اهتمام رميو بهؤلاء الموتى ، ولـكنه وهو يعرف أنه من بيت منتجيو ، وأنه فى ظنه من ألد أعداء آل كپيلت كلهم ، أيقن أنه قد جاء فى ظلمة الليل ليفعل بجثث الموتى فعلا ذميما أثيما ، ولذلك ناداه فى غضب أن يمتنع عن فعله ، وهم أن يقبض عليه لأنه مجرم أباحت شريعة ڤيرونا دمه إذا وجد فى داخل أسوارها . وألح عليه رميو أن يتركه وشأنه ، وذكره بما أصاب تيبلت وحذره أن يثير غضبه أو أن يضطره إلى قتله ، فيكسب بذلك إثما فوق إثمه ؛ ولـكن باريس سخر منه ولم يستمع إلى تحذيره ، وأخذ بتلابيبه بحجة أنه مجرم ، وقاومه رميو وتقاتلا وخر باريس صريعا . واستعان رميو بمصـباحه ليتبين شخصية القتيل ، فلما عرف أنه باريس الذى أريد أن يكون زوجا لچليت — وكان النبأ قد بلغه وهو عائد من منتوا — أمسك بيد الشاب ، وكأن البؤس قد جمع بينهما ، وقال إنه سيدفنه فى مقبرة النصر ، يقصد بذلك فى قبر چليت . وفتح باب القبر فرأى فيه زوجته ، وكأن الموت لم يقو على تغيير شىء من ملامحها ، أو

التأثير فى جمالها البارع المنقطع النظير ، أو كأن القدر الرهيب عاشق شغف بها ، فاحتفظ به ليمتع نفسه بمرآها .

لقد وجدها رميو مشرقة الوجه ناضرة كما كانت حين غشيها النوم بعد أن تناولت الجرعة المخدرة . وكان تيبلت إلى جانبها فى كفنه المضرج بالدماء ، فلما رآه رميو أخذ يعتذر له ويطلب إليه المغفرة ، ودعاه ابن عمه إكراما لچليت ، وقال إنه سيحسن إليه الآن بقتل عدوه .

وودع رميو چليت الوداع الأخير ، وقبلها من شفتيها ، ثم ألقى عن كاهله المنهوك عبء حياته التعسة المشئومة ، وتجرع السم الذى ابتاعه من الصيدلى ، وكان سما زعافا لا كالدواء الخادع الذى شربته چليت ، والذى كان أثره فى هـذه الساعة قد زال أو كاد يزول ، وأوشكت چليت أن تصحو من نومها لتعيب على رميو تأخره عن موعده أو تعجله .

وحلت الساعة التى قال الراهب إنها ستفيق فيها ، وكان هو قد عرف أن الرسول الذى بعث معه رسائله إلى منتوا قد عاقه عائق فى الطريق فلم يوصـل رسائله إلى رميو ، فجاء بنفسه ومعه فأس ومصباح ليخرج چليت من قبرها . ولشد ما كانت دهشته حين أبصر ضوءا فى مقبرة آل كپيلت ، ورأى إلى جانب القبر سيفين وجثتين هامدتين هما جثتا رميو وباريس .

وقبل أن يجول بخاطره سبب من أسباب هذه الحوادث المشئومة استيقظت چليت من سباتها ، ورأت الراهب إلى جانبها ، فذكرت مكانها وسبب وجودها فيه ، وسألت عن رميو . ولـكن الراهب سمع أصواتاً مقبلة فأمرها أن تخرج من ذلك المـكان مكان الموت والنوم المخالف لسنن الخلق ، وقال إن قوة كبرى لا يستطيع أحد أن يقف فى وجهها قد حالت بينهم وبين أمانيهم . واقتربت الأصوات وخشى الراهب عاقبة الأمر فولى هارباً . ورأت چليت الـكأس فى يد حبيبها فلاح لها أن السم هو الذى قضى عليه ، وودت لو كانت فى الـكأس ثمالة تتجرعها . ولـكنها بحثته فلم تجد فيه شيئاً ؛ ولم تكن شـفتا رميو قد ذهبت حرارتهما ، فأخذت تقبلهما لعل بقية من السم لا تزال عالقة بهما . ثم اقترب القادمون وعلت

أصواتهم ، فاستلت من فورها خنجراً كان معها ، وطعنت به نفسها فخرت صريعة بجوار رميو حبيبها . وكان الحراس وقتئذ قد جاءوا إلى المكان ؛ وذلك أن خادماً من خدم الكنت باريس شاهد القتال الذى وقع بين رميو وبين سيده فنقل الخبر إلى المدينة ؛ وسرعان ما انتشر بين أهلها فأهرعوا من بيوتهم مذعورين ينادون : « باريس ، ورميو ، وچليت » ؛ لأنهم لم يكونوا يعرفون إلا طرفاً مما حدث . وأيقظ ضجيجهم وصخبهم لورد منتجيو ولورد كپيلت ، فخرجا ومعهما أمير المدينة ليتبينوا سبب هذا الذعر . وكان بعض الحراس قد شاهدوا الراهب وهو خارج من المقبرة يرتعد ويبكى ويتأوه ، فارتابوا فى أمره وقبضوا عليه ، واجتمع حول آل كپيلت جم غفير من الناس ، وطلب الأمير إلى الراهب أن يفضى إليه بما يعلمه عن هذه الحادثات المروعة الغريبة .

ووقف الراهب أمام الشيخين لورد منتجيو ولورد كپيلت ، وسئل عما يعلم ، فقص عليهما قصة حب رميو وچليت ، وما كان له من يد فى زواجهما ، وأمل فى أن يقضى هذا الزواج على ما بين الأسرتين من شقاق قديم ، وبين لهم كيف كان رميو هذا الذى يرونه جثة هامدة زوجاً لچليت ، وكيف كانت چليت هذه الفتاة المنتحرة زوج رميو الأمينة ، وكيف أن زواجاً آخر قد دبر لچليت قبل أن تتاح لها الفرصة لإعلان زواجها الأول ، وكيف أرادت چليت أن تتجنب جريمة الزواج برجلين فشربت الدواء المنيم عملا بنصيحته ، فظن الناس كلهم أنها ماتت ، وكيف كتب هو إلى رميو يطلب إليه أن يحضر ويأخذ زوجته عند ما ينتهى مفعول الدواء ، ولكن سوء الحظ صادف الرسول فمنعه من توصيل الرسائل إلى رميو .

ولم يستطع الراهب أن يقص عليهم ما جرى بعد ذلك ، فقد كان كل ما يعرفه بعده أنه جاء ليخرج چليت من قبرها ، فوجد فيه الكنت باريس ورميو قتيلين . أما بقية القصة فقد رواها الخادم الذى شاهد باريس ورميو يقتتلان ، والخادم الذى جاء مع رميو من ڤيرونا ، والذى حمّله المحب الوفى رسائل إلى أبيه يوصلها إليه إذا أصابه الموت ، وفيها ما يؤيد أقوال الراهب . فقد اعترف فيها رميو بزواجه

چليت ، وطلب إلى أبيه أن يصفح عنه ، وأقر أنه ابتاع السم من الصيدلى المسكين وأنه جاء إلى المقبرة ليموت ويرقد إلى جانب چليت . وهذه الظروف مجتمعة نفت عن الراهب مظنة الاشتراك فى هذه الحوادث المفجعة المحيرة ، وأكدت أن كل ما كان له من يد فيها هو أنها جاءت نتيجة غير مقصودة لتدبيره المفرط فى الحذق والتكلف ، والذى لم يرد به مع ذلك إلا الخير .

والتفت الأمير وقتئذ إلى الشيخين لورد منتجيو ولورد كپيلت ، وعاب عليهما ما بينهما من عداوة وحشية ينكرها كل عاقل ، وأخبرهما بما أعد لهذه الجرائم من عقاب ، وبأن العدالة قد اتخذت حب ولديهما سبيلا إلى عقابهما على هذه الضغائن التى لا تليق ببنى الإنسان . وتعاهد العدوان القديمان بعد أن زال ما بينهما من أحقاد على أن يدفنا عداءهما القديم فى قبر ولديهما . ومد لورد كپيلت يده إلى لورد منتجيو ودعاه أخاه ، كأنه يريد أن يعترف بأن زواج رميو وچليت قد ألف بين قلوب الأسرتين ، وقال إنه يكفيه مهراً لابنته أن يمد له لورد منتجيو يده دليلا على صفاء قلبه ، فأجابه لورد منتجيو بأنه يعطيه أكثر مما طلب ، وأنه سيقيم لابنته چليت الصادقة الوفية تمثالا من الذهب الخالص لا يضارعه فى قيمته ولا دقة صنعه تمثال آخر فى ڤيرونا ما بقيت هذه المدينة قائمة . ورد عليه لورد كپيلت بأنه سيقيم تمثالا مثله لرميو ؛ وهكذا أخذ هذان الشريفان يتباريان فى التلطف والمجاملة بعد فوات الأوان ، وبعد أن استعرت نيران العداوة والبغضاء فى قلبيهما وقلوب سائر أفراد الأسرتين الشريفتين ، حتى لم يقو شىء على إطفائها ونزع سخائم قلوبهما إلا هذه الفاجعة المروعة التى أصابتهما فى ولديهما فجعلت منهما ضحيتين بريئتين لهذه المنازعات والأحقاد .

هملت أمير دنمرك

أصبحت جرترود Gertrude ملكة دنمرك أرملة بعد أن توفى زوجها الملك هملت فجأة ، ولكنها لم تلبث أرملة بعد وفاته إلا أقل من شهرين ثم تزوجت بأخيه . وعد الناس كلهم وقتئذ هذا الزواج أمراً غريبا ينطوى على الطيش وبلادة الحس ، أو على ما هو شر منهما . ذلك أن كلوديس هذا لم يكن يشبه زوجها الأول فى خَلْقه أو خُلقه ، بل كان دميما فى مظهره ، وحقيراً دنيئاً فى مخبره . وارتاب بعض الناس فى أمره فقالوا إنه قد عمل فى الخفاء على التخلص من أخيه الملك السابق ، لتتاح له فرصة الزواج بأرملته ، والجلوس على عرش دنمرك مكان وارثه الشرعى الأمير الصغير ابن الملك السابق .

ولم يؤثر هذا العمل الطائش الذى أقدمت عليه الملكة فى أحد تأثيره فى الأمير الشاب ، الذى كان يحب أباه الميت ويجل ذكراه إجلالا يكاد يبلغ حد العبادة . وكان هذا الشاب مرهف الحس ، دقيق الشعور بالشرف ، جم الأدب ، كثير التجمل والظرف فى سلوكه ، فآلمه وحز فى قلبه مسلك أمه جرترود الشائن . وأثر فيه حزنه على أبيه وما لحقه من المهانة بزواج أمه ، فاستسلم للهم والكآبة ، وفقد بشره ومرحه وجمال منظره ، ولم يبق له شىء من ولعه السابق بكتبه ؛ وكره كل ما يلائم شبابه من ضروب الرياضة والألعاب ، وسئم العالم الذى خال أن الشر قد طغى عليه حتى لم يبق فيه موضع للخير .

ولم يكن ذلك الذى أحزنه وأمر عيشه أنه سيحرم حقه الموروث فى الجلوس على العرش ، وإن كان هذا الحرمان فى ذاته مما يفت فى عضد أمير شاب عزيز النفس ويسقط منزلته . ولكن الذى آلم قلبه ، وأكسف باله ، وقضى على ما كان له من مرح وبهجة ، هو ما أظهرته أمه من استخفاف بذكرى أبيه ، ذلك الأب الذى كان لها زوجا محبا ، لين الجانب ، دمث الأخلاق ، مع أنها كانت تبدو دائما زوجة محبة مطيعة ، تتعلق به كأن عواطفها قد نبتت عليه . والآن بعد شهرين

من وفاته ، أو بعد أقل من شهرين كما بدا للأمير الشاب ، تزوجت من جديد ، وكان زوجها عمه أخا زوجها المتوفى ، وهو زواج تأباه الكرامة ولا تجيزه الشرائع لما بين الزوجين من قربى ؛ ويزيده بعداً عن الكرامة تلك السرعة المعيبة التى تم بها ، وما يتصف به الرجل الذى اختارته زوجاً لها وشريكا فى ملكها من أخلاق هى أبعد ما تكون عن أخلاق الملوك . هذا هو الذى فت فى عضد هذا الأمير الشاب النبيل وحطم قلبه أكثر مما لو كان قد خسر عشر ممالك لا مملكة واحدة .

وحاولت أمه جرترود وحاول الملك دون جدوى أن يسلياه ويذهبا عنه الحزن ، وظل لا يُرى فى القصر إلا فى ثياب حالكة السواد حزناً على موت أبيه الملك ، ولم يبدل هذا اللون فى يوم من الأيام حتى ولا فى اليوم الذى تزوجت فيه والدته مجاملة لها ، ولم يستطع أحد أن يقنعه بالاشتراك فى حفلات ذلك اليوم الشائن فى نظره ولا فى مسراته .

وكان أشد ما يكربه ما خامره من الشك فى موت أبيه ، وقد قال كلوديس إنه مات من لدغة أفعى ، ولكن هملت الشاب الفطن كان يظن أن هذه الأفعى لم تكن إلا كلوديس نفسه ، وأن عمه قد قتله ليرث ملكه ، وأن الأفعى التى لدغت أباه تتربع الآن على عرشه .

وتحير هملت فى أمره فلم يدر ما هو نصيب هذا الظن من الصواب أو الخطأ ، أو ما يقول فى أمر والدته . فهل كانت مطلعة على سر هذا القتل ؟ وهل حدث برضاها أو علمها أو بعدم رضاها وعلمها ؟ هذه هى الظنون التى ما فتئت تقلق بال هملت وتنغص عليه حياته .

وترامت إلى هملت إشاعة فحواها أن بعض الجنود قد شاهدوا فى أثناء حراستهم فى منتصف الليل طيفاً شبيهاً كل الشبه بأبيه الملك المتوفى واقفاً على الطوار أمام القصر ليلتين متواليتين أو ثلاث ليال متوالية . وقالوا إن الطيف كان فى كل مرة يأتى مدرعاً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه كما كان يفعل الملك ، ولم يختلف أحد ممن رأوه ، ومن بينهم هراشيو Horatio صديق هملت الحميم ، عن سائر زملائه فى وصف هيئته أو ساعة مجيئه ، فقالوا إنه كان يقبل عليهم عند ما تدق الساعة

الثانية عشرة ، وإنه كان يبدو شاحب اللون ينم وجهه عن الحزن أكثر مما ينم عن الغضب ، وكانت لحيته مربدة سوداء تتخللها شعرات فضية كما كانوا يرونها فى حياته ؛ وقالوا إنهم لما خاطبوا الطيف لم يرد عليهم ، وخيل إليهم مرة أنه رفع رأسه وتحرك حركة كأنه يريد أن يخاطبهم ، ولكن ديك الصباح صاح فى تلك اللحظة فتراجع الطيف مسرعاً واختفى عن أنظارهم .

ودهش الأمير الشاب من هذه القصة التى لم يكن فيها شىء من التناقض يحمله على إنكارها ، واعتقد أن الطيف الذى رأوه طيف أبيه ، واعتزم أن يشترك مع الجند فى الحراسة فى تلك الليلة حتى تتاح له فرصة رؤيته ، وقال فى نفسه إن الطيف لم يجىء عبثاً وإنما جاء لأن لديه سراً يريد أن يفضى به ، وإنه سوف يتحدث به إليه وإن ظل صامتاً حتى ذلك الوقت ، وأخذ يترقب مجىء الليل وهو على أحر من الجمر .

فلما جن الليل وقف مع هراشيو وحارس آخر يدعى مرسلس Mercellus على الطوار الذى اعتاد الطيف أن يمشى عليه ؛ وكانت الليلة قرة وكان الهواء قارس البرد فوق عادته ، وشرع هملت وهراشيو وزميلهما الثالث يتحدثون عن بردها حتى قطع عليهم هراشيو حديثهم بقوله إن الطيف مقبل عليهم .

فلما رأى هملت روح أبيه ارتاع ودهش لرؤيته ، ثم أهاب بالملائكة وأهل السموات أن يقوه الشر هو ومن معه ، لأنه لم يك يعرف هل هذا الروح طيب أو خبيث ؟ وهل جاء يبغى خيراً أو شراً ؟ ثم سكن روعه شيئاً فشيئاً ، وخيل إليه أن أباه ينظر إليه نظرة الحزن والأسى ، وكأنه يريد أن يتحدث إليه . وبدا له أن الطيف لا يختلف فى شىء عما كان عليه والده قبل موته ، فلم يستطع هملت أن يظل صامتاً بل تقدم إليه وناداه باسمه قائلا : « هملت ! مليكى ! أبى ! » واستحلفه أن ينبئه عن سبب خروجه من قبره ، وقد رأوه يوارى مطمئناً فيه ، وعودته إلى هذا العالم مرة أخرى ليرى الأرض ونور القمر . وتوسل إليه أن يخبره هل يستطيع هو ومن معه أن يفعلوا شيئاً يريحه ويهدئ روحه المضطرب . وأشار الطيف إلى هملت أن يصحبه إلى مكان منعزل لا يراهما فيه أحد ؛ وحاول هراشيو ومرسلس

أن يقنعا الأمير الشاب بألا يسير وراءه لئلا يكون من الأرواح الخبيثة ، فيذهب به إلى البحر القريب ، أو إلى قمة صخرة عالية ، ثم ينقلب شبحاً مرعباً يرتاع منه الأمير ويفقد صوابه . ولكن نصحهما ورجاءهما لم يثنيا من عزم الأمير ، فقد كانت الحياة لديه هينة رخيصة ، لا يعبأ بها ولا يخشى فقدها ، أما روحه فما ذا يستطيع الطيف أن يفعل به وهو شيء خالد أبدى كالطيف نفسه ؟ وأحس هملت بأنه قد أوتى شجاعة الأسود ، فانتزع نفسه من صاحبيه وهما يبذلان جهدهما فى أن يمسكا به ، وأخذ يتبع الطيف حيث أراد .

ولما انفرد الطيف به نطق وقال له إنه طيف أبيه هملت الذى اغتيل ظلماً وغدراً ، ووصف له طريقة اغتياله ، فقال إن الذى فعل به ذلك هو أخوه كلوديس ، عم هملت الصغير ، الذى حامت حوله ظنونه من قبل ، لكى يجلس على عرشه وينام فى فراشه ؛ فبينما هو نائم فى حديقته ، كما كان يفعل دائماً وقت الظهيرة ، إذ تسلل إليه هذا الأخ الغادر وصب فى أذنيه عصير الشيكران السام ، وهو نبات بينه وبين الحياة عداء ، فإذا وصل شيء منه إلى جسم الإنسان انساب فى عروقه انسياب الزئبق ، وجمد دمه ونشر على جلده كله طبقة شبيهة بالجذام . وهكذا جاءه هذا الأخ وهو مطمئن فى نومه وانتزعه فى غمضة عين من تاجه وملكه وحياته . ثم استحلف الطيف هملت ، إن كان فى قلبه حب لأبيه ، أن يثأر به ويقتص من قاتله الأثيم . وأظهر الأب شديد أسفه لولده لأن أمه حادت عن سبيل الفضيلة ، فلم تستمسك بحبها لبعلها الأول وتزوجت بقاتله ؛ ولكنه حذره من أن يسلك سبيل العنف مع والدته ، مهما كانت الوسائل التى يتخذها للقصاص من عمه الشرير ، وطلب إليه أن يترك هذه الأم للعدالة الإلهية ولعذاب الضمير ؛ ووعد هملت أن يطيع الطيف فى كل ما أمره به ، ثم اختفى الطيف عن الأنظار .

ولما خلا هملت إلى نفسه أقسم أن ينسى لساعته كل ما انطبع فى ذاكرته ، وكل ما عرفه من كتبه أو مشاهداته ، وألا يحتفظ فى عقله إلا بما نبأه به الروح وما أمره بتنفيذه . ولم يفض هملت بتفاصيل ما دار بينه وبين روح أبيه إلا لصديقه

العزيز هراشيو ، وحذره هو ومرسلس من أن يبوحا بشيء مما شاهداه فى تلك الليلة .

وكان من أثر الرعب الذى استولى على مشاعر هملت من مرأى الطيف أن كاد يجن لهول ما رأى وتختل موازين عقله ، وذلك لأنه كان من قبل ضعيفاً منهوك القوى مشتت البال . وخشى أن يبقى هذا الأثر فى نفسه فيلفت إليه الأنظار ، ويأخذ عمه منه حذره إذا ظن أنه يدبر له شراً ، أو أنه يعرف عن موت أبيه أكثر مما يتظاهر به ، فاتخذ فى تلك الساعة ذلك القرار العجيب وهو أن يتصنع الجنون لاعتقاده أن عمه إذا رآه على هذه الحال أيقن أنه عاجز كل العجز عن أن يفكر فى أى أمر جدى ، فضلا عن أن هذا الجنون المتصنع هو خير ما يخفى به اضطرابه الحقيقى .

وبدا هملت من ذلك الحين غريباً فى زيه وحديثه وتصرفه ، وأتقن تصنع الجنون إتقاناً خدع به الملك والملكة ، وكانا يظنان أن حزنه على أبيه لا يكفى لاضطراب عقله — لأنهما لا يعرفان ظهور الطيف — فلم يشكا فى أن الحب هو منشأه ، وخالا أنهما قد عرفا الفتاة التى تعلق بها قلبه .

وذلك أن هملت كان قبل أن يستكين للحزن الذى سلف ذكره قد أحب فتاة حسناء تدعى أفليا Ophelia ابنة پلونيس Polonius كبير مستشارى الملك فى شئون الدولة ، وكان قد أرسل إليها رسائل وخواتم وأظهر لها مرارا تعلقه بها ، وطلب إليها بالحاح وبوسائل طاهرة شريفة أن تعطف عليه وتحبه . وصدقت هى توسله وأيمانه ، ولكن الكآبة التى استولت عليه أخيراً قد صرفته عنها . ولما اعتزم أن يتصنع الجنون تكلف أيضا بعض القسوة والخشونة فى معاملتها ، ولكن هذه الفتاة الطيبة لم تتهمه بالغدر وعدم الوفاء ، بل أقنعت نفسها بأن الذى صرفه عنها وجعله أقل اكتراثا بها هو اضطراب عقله لا قسوة عليها متأصلة فى قلبه . وشبهت ما كان له من مواهب شريفة وذكاء مفرط أفسدهما ما طغى عليهما من حزن شديد ، شبهت هذه المواهب وهذا الذكاء بالأجراس الموسيقية التى ترسل أعذب النغمات وأشجاها ، ولكنها إذا عبثت بها الأيدى أو دقت بغير يد صناع أحدثت نشازا وأصواتا منكرة تؤذى السمع .

ولم يكن العمل الصعب الذى هو مقدم عليه ، وهو القصاص من قاتل أبيه ، مما يتفق مع الغزل وما فيه من عبث ، أو مما يسمح له بأن تجيش فى صدره عاطفة الحب التى بدت له الآن غاية فى السخف ، ولـكن هذا العمل نفسه لم يكن ليمحو من عقله كل تفكير فى أفليا ، بل ظلت ذكراها تعاوده الفينه بعد الفينة ؛ وفى ساعة من هذه الساعات ظن أنه قد قسا على هذه الفتاة الحسناء لغير سبب معقول ، فكتب إليها رسالة وصف فيها عواطف الحب التى كانت تجيش فى صدره بعبارات شاذة غريبة تتفق مع ما يدعيه من جنون ، ولـكنها مع ذلك كان يمتزج بها شىء من العواطف الحقة ، تبينت منها هذه الفتاة النبيلة أنه لا يزال يكن لها فى أعماق قلبه حبا خالصا قويا . وقد أمرها فى هذه الرسالة أن تشك فى أن النجوم من نار ، وأن الشمس تجرى فى فلـكها ، وأن تشك فى الصدق نفسه وترميه بالـكذب ، ولـكن عليها ألا تشك قط فى أنه يحبها ، إلى غير ذلك من العبارات الشاذة الغريبة . ورأت أفليا أن من حق أبيها عليها أن تطلعه على هذا الخطاب ، ورأى الشيخ أن من واجبه أن يطلع عليه الملك والملـكة ، وظن الاثنان من ذلك الحين أن الحب هو الذى سلب عقله ، وتمنت الملـكة أن يكون جمال أفليا البارع هو الذى يدفعه إلى هذه الأطوار الغريبة ، لأن هذا يقوى أملها فى أن جمالها وفضائلها قد يرجعان به إلى سابق عهده ، فتعود له ولها كرامتهما الأولى .

ولـكنها قدرت فأخطأت التقدير ، فلقد كان مرض هملت أعمق مما تظن ، وأشد من أن يشفيه هذا العلاج . لقد ظل طيف أبيه الذى شاهده من قبل ينتاب خياله ، ولم يكن ليطمئن له بال حتى ينفذ ما أمره به من الانتقام لوالده القتيل . وكان يرى أن كل ساعة تمر به إثم لا يغتفر له وعصيان لأمر والده ؛ ولـكن قتل الملك ومن حوله حراسه وجنده لم يكن بالأمر الهين ، ووجود أمه مع الملك فى معظم الأوقات عقبة فى سبيله لا يستطيع التغلب عليها . وفوق هذا وذاك فإن هذا المغتصب زوج أمه وهذا فى حد ذاته يقلق باله بعض القلق ويوهن من عزيمته ، وفضلا عن هذا كله فإن اعتداء الإنسان على حياة أخيه الإنسان جرم شنيع بغيض لا يطيقه شخص أوتى من رقة الطبع ودماثة الخلق ما أوتى هملت . وقد مر عليه زمن

طويل وهو حزين مكتئب منقبض الصدر ، فأوهن ذلك عزمه ومنعه أن يحزم أمره ويسير فى قصده إلى غايته ؛ وكان لا يزال يخامره بعض الشك فى أن هذا الطيف الذى رآه هو روح أبيه حقاً ، وليس هو الشيطان الذى قيل له إن فى استطاعته أن يتخذ لنفسه أية صورة يريدها ، فاتخذ صورة أبيه ليستفيد من ضعفه وحزنه عليه ، ويدفعه إلى التورط فى هذا العمل الجرىء العنيف ، وهو الفتك بعمه . ولهذا كله اعتزم أن يتريث فى الأمر حتى تتجمع لديه أسباب أقوى من حديث الطيف الذى ربما كان الوهم هو الذى صوره له .

وبينا هو فى هذه الحال من التردد إذ وفد إلى بلاط الملك جماعة من الممثلين كان هملت فيما مضى يسر بتمثيلهم ؛ وكان يعجبه بنوع خاص أن يسمع أحدهم يلقى خطاباً محزناً يصف فيه موت الشيخ پريام Priam ملك طروادة وحزن الملكة هكيبا Hecuba عليه . واحتفى هملت بالممثلين أصدقائه الأقدمين ، وتذكر أن هذا الخطاب كان يطربه من قبل فطلب إلى ملقيه أن يعيده على مسامعه ، فألقاه هذا الممثل إلقاء بارعاً أظهر فيه ما ارتكب من القسوة فى قتل الملك الشيخ الضعيف ، وما حل بشعبه وبلده من كوارث حين التهمت النار المدينة ، وما أصاب الملكة العجوز من حزن ذهب بعقلها ، فأخذت تعدو فى القصر عارية القدمين ، وفى مكان التاج من رأسها خرقة بالية ، وعليها بدل الملابس الملكية قطعة من لحاف حول وسطها اختطفتها على عجل . وقد أجاد الممثل تمثيل هذا الدور وأتقنه إتقاناً أثر فى جميع الحاضرين ، فبكوا أسى وحسرة حتى أن الممثل نفسه قد أثر فيه الموقف فألقى خطابه بصوت أجش ودمع منهمر .

ورأى هملت هذا فقال فى نفسه إنه إذا كان فى وسع هذا الممثل أن يظهر هذا الانفعال الشديد وهو يلقى خطاباً موضوعاً ، فيبكى من فرط حزنه على سيدة لم تقع عليها عينه — على هكيبا التى مضى على موتها مئات السنين — إذا كان فى وسع الممثل أن يفعل هذا فما باله هو يبقى خاملا بليداً ، ولديه من الأسباب الحقة ما يثيره ويلهب نفسه ؟ لديه ملك حق وأب عزيز قد قتل غيلة ولم يتأثر هو بذلك إلا قليلا ، وقد ظل غله خامداً ونسى ثأر أبيه حتى ليكاد دمه يذهب هدرا .

وبينا هو يفكر فى التمثيل والممثلين والأثر الذى تتركه فى النظارة رواية جيدة الوضع متقنة التمثيل ، تذكر قصة قاتل رأى فى يوم من الأيام مقتلا يمثل على المسرح فتأثر من إتقان التمثيل وانطباقه على الحقيقة ، فلم يسعه إلا أن يقر من فوره بجرمه . واعتزم هملت أن يدعو الممثلين أن يمثلوا أمام عمه رواية شبيهة بمقتل أبيه ، وأن يراقب هو عمه عن كثب ليرى ما يحدثه التمثيل من الأثر فى نفسه ، فيعرف عن يقين من ملامح وجهه أكان هو قاتل أبيه أم لم يكن ؟ وأمر أن توضع لذلك رواية دعا إلى مشاهدة تمثيلها الملك والملكة .

وكان موضوع الرواية جريمة قتل ارتكبت فى ويانة ، وذهب ضحيتها الدوق . وكان اسم هذا الدوق جنزاجو Gonzago واسم زوجته بپتستة Baptista ، وقد اغتيل الدوق فى حديقته مسموماً بيد أحد أقربائه الأدنين المسمى لسيانس Lucianus طمعاً فى أملاكه ، وبعد زمن قليل من موته أحبت القاتل زوجة الدوق جنزاجو .

وشهد الملك تمثيل الرواية وهو لا يعلم بالشرك الذى نصب له ، وشهدتها معه الملكة وحاشية القصر كلها ؛ وجلس هملت إلى جانب الملك ليرقب منظره . وبدأت الرواية بحديث بين جنزاجو وزوجته أعربت فيه الزوجة عما تكنه لزوجها من حب خالص ، وعن اعتزامها ألا تتخذ لها زوجاً غيره إذا عاشت بعده ، واستنزلت على نفسها اللعنات إذا ما فعلت غير هذا ، وقالت إن اللاتى يتزوجن بعد موت أزواجهن هن اللاتى يقتلن بعولتهن الأولين . وشاهد هملت عمه الملك يمتقع لونه عندما سمع هذه العبارة ، ورأى أنها كان لها أسوأ الوقع فى نفسه ونفس الملكة ؛ فلما أن هم لسيانس أن يسم جنزاجو وهو نائم فى حديقة قصره ، رأى الملك شبهاً شديداً بين هذا العمل وبين الجرم الذى ارتكبه هو حين سم أخاه الملك السابق فى حديقته ، فآلم ذلك ضميره ولم يقو على البقاء إلى آخر الرواية ، بل طلب على حين غفلة أن تضاء الأنوار ، وتظاهر بأنه قد أصابته فجأة نوبة من المرض ، أو لعله قد شعر ببعض المرض حقيقة ، فترك التمثيل مسرعاً . ولما غادر الملك المكان لم يتم الممثلون الرواية ؛ وكان فيما رآه هملت بعينه ما يكفى لإقناعه بأن ما حدثه به الطيف حقيقة لا وهم ، وابتهج كما يبتهج الرجل إذا رفع عنه وزر كان

ينقض ظهره ، أو أيقن من أمر كان يشك فيه ، وأقسم لصديقه هراشيو أنه يراهن بألف جنيه على أن ما حدث به الطيف حق لا مراء فيه . ولكنه قبل أن يضع الخطة التى يتبعها للأخذ بثأره بعد أن ثبت له أن عمه هو الذى قتل أباه ، بعثت إليه والدته تدعوه لتتحدث إليه حديثاً خاصاً فى مخدعها .

وكان طلبها له إجابة لرغبة الملك ، فقد أراد أن تنبه الأم ولدها إلى أن تصرُّفه الأخير قد أغضبهما جميعاً ؛ وأراد الملك أن يعرف كل مايدور بينهما من الحديث ، وظن أن عاطفة الأمومة قد تغرى الملكة بالتحيز لولدها فتخفى عن الملك بعض ما يهمه أن يعرفه من أقوال هملت ، فأمر پلونيس مستشار الدولة الكبير أن يقف خلف الستائر فى مخدع الملكة ليسمع ما يدور بينهما من غير أن يراه أحد . وكان هذا الاحتيال مما يلائم طبع پلونيس كل الملاءمة ، فقد قضى هذا الرجل عمره منغمساً فى أساليب السياسة ومبادئها الملتوية ، وكان يسره أن يعرف الأشياء بطريق الاحتيال المعوج البعيد .

وجاء هملت إلى والدته فشرعت تعنفه بأقسى الألفاظ على تصرفاته وأعماله ، وقالت له إنه قد أغضب أباه كثيراً — تريد بذلك أنه أغضب عمه الملك الذى سمته أباه لأنه تزوج بها . واغتاظ هملت أشد الغيظ حين سمع أمه تدعو هذا النذل ، الذى لا يعرف عنه أكثر من أنه قاتل أبيه الحق ، بهذا الإسم الكريم المحبب إليه ، فأجابها فى شىء من الحدة : « أمى ، لقد أسأت أنت كثيراً إلى أبى » ؛ فقالت له أمه : « إن هذا رد سخيف » ؛ فأجابها بقوله : « إنه خير رد يستحقه السؤال » . وسألته أمه هل نسى من هى التى يحدثها ؟ فأجابها بقوله : « ليتنى أستطيع أن أنسى أنك الملكة التى تزوجت بأخى زوجها ، وأنك أمى . ألا ليتك كنت غير ما أنت » ؛ فقالت له : « إذا كان هذا مبلغ احترامك لى فسأدعو من يستطيعون أن يتحدثوا إليك » ، وهمت أن ترسل فى طلب الملك أو پلونيس .

ولكن هملت وقد سنحت له فرصة الاجتماع بها منفردة لم ير أن يتركها تفلت من يده حتى يحاول أن يشعرها بما فى حياتها من إثم ، فقبض على معصمها قبضة قوية وأرغمها على الجلوس . وارتاعت الملكة لما شاهدته عليه من مظاهر الجد ،

وخشيت أن يدفعه جنونه إلى إيذائها ، فصرخت صرخة عالية ، وسمع من وراء الستار صوت ينادى : « وأغوثاه ! أدركوا الملكة » . وسمع هملت الصوت فظنه صوت الملك نفسه مختبئاً وراء الستار ، فاستل سيفه وأخذ يطعن به المكان الذى جاء منه كأنه يطعن فأراً يجرى فيه ، وما زال يوالى الطعن حتى انقطع الصوت وظن أن صاحبه قد مات . فلما أخذ بعدئذ يقلب جسم القتيل لم يجده الملك بل وجده الشيخ پلونيس المستشار المتطفل الذى وقف يتجسس عليه من وراء الستار . وصرخت الملكة قائلة : « وا حسرتاه ! أى جرم شنيع قد ارتكبته بطيشك » ؛ فأجابها هملت : « حقاً ، إنه لجرم شنيع يا أماه ، ولكنه لم يبلغ ما بلغه جرمك أنت التى قتلت ملكا وتزوجت بأخيه ! »

وكان هملت قد قطع فى طريقه إلى غرضه شوطاً لا يستطيع معه أن يقف عند ما وصل إليه ، وكان الآن فى حالة عقلية يستطيع فيها أن يفصح عما فى قلبه لوالدته ، فواصل حديثه إلى غايته . نعم إن الأبناء يجب ألا يغلظوا القول لآبائهم إذا ما حدثوهم عن أخطائهم ، لكنه لا حرج على الإبن أن يخاطب أمه نفسها بشىء من الغلظة إذا ما ارتكبت جريمة شنيعة ، وكان غرضه من هذه الغلظة إصلاح حالها لا مجرد تأنيبها . ولذلك أخذ هذا الأمير الطاهر يصف لأمه بعبارات قوية مؤثرة ما ارتكبته من جرم شنيع بنسيانها ذكرى أبيه المليك الميت ، وزواجها بعد موته بقليل بأخيه الذى اشتهر بين الناس بأنه قاتله ، وقال إن هذه الفعلة التى فعلتها بعد الأيمان المغلظة التى أقسمتها بأن تكون وفية لزوجها الأول تكفى وحدها لأن تزعزع ثقة الناس فى أيمان جميع النساء ، وتحملهم على أن يعدوا الفضائل كلها كذباً ونفاقاً ، وعقود الزواج أقل شأناً من أيمان اللاعبين ، والدين نفسه لهواً ولعباً وألفاظاً تلوكها الألسنة . وكان مما قاله لها إنها قد فعلت فعلة تنفطر منها السموات وتنشق الأرض ؛ ثم أخرج لها صورتين إحداهما للملك المتوفى زوجها الأول والأخرى لزوجها الثانى الملك الحالى وطلب إليها أن تتأمل ما بين الصورتين من فوارق . لقد كان لأبيه وجه سمح جميل كوجه الملائكة الأبرار ، وكانت له غدائر كغدائر أپلو Apollo وجبهة كجبهة چپتر Jupiter ، وعينان كعينى المريخ

Mars ؛ وكان إذا جلس كأنه عطارد نزل حديثا على جبل شامخ يناطح السماء ، وقال لها إن هذا هو الرجل الذى كان لها زوجا . ثم أراها صورة الرجل الذى تزوجت به بعده وقال إنه رجل سقيم ، بل هو السقام مجسم لأنه أصاب أخاه السليم . وخجلت الملكة أشد الخجل حين كشف لها عن خبيئة نفسها ، وأدركت ماهى عليه من ضلال وفساد ، وسألها كيف تستطيع أن تعيش بعد الآن مع هذا الرجل وتكون زوجة لمن قتل بيده زوجها الأول وأخذ منه التاج أخذ اللصوص ؟ وبينا هو فى حديثه إذ دخل الحجرة طيف أبيه فى صورته التى كان عليها أيام حياته والتى رآه عليها من قبل ، وسأله هملت فى رعب شديد ماذا يريد ؟ وقال الطيف إنه جاء ليذكره بالثأر الذى عاهده عليه ، والذى يلوح أنه نسيه ، وطلب إليه أن يحدث أمه لئلا يقضى الحزن والرعب على حياتها . ثم اختفى ولم يره أحد غير هملت ، وإن كان قد أشار لأمه إلى موضعه ووصفه لها ، ولكنها لم تره وظنت أن هملت يحدث نفسه ، فاستولى عليها الرعب وعزت ما تشاهده منه إلى اضطراب عقله . ولكن هملت طلب إليها ألا تحسن الظن بنفسها الخبيثة ، فتحسب أن السبب الذى جاء بروح أبيه إلى هذه الأرض هو جنون ولدها لا شناعة جرمها ، ورغب إليها أن تجس نبضه لتعرف أن قلبه يدق دقا منتظما لا كما تدق قلوب المجانين . ثم رجاها والدمع يفيض من عينيه أن تستغفر لذنبها وتندم على ما فات ، وأن تتجنب فى مستقبل أيامها صحبة الملك فلا تكون له كما تكون الأزواج ؛ فإذا ما فعلت ذلك وحفظت عهد أبيه وأظهرت أنها أم له حقا ، طلب إليها عندئذ أن تدعو له بخير كما يطلب الأبناء دعاء أمهاتهم لهم ؛ وعاهدته أمه على أن تطيع أمره وانتهى اجتماعها به .

وكان فى وسع هملت وقتئذ أن يتبين من هو الشخص الذى قضى على حياته باندفاعه وتهوره المشئوم ؛ فلما رأى أنه قد قتل پلونيس والد محبوبته أفليا نقل الجثة من مكانها ، وكانت نفسه قد هدأت قليلا فأخذ يبكى حسرة على ما فعل .

واتخذ الملك هذا الحادث المشئوم ، وهو مقتل پلونيس ، حجة تذرع بها لإخراج هملت من المملكة ، وكان يود لو استطاع أن يقتله لأنه يرى فى وجوده

خطراً عليه ، ولكنه كان يخشى الشعب الذى يحب هملت ، ويخشى الملكة التى كانت رغم أخطائها مولعة بولدها الأمير ، ولذلك أمر هذا الملك الماكر أن يحمل هملت على ظهر سفينة مسافرة إلى إنجلترا بحجة إنقاذه من تبعة قتل پلونيس ، وعهد بحراسته إلى رجلين من حاشيته ، وأرسل معهما رسائل إلى بلاط إنجلترا التى كانت فى ذلك الوقت خاضعة لملكة دنمرك تؤدى لها الجزية ، وطلب فى هذه الرسائل أن يقتل هملت عندما تطأ قدماه أرض تلك البلاد لأسباب خاصة مختلقة ادعاها فى رسائله . وارتاب هملت فى الأمر وظن فيه غدراً ، فحصل على الرسائل فى أثناء الليل بطريقة خفية ، واستطاع بمهارته أن يمحو منها اسمه ويضع بدله اسمى الرجلين اللذين كانا يرافقانه فى رحلته ، ثم ختم الرسائل كما كانت وأعادها إلى موضعها . وبعد أن سارت السفينة قليلا هجم عليها جماعة من لصوص البحار ، ونشبت بينها وبينهم معركة بحرية ، أراد هملت أن يبرهن فيها على شجاعته وشدة بأسه فهجم بمفرده على سفينة الأعداء وترك سفينته تفر من القتال فرار الجبان . وتركه الحارسان تتصرف فيه الأقدار واتخذا طريقهما فى البحر إلى إنجلترا ، سالكين إليها خير سبيل يستطيعان سلوكه ، ومعهما الرسائل التى بدل هملت معناها فأوقعهما فى شر أعمالهما . ووقع هملت أسيراً فى يد اللصوص ولكنهم كانوا أعداء راحمين ، وعرفوا أسيرهم فأنزلوه إلى البر عند أقرب ثغر من ثغور دنمرك ، لعل الأمير يستطيع أن يجزيهم على حسن صنيعهم بأن يشفع لهم عند الملك . وكتب هملت من مكانه رسالة إلى الملك ، قص عليه فيها ما وقع له من الحادثات الغريبة التى عاد بسببها إلى بلاده ، وأبلغه أنه يمثل بين يدى جلالته غداً ، فلما جاء وقعت عينه أول ما وقعت على منظر أحزنه أشد الحزن .

وكان المنظر الذى رآه جنازة أفليا الفتاة الحسناء التى كان من قبل يهيم بحبها ؛ وكان سبب موت هذه الفتاة أن موازين عقلها بدأت تختل بعد موت أبيها ، فقد أثر فى قلب هذه الفتاة الرقيق أن يُغتال أبوها وأن يغتاله الأمير الذى تحبه ، فلم يمض على موته إلا القليل من الوقت حتى ذهب عقلها كله ، وأخذت تطوف الطرقات تقدم الأزهار إلى سيدات البلاط ، وتقول لهن إنها أعدت تلك الأزهار

لجنازة أبيها ، ثم تنشد أناشيد الحب تارة وألحان الموت أخرى ، ومنها ما ليس له معنى على الإطلاق ، كأنها لا تذكر شيئاً مما أصابها . وكانت صفصافة تنمو مائلة على ضفة غدير ، وتنعكس صورة أوراقها على صفحة الماء ، فجاءت يوماً إلى هذا الغدير حين غفلت عنها أعين الرقباء تحمل تيجاناً صنعتها بيدها من الأقحوان والقريض والزهر والعشب مختلطا بعضه ببعض ، وتسلقت الصفصافة لتعلق تاجها على أغصانها ، فانكسر الغصن وهوت الفتاة الحسناء هى والتاج وكل ما جمعته من الأزهار فى مياه الغدير . وحملتها ملابسها فوق الماء برهة من الزمن أخذت تغنى فى أثنائها قطعاً من ألحان قديمة كأنها لا تعى ما حل بها ، أو كأنها من الخلائق التى تعيش فى الماء . ولكنها لم تلبث إلا قليلا حتى امتلأت ملابسها ماء فثقلت وجذبتها إلى قاع الغدير ، فقطعت عليها غناءها وماتت فى الطين أشنع ميتة . وكانت جنازة هذه الفتاة الحسناء هى التى يشيعها أخوها ليرتس Laertes ويحضرها الملك والملكة وحاشيتهما حين أقبل هملت على المدينة .

ولم يدر هملت شيئاً مما حدث ، فوقف على جانب الطريق حتى لا يقطع على المحتفلين احتفالهم . ورأى الأزهار تنثر على القبر كما يفعل الناس عندما يدفنون الفتيات الأبكار ، ونثرت الملكة هذه الأزهار بيدها وقالت وهى تنثرها : « إن الحسان تهدى إليهن أحسن الأشياء ؛ لقد كنت أظن أيتها الغانية أنى سأزين سرير عرسك ، فإذا بى أنثر الأزهار على قبرك أنت يا من كنت أرجو أن تكونى زوجة لولدى هملت » . وسمع هملت أخاها يدعو ربه أن ينبت البنفسج على قبرها ، ورآه يقفز مهتاجاً إلى القبر وقد ذهب الحزن بعقله ، ويأمر الخدم أن يهيلوا عليه جبالا من الثرى حتى يدفن معها . وعاد حب الفتاة الحسناء إلى قلبه ولم يطق أن يرى أخاً يظهر من الحزن ما أظهره هذا الأخ ، لأنه كان يظن أن حبه لأفليا يعدل حب أربعين ألفاً من الأخوة . وعندئذ أظهر هملت نفسه وقفز إلى القبر وراء ليرتس ؛ وكأنه مجنون مثله أو أشد منه جنوناً . وعرف ليرتس أنه هملت الذى يحمل وزر قتل أبيه وأخته ، فقبض قبضة العدو الألد على عنقه ، ولم يتركه حتى فرق بينهما الخدم . ولما فرغوا من تشييع الجنازة اعتذر هملت عن طيشه وتسرعه فى إلقاء

نفسه فى القبر ، كأنه يريد قتال ليرتس ، وقال إنه لم يطق أن يرى أحداً من الخلق أشد منه حزناً على أفليا . وظن الناس حيناً من الدهر أن العداوة قد زالت من قلب هذين الشابين النبيلين .

ولكن الملك الأثيم عم هملت أراد أن يتخذ من غضب ليرتس وحزنه على أبيه وأخته سبباً يستعين به على هلاك الأمير ؛ وأخذ يحرض ليرتس على أن يتذرع بما تم بينهما من صلح فيدعو هملت إلى مباراة حبية يظهران فيها براعتهما فى البراز بالسيف . وقبل هملت الدعوة ، وحدد يوم المباراة ، وشهده جميع رجال البلاط . وأعد ليرتس بأمر الملك سيفاً مسموماً ، وتراهن رجال الحاشية بمبالغ طائلة لأنهم كانوا يعرفون براعة هملت وليرتس فى البراز ؛ وأخذ هملت السيوف القلفاء واختار واحداً منها دون أن يرتاب فى أمر ليرتس أو يعنى بتفقد سيفه الذى لم يكن أقلف مثلها كما تقضى بذلك شريعة البراز ، بل كان حاداً مسموماً .

وأخذ ليرتس أول الأمر يداعب هملت ، وسمح له أن يتفوق عليه ؛ وبالغ الملك المنافق فى هذا الفوز وأخذ يطنب فى مدحه ، وشرب نخب هملت وفوزه ، وراهن على نتيجة المباراة رهاناً كبيراً . ثم ازداد ليرتس حماسة بعد بضع جولات ، وهجم على هملت هجمة عنيفة وطعنه طعنة قاتلة بحد سيفه المسموم . واهتاج هملت ، ولم يكن يعرف كل ما دبره له ليرتس من غدر ، واستبدل بسيفه العادى سيف ليرتس المسموم ، وهجم به على خصمه وطعنه طعنة نجلاء ذاق بها وبال أمره . وصرخت الملكة فى هذه اللحظة وقالت إنها سمت ، وذلك أنها شربت وهى غافلة من إناء أعده الملك ليشرب منه هملت إذا ما خرج من البراز حران فى حاجة إلى الماء . وكان هذا الملك الغادر قد دس فى هذا الماء سماً زعافاً ليضمن به القضاء على هملت إذا ما نجا من سيف ليرتس ، ونسى أن ينبه الملكة إلى حقيقة ما فى الماء فشربته وماتت لساعتها ، ونادت وهى تلفظ آخر أنفاسها أنها قضت نحبها مسمومة .

وتوقع هملت أن يكون فى الأمر خيانة ، فأمر أن تغلق الأبواب ، وشرع يفحص عن الحقيقة ، وطلب إليه ليرتس ألا يطيل البحث لأنه هو الخائن الغادر ، وأحس هذا الشاب بدنو أجله من أثر الجرح الذى أصابه به هملت فأقر بجرمه وبما

جناه على نفسه ، ولم يُخف عن هملت أمر السيف المسموم ، وأخبره أنه لن يعيش أكثر من نصف ساعة بعد ذلك الوقت ، لأن هذا السم لا يرجى منه شفاء . ثم سأله أن يغفر له ذنبه ، وقضى نحبه ، وقال وهو فى سكرة الموت إن الملك أصل هذا البلاء كله . ورأى هملت أجله يتصرم ، ورأى فى السيف بقية من السم ، فهجم به فجأة على عمه الغادر وطعنه بسنه فى صدره ، وبر بما وعد به روح أبيه ، فنفذ أمره ، وانتقم له من قاتله الأثيم . وشعر هملت بدنو أجله وانقضاء أنفاسه المعدودة فالتفت إلى صديقه العزيز هراشيو الذى كان طوال الوقت يشاهد هـذه المآسى المروعة ، وطلب إليه أن يبقى على نفسه ليقص على العالم قصته ، فقد بدت من هراشيو فى ذلك الوقت إشارة تنم عن عزمه على الانتحار ليقضى نحبه مع الأمير . وعاهده هراشيو على أن يروى هذه القصة فى صدق وأمانة ، لأنه مطلع على جميع أسرارها . فلما أرضى هملت ضميره وتم له ما أراد تحطم قلبه النبيل ، وانهمر الدمع من عينى هراشيو ورفاقه الذين شاهدوا هذه المأساة ، ودعوا الملائكة الكرام أن يرفقوا بروح هذا الأمير الطيب النفس اللين العريكة . وفى الحق أن هملت كان أميراً لين العريكة ، محبًّا للناس ، رفيقاً بهم ، محبباً إليهم جميعاً لنبله وكرم سجاياه ؛ وما من شك فى أنه لو عاش لكان أعظم من جلس من الملوك على عرش دنمرك .

عطيـــــل

كان لشيخ من شيوخ البندقية الأثرياء يدعى برابنتو Brabanto إبنة حسناء تسمى دزدمونا Desdemona ، تقدم إلى خطبتها كثير من الشبان لما كانت تتصف به من جميل الخلال ، وما كان يرجى أن تناله من ثروة طائلة ؛ ولكنها لم تجد بين من تقدم إليها من أهل بلدها ولونها من هو جدير بحبها ، وذلك لأن هذه الفتاة النبيلة كانت تعجب بعقول الرجال أكثر من إعجابها بوجوههم ، وهى خلة امتازت بها عن بنات جنسها ، يعجب الناس بها ولكنهم لا يتخلقون بها ؛ ومن أجل ذلك اصطفت لنفسها من بين خطابها مغربياً أسود اللون ، كان أبوها يحبه ويدعوه فى كثير من الأوقات لزيارته فى منزله .

وليس من حقنا أن نقسو فى الحكم على دزدمونا لأنها لم توفق فى اختيار الشخص الذى تعلق به قلبها ؛ ذلك أننا إذا غضضنا النظر عن سواد لون عطيل ، فإن هذا الشريف المغربى لم يكن ينقصه شىء من الصفات التى تحببه إلى أكرم العقائل . فقد كان جندياً باسلاً سما على أقرانه فى الحروب العوان التى دارت بين البنادقة والأتراك ، حتى بلغ مرتبة القواد فى جيش البندقية ، وكان إلى ذلك موضع إجلال رجال الدولة وتقديرهم .

وكان عطيل جواب آفاق ، وكان يسر دزدمونا كما يسر جميع النساء أن تستمع إليه وهو يقص أخبار مخاطراته من أقدم ذكرياته وأبعدها عهداً ، وأخبار الحروب والحصار والوقائع التى خاض غمارها ، والأخطار التى تعرض لها براً وبحراً ، والمآزق التى نجا منها حين نفذ من ثلمة حصن أو وقف أمام فوهة مدفع ، ويصف لها كيف وقع أسيراً فى يد الأعداء الطغاة فباعوه بيع الرقيق ، وكيف كان مسلكه فى هذه الحال ، وكيف نجا من الرق . وكان يقص عليها هذه المغامرات كلها ، ويصف لها معها ما شاهده من عجائب البلاد البعيدة وفلواتها الشاسعة المترامية الأطراف ، وكهوفها البديعة ومقالع أحجارها وصخورها ، وجبالها الشم التى

تناطح رءوسها السحاب ، والشعوب المتوحشة وأكلة اللحوم البشرية ، وسكان مجاهل إفريقية الذين تنمو رءوسهم تحت أكتافهم . وكان حديث هذه الأسفار يستغرق انتباه دزدمونا ويأخذ بمجامع قلبها ، فكانت إذا دُعيت لشأن من شئون البيت فرغت منه على عجل ، وعادت لتلتهم حديث عطيل التهاماً . وقد رآها فى ساعة لينة العريكة سلسة القياد ، فاستدرجها حتى طلبت إليه أن يقص عليها تاريخ حياته كلها مفصلا ، بعد أن سمعت منه الشىء الكثير متقطعاً غير متصل الحلقات ، ووافقها هو على ذلك وأخذ يقص هذا التاريخ . وكثيراً ما كان يستدر الدمع من عينيها وهو يصف لها كارثة من الكوارث التى حلت به فى عهد صباه .

ولما فرغ من قصته جازته على جهوده بآلاف الحسرات والتنهدات ، وأقسمت جهد أيمانها أن تاريخه يثير العجب ويبعث فى القلوب الرحمة ، وقالت إنها كانت تود لو أنها لم تسمعه ، ولكنها تتمنى لو أن الله قد خلقها من هذا الصنف من الرجال . ثم شكرته وقالت له إنه إذا كان له صديق يحبها ، فما عليه إلا أن يعلمه كيف يقص عليها قصته ، وحسبه هذا سبباً يوصله إلى قلبها . ولم يخف على عطيل معنى هذه الإشارة التى كان فيها من الصراحة بقدر ما فيها من التواضع ، والتى صحبتها نظرات ساحرة تواردت لها وجنتاها من شدة الخجل ، فأفصح لها عن حبه بعبارات أوضح وأصرح ، وفى تلك الساعة الموفقة السعيدة وعدته هذه السيدة الكريمة أن تتزوج به سراً .

ولم يكن لون عطيل وثروته مما يبعث الأمل فى قلبه بأن برابنتو يرضى به زوجاً لابنته . نعم إنه ترك لابنته حرية الاختيار ، ولكنه كان ينتظر منها أن تفعل ما تفعله كرائم الفتيات بنات البندقية ، فتختار لنفسها زوجاً من سراة المدينة أعضاء مجلس الشيوخ ، أو ممن يرجى أن يكونوا أعضاء فيه . ولكنه قدر فأخطأ التقدير ، فقد أحبت دزدمونا هذا المغربى على سواد لونه فاستحوذ على قلبها وثروتها بما كان يتصف به من جرأة وإقدام وخلال عالية كريمة ، وشغفت بحب هذا الرجل الذى اختارته زوجاً لها وأخلصت له إخلاصاً حبب إلى هذه الفتاة النافذة البصيرة سواد لونه الذى كان يبدو لغيرها عقبة كأداء لا يمكن التغلب

عليها ، فأصبح فى نظرها أجل من جميع الذين تقدموا لخطبتها من البندقية أبناء الأسر الكريمة ، ذوى الوجوه البيضاء والبشرة الصافية . وتم زواجهما خفية ، ولكنه لم يبق سراً مكتوماً إلى أمد طويل ، فقد تساقط إلى مسامع الشيخ برابنتو . وحضر هذا الشيخ أمام مجلس من شيوخ الدولة واتهم عطيلا المغربى بأنه قد استطاع بسحره أن يخدع دزدمونا الحسناء ويسلب قلبها ، ويتزوج بها من غير رضاء أبيها ، ومن غير أن يرعى واجبات الضيافة .

واتفق أن كانت دولة البندقية فى ذلك الوقت فى أشد الحاجة إلى خدمات عطيل ؛ فقد ترامت الأنباء بأن الأتراك أعدوا عمارة بحرية وسيروها إلى جزيرة قبرص ليستردوا هذا الموقع الحصين من البنادقة الذين كانوا يمتلكونه وقتئذ . ولجأت دولة البندقية فى ذلك الوقت الحرج إلى عطيل لاعتقادها أنه وحده الذى يستطيع أن يقود القوات اللازمة لصد الأتراك عن جزيرة قبرص ، وكذلك وقف عطيل أمام مجلس الشيوخ مطالباً بمنصب من أعظم مناصب الدولة ، ومذنباً متهماً بجرائم تجزى عليها شرائع البندقية بالإعدام .

وكان مقام الشيخ برابنتو فى مجلس الشيوخ وكبر سنه مما يدعو هذا المجلس الموقر لأن يستمع إلى دعواه بصبر ، ولكن الرجل كان محنقاً مغيظاً ، فكان وهو يعرض قضيته ثائراً محتداً ، فلم يتقدم لإثبات دعواه بغير المزاعم والاحتمالات . فلما أن دعى عطيل ليدافع عن نفسه لم يكن عليه إلا أن يقص على الجمع قصة حبه ، فألقاها بفصاحة خالية من الصنعة والتكلف ، وأخبرهم بتفاصيل خطبته كما سردناها على القارئ من قبل . وكان يتكلم بصراحة نبيلة هى فى ذاتها دليل على صدقه ، فلم يسع الدوق رئيس الجلسة إلا أن يقر بأن مثل هذه القصة كفيلة وحدها بكسب قلب ابنته أيضاً . وتبين له أن الرقى والتعاويذ التى استعان بها عطيل فى خطبته لا تخرج قط عن الوسائل الشريفة التى يستعين بها المحبون فى غزلهم ، وكان كل ما استخدمه من فنون السحر هو حذقه وقدرته على أن يقص القصة بحيث تسترعى انتباه السيدات .

وأيدت دزدمونا نفسها أقوال عطيل ، فقد جاءت إلى المحكمة واعترفت بما

لأبيها عليها من حقوق ، لأنه ولدها ورباها ، ثم طلبت إليه أن يأذن لها أن تعترف أيضاً بما عليها لزوجها وسيدها من واجبات أعظم قيمة من واجباتها لأبيها ، وهى تلك التى من أجلها فضلته أمها على أبيها .

وأدرك الشيخ عجزه عن إقامة الحجة على عطيل ، فدعاه إليه واعتذر له عما فرط منه ، ورأى أن لا مفر له من أن يسلمه ابنته ، وقال إنه لو كان فى وسعه أن يمنعها عنه لفعل هذا راضياً مغتبطاً ، وإنه يحمد الله على أن ليس له بنات غيرها ، وإلا لأصبح بعد هذه الخطيئة رجلا جباراً قاسياً ، ولأبقاهن إلى جانبه لكيلا يخرجن عن طاعته كما خرجت هى .

ولما ذللت هذه الصعوبة قبل عطيل مغتبطاً أن يتولى إدارة دفة الحرب فى قبرص ، وكان قد تعود صعاب الحياة العسكرية حتى أصبحت له من الضروريات شأنها كشأن الطعام والراحة لغيره من الناس . ورأت دزدمونا أن الشرف الذى ناله زوجها ، مهما كان فيه من الخطر عليه ، خير وأبقى من حياة اللهو والملاذ التى ينفق فيها الأزواج الجدد أوقاتهم بعيد الزواج ، فوافقت وهى راضية منشرحة الصدر أن يسافر زوجها إلى ميدان القتال .

ولم يكد عطيل وزوجته ينزلان بأرض قبرص حتى تناهت إليه الأنباء بأن عاصفة هوجاء قد شتتت أسطول الأتراك ، فأمنت الجزيرة بذلك شر هجوم عاجل عليها ؛ ولكن الحرب التى كان عطيل يخوض غمارها كانت فى هذا الوقت فى بدايتها ، وكان الأعداء الذين ألَّبهم الحقد على زوجته الطاهرة الشريفة أعظم كيداً من جيوش الأجانب وأعداء الدين .

ولم يكن بين أصدقاء القائد أحد يثق به ويأتمنه أكثر من كاسيو . وكان ميكل كاسيو Michael Cassio شاباً محارباً من مدينة فلرنس ، وكان مرحاً محباً ظريفاً حلو الكلام ، وكلها صفات محببة إلى النساء ؛ وكان إلى ذلك بهى الطلعة فصيح اللسان ، متصفاً بجميع الخلال التى تثير الغيرة فى قلب رجل تقدمت به السن ، كما كان عطيل إلى حد ما ، إذا تزوج شابة جميلة . لكن عطيلا كان رجلا نبيلا ليس للغيرة موضع فى قلبه ، بعيداً عن سوء الظن بعده عن سوء الفعال ، وكان قد استعان

بكاسيو فى شئون حبه لدزدمونا ، فكان هو الرسول بينه وبينها فى خطبته ، وذلك لأن عطيلا كان يخشى ألا تكون له من رقة اللفظ وعذوبة الحديث ما يستطيع به أن يتملك قلوب النساء . ورأى هاتين الصفتين على أتمهما فى صديقه فكان من أجل ذلك ينيبه عنه — على حد قوله — فى مغازلة دزدمونا . ولم تكن هذه السذاجة البريئة عيباً فى المغربى المقدام يستحق عليه اللوم ، بل كانت فضيلة خليقة بالثناء . فلا عجب بعد هذا أن تحب دزدمونا الحسناء كاسيو هذا وتثق به ، وأن يكون أدنى الناس منزلة إليها بعد عطيل ، وإن كان البعد بين المنزلتين شاسعاً شأن الزوجات الطاهرات . ولم يتغير مسلك الزوجين نحو ميكل كاسيو بعد زواجهما فكان الرجل يتردد على دارهما ، وكان فى ثرثرته الطلقة من التنويع ما يشرح صدر عطيل ، الذى كان بطبيعته جاداً رزيناً ، وذلك أن أصحاب هذه الطباع يسرون عادة مما يناقضها ، لأنها تروح عنهم وتخفف من وطأتها عليهم . وكان كاسيو ودزدمونا يتحادثان ويضحكان كما كانا يفعلان أيام أن كان يأتى إليها ليغازلها نائباً عن صديقه

وكان عطيل من عهد قريب قد رقى كاسيو إلى رتبة مساعده ، وهى أقرب الرتب إلى شخص القائد ، وصاحبها موضع ثقته . وأساءت هذه الترقية إياجو Iago أحد الضباط الأقدمين لأنه كان يظن أنه أحق بها من كاسيو ، وكثيراً ما كان يعير كاسيو هذا بأنه شخص لا يصلح إلا لصحبة السيدات ، ولا يعرف من فنون الحرب وحشد الجيوش للقتال أكثر مما تعرف البنات . وكان إياجو يحقد على كاسيو ، ويحقد على عطيل لأنه يعز كاسيو ، ولأنه كان يرتاب فيه بعض الريبة ، ويظن خطأ أنه يحب إمليا Emilia زوجته هو . وامتلأ قلب إياجو غيظاً لهذه الأسباب الباطلة ، وهداه تدبيره إلى مكيدة يقضى بها على كاسيو والمغربى ودزدمونا جميعاً .

وكان إياجو رجلاً مخاتلاً بارعاً فى حفر الحفائر ، درس الطبائع البشرية درساً عميقاً ، وعرف أن داء الغيرة أشد الأدواء وأكثرها تعذيباً للقلوب ، وأن عذاب الجسم يتضاءل بالقياس إلى عذابها . وقال فى نفسه إن خير ما يستطيع أن يفعله للانتقام من كاسيو أن يوقد نيران الغيرة فى قلب عطيل ، وقد يكون فى ذلك هلاك

كاسيو أو عطيل أو هما معاً ، وسواء عليه أهلك أحدهما أم هلك كلاهما لأن ذلك أمر لا يعنيه .

وجاء القائد وزوجته إلى قبرص على أثر ورود الأخبار بتشتت أسطول الأعداء ، فكان يوم مجيئهما عيداً فى الجزيرة ، وخرج أهلها على بكرة أبيهم يقصفون ويمرحون ، ودارت الكؤوس وأخذ الناس يشربون نخب عطيل الأسود وزوجته دزدمونا الحسناء .

وكان كاسيو يشرف على الحراسة فى تلك الليلة ، وقد أمره عطيل أن يمنع الجند من الإسراف فى الشراب حتى لا يحدثوا فى الجزيرة شغباً يزعج أهلها أو يبغضهم فى الجنود الذين نزلوا فى أرضهم من عهد قريب . وفى هذه الليلة دبر إياجو تدبيره المحكم الخبيث ، فتظاهر بشدة حبه وإخلاصه للقائد العام ، وأخذ يغرى كاسيو بالإفراط فى الشراب ، وهى غلطة من أكبر الأغلاط التى يمكن أن يرتكبها ضابط يتولى الحراسة . وقاوم كاسيو إغراءه أول الأمر ، ولكن هذه المقاومة لم تطل ، وتغلب عليها إياجو بما تصنعه من حب شريف للتحرر من القيود الموضوعة . وأخذ كاسيو يتجرع الزجاجة تلو الزجاجة ، وإياجو يقدم له الشراب ويطربه بالغناء ، حتى انطلق لسانه بالثناء على دزدمونا ، فشرع يشيد بذكرها ويشرب نخبها آن بعد آن ، ويؤكد أنها سيدة كاملة رائعة الحسن . وما زال كذلك حتى ذهب عقله من كثرة ما تجرعه من الشراب عدو الإنسان الألد ؛ وحدث أن استفزه رجل أغراه به إياجو ، فاستل كل منهما سيفه ، وتقدم ضابط من خيرة الضباط يدعى منتانو Montano لحسم النزاع فجرح ؛ واتسعت دائرة الشغب واشترك فيه الحرس كله ، وكان إياجو الذى استثاره أنشط عامل على نشر الذعر فى الجزيرة ، فأمر بدق جرس الحصن كأنما قامت فى البلاد فتنة حمراء ، لا مجرد هرج ضعيف أحدثه قوم لعبت بعقولهم الخمر . واستيقظ عطيل على صلصلة جرس الخطر ، وارتدى ملابسه على عجل ، وجاء إلى مكان الحادثة وسأل كاسيو عن جلية الأمر . وكان كاسيو قد عاد إلى صوابه بعد أن ذهب عنه بعض أثر الخمر ، ولكن الخجل عقد لسانه فلم يحر جواباً . وأظهر إياجو كثيراً من التردد فى اتهام

كاسيو ، ولكنه أمام إلحاح عطيل وإصراره على معرفة الحقيقة سرد الواقعة كلها إلا نصيبه منها ، ولم يكن كاسيو منتبهاً له فيذكره به ، وتظاهر بأنه يخفف من ذنب كاسيو ولكنه كان فى الحقيقة يزيد جرمه شناعة . وكان عطيل شديد الحرص على حسن النظام فجرد كاسيو من رتبته .

وهكذا نجحت المكيدة الأولى من مكائد إياجو نجاحاً تاماً ، فقضى على منافسه الممقوت وأبعده عن منصبه ، ولكنه لم يكتف بهذا بل عمل على أن يستفيد فائدة أخرى من مغامرته فى هذه الليلة المشئومة .

وأفاق كاسيو من سكرته بعد هذه الكارثة التى نزلت به ، فجاء إلى صديقه المخاتل آسفاً على حمقه الذى انحط به إلى منزلة البهائم ، وقضى على مستقبله . وماذا يفعل الآن ؟ هل يستطيع أن يرجو القائد أن يعيده إلى مكانه الأول ؟ أيقول إنه سكر ؟ إنه لو فعل لاحتقر نفسه . وتظاهر إياجو بتهوين الأمر عليه ، وقال إنه هو وغيره من الناس يسكرون أحياناً ، وإن عليه الآن أن يعمل للخروج من هذه الورطة على خير وجه . وكان مما قاله له إن زوجة القائد هى الآن صاحبة الكلمة العليا ، وإن أمرها نافذ عليه ، وإن خير ما يفعله أن يطلب إلى دزدمونا أن تتوسط له عند زوجها ، وإنها سيدة صريحة جبلت على فعل الخير ، ويسرها أن تقوم بهذه المهمة ، فتعيد كاسيو إلى منزلته الأولى عند القائد الكبير ، ويزول ما بينهما من نفور ، وتصبح روابط الصداقة بينهما أقوى مما كانت قبل ؛ نصيحة ما أحسنها لولا أن إياجو كان يبغى بها السوء كما سيظهر للقارئ فيما بعد .

وعمل كاسيو بنصيحة إياجو ولجأ إلى دزدمونا ، وهى التى لم تكن تخيب رجاء من يسعى إليها فى طلب الخير ، ووعدت كاسيو أن تشفع له عند زوجها ، وقالت إن الموت خير لها من أن تتخلى عنه . وبدأت من فورها تسعى سعياً حثيثاً ظريفاً ، لم يستطع معه عطيل أن يردها خائبة على الرغم من سخطه الشديد على كاسيو ، فطلب إليها أول الأمر أن تتريث قليلا لأن الوقت لم يحن بعد للعفو عن مثل هذا الذنب ، ولكنها لم تقبل طلبه بل أصرت على ألا يتأخر هذا العفو عن الليلة التالية أو عن صباح اليوم الذى بعدها ، أو صباح اليوم الذى يليه على أبعد تقدير . ثم

أظهرت له ندم كاسيو وما أصابه من مذلة ، وقالت إنه لا يستحق أن يجازى على ذنبه ذلك الجزاء الشديد . ولما طال تردد عطيل قالت له : « ما هذا يا سيدى ؟ أيليق بى أن أبذل هذا الجهد كله للدفاع عن كاسيو ؟ ميكل كاسيو الذى جاء يغازل نائباً عنك ، والذى كان يثنى عليك وينحاز إلى جانبك إذا ما نطقت بكلمة نابية عنك ؛ وفى اعتقادى أن هـذا الطلب هين عليك ، وأنى إذا ما أردت أن أختبر حبك لى وجب على أن أطلب إليك أمراً أصعب منه أو أعظم شأناً . ولم يكن فى وسع عطيل أن يرد طلباً لمن يتقدم إليه بمثل هذا الدفاع القوى ، فوعدها أن يرد ميكل كاسيو إلى سابق منزلته عنده ، وكل ما طلبه إليها أن تترك أمر تحديد الوقت له

وحدث أن دخـل عطيل وإياجو الحجرة التى كانت فيها دزدمونا فى اللحظة التى كان فيها كاسيو يخرج من باب آخر لها ، مقابل للباب الذى دخلا منه ، بعد أن فرغ من رجائه لهـا بأن تشفع له عند زوجها . وكان اياجو ماكراً خبيثاً فقال فى صوت خافت كأنما كان يتحدث إلى نفسه : « هذا شىء لا أحبه » . ولم يعر عطيل هذا القول كثيرا من العناية وقتئذ ، وكان اجتماعه بعيد هـذا بزوجته كفيلا بأن ينسيه إياه كل النسيان ؛ لـكنه تذكره فيما بعد ، فقد سأل إياجو عطيلا بعد أن خرجت دزدمونا من عنده هل كان ميكل كاسيو يعرف حب عطيل لها عندما كان يخطبها لنفسه . وتظاهر إياجو وهو يلقى هـذا السؤال بأنه إنما يلقيه لمجرد العلم به لا لغرض آخر سواه ؛ وأجاب القائد عن هذا السؤال بأن كاسيو كان عارفا بهذا الحب ، وزاد عليه أنه كثيراً ما توسط بينهما فى أثناء الخطبة . وقطب إياجو جبينه كأن ضوءاً جديداً قد ألقى على أمر مهول يشغل باله ، وصاح قائلا « حق ! » وتذكر عطيل ساعتئذ مانطق به إياجو من الألفاظ عند ما دخل الحجرة ورأى كاسيو مع دزدمونا ، وبدأ يظن من تلك الساعة أن لهذا كله معنى ؛ فقد كان يعتقد أن إياجو رجل عادل محب شريف ، وأن الذى يبدو فى غيره من سفلة الناس وأدنيائهم مكرا واحتيالا ، إذا ما بدا منه هو كان مظهراً طبيعياً لما يدور فى عقله النبيل من أفكار أخطر من أن ينطق به اللسان . ورجاه عطيل أن يطلعه على ما يعرف ، وأن يفصح عما يجول فى خاطره مهما بلغ من السوء .

وقال إياجو : « وماذا يكون لو أن أفكارا خبيثة قد اتخذت سبيلها إلى قلبي ؟ وهل فى العالم كله صرح لاتصل إليه الخبائث والآثام ؟ » وأضاف أنه يأسف كل الأسف إذا مانغصت عليه حياته ملاحظات يبديها ولا تقوم على أساس متين ، وأن ليس من مصلحة عطيل أن يعرف ما يدور فى فكره ليظل له هدوءه وراحة باله ، وأن سمعة الناس الطيبة لا ينبغى أن تذهب بها الشبهات الواهية . وتاقت نفس عطيل لمعرفة الحقيقة بعد هذه الإشارات والعبارات المتفرقة ، واشتدت رغبته فى ذلك حتى كاد يذهب عقله ، فتقدم إليه إياجو كمن يحرص على هدوء باله وحذره من عواقب الغيرة . وكذلك استطاع هذا الرجل الدنىء بدهائه أن يثير الشك فى قلب عطيل وهو غافل لم يأخذ منه حذره ، وذلك بنفس الألفاظ التى ادعى أنه يحذره بها من سوء الظن . ورد عليه عطيل بقوله : « إنى أعرف أن زوجتى جميلة تحب الحفلات والمجتمعات ، ولا تتحرج فى الكلام ، وتحب الغناء واللعب وتجيد الرقص ، ولكن هذه الصفات تعد من الفضائل إذا زانتها الفضيلة ، ولهذا فإنى لا أستطيع أن أتهمها بالخيانة إلا إذا قام لدى على خيانتها الدليل القاطع . وعندئذ أعلن إياجو فى صراحة أن ليس لديه على ذلك دليل ، وتظاهر بأنه قد سره من عطيل أنه لم يتسرع فى سوء الظن بزوجته ، ولكنه طلب إليه أن يراقبها عندما يكون كاسيو قريبا منها وألا يكون فى ذلك غيوراً عليها ولا واثقاً بها أكثر مما يجب ، وذلك لأنه هو (إياجو) يعرف طبائع الإيطاليات بنات وطنه أكثر مما يعرفها عطيل ، ولأن الزوجات فى البندقية يطلعن السماء على كثير من ضروب العبث التى لايجرؤن على أن يطلعهن عليها أزواجهن . ثم أشار إشارة خبيثة إلى أن دزدمونا قد خدعت أباها بزواج عطيل ، وأنها كتمت أمر هذا الزواج عنه حتى ظن الشيخ المسكين أن عطيلا قد استعان بالسحر على الوصول إلى غرضه . وأثر هذا القول فى نفس عطيل لأنه جلا له الأمر ، واعتقد أن دزدمونا التى استطاعت أن تخدع أباها ، لايبعد عليها أن تخدع أيضا زوجها .

واعتذر إياجو لعطيل لأنه أثار غضبه ، وتكلف عطيل عدم المبالاة ولكنه كان فى حقيقة أمره يمزق الحزن قلبه بعد ماسمعه من أقوال إياجو ، وطلب إليه أن

يواصل قوله . وتابع إياجو حديثه بعد ماقدم له كثيراً من المعاذير كأنه لا يريد أن ينطق بكلمة سوء عن كاسيو ، الذى وصفه بأنه صديقه . ثم ترك اللف والدوران وتكلم فى الصميم ، وذكّر عطيلا بأن دزدمونا قد رفضت كثيراً من الأزواج الخليقين بها والذين كانوا من أهل بلدها ومن لونها ، وتزوجت به وهو مغربى . وذلك زواج غير طبيعى يدل على عنادها واستبدادها برأيها ، وأكبر الظن أنها إذا ماعاد إليها صوابها تبدأ تنظر بإحدى عينيها إلى عطيل ، وبالعين الأخرى إلى الشبان الإيطاليين أبناء بلدها ذوى الوجوه البيضاء الصافية . ثم ختم حديثه بإسداء النصح إلى عطيل أن يؤجل الصلح مع كاسيو بعض الوقت ، وأن يلاحظ فى تلك الأثناء حرص دزدمونا على الشفاعة له ، وسيتبين من هذه الشفاعة الشىء الكثير . وبهذه الطريقة الأثيمة دبر هذه الوغد الماكر مكائده ، ليتخذ من وداعة هذه السيدة الطاهرة وسيلة يقضى بها عليها ، وينصب لها من طيبة قلبها شركا يوقعها فيه ، فقد حرض كاسيو أول الأمر على أن يطلب إليها الشفاعة له عند زوجها ، ثم اتخذ هذه الشفاعة نفسها وسيلة للكيد لها والقضاء عليها .

وانتهى الحديث برجاء تقدم به إياجو لعطيل أن يظل على اعتقاده ببراءة زوجته حتى يقوم لديه الدليل القاطع على جرمها . ووعده عطيل أن يتريث فى الأمر ، ولكن هذا الرجل المخدوع لم يذق لراحة البال من هذه الساعه طعما ، ولم يكن فى مقدور جميع المخدرات التى فى العالم أن تعيد إليه تلك الراحة اللذيذة التى كان يتمتع بها فى الأمس القريب ؛ وشعر بأن أعباء منصبه ثقيلة عليه ، ولم يعد للقتال فى نفسه تلك اللذة التى كان يجدها فيه من قبل . وبعد أن كان فى سابق أيامه يستثيره مرأى الجنود والبنود ، والجيوش وهى مصطفة للقتال ، ويذكى حماسته صوت الطبول والأبواق وصهيل الجياد ، بدا وكأنه قد فقد العزة والطموح ، وهما أفضل صفات الجندى ، ولم يعد يتوق لخوض غمار الحرب أو التمتع بشىء من مسراته الأولى . وكان فى بعض الأحيان يظن زوجته شريفة ، وفى بعضها الآخر يراها خائنة ، وتارة يعتقد أن إياجو صادق ، وطورا يراه كاذبا ، ثم يتمنى لو أن هذا السر قد بقى خافياً عليه ، لأن حبها كاسيو لا يضيره ما دام هو لا يعرفه . وأخذت

هـذه الأفكار المضطربة تعذبه وتمزق قلبه ، حتى أنه قبض مرة على عنق إياجو وأنذره بأنه سيقتله لساعته لافترائه على دزدمونا إن لم يثبت له خيانتها بالدليل القاطع . وتظاهر إياجو بالغضب لأن أمانته قد أصبحت رذيلة فى نظر عطيل ، وسأله ألم ير فى يد زوجته أحيانا منديلا منقوشاً عليه ثمر التوت الأرضى ؟ وأجاب عطيل أنه قد أعطاها هذا المنديل ، وأنه أول ماقدمه لها من الهدايا . فرد عليه إياجو قائلا : « إنى رأيت كاسيو اليوم يمسح وجهه بهذا المنديل نفسه » . فقال له عطيل : « إذا صح هذا فإنى لن أستريح حتى أنتقم منهما جميعاً شر انتقام ، وأريد منك أن تبرهن على إخلاصك بأن تقتل كاسيو فى خلال ثلاثة أيام ، أما هذا الشيطان الجميل (يريد زوجته) فدعنى الآن أدبر له ميتة سريعة » .

إن الذين تأججت نيران الغيرة فى صدورهم يتخذون من الأشياء التافهة أدلة قوية كأنها آيات منزلة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . ألم تر أن منديلا لدزدمونا رآه إنسان فى يد كاسيو قد كفى فى نظر عطيل المخدوع لأن يدين زوجته ويحكم عليها هى وكاسيو بالموت ، ولا يرى حاجة إلى أن يعرف كيف وصل هذا المنديل إلى يده ؟ إن دزدمونا لم تهد إلى كاسيو هذا المنديل ، وليس من شيمة هذه السيدة الوفية أن تسىء إلى زوجها بهذا العمل القبيح فتقدم لغيره هداياه . ولم يقترف كاسيو ولا دزدمونا جرما فى حق عطيل ، غير أن إياجو الماكر الأثيم الذى لاترتاح نفسه إلا إذا دبر الجرائم قد أغرى زوجته — وهى سيدة طيبة القلب لكنها ضعيفة الإرادة — بسرقة هذا المنديل من دزدمونا لتنقل ما عليه من الزخرف فى الظاهر ، ولتلقيه فى الحقيقه فى طريق كاسيو لعله يعثر عليه ، فيؤيد ذلك ما ادعاه إياجو من أن دزدمونا قد أهدته له .

وقابل عطيل زوجته بعد ذلك بقليل ، وادعى أنه يشكو الصداع — ولعله كان مصدوعاً حقاً — وطلب إليها أن تعيره منديلا ليربط به صدغيه . فاعطته منديلا ولكنه قال لها : « لا أريد هذا بل أريد المنديل الذى أهديته إليك . ولم يكن هذا المنديل مع دزدمونا لأنه قد سرق كما قلنا من قبل ، فقال لها عطيل : « كيف يكون هذا ؟ إنه لحظأ عظيم . إن هذا المنديل قد أهدته إلى أمى امرأة مصرية ساحرة تقرأ

أفكار الناس ، وقالت لأمى إنها إذا احتفظت به مالت إليها القلوب وأحبها أبى ، وإنها إذا فقدته أو فرطت فيه تغير قلب والدى عليها ، وكرهها كرها يعادل فى شدته حبه السابق لها . وأعطته لى أمى وهى على فراش الموت وأمرتنى أن أهديه إلى زوجتى إذا ما تزوجت وقد فعلت ، فاحرصى عليه وأعزيه إعزازك لناظريك » .

وقالت دزدمونا وهى ترتعد فرقاً : « أحق ما تقول ؟ » فأجابها عطيل : « إنه لحق ، فهو منديل مسحور نسجته عرافة عمرت مائتى عام كاملة فى نوبة من نوبات تنبؤاتها ، وأخرجت حريره ديدان مباركة ، وصبغ المنديل بعد صنعه فى قلوب العذارى المحنطة » . وسمعت دزدمونا بخواص المنديل العجيبة ، فارتاعت وهالها الأمر ، لعلمها أن المنديل قد فقد ، وخوفها أن تفقد بفقده حب زوجها . وهم عطيل بالوقوف كأنه يوشك أن يندفع إلى فعل طائش ، وكرر طلب المنديل . ورأت دزدمونا أنها عاجزة عن إجابة طلبه فحاولت أن تصرفه عن التفكير الجدى ، وقالت له فى لطف وانشراح إنها تعرف أنه لم يقصد بحديثه عن المنديل إلا أن يحول بينها وبين شفاعتها لميكل كاسيو ، وأخذت تثنى عليه كما تنبأ بذلك إياجو ، حتى جن عطيل فاندفع من الحجرة . وعندئذ بدأت الظنون تساور دزدمونا واعتقدت على الرغم منها أن عقارب الغيرة تدب فى قلب عطيل .

ولم تكن تدرى أنها فعلت ما يستثير هذه الغيرة ، فأخذت تلوم نفسها على سوء ظنها بزوجها الكريم ، وخيل إليها أن أنباء سيئة قد جاءته من البندقية ، أو متاعب خطيرة قد حدثت فيها فأقلقت باله وغيرت طبعه الحلو الرقيق ، وقالت فى نفسها : « إن الرجال ليسوا آلهة ولا يحق لنا أن ننتظر منهم إذا ما تزوجوا تلك الرعاية التى كنا نستمتع بها يوم الزفاف » . وأخذت تعنف نفسها على ارتيابها فى عطفه وحنوه .

وتقابل عطيل ودزدمونا مرة أخرى ، وكان فى هذه المقابلة أكثر صراحة فى اتهامها بالخيانة وبحب رجل غيره ، وإن لم يسم لها هذا الرجل . وبكى عطيل وقالت دزدمونا : « ما أشقانى وما أشأم هذا اليوم ! لم تبكى ؟ » وأجابها عطيل بقوله إن فى وسعه أن يحتمل كل أنواع الأذى وهو صابر ، يحتمل الفقر والمرض وفقد المنصب والجاه ، ولكن غدرها قد حطم قلبه ؛ ثم سماها نبتة ذات رائحة عطرة قوية

تؤذى الحواس بشدتها ، وتمنى لو أنها لم تخلق . ولما غادر عطيل حجرتها ذهلت هذه السيدة الطاهرة وعجبت أشد العجب من ارتياب زوجها فيها ومن سوء ظنه الذى لا مبرر له ، فثقل جفناها وطلبت إلى خادماتها أن يهيئن لها فراشها ، وأن يضعن على سريرها ملاءة عرسها ، وقالت إن الناس إذا رغبوا فى تعليم أطفالهم علموهم بالحسنى وكلفوهم بأسهل الأعمال ، وإنه كان فى وسع عطيل أن يتبع معها هذه الطريقة نفسها ، ففى أقل اللوم مزدجر لها ، كما يزدجر بأقل اللوم الأطفال . وهذا كل ما شكت منه هذه السيدة الكريمة .

وآوت دزدمونا إلى فراشها وهى تنتظر أن يقبل عليها زوجها ، فغلبها النعاس لشدة ما كانت تعانى من اضطراب فكرى . ودخل عطيل مخدعها وهو ينتوى تنفيذ قصده الذى لم يعد يجول غيره فى خاطره ، وهو قتل زوجته ؛ فلما أبصرها وهى نائمة رأى ألا يريق دمها أو يشوه إهابها الناصع البياض ، ولكنه كان قد عقد النية على قتلها ، لأن نفسه كانت تحدثه بأنها إذا عاشت خانت غيره من الرجال كما خانته هو . ثم انحنى عليها ليقبلها القبلة الأخيرة على حد قوله ، وأحس لهذه القبلة بلذة أغرته بأن يقبلها مرة أخرى ، ثم بكى ، ولكنه قال إن الدموع التى يذرفها دموع قسوة لا رحمة .

وأيقظت قبلاته دزدمونا ، وتأملت وجهه فوجدته يعض على ناجذه ويقلب عينيه ، وكان هذا الفعل منه على الدوام نذيراً بالشر المستطير ؛ ثم أمرها أن تستعد للموت وأن تتلو صلواتها لأنه لا يريد أن يقتل منها روحها ؛ وتوسلت إليه هذه الزوجة الطاهرة ، وهى بين يديه وتحت رحمته ، أن يرأف بها وأن يخبرها بذنبها ، فذكر لها كاسيو وذكر المنديل الذى قال إنها أعطته إياه . ولما حاولت أن تبرىء نفسها من هذه الوصمه ، أصم أذنه فجأة عن سماع قولها ، ثم لفها فى ملاءة فراشها وأماتها خنقا .

وفى هذه اللحظة جىء بكاسيو إلى القصر مجروحاً ينزف الدم من جسمه ، لأن إياجو أغرى أحد صنائعه باغتياله ، ولكن الرجل لم يفلح فى قتله وإن كان قد أصابه بجرح غير مميت ، وقتل إياجو المعتدىَ حتى لا يفتضح أمره . ووجدت

مع القتيل رسائل اتضحت منها براءة كاسيو ، ولم تترك مجالاً للشك فى جرم إياجو . وجاء كاسيو يرجو الصفح من عطيل ويسأله عما ساءه منه حتى يحرض إياجو على قتله

وكان هذا شديد الوقع على قلب عطيل ، وتبين له الآن أنه مجرم قاتل ، وأن زوجته الطاهرة المسكينة كانت إلى آخر لحظة من حياتها وفية له . وآلم ذلك قلبه فلم يطق عليه صبراً ، وكره الحياة فارتمى على حد سيفه وألقى بنفسه على جسم زوجته العزيزة المظلومة ، وفاضت روحه لساعته .

واستولى الرعب على قلوب من شاهدوا هذه الأعمال الطائشة وأخذ منهم العجب كل مأخذ ، فقد اشتهر عطيل بينهم بحسن السيرة ، وكان طوال حياته زوجا محباً لزوجته ، حتى ابتلى بدسائس ذلك الرجل الدنىء الذى كان هو لنبله لا يرتاب فى أمره . لقد ضل عطيل سبيل الرشاد فى حبه ، ولكنه كان مخلصاً فيه ، ولما تبين له خطؤه فى قتل زوجته تحدرت الدموع من عينيه كالمطر المنهمر ، وهو الذى لم يتعود من قبل البكاء لصغائر الأمور . ولما مات ذكر الناس شدة بأسه ونبل أخلاقه . ولم يبق على من تولى قيادة الجيش من بعده إلا أن يأخذ إياجو بذنبه ، فينفذ فيه حكم القانون من غير رحمة ، ويقضى بإعدامه وتعذيبه ، وأن يرسل بعد ذلك إلى دولة البندقية يبلغها فجيعتها فى قائدها العظيم الذائع الصيت .

پركليز امير صور

خرج پركليز Pericles أمير صور من ملكه منفيا باختياره ليدرأ عن بلاده شر النكبات المروعة التى كان أنتيكس Antiochus عاهل الإغريق الأثيم يريد أن ينكب بها مدينة صور وأهلها انتقاماً من هذا الأمير ، لأنه كشف عن فعل قبيح فعله هذا العاهل سرا . وبذلك تحقق مرة أخرى ما كان قد ثبت مراراً من قبل وهو أن الخطر كل الخطر فى أن يفحص الإنسان عن الجرائم التى يرتكبها العظماء خفية . وأبحر پركليز من صور وترك أزمة الحكم فى يدى وزيره القدير هلكينس Helicanus ، معتزماً أن يغيب عن بلده حتى يهدأ غضب أنتيكس ذى البطش الشديد .

وكانت مدينة طرسوس أول بلد يممه ، وكان قد سمع أن هذه المدينة حل بها وقتئذ قحط شديد ، فأخذ معه مقادير عظيمة من الطعام ليدفع عن أهلها غائلة الجوع . ولما دخلها وجد أهلها فى أشد حالات البؤس والفاقة ، فكان كأنه ملك من السماء جاء لها بهذا العون الذى لم يكن فى الحسبان . ورحب به كليون Cleon حاكم طرسوس وشكر له حسن صنيعه . ولم يمض على پركليز فى هذا المكان إلا بضعة أيام قليلة حتى جاءته رسائل من وزيره الأمين يحذره فيها من الخطر الذى يتهدده إذا ظل فى مدينة طرسوس ، وذلك لأن أنتيكس قد عرف مكانه وأرسل إليه فى الخفاء رسلاً ليقتلوه ، فلما تسلم پركليز هذه الرسائل عاد إلى البحر مرة أخرى تشيعه دعوات جميع الشعب الذى أسبغ عليه نعمه وأطعمه من جوع .

ولكنه لم يبعد عن البر إلا قليلا حتى ثارت فى البحر عاصفة هوجاء ، هلك فيها كل من فى السفينة إلا پركليز ، فقد ألقته الأمواج عارى الجسد على شاطئ مجهول ، التقى عليه بعد أن جاس خلاله بعض الوقت بجماعة من الصيادين الفقراء . ودعاه أولئك القوم إلى بيوتهم ، وقدموا له المأكل والملبس وأخبروه أن بلادهم تدعى پنتپلس Pentapolis ، وأن مليكهم هو سمنيدس Simonides ، ويسميه القوم سمنيدس الصالح لأن البلاد تتمتع فى عهده بالسلم الشامل والحكم الرشيد .

وعرف منهم كذلك أن لمليكهم هذا بنتاً حسناء فى مقتبل العمر ، يوافق غداً عيد ميلادها ، وأن احتفالا فخما سيقام بهذه المناسبة فى قصر الملك ، يحضره جم غفير من الأمراء والفرسان ، أقبلوا من جميع أنحاء البلاد ليتباروا فى ألعاب الفروسية حبا فى تيسا Thaisa أميرتهم الحسناء . وبينا كان الأمير يستمع إلى هذا الحديث وهو آسف كل الأسف على ضياع درعه المتين ، وحرمانه بذلك من الاشتراك مع هؤلاء الفرسان الأبطال ، إذا بصياد آخر مقبل عليهم ومعه درع كامل الأجزاء أخرجه من البحر بشبكته ، وكان هو الدرع الذى فقده پركليز ، فلما رآه قال « أحمد الأقدار التى بعثت إلى بعد متاعبى كلها شيئاً أستعين به على صلاح حالى . لقد ورثت هذا الدرع عن أبى بعد وفاته ، ومن أجل أبى أعزه وأحتفظ به معى أينما ذهبت . وقد فرق البحر الهائج بينى وبينه فلما سكن رده إلىّ ، وأنا شاكر له حسن صنيعه ، وما دامت هدية أبى قد ردت إلىّ فإنى لا أرى فى تحطيم سفينتى كارثة حلت بى »

وفى اليوم التالى جاء پركليز إلى بلاط الملك سمنيدس وعليه دروع أبيه البطل الشجاع ، وأظهر فى المباراة العجب العجاب ، فلم يجد أدنى صعوبة فى التغلب على الأمراء البواسل والفرسان الأنجاد الذين نازلوه ليفوزوا دونه بحب تيسا . وكان من عادة تلك الأيام أنه إذا تبارى المحاربون البواسل أمام الملوك ليفوزوا بحب بناتهم ، فإن الأميرة العظيمة التى تقام تلك الحفلات تكريماً لها تخص الفائز وحده باحترامها . ولم تخرج تيسا على هذه القاعدة ، فإنها صرفت من فورها جميع الأمراء والفرسان الذين غلبهم پركليز وميزته عنهم بحبها وتقديرها ، ووضعت على جبينه إكليل النصر . فكان فى ذلك اليوم السعيد صاحب الحظ الأوفر ، وهام بحب الأميرة الحسناء من ساعة أن وقعت عينه عليها .

وأعجب الملك الصالح سمنيدس بشجاعة پركليز ونبل خلاله ، فقد كان رجلا مهذبا يحذق كل الفنون العليا التى يزدان بها الأمراء ، ولهذا فإن سمنيدس حينما رأى ابنته مشغوفة بحبه لم يستنكف أن يقبله زوجاً لها ، وإن لم يكن يعرف شيئاً عن أصل هذا الفتى الغريب ، لأن پركليز كان يحرص على أن يخفى أمره لشدة خوفه من أنتيكس ، فأذاع أنه شاب عادى من أبناء صور .

ولم يمض على زواج بركليز بتيسا إلا أشهر قلائل حتى تناهت إليه الأخبار بأن عدوه أنتيكس قد مات ، وأن رعاياه أهل صور قد ملوا طول غيابه ، فهددوا بالثورة عليه ، وأخذوا يتحدثون جهرة بخلعه وإجلاس هلكينس على عرشه الشاغر . وكان الذى بعث إليه بهذا النبأ هو هلكينس نفسه ، لأنه وهو التابع الأمين لمولاه لم يقبل هذا المنصب السامى الذى عرض عليه ، وأرسل إلى بركليز ينبئه بنية رعاياه حتى يعود إلى بلده ويستعيد حقه المشروع . ولشد ما دُهش سمنيدس وسر حين عرف أن الفارس المجهول الذى تزوج ابنته هو أمير صور الذائع الصيت ، ولكنه مع ذلك أسف ألا يكون هذا الزوج الذى يجله ويعجب به رجلا من عامة الشعب كما كان يظن ، وذلك لأنه يوشك الآن أن يفارقه ويفارق ابنته المحبوبة التى كان يخشى أن يسلمها إلى أهوال البحار . وكان بركليز نفسه يرغب أن تبقى زوجته مع أبيها ، ولكن هذه الزوجة المسكينة أصرت على أن تصحب زوجها ، فلم يسعه إلا أن يوافق على ذهابها ، وهو يرجو أن يصلا بعد قليل من الوقت إلى مدينة صور .

ولم يكن البحر الصديق المسالم للأمير التعس بركليز ، فقد هبت عليه وهو لا يزال بعيداً عن بلده عاصفة أخرى رهيبة انخلع لها قلب تيسا فمرضت ، وجاءت مربيتها لكريدا Lychorida بعد قليل من الوقت إلى الأمير تحمل بين ذراعيها طفلة صغيرة ، وتبلغه ذلك النبأ المحزن وهو أن زوجته قد فارقت هذا العالم حين خرجت الطفلة الصغيرة إليه . وقربت الطفلة من أبيها وقالت « ذلك شىء أصغر من أن يعيش فى هذا المكان ، هذا ولد الملكة الميتة » . وليس فى مقدور الإنسان أن يصف ما قاساه بركليز من الألم والحسرة حين نقل إليه نبأ موت زوجته . ولما ذهب عنه الروع واستطاع النطق قال « أيها الأرباب لم تبعثون فى قلوبنا حب عطايا كم ثم تختطفونها بعد ذلك منا ؟ » وأجابته لكريدا بقولها : « صبراً يا مولاى ! دونك هذه البنية وهى كل ما بقى لك من زوجتك الميتة ، أشفق على نفسك من أجلها ، ولتكن أكثر مما أنت رجولة ، اصبر يا مولاى على بلواك من أجل هذه الوديعة الثمينة » . وأخذ بركليز الطفلة المولودة فى يديه وقال لها : « أرجو أن تكون حياتك سهلة ، فلم يلق طفل فى مولده من الهول ما لقيت ، ولم يتجهم العالم لمولد طفل

كما تجهم لك ، فليتك تحيين حياة طيبة هينة ، وليتك تسعدين فى أيامك المقبلة ، فقد لقيت فى مولدك من العذاب كل ما تستطيع أن تصبه عليك النار والهواء والماء والتراب والسماء ، وإن الخسارة التى أصابتك فى أول ساعة من حياتك — يريد موت أمها — لأفدح من أن تعوضها لك جميع المسرات التى سوف تجدينها فى هذا العالم الذى جئت اليوم لزيارته . »

وظلت الريح تعصف بالسفينة ، وجاء البحارة يطلبون إليه أن يأذن لهم بإلقاء جثة الملكة فى اليم لأن من الأوهام التى تسيطر على عقول الملاحين أن العاصفة لا تسكن ما دام فى السفينة جثة ميتة ، وقالوا له : « اصبر أيها الأمير لعل الله ينجيك » فأجابهم بقلب منفطر : « إن لدى من الشجاعة ما يكفينى ، ولست أرهب العواصف فقد فعلت بى شر ما تستطيع ، ولكننى أرجو أن تهدأ ثائرتها حبا فى هذه الطفلة المسكينة جوابة البحار » . وقال له الملاحون : « يجب أن تلقى الملكة فى اليم ، إن البحر هائج والريح تعصف ، ولن يسكن الإعصار حتى تزال الجثة التى على ظهر السفينة » . وكان پركليز يعرف أن ذلك كله حديث خرافة ، ولكنه أذعن لما طلبوه وقال لهم : « ليكن ما تريدون ، ولتلق الملكة التعسة فى اليم . »

وذهب هذا الأمير البائس ليلقى على زوجته المحبوبة نظرته الأخيرة ، فلما وقعت عينه عليها قال « لقد مت شر ميتة أيتها الزوجة العزيزة ، وليس إلى جانبك نار ولا نور ، ونسيتك عناصر الطبيعة القاسية كل النسيان ، وليس فى الوقت متسع لأحملك مكرمة إلى قبرك ، بل لابد أن ألقيك فى البحر مهلهلة الأكفان ، تجاورين الأصداف وتقيم مياه البحر دون غيرها نصباً فوق عظامك . أى لكريدا ! مرى نسطر Nestor يأتنى بالعطر والورق والمداد وآنيتى وجواهرى ، ومرى نكندر Nicander يأتنى بالتابوت الحريرى ، هيَّا ضعى الطفلة على الوسادة وافعلى من فورك ما آمرك به ، واتركينى أصلى على تيسا صلاة الوداع » .

وجاءوا لپركليز بصندوق كبير وضع فيه الملكة بعد أن لفها فى كفن من الحرير ، ونثر عليها توابل ذات رائحة عطرة ، ووضع إلى جانبها جواهر ثمينة وورقة ذكر فيها حقيقة أمرها وطلب إلى من عساه يعثر على الصندوق الذى يحتويها

أن يعنى بدفنها ، ثم ألقى الصندوق فى الماء بيديه . ولما سكن البحر أمر الملاحين أن يوجهوا السفينة نحو طرسوس وقال : « إن الطفلة لا تستطيع العيش حتى تصل إلى صور ، وسأتركها فى طرسوس فى يدى من يعنى بأمرها » .

وفى الصباح الباكر ، بعد الليلة التى ثارت فيها هذه العاصفة الهوجاء ، جاء إلى شاطئ البحر كرمون Cerimon ، وهو طبيب ماهر من أطباء إفسوس Ephesus ومن خيرة أبنائها وأجلهم قدراً . وبينا هو واقف هناك إذا بخدمه يأتونه بصندوق قالوا إن الأمواج ألقته على البر ، وقال له أحدهم : « إنى لم أر فى حياتى موجة فى حجم الموجة التى قذفت بهذا الصندوق إلى أرضنا » . وأمر كرمون أن يحمل الصندوق إلى داره ، وما كان أشد دهشته حين فتح أمامه وأبصر فيه سيدة حسناء فى مقتبل العمر ، ورأى إلى جانبها توابل ذكية ، وآنية مملوءة بالجواهر ، فاستدل من ذلك على أن الذى وضع فى الصندوق على هذا النحو العجيب إنسان جليل القدر . ثم أخذ يبحث فى الصندوق فعثر فيه على ورقة فهم منها أن الجثة التى يراها أمامه كالميتة جثة ملكة كانت زوجة پركليز أمير صور . ودهش أيما دهشة من هذه الحادثة العجيبة وأخذته الحسرة على هذا الزوج الذى فقد زوجته المحبوبة فقال : « إذا كنت حيا يا پركليز فإن قلبك الآن يتمزق من شدة الحزن » . وأخذ ينعم النظر فى وجه تيسا فرأى فيه نضرة لا يراها فى وجوه الموتى ، فلم يصدق أنها ميتة وقال : « إن الذين ألقوا بك فى اليم قد تعجلوا » . ثم أمر أن توقد النار ، وأن يؤتى له بأدوية منعشة ، وأن تعزف بعض الأنغام الموسيقية الهادئة ، حتى إذا ما عادت إليها الحياة هدأت روعها ودهشتها ، وقال للذين تجمعوا حولها مندهشين مما رأوا : « أرجو أيها السادة ألا تمنعوا عنها الهواء ؛ إن هذه الملكة ستحيا ، وهى لم تفقد حواسها منذ أكثر من خمس ساعات . انظروا ها هى ذى قد أخذت تنتعش فهى حية من غير شك . إن جفنيها يتحركان ، وستحيا هذه السيدة الجميلة لتستدر الدمع من أعيننا حين نستمع إلى مأساتها » . وحقيقة الأمر أن تيسا لم تمت ، بل أصابتها نوبة شديدة بعد أن ولدت طفلتها ، وظن كل من رآها أنها ماتت ، وبفضل عناية هذا السيد الرحيم أبصرت عيناها الضوء وعادت إليها الحياة ،

وفتحت عينيها وقالت : « أين أنا وأين زوجى ؟ وأى عالم هذا ؟ » وأنبأها كرمون على مهل وفى رفق وهدوء بما جرى لها ؛ ولما ظن أنها قد أفاقت بالقدر الذى تقوى به على الرؤية أظهر لها الورقة التى كتبها زوجها والحلى التى كانت معها ، فتأملتها وقالت : « تلك كتابة زوجى ؛ أما أننى كنت فى البحر على ظهر سفينة فهذا ما أذكره جيداً ، وأما أن طفلتى قد ولدت هناك فأقسم بالآلهة المقدسين أننى لا أذكره ؛ وبما أننى لن أرى زوجى فسألبس ثياب الكاهنات . ولن يدخل السرور قلبى بعد اليوم » . وأجابها كرمون بقوله : « سيدتى ، إذا كانت هذه نيتك حقا ، فإن معبد ديانا غير بعيد عن هذا المكان ، وفى وسعك أن تكونى كاهنة وتقيمى فيه ، وإن شئت فإن لى ابنة أخ تقوم فيه على خدمتك » . وقبلت تيسا هذا العرض شاكرة ، ولما ذهبت عنها كل آثار النوبة أدخلها كرمون معبد ديانا فصارت من كاهنات هذه الإلهة ، وقضت فيه أيامها تندب زوجها الذى ظنت أنها لن تراه بعدئذ ، وتقوم بأقدس الواجبات الدينية التى كان يقوم بها الكاهنات فى تلك الأيام .

وحمل پركليز طفلته الصغيرة إلى طرسوس وسماها مرينا Marina لأنها ولدت فى البحر ، وعقد النية على أن يتركها عند كليون Cleon حاكم المدينة وزوجته دينيزيا dionysia ظنا منه أنهما سيشفقان على تلك الطفلة اليتيمة جزاء ما له عليهما من يد فى أيام القحط الذى حل بالمدينة . ولما رأى كليون الأمير پركليز وسمع بالفاجعة التى حلت به قال له : « أسفى على زوجتك العزيزة ! ليت الآلهة قدرت أن تأتى بها إلى هذه البلدة لأمتع عينى بمرآها » ؛ وأجابه پركليز : « إن علينا أن نرضى بما تحكم به آلهة السماء ، ولو أننى غضبت وثرت كما يثور البحر الذى يضم رفات تيسا لما بدل ذلك من الأمر شيئاً ، وهذه ابنتى الصغيرة مرينا أرجو أن تعنى بها وتعطف عليها ، وأتوسل إليك أن تربيها كما يربى أبناء الملوك » ؛ ثم التفت إلى دينيزيا زوجة كليون وقال لها : « أرجو أن تعنى بتربية ابنتى فتسعدينى أنا بهذه العناية » ؛ فأجابته قائلة : « إن لى أنا نفسى ابنة مثلها ، ولن تكون هذه الابنة نفسها أعز على من ابنتك هذه » ؛ وقطع كليون على نفسه مثل هذا العهد فقال :

« إنى سأرد إليك يا أمير پركليز فى شخص ابنتك ما قدمت لى من خير حين أطعمت شعبى كله بقمحك ، وما لك على هذا الشعب من يد يذكرها كل يوم فى صلواته . ولو أننى أهملت ابنتك لاضطرنى إلى أداء هـذا الواجب شعبى الذى أنقذته من الهلاك ، ولتنزل نقمة الآلهة على وعلى أبنائى ، ما دام لى أبناء ، إذا احتجت إلى من يحثنى على الوفاء بهذا الدين » .

ولما أكد كليون وزوجته دينيزيا لپركليز أنهما سيعنيان بابنته ، تركها فى كنفهما وترك معها مربيتها لكريدا . ولم تكن مرينا الصغيرة تدرك ما أصابها من خسارة حين فارقها پركليز ، ولكن لكريدا بكت بكاء مرا لفراق سيدها الملك ، وقال لها پركليز : « لا تذرى فى الدمع يا لكريدا ، لا تذرى فى الدمع واعتنى بسيدتك الأميرة التى قد ترعاك فى مستقبل الأيام » .

ووصل پركليز سالماً إلى صور ، وجلس مرة أخرى على عرشه آمناً مطمئنا ؛ أما زوجته التى ظن أنها ماتت فكانت تقيم فى إفسوس ، وأما ابنته الصغيرة التى لم ترها هذه الأم البائسة فكانت تنشأ على يدى كليون تنشئة تليق بكرم محتدها ، فقد رباها أحسن تربية حتى إذا ما بلغت الرابعة عشرة من عمرها لم يكن أحد من كبار العلماء أدرى منها بعلوم تلك الأيام . وكانت تغنى وترقص كأنها من آلهات السماء المخلدات ، وبرعت فى أعمال التطريز براعة مكنتها من محاكاة الطبيعة فى تصوير الطير والفاكهة والأزهار ، ولم يكن الورد الطبيعى أكثر شبهاً بعضه ببعض منه بورد مرينا .

فلما نالت بفضل العلم هذه المزايا العظيمة ، وأصبحت موضع إعجاب الناس جميعاً ، حسدتها دينيزيا زوجة كليون ، وأصبحت من أشد الناس عداوة لها لأن ابنتها التى كانت بليدة العقل بطيئة الفهم لم تنبغ كما نبغت مرينا ، ولأنها وجدت هذه الفتاة تستأثر وحدها بثناء الناس وابنتها مهملة بالنسبة إليها ، مع أنها قد عنيت بتربيتها عنايتها بتربية مرينا نفسها ، ولكنها لم توفق فى عملها كما وفقت فى تربية ابنة پركليز . ولذلك عولت على أن تبعد مرينا من طريقها ، ظنا منها أنها إذا غابت عن أعين الناس لقيت منهم ابنتها السيئة الحظ أكثر مما كانت تلقاه وقتئذ من

الإجلال . وكانت فى هذا الظن مخطئة ، ولـكنها صممت على الوصول إلى غرضها فسخرت رجلا لقتل مرينا واختارت لتنفيذ جرمها الساعة التى ماتت فيها لـكريدا الوفية مربية هذه الفتاة .

وأخذت دينيزيا تتحدث إلى الرجل الذى أمرته بقتل مرينا حين كانت هذه الفتاة تبكى لموت لـكريدا ، ولم تفلح أول الأمر فى إقناع لينين Leonine الذى اختارته لتنفيذ جريمتها بالإقدام على هذه الفعلة الشنعاء ، لأن مرينا كسبت عطف الناس جميعاً وحبهم ، وقال لها هذا الرجل : « إنها مخلوقة طيبة » ، فأجابته هـذه العدوة التى خلا قلبها من الرحمة والحنان : « وهى لهذا أجدر بأن تكون إلى جوار الآلهة ، هاهى ذى آتية والدمع يفيض من عينيها حزنا على موت مربيتها لـكريدا ، فهل أنت عازم على أن تطيع أمرى ؟ » وخشى لينين عاقبة عصيانه فقال : « سأطيع أمرك » . وبهذه العبارة القصيرة قضى على تلك الفتاة التى سمت على جميع أترابها أن تموت قبل الأوان .

وأقبلت مرينا وفى يدها سلة ملئت أزهارا ، وقالت إنها ستنثرها كل يوم على قبر لـكريدا الوفية ، وتجعل من البنفسج الأرجوانى والأقحوان بساطا فوق هذا القبر طوال أيام الصيف ، ثم تنهدت وقالت : « واحسرتاه ! ما أشقانى من فتاة ! لقد وُلدت فى عاصفة هوجاء قضت على حياة أمى ، ولا يزال هذا العالم يعصف بى ويختطف منى أصدقائى » . وقالت دينيزيا المخاتلة « عجبا لك يامرينا ! أتبكين وحدك ؟ وكيف لا تكون ابنتى معك ؟ لا تحزنى على لـكريدا فسأكون أنا مربيتك بعدها ؛ إن هذا الحزن الذى لاخير فيه قد أثر فى جمالك ، أعطينى هذه الأزهار فإن هواء البحر يذهب بنضرتها ، وروحى عن نفسك بالسير مع لينين . إن هواء البحر عليل وسينعشك ويفيدك كثيرا . تعالى إلىَّ ، خذ بيدها يا لينين وسر معها » . فأجابتها مرينا : « لا ياسيدتى ، أرجو ألا أكون سبباً فى إبعاد خادمك عنك » . وكان لينين من خدم دينيزيا ، وكانت هذه المرأة الخبيثة تتلمس سبباً لترك مرينا وحدها معه فقالت لها : « تعالى يامرينا ، تعالى ! إنى أحب أباك الأمير وأحبك أنت ، ونحن فى كل يوم نتوقع قدومه ، فإذا ماجاء ورأى أن الحزن قد بدل جمالك الذى لا يضارعه

جمال ، والذى طالما وصفناه فى رسائلنا له ، ظن أننا لم نعن بك العناية الحقة ، ولهذا أرجو أن تروحى عن نفسك وتسيرى مع لينين ، وتحرصى على هذا الوجه الجميل الذى سلب عقول الناس كبيرهم وصغيرهم » . وتأثرت مرينا بهذا الإلحاح فقالت « سأذهب ، وإن كنت غير راغبة فى الذهاب » . وقالت دينيزيا للينين وهى تبتعد عنها : «تذكر ماقلته لك » ، ألفاظ رهيبة معناها تذكر أن تقتل مرينا .

ونظرت مرينا إلى البحر مسقط رأسها وقالت : « هل الرياح التى تهب علينا دبور[1] » فأجابها لينين ، « بل هى نكباء[2] جنوبية غربية » . وقالت مرينا : « لقد كانت الريح شمالية حين ولدت » . ثم عادت إلى ذاكرتها كل العواصف والزعازع وأحزان أبيها وموت أمها وقالت : « لقد حدثتنى لكريدا أن أبى لم يخف قط ، بل قال للبحارة (الشجاعة الشجاعة أيها الملاحون البواسل) ، وأن الحبال قد سحجت يديه الناعمتين ، وأنه تعلق بالسارية فى هذا البحر المتلاطم الذى كاد يشق السفينة شقا» . وسألها لينين « ومتى كان ذلك ؟ » فأجابته مرينا : « كان ذلك حين ولدت . ولم يكن البحر والأمواج فى يوم من الأيام أشد منهما فى تلك الساعة » ، ثم أخذت تصف العاصفة وأعمال البحارة وصفير الرقيب ونداء الربان « الذى ضاعف من اضطراب السفينة» . وكانت هذه الصورة ماثلة فى مخيلتها على الدوام لأن لكريدا كانت لا تفتأ تقص عليها قصة مولدها المشئوم . وهنا قطع لينين عليها حديثها بأن طلب إليها أن تتلو صلواتها . وبدأ الخوف يدب فى قلب مرينا لسبب لا تعلمه ، فقالت له « وماذا تقصد بهذا ؟ » فأجابها « إذا كنت فى حاجة إلى بعض الوقت تصلين فيه فإنى أمنحك إياه ، على ألا تكونى فى ذلك بطيئة مملة ، لقد أقسمت أن أسارع إلى القيام بعملى وإن آذان الآلهة لمرهفة» ، وسألته مرينا : « أتريد أن تقتلنى ؟ ولأى سبب ؟ » وأجابها لينين « لأرضى سيدتى » ، وسألته مرينا : « ولم تريد سيدتك أن تقتلنى ولست أذكر أننى أسأت إليها مرة فى حياتى ؟ إننى لم أوذ مخلوقا قط بكلمة سيئة أو فعل ذميم ، وأؤكد لك أننى لم أقتل فأرا ولم أوذ ذبابة . لقد وطئت قدمى

---

(١) تهب من جهة الغرب .

(٢) النكباء كل ريح انحرفت فوقعت بين ريحين .

على الرغم منى فى يوم من الأيام دودة كانت تدب على الأرض ، ولكننى تألمت لذلك وبكيت ، فأى ذنب جنيت ؟ » وأجابها الرجل المكلف بقتلها « إننى مأمور بأن أنفذ القتل لا أن أجادل فيه » . وهم أن يقتلها ولكن جماعة من لصوص البحر نزلوا إلى الأرض فى تلك اللحظة ، ورأوا مرينا فاختطفوها وذهبوا بها أسيرة إلى سفينتهم .

وأخذ أحد القرصان مرينا لنفسه ، وذهب بها إلى متلين Mitylene وباعها فيها بيع الرقيق . وسرعان ما اشتهرت فى المدينة كلها بجمالها الرائع وأخلاقها الكريمة رغم حقارة مركزها . وأثرى الرجل الذى اشتهراها مما كانت تكسبه من المال ، فقد شرعت تعلم الموسيقى والرقص والتطريز وتعطى ما تكسبه من هذه الدروس إلى سيدها وسيدتها . وتناهت أخبار علمها وجدها إلى مسامع ليسمكس Lysimachus ، وهو فتى نبيل كان يحكم المدينة فى تلك الأيام . وذهب ليسمكس بنفسه إلى المنزل الذى كانت تقيم فيه ليرى هذه الفتاة التى هى آية من خلق الله ، والتى يشيد أهل المدينة كلهم بذكرها . وسر ليسمكس من حديثها غاية السرور وكان قد سمع الشىء الكثير عن هذه الفتاة الذى يعجب الناس كلهم بها ، ولكنه لم يكن يظن أنه سيجد فيها ما وجد من رقة الشعور وطهارة الخلق وطيبة القلب . ولما هم بمغادرة الدار قال لها إنه يرجو أن تظل محتفظة بجدها ونبل خلالها ، وإنها إذا سمعت منه شيئاً بعد هذه المرة فسيكون ذلك لخيرها . وظن ليسمكس أن مرينا قد أوتيت من رقة الشعور وجميل الخلق وكمال الخَلْق ونبل الصفات ورائع الجمال ما لم يؤت أحد من الناس ، وتمنى أن تكون له زوجة ، وكان يرجو أن تكون كريمة المحتد على الرغم من حقارة شأنها ، لأنها كانت إذا سئلت عن أبويها ظلت صامتة وذرفت عيناها الدموع .

وعاد لينين إلى دينيزيا فى طرسوس وأخبرها لخوفه منها أنه قتل مرينا ، فأعلنت هذه المرأة الخبيثة أن الفتاة قد ماتت ، وأقامت لها مأتماً وشيدت لها قبراً فخماً . وبعد قليل من ذلك الوقت سافر پركليز من صور إلى طرسوس ومعه وزيره الأمين هلكينس ليشاهد ابنته ويعود بها إلى بلده . وما كان أشد سرور هذا

الأمير الكريم وهو يفكر فى أنه سيرى ابنته العزيزة التى هى قطعة من زوجته الميتة ، والتى لم يرها قط من يوم أن عهد بها إلى كليون وزوجته ليعنيا بها . فلما نبئ أن مرينا ماتت ، ورأى القبر الذى شيدوه لها ، آلم الحزن قلب هذا الأب البائس وفت فى عضده ، ولم يطق رؤية هذا البلد الذى أودع فيه آخر آماله وذكرى زوجته العزيزة تيسا ، فركب سفينته وغادر مدينة طرسوس . واستولى الحزن على قلب الأمير من يوم أن ركب السفينة فلم يكلم قط أحداً ، وكان كأنه لا يدرك شيئاً مما يحدث حوله .

ومرت السفينة فى رحلتها من طرسوس إلى صور بمدينة متلين ، حيث كانت مرينا . ورأى ليسمكس حاكم المدينة هذه السفينة الملكية مقبلة وأراد أن يعرف من بها ، فجاء إليها فى زورق . وأحسن هلكينس استقباله ، وأخبره أن السفينة آتية من صور وأن على ظهرها أميرهم پركليز ، وزاد على ذلك أن هذا الأمير لم يكلم أحداً من ثلاثة أشهر ، ولم يذق طعاماً إلا بالقدر الذى يمسك عليه حياته ليطيل أحزانه ، وأن قصة هذا الحزن طويلة مملة ، ولكن أهم أسبابه أنه فقد ابنة له عزيزة وزوجة . ورجا ليسمكس أن يرى هذا الأمير المحزون ، فلما وقعت عينه على پركليز أدرك أنه كان من قبل رجلاً وسيما وقال له : « مرحباً بك أيها الملك ولترعك الآلهة ، مرحباً بك أيها الملك مرحباً » . ولكن پركليز ظل صامتاً ولم يرد على ليسمكس بكلمة ، كأنه لا يرى أحداً مقبلا نحوه . وفكر ليسمكس فى الفتاة الحسناء مرينا ، وظن أنها تستطيع بلسانها العذب أن تنطق الأمير الصامت بكلمة . ورضى بذلك هلكينس وأرسل فى طلب مرينا ، وجاءت الفتاة إلى السفينة التى جلس فيها أبوها صامتاً جامداً لا يتكلم من شدة الحزن ، فأحسنوا استقبالها كأنهم كانوا يعرفون أنها ابنة مليكهم ، وقالوا إنها فتاة رائعة الحسن . وسر ليسمكس أن يسمعهم يثنون عليها وقال : « إنها لكذلك حقا ، ولو أننى كنت موقناً بأنها من أصل طيب لما تمنيت لنفسى زوجة غيرها ، ولاعتقدت أننى أسعد الناس بزواجها » . ثم خاطبها بأرق الألفاظ كأنه يعلم أن هذه الفتاة الوضيعة فى الظاهر هى السيدة الكريمة الأصل التى يتمناها لنفسه ، وسماها مرينا الحسناء الجميلة ، وقال لها إن

اميراً جليل القدر على ظهر تلك السفينة قد استولى عليه الحزن فعقد لسانه عن الكلام ، وطلب إليها أن تشفى هذا الأمير الغريب من حزنه ، كأن فى قدرتها أن تهب الناس الصحة والهناءة ؛ وأجابته مرينا : « مولاى ، سأبذل كل ما أوتيت من حِذق لأشفيه من علته ، على ألا يسمح لأحد بالاقتراب منه إلا أنا وخادمتى »

وكانت هذه الفتاة وهى فى متلين تحرص كل الحرص على أن تخفى عن الناس نشأتها الملكية ، لأنها تستحى أن يعرف أحد أن فتاة من بنات الملوك تباع بيع الرقيق ، ولكنها الآن شرعت تقص على پركليز ما صادفته من النوائب وصروف الأيام ، وأخبرته بالمنزلة الرفيعة التى هوت منها إلى الحضيض . وكأنها كانت تعرف أنها واقفة بين يدى أبيها الملك ، فجعلت حديثها كله يدور حول أحزانها . ولكن الحقيقة أنها لم تفعل هذا إلا لعلمها أن لا شىء يسترعى انتباه البائسين أكثر من الحديث عن مصائب شبيهة بمصائبهم . ونبه صوتها العذب الأمير المحزون من غفلته فرفع عينيه اللتين ظلتا زمناً طويلا ثابتتين لا تتحركان . وكانت مرينا صورة من أمها لا تفترق عنها فى شىء ، فرأت عيناه الحائرتان فى وجهها ملامح الملكة الميتة . وسُمع صوت هذا الأمير الذى ظل صامتاً زمناً طويلا يقول : « ما أشبه زوجتى العزيزة بهذه الفتاة التى قد تكون هى ابنتى ، فهى مثلها فى اتساع جبهتها ، وطولها ، واعتدال قامتها ، وصوتها العذب الرقيق ، وعينيها الشبيهتين بالجوهرتين ... أين تسكنين أيتها الفتاة ؟ ومن هما أبواك ؟ ألم تقولى إنك قد تقلبت بين الظلم والأذى ، وإنك تعتقدين أن أحزانك قد تكون شبيهة بأحزانى إذا ما رفع القناع عنهما ؟ » فأجابته مرينا قائلة : « لقد نطقت بما يشبه هذا ، ولم أنطق إلا بما ظننت أنه قد يكون صحيحاً » ؛ ورد عليها پركليز بقوله : « قصى على قصتك ، فإذا رأيت أنك قد قاسيت جزءاً من ألف جزء مما قاسيت ، فإنك تكونين قد صبرت على بلواك صبر الرجال ، وأكون أنا قد جزعت جزع النساء ! إن الذى يراك ليظنك تمثالاً للصبر يحدق بعينيه إلى قبور الملوك ، ويبسم للشدائد فيسلبها قوتها ويتركها ضعيفة عاجزة ... كيف فقدت اسمك يا أرحم من رأيت من العذارى ؟ أتوسل إليك أن تقصى على قصتك ؛ تعالى واجلسى إلى جانبى » .

وما كان أشد دهشة پركليز حين قالت إن اسمها مرينا ، فقد كان يعرف أن ليس هذا اسما عاديا بل كان اسماً اخترعه هو لابنته ليدل على أنها ولدت فى البحر . وقال عند سماعه « إنى لـيُستهزأ بى ! لقد بعث بك إلى هـذا المكان إلـه غاضب ليضحك العالم علىّ » . وردت عليه مرينا قائلة : « صبراً يا مولاى وإلا وقفت عند هذا الحد » . فقال لها پركليز : « سأصبر ، ولـكنك لا تعرفين كيف تدهشينى حين تسمين نفسك مرينا » . فأجابته « لقد سمانى بهذا الاسم رجل كان له بعض السلطان وهو أبى ومليكى » . فصاح پركليز مندهشا « أأنت ابنة ملك ؟ وتسمين مرينا ؟ أأنت من لحم ودم ؟ ألست من بنات الجن ؟ واصلى حديثك وقولى أين ولدت ؟ ولم سميت مرينا ؟ » .

فأجابته « لقد سميت مرينا لأنى ولدت فى البحر ، وكانت أمى ابنة ملك توفيت فى اللحظة التى ولدت فيها ، هكذا حدثتنى مربيتى الطيبة لـكريدا وهى تبكى . وقد تركنى أبى الملك فى طرسوس حتى سعت زوجة كليون القاسية إلى قتلى ، وجاء جماعة من لصوص البحر فأنجونى وأتوا بى هنا إلى متلين . ولـكن أى شىء يبكيك أيها السيد الـكريم ؟ لعلك تظننى مدعية ، ولـكننى أؤكد لك يامولاى أننى ابنة الملك پركليز إذا كان الملك پركليز الصالح لايزال حيا » . وكأن پركليز قد ارتاع من سروره المفاجئ العظيم ولم يصدق أن ماسمعه حق ، فصاح بأعلى صوته مناديا خدمه . وسر هؤلاء حين سمعوا صـوت مليكهم المحبوب وقال هو لهلـكينس « أى هلـكينس ! اضربنى ، واجرحنى ، واعمل من فورك على إيلامى لـكيلا يكتسحنى هـذا السيل الجارف من السرور فيقضى على حياتى . تعالى إلى يا من ولدت فى البحر ودفنت فى طرسوس ، ولقيتك فى البحر مرة أخرى . أى هلـكينس أجث على ركبتيك شكرا للآلهة المقدسين ، هـذه مرينا ، بوركت يا ابنتى . اثنى بثياب جديدة يا وزيرى هلـكينس . إنها لم تمت فى طرسوس كما كانت تريد دينيزيا المتوحشة ، وستخبرك هى بكل شىء حين تركع أمامها وتدعوها أميرتك » .

وفى هذه اللحظة أبصر ليسمكس لأول مرة فقال « من هذا ؟ » فأجابه هلـكينس « هذا حاكم متلين سمع بحزنك فجاء ليراك » . فقال پركليز « إنى أصمك يا سيدى

إلى صدرى . إيتونى بملابسى ، لقد شفيت حين نظرت .... ولتبارك السماء ابنتى . أنصتوا ! ماهذه الأنغام الموسيقية ؟» قال هذا وقدخيل إليه فى تلك الساعة أنه يسمع نغمات موسيقية عذبة قد تكون موسيقى حقة بعث بها إلٰه رحيم ، وقد تكون من خلق خيـاله حين أفعم قلبه غبطة وسرورا . وأجابه هلـكينس « مولاى ، إنى لا أسمع شيئا » ؛ فقال پركليز « ألا تسمع شيئا ؟ إنها إذن موسيقى الأفلاك » . ولم يكونوا فى ذلك الوقت يسمعون أصواتا موسيقية ، فاعتقد ليسمكس أن سرور الملك قد ذهب بعقله وقال : « ليس من الحـكمة أن نعارضه ، فليكن مايريد » ، ثم قالوا له إنهم يسمعون موسيقى حقيقية . وقال الملك إن النعاس يغالبه فنصح له ليسمكس أن يستريح على أريكة ، ووضع تحت رأسه وسادة . ونام الملك لفرط سروره نوما عميقا ، وجلست مرينا إلى جانب أبيها وهو نائم لتعنى به .

ورأى پركليز فى منامه حلما لم يسعه معه بعـد أن استيقظ إلا أن يصمم على السفر إلى إفسوس . فقد رأى هذا الملك أن ديانا إلٰـهة الأفسوسيين جاءته وأمرته أن يأتى إلى معبدها فى إفسوس ويقف أمام المذبح ويقص تاريخ حياته وأحزانه عليها ، وأقسمت بقوسها الفضية أنه اذا فعل ما تأمره به ، نال خيراً كثيراً لم يكن يتوقعه . فلما استيقظ الملك منتعشاً مسرورا أخبر من حوله بما رأى فى نومه وبعزمه على أن يطيع أمر الإلٰـهة .

ثم دعا ليسمكس پركليز أن ينزل إلى البر ليمتع نفسه بما يجده فى متلين من تسلية . وقبل پركليز هذه الدعوة الـكريمة ، واتفق ان يقيم معه يوما أو يومين ، أقيمت فيهما المآدب الاحتفالات الفخمة ، ولقى فيهما من كرم الضيافة والبهجة ما فى وسع حاكم متلين أن يقيمه للملك العظيم . ولم يمانع پركليز قط فى خطبة ليسمكس لابنته ، حين علم ما لقيته عنده من الإكرام يوم كانت فتاة صغيرة الشأن ، وأيقن أن مرينا نفسها لم تعارض فى هذه الخطبة . وكل ما اشترطه عليه قبل أن يوافق على الزواج أن يحجا إلى مزار ديانا فى إفسوس . وبدأ ثلاثتهم رحلتهم إلى هذا المعبد بعد وقت قصير ، وأرسلت الإلٰـهة نفسها ريحا طيبة ملأت بها شراع السفينة ، فوصلوا إلى مدينة إفسوس سالمين بعد رحلة استغرقت بضعة أسابيع .

وكان الرجل الصالح كرمون الذى أعاد الحياة إلى تيسا زوجة پركليز يقف إلى

جوار مذبح الإلٰـهة ديانا عندما دخل المعبد پركليز ومن معه ، وكان فى هذا الوقت قد تقدمت به السن كثيراً .

وكانت تيسا إحدى كاهنات المعبد واقفة أمام المذبح ، فلما رأت پركليز اعتقدت أنها ترى فيه ملامح زوجها ، وإن كانت السنون الطوال التى قضاها حزيناً عليها قد بدلت مظهره كثيراً . ولما قرب من المذبح وبدأ يتكلم ، تذكرت صوته وأصغت إلى حديثه فى دهشة وذهول تخالطهما الغبطة الشديدة . وهذه هى الألفاظ التى فاه بها : « أى ديانا ! هأنذا قد أتيت طوعاً لأوامرك العادلة ، وأقر أمامك أننى أنا أمير صور الذى خرج خائفاً من بلده وتزوج فى پنتپلس بتيسا الحسناء ، ثم ماتت زوجته فى عرض البحر ، ولكنها خلفت له طفلة أنثى تدعى مرينا ربيت فى طرسوس عند دينيزيا . ولما بلغت الرابعة عشرة من عمرها دبرت هذه السيدة قتلها ، ولكن حظها الحسن ساقها إلى متلين ، ثم جاء بها بعدئذ إلى السفينة التى كنت أركبها حين مرت بهذا البلد ، واستطاعت بفضل ذاكرتها القوية الصافية أن تُعَرفنى بأنها ابنتى » .

ولم تستطع تيسا أن تتحمل نشوة الفرح التى تملكتها حين سمعت هذه العبارات ، فصاحت قائلة : « إنك أنت ، إنك أنت مليكى پركليز » ! ثم وقعت مغشيا عليها . وقال پركليز : « ماذا تقصد هذه المرأة ؟ » وقال كرمون : « إنها تموت أيها السادة ، فساعدونى أعد الحياة إليها ، وإذا كنت يا سيدى صادقاً فيما حدثت به معبد ديانا فهذه زوجتك » . وأجابه پركليز : « كلا أيها السيد المبجل ، لقد ألقيتها فى البحر بيدى هاتين » . وأخذ كرمون يقص عليه كيف قذفت أمواج البحر على شاطئ إفسوس بهذه السيدة فى صباح أحد الأيام العاصفة ، وكيف فتح التابوت ، فوجد فيه جواهر ثمينة وورقة مكتوبة ، وكيف أسعده الحظ بإعادة الحياة إليها ووضعها فى معبد ديانا » . وأفاقت تيسا من نوبتها فى تلك الساعة فقالت : « سيدى ! ألست أنت پركليز ؟ إنك مثله فى حديثك وفى هيئتك ... ألم تذكر عاصفة ومولدا ومماتا ؟ » .

وقال پركليز فى دهشة شديدة « ذلك صوت تيسا الميتة » . وقالت هى « وأنا تيسا هذه التى ظننتموها غرقت وماتت » . وصاح پركليز وقد تملكته نشوة من

التقى ممزوجة بالدهشة « ما أصدقك يا ديانا ! » وقالت تيسا « والآن قد زاد علمى بك ، إن هذا الخاتم الذى أراه فى إصبعك أعطاك إياه والدى الملك حين افترقنا عنه فى بنتپلس والدموع تفيض من عيوننا » ؛ وصرخ پركليز قائلا : « حسبك هذا أيتها الآلهة ؟ إن هذه الرحمة قد ذهبت بجميع آلامى الماضية وجعلتها كلها لهواً وعبثاً ، تعالى إلى يا تيسا لأضمك إلى صدرى مرة ثانية » ... وقالت مرينا : « إن قلبى يكاد يقفز من بين جنبى شوقاً إلى أمى لتضمنى إلى صدرها » . ثم أخذ پركليز ابنته إلى أمها وهو يقول : « انظرى يا من تركعين هنا إلى فلذة كبدك ، إلى ابنتك التى ولدت على سطح الماء وسميت مرينا لأنها خرجت إلى الدنيا فى البحر » . وقالت تيسا : « سعدت يا ابنتى » . وبينا كانت هى تعانق مرينا كان پركليز راكعاً أمام المذبح يناجى ديانا بقوله : « أى ديانا الطاهرة ! إنى أحمد لك رؤياك ، وسأقدم لك من أجلها النذور فى كل ليلة » . وفى هذه الساعة أعلن پركليز رسمياً زواج ابنته مرينا بليسمكس أجدر الناس بها ، ووافقت تيسا على هذا الزواج .

وهكذا يضرب پركليز وزوجته وابنته أروع الأمثال للفضيلة التى نابتها خطوب الزمن بإذن من آلهة السماء لتعلم بنى الإنسان الصبر والثبات . لقد خرجت الفضيلة آخر الأمر ظافرة بهدى هذه الآلهة نفسها فانتصرت على نوائب الدهر وصروف الزمان . ولقد كان هلكينس خير مثال للصدق والإخلاص والوفاء ، فقد كان فى وسع هذا الوزير أن يجلس على العرش ، ولكنه آثر أن يدعو إليه صاحبه الشرعى على أن يرتفع إليه بإيذاء غيره . وفى كرمون الرجل الكريم الذى أعاد الحياة إلى تيسا نرى كيف تحسن الأخلاق الكريمة إلى الناس إذا اهتدت بنور العلم فتسمو بأصحابها إلى مصاف الآلهة العظام . ولم يبق من قصتنا إلا أن نقول إن دينيزيا الأثيمه زوجة كليون قد لاقت جزاء ما جنت يداها . ذلك أن أهل طرسوس ، لما علموا بما دبرته من الشر لمرينا ، ثاروا عليها انتقاما منها لابنة الأمير الذى أحسن إليهم ، وأضرموا النار فى قصر كليون وحرقوه هو وزوجته وأهل بيتهم جميعاً . وكأن الآلهة قد سرها أن تلقى هذه الجريمة الشنيعة ما تستحقه من العقاب الصارم ، وإن لم تخرج من دور التفكير إلى دور التنفيذ .

تصويب

ص	سطر	خطأ	صواب
٢٥	٤	تكن	يكن
٥٤	٢٥	الفتاتان	الفتاتين
٥٧	١٥		اتفقتا
٦١	١٧	فتصنعون	فتصنعوا
٨٣ ، ٩٤	٤ ، ٢٤	السرى	الثرى
٨٤	٢٢	السربة	الثرية
١٠٢	١٧	الغليظين	الغليظتين
١١٠	١٦	ينبث	ينبس
١٢٨	٧	دعيا	دعوا
١٢٨	٨	دعوه	دعوهم
١٣٧	١٢	إنه	أنه
١٤٥	٢٢	له	لها
١٧٧	١	وأقسم لك	وأقسم لك بشرفى
١٨٤	١٤	لتشترى به	لتشترى بها
٢٠٥	٥	خمسة آلاف تالنت	خمسة التالنتات
٢٠٥	٦	خمسين ألف تالنت	خمسين تالنتا
٢٠٦	٦	صفحة	صحفه
٢٠٧	٥	خمسين ألف تالنت	خمسين تالنتا
٢١٠	٦	وهو يحفر	وهو يحفر الأرض
٢١٤	١٥	ويدرك إن	ويدرك أن
٢١٧	٢٣	التى	اللاتى
٢٢٢	٤	أذرقتها	ذرقتها
٢٢٤	٢٤	وإعاد	وأعاد
٢٤٨	٢٢	وكان	وأن

DATE DUE

3 0 SEP 2008
Circulation Dept. 3

بدران ،محمد
قصص من شيكسبير
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031922